إشراف: غرهرد هب،
بيتر فين، رينيه فلدنغل

عميان عن التاريخ؟!

العرب وألمانيا النازية واليهود



ترجمة: محمد جديد
مراجعة: زياد منى

عُميان عن التاريخ؟!

العرب وألمانيا النازية واليهود

عميان عن التاريخ؟!: العرب وألمانيا النازية واليهود
تأليف: مجموعة مؤلفين بإشراف: غرهرد هب، بيتر ڤين، رينيه ڤِلدَنغل
ترجمة: محمد جديد؛ **مراجعة:** زياد منى
التدقيق اللغوي: مظهر اللحام
تصميم الغلاف والإخراج: زياد منى
إخراج إلكتروني: محمد غيث الحاج حسين
صورة الغلاف من مركز الشرق الحديث (ZMO)
الطبعة الأولى: كانون الأول (2007 م)

التوزيع في **العالم: شركةُ قَدْمُس للنشر والتوزيع (ش م م)**
ص ب (6435/ 113)؛ شارع الحمرا، بناء رسامني
بيروت، لبنان
هاتف: (+1 961) 054 750، برّاق: 053 750
جوّال: (+3 0 961) 512 620
بريد إلكتروني: ‹daramwaj@inco.com.lb›

التوزيع في **سورية: قَدْمُس للنشر والتوزيع**
شارع ميسلون، دار المهندسين (0905)، الفردوس
ص ب (6177)
دمشق، سورية
هاتف: (+11 963) 9836 222 برّاق: 7226 224
جوّال: (+944 0 963) 167 517
بريد إلكتروني ‹cadmus@net.sy›؛
التوزيع في **محافظة اللاذقية: مكتبة بالميرا**
هاتف: (+41 963) 975 468

التوزيع في **الأردن: الأهلية للنشر والتوزيع**
وسط البلد، خلف مطعم القدس؛ ص ب (7772) عمّان 11118، الأردن
هاتف: (+6 962) 8688 463؛ برّاق: 7445 465
بريد إلكتروني: ‹alahlia@nets.jo›

لابتياع نسخ إلكترونية وورقية من إصداراتنا على (الشبكة) انظر: ‹www.arabicebook.com›
إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار.
عدد كلمات الكتاب: (111920) كلمة تقريبًا

بإشراف: غرهرد هب، بيتر فِين، رينيه فِلدَنغل

عُميان عن التاريخ؟!

العرب وألمانيا النازية واليهود

ترجمة: محمد جديد

مراجعة: زياد منى

(لتركس دي إيه) المشروع القائم على التعاون بين كل من
الصندوق الثقافي الاتحادي ومعهد غوته ومعرض فرانكفورت للكتاب
دعم صدور هذا الكتاب

Die Herausgabe dieses Werkes wurde aus Mitteln von Litrix.de,
einem Initiativprojekt der Kulturstiftung des Bundes in Kooperation
mit dem Goethe-Institut und der Frankfurter Buchmesse,
gefoerdert

Litrix.de
GERMAN LITERATURE ONLINE

المحتوى

مقدمة الناشر

يتـناول هـذا الكتاب بالبحث موضوعًا قل العثور على مراجع عنه في المكتـبة العربية، ألا وهو علاقة بعض قادة الحركات السياسية العربية بألمانيا الـنازية وسياساتا تجاه اليهود. ويعالج هذا الكتاب، الذي ساهم في كتابته مجموعة من المستشرقين، إضافة إلى أستاذين من المغرب، مواقف العرب، أو بعضهم، من المحرقة، وكذلك من موضوع "نفي المحرقة" والمسائل المرتبطة با، ومن ذلك على سبيل المثال مؤتمر المراجعة التاريخية الذي كان مقررًا عقده في بيروت في عام (2001 م).

لقـد خـاض المشاركون في هذا الكتاب في مواقف قوى سياسية عربية عديدة، بدءًا من حركة رشيد عالي الكيلاني في العراق، إلى الحزب السوري القومـي الاجـتماعي ورئيسه المغدور أنطوان سعادة، وفي ما إذا كان ذلك الحزب قد انتهل من الفكر الفاشي مصدرًا لبرنامجه.

كما يتعامل مع قوى عربية سياسية وغير سياسية أخرى في المغرب ومصر حيث يركز على موقف مجلة الهلال وصاحبها جرجي زيدان على نحو خاص.

ويـتعرض فصل آخر إلى موقف مفكرين وصحفيين وكتاب عرب من المحـرقة وموضوع نفيها، إضافة إلى رأيهم في كتابات المراجعين، ومنهم كل مـن عـزمي بشـارة وعبد الوهاب المسيري ومحمد حسنين هيكل وجمال الغـيطاني وعزت القمحاوي ومحمد سيد طنطاوي ومحمد سلماوي وغازي أبـو عقل وأدونيس ومحمود درويش وإدوارد سعيد وأحمد الخميسي وإلياس الخوري وحازم صاغية، ومحمود عباس وغيرهم كثيرين.

ومـن المواضيع المهمة الأخرى التي تتعرض إليها فصول من هذا الكتاب ضحايا النازية من العرب "الضحايا المنسيون"، إضافة إلى الخطاب الفلسطيني عن المحرقة وإسرائيل والخطاب الصهيوني عن الحركة الوطنية الفلسطينية.

إن دار قدمـس تقـدم هذا الكتاب-الدراسة الفريدة إلى القراء والبحاثة العـرب، بدف المساهمة في إذكاء حوار هادئ ورزين في قضايا تم ماضينا وحاضـرنا، وموقعـنا في عالم البحث العلمي الجاد المتوازن. فالبحث العلمي المتـناهي في هذا الموضوع المعقد والمثير لكثير من العواطف هو الذي سيوصلنا إلى الحقيقة التاريخية، وليس نفي المحرقة أو التصريحات الاستفزازية والكيدية.

إن الـتزام دار قدمس بنشر هذا الكتاب لهو إثبات على أن البحث العلمي الرصـين هـو الذي سيسهم في الوصول إلى الحقيقة وليس إصدار القوانين والقرارات الغبية والجائرة في الغرب التي تفرض على عالم البحث العلمي.

كما نود تأكيد رأينا أن إنكار المحرقة يساوي إنكار النكبة/ التطهير العرقي المـبرمج في فلسـطين التي ألحقتها الحركة الصهيونية بشعب فلسطين، ونفي واحدة يعني نفي الأخرى، من دون تذكر ضرورة تمييز الضحية من الـرم.

أخـيرًا نـود الإشـارة إلى ان المؤلفين أنفسهم قاموا بمراجعة إسهاماتم وأدخلوا عليها ما رأوا أنه تصويبات.

تأليف: بيتر ڤين ورينيه ڤلدَنغل

1] مدخل

أَعْمِيانٌ عن التاريخ؟ اللقاءات العربية مع الحركة النازية بين التقبل المعاصر والسياسة التاريخية وإنكار المحرقة

اجتمعت، في أيلول عام (2002 م)، مجموعة من العلماء والعالمات، من إسرائيل والمغرب وألمانيا، في (مركز الشرق الحديث، م ش ح/ Zentrum Moderener Orient, ZMO)، في برلين للقيام بجرد تاريخي للعلاقات المعقدة بين ألمانيا النازية* والعالم العربي. وكان يتبوأ مكان الصدارة في المؤتمر الذي دام ثلاثة أيام معالجة لأنواع ثلاثة من "تقبل" النازية، سواء من وجهة النظر المعاصرة في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضي، أو من وجهة النظر الحاضرة، السائدة في الأبحاث الإسرائيلية والفلسطينية.

ولم تكـن الإسهامات والمناقشات تدف إلى إصدار حكم نائي بالإدانة على أحد الجانبين في صراع الذكريات والتجارب، بقصد مبني على المراجعة أو إعـادة الـنظر، بـل كـان يفترض، بالأحرى، تقديم (إسهام في ثقافة الذكرى)، بالروح ذاته، الذي نض به العاملون في مشروع أبحاث (م ش ح) ومـنظمو المؤتمر[1]، لإخضاع الذكريات الخصوصية والمحدودة، والتي أهمل جـزء مـنها، أو تـراكم وتكدّس، من ذكريات أطراف الـ اع في الشرق الأدنى من منظور المؤرخ البعيد لنظرة تأملية بعيدة عن الانفعال 'موضوعية' قدر الإمكان.

فعـلى الرغم من كل ألوان العناية والدقة، لا يستطيع، ولا يريد، محققو هذه الـموعة من المقالات مع ذلك أن يتجنبوا العلاقة الملازمة، المتأصلة، لهذا الموضـوع، بالسياسة وفي سياق الصراع الدائر في الشرق الأدنى، لا يفلت، حـتى المـؤرخ، من الدائرة التأويلية التي تغزو كل موقف يسوغ تسويغـًا معاصرًا، وكل إحالة إلى مصادر معاصرة، وكل محاولة للوصول إلى موضوع لا سبيل إلى الوصول إليه أبدًا، بالضرورة، إلى زمن الكاتب.

لقـد أطلق صفة (عميان عن التاريخ) قبل بضع سنوات، روبرت فِسْك عـلى العـرب بمجرد أن كانت المسألة تدور حول علاقتهم بالحركة النازية وجـرائمها بحـق اليهود، فبينما كان هتلر يلقى التقدير من خلال طبعات جديـدة لكـتابه ‹كفاحي›، أو كان يجري تسويغ تعاون أمين الحسيني فيما بعـد، كان المسيحيون والمسلمون على السواء يلقون ظلالاً من الشك، في الوقـت ذاته على المحرقة. وكانت قطع الديكور العائدة إلى التاريخ المشترك للعـرب والـيهود مع الحركة النازية، خليقة بالطبع أن تصاغ بما يتلاءم مع وظيفـتها التاريخـية من وجهة نظر أصحاب العلاقة، على كلا الجانبين، في إطـار الصـراع الدائر في تلك الأيام، وفي الوقت ذاته كانت الأساطير التي كانت خليقة بأن تصاغ في هذه الأثناء، وإنكار الحقائق التاريخية يتم الإبقاء

على حياتنا من خلال هذا الصراع. ويقول فِسْك: ربما كان هذا يتماشى مع طبيعة الحرب . . وهو أننا لا يمكن تصحيح تاريخها إلى إنهاء الصراع[2].

وهنا يصف فِسْك حدثًا يشار إليه، في سياقات أخرى، على أنه «سياسة تاريخية» أو «سياسة ذكريات»، وذلك أيضًا في إشارة إلى التعامل مع الحركة النازية، والإبادة الجماعية لليهود في العهد النازي[3]. ولا يكاد يتاح المساس بمجال من مجالات المناقشة السياسية والأكاديمية من جراء هذه المسألة مثلما يتهيأ ذلك من جراء المناقشات حول الصراع على فلسطين، التي ليس من النادر أن تساق فيها الحجج التاريخية، وبالتالي الحجج التي تقوم على إبراز أهمية الجانب التاريخي في موضوع ما، من خلال التصوير المتكلّف المفتعل، تسويغًا لهذا الإدعاء أو ذاك، من إدعاءات الحق التاريخي المزعوم "صحته".

وهذا يمس، على وجه الخصوص حكاية تعاون الساسة العرب مع دول المحور، ولاسيما في أثناء الحرب العالمية الثانية. ففي ظل ظروف صراع الشرق الأدنى تحولت الإشكالية إلى موضوع واسع الانتشار في مجال التأريخ، مثلما تحولت إلى موضوع علمي-شعبي تطور في جزء منه إلى أسطورة بكل معنى الكلمة. على أن الكتاب الإسرائيليين والغربيين على وجه الخصوص، مازالوا حتى اليوم، ينقلون الانطباع الخاص بانجذاب يكاد يكون حقيقيًا، أصيلاً، لا تنفصم عراه، من قبل العرب، نحو السياسة والأيديولوجية النازية، الفاشية، وبالتالي الفاشية الجديدة. أخيرًا لاحظ في هذا الصدد، دان دينر، في مجموعة مقالاته ‹أيام الذكرى›[4]، بالنظر إلى كتابة التاريخ الإسرائيلي، أن ثمة «أحداثًا من قبيل التعاون الهامشي الذي هو أقرب إلى صفة الجانبي المنحرف، إذا ما قيست إلى الأحداث ذات العلاقة بهذا الموضوع، في تاريخ الأحداث، بين أفراد وشخصيات من الحركة الوطنية العربية، والنازيين الألمان، قد علا شأنها بكل معنى الكلمة حتى باتت تشكل فرعًا من فروع البحث قائم بذاته»[5].

وقـد اتخذت أسطورة «العرب الموالين للفاشية» أشكالاً شتى، على مدار الصـراع في الشرق الأدنى، وكانت تؤدي وظائف متباينة: ففي ذروتا كانت تسمح للمجهودات الحربية العربية والعمليات الفدائية الفلسطينية ضد إسرائيل، بإيعـاز إلى «مفـتي الديـار» الذي أضيفت عليه الصفة الشيطانية، بالانحياز إلى الاضـطهاد النازي لليهود[6]، بل حتى بتفسيره على أنه استئناف للمحرقة. وكانـت النتـيجة المنطقية أن رجال السياسة الإسرائيليين كانوا يشيرون إلى كل من ناصر والسادات وعرفات باسم «هتلر النيل» أو «هتلر الجديد». وفي هذه الحقبة تمت صياغة صورة العرب، على أنم «معادون للسامية»[7]. والحق أن عملية السلام أزاحت أمثال هذه التضمنات إلى الخلفية، وأسهمت أيضـًا في إضـفاء الموضـوعية على صورة المفتي[8]. ومع ذلك فلم تستطع أن تحمل مآخذ معاداة السامية على الإخلاد إلى الصمت تمامـًا.

وفي مقالـة صـحفية يشير، أيضـًا، الكاتب اليهودي، ريتشادر حاييم شـنايدر إلى هـذا التعلق باستخدام الماضي أداة في الكفاح من أجل النص الصحيح للتاريخ: «هل يمكن أن يحدث، أن يخاض في الشرق الأدنى نوع من حرب تنافسية)، حول من تراه يمثل الضحية «الأكبر» من وجهة نظر تاريخ الأخـلاق؟»[9]. وهـذا السـؤال يطرحه، في سياق نقد لسياسة العنف في إسرائيل ضد الفلسطينيين. على أن سياسة الذكريات بين كلا الشعبين ترتبط كـل منهما بالأخرى، في كل مرة، ارتباطـًا مصيريـًا. وفي هذا الصدد لا تمس الحاجة إلى تأكيد أن التجارب الكامنة في الأساس لدى كل منهما، أي: الإبادة الجماعية لليهود في العهد النازي، والنكبة، اللتين تفهمان في كل مرة عـلى أن كلاً منهما تمثل «الكارثة الأصلية البدئية»[10]، وعلى أنه لا يمكن المقارنة بين كلتيهما من حيث مدى نطاقها، ولا من حيث أهميتها المثالية أو الأنموذجـية. ومـع ذلك فإن تجارب كلا الشعبين ملامسة إلى حد باعث للأسى. وذلك أن النكبة والإبادة الجماعية لليهود في العهد النازي ترتبط كل

منهما ارتباطـًا وثيقـًا، فوق ذلك، في «تزامن باعث للتعاسة والنكد»[11] بـين الاضطهاد الألماني لليهود في أوربة، ونشوء الصراع في الشرق الأدنى، وصياغة مفهوم القومية العربية[12].

أمـا عـند العـرب لقـد نمى هذا الصراع «سياسة قائمة على التاريخ والذكـريات» كانـت إما أن تزيح الحكاية المتنازع عليها من الذاكرة التي أضفيت عليها السمة المؤسسية، وإما أن تستخف بها، وهو ما كان يمس على وجـه الخصوص، التعاون السياسي والدعائي لبعض قادتهم مع دولتي المحور: ألمانـيا وإيطاليا[13]. والحق أن عزمي بشارة يؤكد بصريح العبارة مسألة أن الارتـباط بـين العرب والمحرقة هي التي يتم عن طريقها تلفيق إدعاء وجود «مشـاركة عربـية في الجريمة». ومع ذلك يطالب بمناقشة مستقيمة مخلصة لموضوعات النازية والإبادة الجماعية لليهود في العهد النازي، ويأسف لحقيقة أن «الموقـف الناضـج، الـذي يتفهم المحرقة بكل أبعاده ونطاقه، من دون أن يسـتخف في هذه الأثناء، بالمأساة الفلسطينية. لا يصادف إلا في أحوال جد نادرة»[14].

فالكـتاب العرب كانوا بدورهم، ينحون باللائمة، وهم يشيرون، فيما يشيرون إلى اتفاقية (هعفرا)، على اليهود، لتعاونهم مع النازيين[15]، وينشئون بذلـك «تطابقـًا» بين النازية والصهيونية[16]. وما يتم اشتقاقه من ذلك، وهـو عقد المساواة بين السياسة الإسرائيلية حيال الفلسطينيين، والاضطهاد الـنازي للـيهود، يتماشى اليوم، بطريقة باعثة للسخط، مع الإنكار العربي لـلمحرقة، وهو الإنكار الذي انبعث إلى حياة جديدة تحت تأثير المؤرخين الغربـيين الذيـن يـ عون إلى مراجعة التاريخ وإعادة النظر فيه، وتحت تأثير المؤرخين المسلمين أيضـًا، في السنوات الأخيرة[17].

وهـذا الانسجام، أو التطابق الجدير بالملاحظة، في سياستي الذكريات، الإسـرائيلية والفلسطينية المتناقضتين في ذاتيهما، كان من الممكن، كما يرى

بيـتر شتاينباخ، أن يكمن تسويغها من الناحية المبدئية، في تجزيء الأحداث ذات الأهمـية في الـتاريخ الجمعي، وبالتالي، في إضفاء صفة التحريم عليها، ولاسيما في «استعباد العواطف الجامحة والأهواء». وقال: «إن هذه تؤدي إلى محاصـرة ذهنية للشعور بالرثاء أو التعاطف»، وإن النتيجة هي عملية تضييق يـتم الإقدام عليها بصورة متعمدة تمامـًا، التذكر المقترن بالتقدير والإكبار، التي ما عادت تعزي، بل بات يجري الإحساس بها على أنها تجرح، وليس من الـنادر أن يجري الإحساس بها على أنها شكل من أشكال التذكر المتعصب، الـذي توجه حصرًا نحو الضحايا (الخاصين). وهنا يحدث، على ما يبدو ما يصفه توم سِغِف، في مواجهة اتخاذ الإسرائيليين، وبالتالي، الصهاينة، المحرقة، أداة من الأدوات، أو أيضـًا، إضفاء لصفة الصنمية[19]، في محاولة من كلا الجانـبين، في الصراع على فلسطين، «واحتكار وضعهم، من حيث كونهم ضـحايا»[20]. أما ما يتصل بالعرب، فإنهم لم يفكروا ويقدروا، كما يقول فِسْـك عن اللبناني إلياس خوري من أجل ذلك، بأسلوب جدي، في مسألة الأهمية المفزعة لفكرة (الحل النهائي)[21]. وكان إلياس خوري ينتمي، في عام (1998 م)، إلى المـبادرين إلى (تصـريح فلسـطين) الذي تدان فيه بصريح العـبارة، معاداة السامية في أوربة، واضطهاد اليهود ومعسكرات الإبادة التي أقامها النازيون[22].

وثمـة إسـهامات متباينة في هذا الكتاب تناقش هذا النقد ذاته بطريقتي الـنظر، الإسرائيلية والفلسطينية، إلى المحرقة. لكن في هذا السياق يود محررو هـذا المجلد، أيضـًا أن يطرحوا سؤال: هل يمكن تفسير النظرة المشوهة عند العرب واليهود إلى التاريخ المشترك الذي يجمعهم مع النازية عن طريق مجرد «سياسة التاريخ» و«سياسة الذكرى»؟، أم ليس هناك، يا ترى، فوق ذلك، أيضـًا، أشـكال من التقصير الذي يلفت النظر، اقترفها المؤرخون أثناء أبحاثهم، أسهمت في ذلك، وكانت لها أهمية حاسمة؟.

والكتابات المستفيضة حتى الآن عن العلاقات السياسية، والدبلوماسية والعسكرية بين العرب والمحور تتحرك، إلى حد بعيد، في إطار التأريخ التقليدي لهذه العلاقات[23]. وهي تشجع بذلك «تجزيئًا» للتاريخ، يعد مواتيًا لتكوين الأساطير التي تنضج بالعناد. والجزء غير المعروف من التاريخ، يكمن، قبل كل شيء في مجال (التجارب الأولية العربية)[24] مع النازية، أي: في اللقاءات الممكنة والواقعية بين أجيال تلك الأيام وسياستها وأيديولوجيتها. والحق أن التجاريب الأولية، كما يقول كُسِلك، لم تكن قابلة للانتقال والتوسع، ومع ذلك فهي تشكل شرطًا أوليًا لذكرى أضفي عليها الطابع المؤسسي. وينقل إليها في إطار حدث متواصل على الدوام[25]، فهي ذات أهمية كبيرة من أجل ثقافة الذكرى.

ومعظم الكتّاب في هذا المجلد يجعلون في مقالاتهم، السياق التاريخي ِللقاءات العربية مع النازية في نقطة المحور، ويحاولون أن يجدوا بذلك مدخلاً متمايزًا إلى طرح السؤال، كما كان هذا هو الحال الآن. وهم يستندون في أثناء ذلك إلى اشتغالهم الذي دام، في جزء منه، سنين طوالاً، بهذا الموضوع وإشكاليته مع ارتباط ذلك بتقييم مستفيض للمراجع العربية المعاصرة.

ويتضح من خلال الإسهامات أن الرواية القائمة التي ينظر إليها العالم العربي والإسلامي على أنها عرضة للتأثر بالأيديولوجيات الفاشية والنازية. ومعاداة السامية ترسم في كثير من الأحيان، صورة ذات بعد واحد. ويكشف مقال إسرائيل غرشوني، على وجه الخصوص، إن كان يوجد في العالم العربي، خارج حدود التعاطف أو التحمس، أيضًا مسافة نقدية ورفض للحركات الأوربية الراديكالية.

أما أشكال التقريب والموازيات الأيديولوجية الظاهرية، فتتجلى في ضوء مختلف، عندما تسلكها في أسيقة إقليمية، اجتماعية-سياسية، مثلما تؤكد ذلك مقالات كريستوف شوكن، وبيتر فين، ورينيه ِفلدَنغل.

ويضاف إلى ذلك أن كثيرًا من العرب شهدوا الحرب العالمية الثانية، كانوا ضحايا في أسيقة متباينة. فقد طوى النسيان تاريخ جنود المستعمرات في شمالي إفريقـية، الذي كانوا يستخدمون ذخيرة للمدافع في القتال ضد ألمانيا النازية، ومثـلما فعـل بالمصائر الفردية للعرب والمسلمين، الذي ماتوا في معسكرات الاعـتقال وفي معسـكرات أسرى الحرب الألمانية، أما هدف إسهامات جمعة بيضـا، وموشـيه غرشُفتش وغرهرد هب، وإدريس المغراوي فهو، على وجه الخصوص الإشارة إلى هذه الأسبقية الواردة في تاريخ المستعمرات.

ويعـد إعـادة أمـثال هذه التجاريب المنسية إلى أفق الذكرى بصورة منهجية، شرطـًا أوليـًا لإنشاء صورة متمايزة للقاء العربي بالحركة النازية والحركة الفاشية. وما يكتسب الأهمية تحليل السياق النفسي وإدخاله في إطار السـياق الإجمـالي، للحيلولة دون نشوء أو ضلوع تاريخية منحرفة ليس من الـنادر أن تتحكم فيها علائق تتصل بقضايا الساعة وصور جماعية مطبوعة بطابع قضايا الساعة.

وأخيرًا فإن إسهامات كارين ُيغرسْت وغتس نوردْبرخ تمهد لهذه المناقشات المتصـلة بقضايا الساعة وتقدم أمثلة من الاستعمال المعاصر وسوء الاستعمال لهـذا الموضـوع وإشكاليته. وهو ما تم توطينه ليتبوأ مكانة بين الحركة النازية والإنكار العربي للمحرقة، والتكتيك الإسرائيلي لتشويه سمعة الخصم.

وتظل المناقشة الدائرة حول هذا الموضوع مفتوحة، ولابد من أن تستأنف. ومـا من شك في أنا تمس أيضـًا مناقشات تتصل بقضايا الساعة، لا حول صـراع الشـرق الأدنى فحسـب، بـل أيضـًا حول العلاقة بين (الغرب) و(الشـرق) اللذين يجري الإحساس بما في معظم الأحيان على أنما كتلتان تتمـيز كل منهما بوحدة متراصة وتناغم شامل، وفي أثناء البحث عن القواسم المشتركة الثقافية والتاريخية، وكذلك الفروق الثقافية والتاريخية، ويظل البحث الـتاريخي، والبحث من وجهة نظر علم السياسة، حافلاً بالثغرات أبدًا. وبدلاً

مـن ذلـك يسود مسار البحث عمليات نحت الكلمات ذات السمة الثقافية، عندما يتم استحضار «القيم الغربية» المزعومة، أو يدخلون في الميدان «صراع الحضارات» بأسلوب جدلي. على أن مفهوم (الفاشية الإسلامية) الذي وصل مؤخـرًا إلى المناقشـة الألمانـية، والذي كثيرًا ما يجري تدعيمه بأمثلة تاريخية على التعاون العربي في أثناء الحرب العالمية الثانية يعد أحدث الأمثلة على الدالة الملّونـة بلـون السياسة التاريخية[26]. وحتى في إطار هذه الوجهة، يفترض في المجلـد الذي نحن بصدد تحريره أن يعرض، من أجل ذلك منظورات جديدة، وأن يكون ذا فائدة من أجل متابعة البحث في الموضوع.

وقـد تمـت الـترجمة لمقالات جمعة بيضا، وإسرائيل غرشوني وإدريس المغرواي وموشيه غرشُفتش، عن الفرنسية والإنغليزية، على يد المحقق.

يتقدم محررو هذا الكتاب بالشكر إلى كل الكتاب الذين أسهموا في هذا المجلـد ومن أجل القراءة المركّزة للمخطوطات. والمساندة المتعددة الوجوه، تسـتحق مرغريت لينج شكرًا خاصـًا. ويود المحررون أيضـًا أن يتقدموا بالشكر إلى كل المتعاونين الآخرين في (م ش ح)، ولاسيما توماس تسيتلمن، وألرِكِة فرايتاغ، وكذلك إلى تركان يلماز، لأبحاثهم المركزة. ونود أن نشكر لفيرنـر إنده بوجه خاص، استعداده لكتابة إشادة بغرهرد هب، على ما بذل من أجل إخراج هذا المجلد.

وقـد خيّم على الإنجاز الإجمالي لهذا المجلد، المرض المفاجئ الذي انتاب غرهـرد هب ووفاته المفاجئة في عام (2003 م). ولقد ظللنا، نحن بيتر فين ورينـيه فِلدَنغل، على مدى ثلاث سنين، نعمل في إطار من التعاون الوثيق معه، في (م ش ح)، ولولاه لما تحول هذا الموضوع، وفي هذا القالب، إلى مادة لمشـروع بحث خاص، ولا عولج بهذه الطريقة في ورشة العمل التي يقوم هنا العمـل عـلى إسـهاماتنا. لقـد كانت كفاءته في هذا المجال من مجالات الاختصـاص العـلمي، ومعرفته، ولاسيما طبيعته الخاصة الشخصية، وروح

الفكاهة عنده، والتزامه، من الأمور التي لا يستغنى عنها من أجل هذا. وكنا نفتقر إلى هذه الخصال كثيرًا ولذلك نندي هذا البلد، الذي كان عزيزًا على قلب غرهرد هب، والذي يؤسفنا أنه لم يتح له أن يشهد إنجازه والفراغ منه، بوجه خاص كل الخصوصية إلى ذكراه.

تأليف: جامع بيضا

2] صورة الحركة النازية في صحافة المغرب

2/ 1] الإرث التاريخي

كـان يوجد في مؤتمر مدريد[1]، الذي انعقد في عام (1880 م)، لمناقشة وضـع المغـرب، بين المشاركين، مايقارب الإجماع على النظر إلى فرنسا، بالنظر إلى وجودها في الجزائر، على أنا الدولة التي يفترض أن يكون لها نفوذ مفضل في المغرب، وحتى ألمانيا تجنبت في تلك الأيام أن تتصدى لهذا الموقف. وبالطـبع، فبعد بضع سنوات، وبعد أن كانت ألمانيا قد رسّخت أقدامها في إفريقـية السوداء، تحوّلت المغرب إلى موضوع خصومة بين باريس وبرلين. ومـنذ عام (1885 م) عملت السفارة الألمانية في طنجة، جاهدة على عقد معـاهدة للصـداقة والـتجارة مع السلطات المغربية، وكانت تواكب هذه الهودات منذ يوم (22 آذار عام 1886 م)، الذي يصادف عيد الميلاد التاسع

والثمانين للإمبراطور فلهلم الأول (1797-1888 م) صحيفة تصدر بالفرنسية موالـية للألمان يحررها رجل يقال له هرمن أوليغ شيلغر هي (لو كمرس دو مـاروك/ Le Commerce du Maroc)[2]. وعلى الرغم من أن هذه الصحيفة تـوارت عـن الأنظار بعد سبعة أعداد بسبب ميولها المعادية للفرنسيين، من جديـد، فقد كانت تجسد، بلا ريب، رغبة أوساط ألمانية معنية في استخدام حـتى وسائل الإعلام للدفاع عن مصالحها في هذا الإقليم من أقاليم العالم. على أن الرجوع إلى الصحافة ازداد خلال العقد الأول من القرن العشرين. وذلـك أن عقـد الاتفاق الودي الثلاثي، في عام (1904 م)، بين بريطانيا وفرنسا كان أغضب ألمانيا[3]، وكان رد فعلها أنها استثارت بالزيارة الخاطفة للإمبراطور فلهلم الثاني (1859-1941 م)، لطنجة في آذار (1905 م)، ضجة دبلوماسـية[4]. ونجـم عن ذلك أزمة عنيفة بين باريس وبرلين، لم يكن من الممكـن تخفيف وطأتها إلا عن طريق (مؤتمر الجزيرة) في عام (1906 م)[5]. وكان نظام الباب المفتوح[6] الذي نص عليه المؤتمر المذكور، يسمح في تلك الأيام لأرباب العمل الألمان، وفي طليعتهم الأخوة منسمن (Mannesmann)[7] بممارسـة أعمالهم تحت النظرات المتيقظة وغير الـندة، أو المواتية، التي كان يرسـلها زملاؤهم الفرنسيون في المغرب. وفي خطوة موازية لهذا كان يدفع إلى الأمام من قبل (صحيفة ألمانيا في المغرب/ Deutschen Maokko Zeitung)، بدعايـة مباشرة، ومن الصحف الأخرى، بدعاية غير مباشرة، بهدف وضع ألمانيا تحت تأثير ضوء مواتٍ. وكان لهذه الجهود نصيب معين من النجاح بين صـفوف النخـبة المغربية، إذ كانت ترى في تصريح فلهلم الثاني في طنجة إشارة مشجعة إلى استقلال المغرب في مواجهة المطامع الفرنسية والإسبانية. وكـان لألمانيا بين صفوف هذه النخبة رأسمال من الثقة والتعاطف، ويشهد عـلى ذلك كلمة تقدير تنطوي على عاطفة جامحة تجاه فلهلم الثاني، كتبها عام (1908 م)، واحد من مثقفي فاس له أهميته، وهو محمد العابد بن سودة،

عضو أخوية القطانية الشهيرة، وفيها قدّم إمبراطور في صورة رجل متفان في قضايا العدالة والإنسانية والسلام، وهي المبادئ التي قد كانت قد جاءت به، في رأي الكاتـب إلى الأرض المغربية، للإدلاء هناك بتصريحه الذي نادى فيه بالحرية والاستقلال للمغاربة[8].

وكـان القـوم يناشدون رأسمال التعاطف هذا الموظف لصالح ألمانيا كلما وقفت برلين في وجه المشروعات الاستعمارية الفرنسية في المغرب. وكان مؤتمر الجزيـرة لم يـتمكن بالفعل من تحسين العلاقات بين كلتا الدولتين. على أن هـذه العلاقات ازدادت سوءًا على سوء من جراء أزمة أخرى، حين أرسل في عام (1911 م) طراد ألماني مدرع إلى أغادير في الجنوب الغربي من المغرب[9].

ثم إن الحـرب التي نشبت بين عامي (1914 و1918 م) زادت من حجم مكانـة ألمانـيا في أعين كل أولئك الذين استأنفوا، في المغرب، المقاومة ضد الاحـتلال الفرنسي بقوة السلاح. وبالقياس إلى كثيرين كان القول الفصل لحقيقة أن الباب العالي كان قد حسم أمره بالانحياز إلى دول أوربة الوسطى (Mittelmachte). عـلى أن الفتاوى المختلفة التي كانت تطلب من العلماء المغاربـة للطعن في مقام السلطان العثماني، قلما استطاعت أن تغير شيئًا في هـذا الوضع، بل كان يشاد، في أوساط محددة في المغرب، بالإمبراطور على أنه (الحاج غليوم).

وبعد الحرب العالمية الأولى لم تتوقف الدعاية الفرنسية عن الحديث عن أن العملاء الألمان سيساندون أمير منطقة الريف محمد بن عبد الكريم الخطابي (1881-1963 م). ومهما تكن قيمة هذه المعلومات فقد أسهمت في مزيد من تحسين صورة ألمانيا لدى المغاربة.

وتكـون، نتـيجة لذلك، تراث تاريخي، على مر السنين، وكان يشكل صـورة ألمانيا في صحافة المغرب، وكان يفترض في الحقبة النازية أن تسلك نفسها بهذه الطريقة أو تلك، في إطار الاستمرارية.

2/ 2] الرايخ الثالث والمغرب عشية الحرب العالمية الثانية

لقـد أثار الرايخ الثالث اهتمام الوطنيين المغاربة، ولاسيما الرأي العام في المغـرب مـن حيث كونه قوة أوربية ذات عقلية معادية لفرنسا، وهي على اسـتعداد لمقاومـة مخططاتنا الاستعمارية في المغرب، أكثر مما أثار اهتمامهم لأسباب أيديولوجية. وهكذا فقد كانت الصحافة الفرنسية هي التي بدأت في الحديـث، في المغرب، عن الحركة النازية. ومنذ عام (1934 م) كتبت كثيرًا عن التسلح الألماني وعن الإجراءات الأمنية الفرنسية، وكانت كثيرًا ما تعلّق عـلى خطـب الساسة من كلا البلدين، حول العلاقات الفرنسية-الألمانية. وأخيرًا نشرت معلومات حول قضايا قانونية في برلين، وعن التمييز العنصري في الـرايخ الثالث. ولما كانت تشير، عمومـًا إلى برقيات كانت تتلقاها من وكـالات الأنباء، ولاسيما من وكالة هافاز (Havas)، فقد كانت معلوماتنا في صدد هذه الموضوعات لا تتميز من تلك المعلومات التي كان في وسع المرء أن يجدها في المنطقة الصحفية لحاضرة فرنسا. وكانت الصحافة الفرنسية في المغـرب، بالطبع أكثر أصالة من حيث الكم والكيف، عندما كانت المسألة تـتعلق بالتشهير ب"خبث" الدعاية النازية في المغرب. وفي إطار هذه الحملة تمكنـت الصـحافة أيضـًا من إشاعة الاكفهرار في قسمات صورة الحركة الوطنـية المـتطلعة إلى الـتقدم، وقد كانت أصابت نجاحًا في توسيع حجم زبائنها، بعد (مرسوم الظاهر) الصادر في أيار (1930 م)، ليصل إلى حجم ما يسـمى مرسـوم (الظاهر البربري)[10]. ولم يكن سرًا بالقياس إلى أحد أن الناشطين في هذه الحركة كانوا يرعون التعامل المألوف مع الرجل المشهور، شكيب أرسلان (1869-1946 م) ومع الاتحادات السياسية الثقافية في فيينا وفي برلين، وكان يتبع هذه المنظمات:

1) **الرابطة الثقافية الإسلامية، وقد كان** تم **تأسيسها** في **عام (1932 م)،** في **فيينا** بمبادرة **من أرسلان وكان رئيسها النمساوي** المسلم، **عمر**

روالف فون إيرنفلز (Omar Rolf von Ehrenfels, 1901-1960)، وكان الرئيس الفخري، البريطاني، خالد شلدريك بنيامين ويليام شيلدريك (Khaled Sheldrake, Benjamin William Sheldrake, 1888-1947)، الذي كان يرأس في الوقت ذاته الرابطة الإسلامية الغربية (Western Islamic Association) في لندن، وكان عضو لجنة الريف التي تشكلت هناك، في أثناء الحرب التي كانت تدور في الريف، وكان يتبع الاتحاد الإسلامي الثقافي ثلاثة من الوطنيين المغاربة: محمد المكي الناصري (1906-1972 م)، من الرباط، وعبد السلام بنونة من تطوان، ومحمد بن الحسن الوزاني من فاس.

2) وكان من الاتحادات الأخرى (لجنة الدفاع عن المغرب العربي/ Comité de Defense du Maghreb Arabe) في برلين، وكان يديرها رجل يدعى خالد بودون (Khalid Boudon)، وكانت تتوجه ضد الدول الاستعمارية، ولاسيما فرنسا. وفي عام (1930 م) نظمت مؤتمرًا شعبيًا كبيرًا في برلين للاحتجاج على الاحتفالات بمناسبة العيد المئوي لغزو الجزائر، وعلى سياسة بريطانيا الموالية للصهيونية في فلسطين. وفي المغرب نشرت اللجنة كتيبًا ضد مرسوم ظاهر البربري، عنوانه ‹احتجاج على القتل المدبر من فرنسا في المغرب/ Protestation contre l'attentat prepértré par la France au Maroc›.

ولم تدع الصحافة الفرنسية في المغرب هذه المناقشات وغيرها تفلت من يدها، وأدانت ما أشارت إليه بأنه تفاهم سري بين الحركة الوطنية المغربية والأوساط المقربة من الرايخ الثالث. وكان هذا المأخذ يزداد حدة كلما ازدادت الدعاية النازية. وهكذا وجد الناس في خريف عام (1934 م) على جدران المنازل في الحي العربي من مدينة ساليه كتابات ونقوشًا تمجد ألمانيا ومستشارها للإضرار بفرنسا: «عاش المستشار هتلر، ولتسقط فرنسا». وفي السنة التالية جرى تداول كتاب مطبوع في القاهرة بعنوان ‹أدولف هتلر›

لأحمـد محمود الساداتي، بين مثقفي فاس. وفي العام ذاته أرسل إلى عدد من المغاربـة كتيب يتضمن كلمة لهتلر في الرايخستاغ (البرلمان، حرفيـًا: مجلس الإمبراطورية). وبعد "ضم" النمسا في عام (1938 م)، حظر المقيم الفرنسي العـام (Résidence Générale) استيراد كتاب ‹كفاحي› وبيعه وتداوله. ومن أجل ذلك تم تدعيم الشرطة في عدد من مراكز المدن بقدر لم يكن معروفـًا من قبل حتى الآن.

وأخذت موجة من الدعاية النازية تتدفق من ’القطاع الإسباني‘ في المغرب ومن منطقة طنجة الدولية على ’القطاع الفرنسي‘[11]. وكانت مساندة الرايخ الثالـث لأنصـار فرانكو في أثناء الحرب الأهلية الفرنسية قد حوّلت ’القطاع الإسـباني‘ إلى نقطـة انطـلاق مواتية لهذه الحملة. وكان عدد من الصحف الإسبانية يؤدي هناك دور بوق الدعاية للشعارات النازية. وبرز، بدرجة فاقت كل الآخرين، حزب إلفارو (El Faro)، من سبته، بميوله الموالية للألمان.

عـلى أن الصـحافة العربـية الوطنية ما عادت تتحفظ الآن أيضـًا في الإشـادة بألمانيا، إذ كانت تنتقم بذلك لنفسها من السلطات الفرنسية التي كانت ألجمت الصحافة الوطنية في ’القطاع الفرنسي‘ بعد الأحداث الدامية في إقلـيم مكـناس في خريف عام (1937 م)[12]. ومع ذلك، ففي الحقبة السـابقة عـلى الحرب لم يسمح لنفسه بالمـاهرة بتعاطفه مع الرايخ الثالث سـوى (مكتب الدفاع الوطني المغربي/ Bureau de la Défense Nationaliste Marocain)، بـل كـان رئيسه، إبراهيم الوزاني قد وجه في (30 نيسان عام 1939 م)، الـبرقية التالية إلى هتلر، التي نشرت بنصها الكامل في مجلة ‹La vedetta di Tangeri›:

> **نعـبر لكم عن تقدير الشعب المغربي العميق لحقيقة أنكم تحدثتم، في كلمـتكم التي تعبر عن الهمة ومضاء العزيمة، لصالح القضية العربية، ونلتمس منكم أن تنظروا بعين العطف إلى المغرب-الفرنسي على أنه**

إحـدى تلـك الدول التي تحتاج إلى العدالة لأسباب ذكرتموها في كلمـتكم. على أن الوضع الراهن في المغرب الفرنسي أسوأ بعد من وضـع الشعوب الأخرى بسبب الإجراءات التعسفية التي تمارسها فرنسا، والتي لا يمكن التوفيق بينها وبين الاتفاقات الدولية، ولاسيما اتفاقية الحماية.

باسم الشعب المغربي الذي يتعرض للقمع والاستعباد من قبل فرنسا،
مكتب الدفاع الوطني المغربي.
تطوان.

وما جدير بالذكر أن إبراهيم الوزاني أرسل، بعيد هذه البرقية، من روما، برقية إلى الرئيس الأميركي روزفلت ليلفت انتباهه إلى الوضع في المغرب.

وفي مواجهـة هجمة الدعاية النازية عادت إدارة المقيم الفرنسي العام في الـرباط إلى الصـحف العربية القليلة التي كانت ماتزال تظهر في منطقتها. وكانت تستخدم، بالطبع المساندة عن طريق الصحيفة الرسمية (السعادة)، غير أنـا كانت تستند بالطبع إلى الصحف الأقل إثارة للشبهات، مثل (التقدم)، في سـاليه، وكانت الأخيرة تحذر، بقلم مديرها، المسلمين، من نوايا الرايخ الثالث: ليس للرايخ إلا هدف واحد، وهو السيطرة على الشعوب الضعيفة، وجعـلها تابعة لمصالحه من دون مراعاة لحقوق الفرد. وهذا المخطط تجري تجربـته في هذه الأيام على اليهود والمسيحيين الذين يغلق القوم في وجوههم البيع والكنائس، وهذا ما سيحدث للمسلمين أيضـًا[13].

وقـد حـاول السـكان اليهود في المدن الكبرى، بعد أن أفزعهم حظ إخوانم وأخواتم في العقيدة من الألمان، تنظيم مقاطعة للبضائع الألمانية، وتم تـداول منشـور عـبريّ من أجل هذا الغرض في نـاية عام (1938 م)، في العاصمة[14]. وكان يجري نشر المستجدات الواردة من ألمانيا من قبل الأسر الأوربية الألمانية التي كانت تاجر، عبر المغرب إلى أمريكا.

3/2] في أثناء الحرب العالمية الثانية

وبعـد الهـزيمة الفرنسية، في حزيران عام (1940 م)، انحاز المقيم الفرنسي العـام نوغويـيه (Noguès, 1876-1936) إلى جانب حكومة فيشي، وألجم في المغرب الفرنسي، كل الأصوات التي تـ ع إلى الجدل: من وطنيين، وشيوعيين، واشـتراكيين، وديغوليين . . إلخ. وكان قطب الصحافة في المغرب، بيير ماس (Pierre Mas, 1891-1970) يضع صحفه اليومية (le Petit Marocain, la Vigie Marocaine, l'Echo du Maroc, le Courier du Maroc) في خدمـة إدارة المقيم العـام. وبصـحيفة (La Dépêche Marocaine)، في طنجة، وسع إمبراطوريته أيضـًا بصحيفة يومية خامسة. وكل هذه الصحف تجتهد في تملق المارشال بيـتان (Pétain, 1856-1951) وتـنادي بالتعاون مع ألمانيا. وفي تشرين الأول (1941 م) كتـب نائب القنصل الأمريكي في الدار البيضاء عن صحيفتي (Le Petit Marocain, La Vigie Marocaine)، يقـول «كلتا الصحيفتين خاضعتان الـيوم لـنفوذ ألمانيا، والأرجح أن أغلبية ملكيتها تعود إلى الملكية الألمانية». وبالمناسـبة فقـد كان خصوم ماز يسمون جريدته (المغربي الصغير/ Le Petit Marcain)، جوهرة إمبراطوريته، «النازي الصغير/ Le petit nazi».

وبعد نزول الأمريكيين في شمالي إفريقية قامت كثير من الصحف بعمليات نكـوص واسـتدارة إلى الـوراء، وتكّيفت مع المعطيات السياسية الجديدة. وتوجهـت الصـحف الفرنسية، منذ الآن فصاعدًا أي بعد (1944/01/11 م) وهـو تاريخ إعلان الاستقلال، نحو خصم جديد، وهو الوطنية المغربية. فبعد أن تحـول عدد من المدن إلى مسارح لأشكال من تجاوز الحدود، وكان الناس يجـدون على جدران المنازل شعارات الصليب المعقوف، اكتسب جزء محدد مـن الصـحافة الاتامـات الرسمية التي كانت توّجه إلى الوطنيين. وكانت الاتامـات تشـير إلـيهم بـأنم أدوات في يد الألمان الذين كانوا يقوّضون

الهـودات الحربية للحلفاء وقد عبّر مرسيل روفييه (Marcel Roufié) عن هذه النـظرة في صحيفة (صدى المغرب/L'Echo du Marco) على النحو التالي: لقد اسـتطاع الجنود الألمان، منذ الأيام الأولى، أن ينشئوا، لا مجرد منظمات قوية للتجسس والتخريب، فحسب، بل حركات شعبية أيضـًا، ليفسدوا تصرفات خصـومهم . . وذات يوم، وبعد أن استخدمت كل الحيل والمكائد، الغامضة الممكـنة، يجد المرء نفسه في مواجهة حركة ثورية، لا يمكن تسويغها بشيء. وليس هناك إلا طريق واحد للتخلص من هذا السم، وهو يعني الإقصاء الحازم لكل أولئك الذين ارتقوا، وعلا شأنم من جراء سياسة العدوّ الماكرة، وإعادة فرض النظام الصارم الذي لا هوادة فيه، بسرعة وتصميم[16].

ولم تكـن صحافة ماس فحسب على يقين من أنه كان يوجد في المغرب مؤامـرة يدبـرها الرايخ الثالث، إذ كان رينيه مساجيلي (René Massigli, 1888-1988) المفـوض المختص بالشؤون الخارجية في لجنة التحرير الوطني، يـرى، على الرغم من أنه كان يميل قليلاً إلى المبالغات، في أحداث كانون الـثاني وشباط من عام (1944 م)، يد برلين[17]. وقبل المـلس الاستشاري المؤقـت في الجزائر كان قد اتم أحمد بلفريج بالاسم (1908-1990 م)[18]، بأنـه عمـيل لألمانيا. وكان يرى أن حقيقة أن أتباعه سموه الزعيم. كانت توضح علاقة مشابهة بينه وبين «الفوهرر = الزعيم» أو «الدوتشي»![19].

والحق أنه قد كان تمّ في محفوظات إدارة المقيم الفرنسي العام، إثبات أن بلفريج زار عاصمة الرايخ في أيلول عام (1940 م)، بل ألقى كلمة في إذاعة برلين. ولكن هذه الحقيقة لم تكن كافية وحدها لتسويغ اتام محكّم متماسك إلى زعيم الوطنيين أمام محكمة غير متحيزة، ولذلك فضلّت إدارة المقيم العام أن ترسل بلفريج آخر الأمر، من دون حكم، إلى منفاه في كورسيكا.

وقـد دحـض الوطنـيون الـتابعون ل(القطاع الفرنسي) في شباط عام (1944 م)، هـذه الاتامات التي طرحتها السلطات التابعة لإدارة المقيم العام

والصحافة العاملة في خدمتها والتي تعتاش عليها. ثم إن موقفًا[20] لحزب الاستقلال الجديد، ذكّر بأن دماء المغاربة مازالت تسيل في خدمة قضايا الحلفاء، وتم توزيع منشور وطني لصالح الفرنسيين للتداول، كان في وسع المرء أن يقرأ فيه: لقد أشير إلينا بأننا موالون للألمان، وإنه لمن الغريب، والطريف الذي يضاهي النكتة، أن نضطر إلى أن نقرر أن السلطات ذاتها التي اتهمتنا بهذا الميل، أخذت علينا قبل بضع سنوات، أننا ديغوليون، أو موالون للإنغليز، أو موالون للأمريكيين أو شيوعيون. وبهذه المناسبة لا تفسر مسألة لماذا لم يتحول هؤلاء الموالون المزعومون للألمان في هذه اللحظة إلى الفعل والتصرف، حين كان الألمان في ذروة سلطانهم، وحين كانوا قريبين منا، في المغرب، وحين كانت فرنسا منكسرة، مهيضة الجناح، محتلة، مجردة من السلاح، ضعيفة، محطمة[21].

[2/ 3/ 1] 'القطاع الإسباني'، وطنجة: مراكز الدعاية الألمانية في المغرب

كانت الظروف في المنطقة المغربية التي تحتلها إسبانيا، مواتية على وجه الخصوص الدعاية الصحافة الألمانية، ولم تكن صحف نظام فرانكو تدع فرصة تفلت من يدها، على الرغم من حياد مدريد المزعوم، لكي تشيد بقوة ألمانيا العسكرية. أما الصحف الوطنية، (الحرية، الوحدة المغربية، الريف)، فقد كانت تركز، قبل كل شيء، على إلحاق الضرر بسمعة فرنسا[22]. ومنذ تشرين الثاني عام (1939 م) حاولت صحيفة (الحرية) لسان حزب الإصلاح الوطني، أن تثني عزم المغاربة عن القتال ضد الرايخ، وكان، في ما زعمته الصحيفة، أن المغرب كان قد وضع منذ أيام الحرب العالمية الأولى، تحت تصرف فرنسا، (34500) جندي، سقطوا جميعًا في ميدان المعركة. ونشرت الصحيفة ذاتها في (1940/12/22 م)، في قسمها الثقافي، مقالة

مستفيضة للغاية بقلم تقي الدين (الهلال)ي (1893 أو 1896-1897 م) وهو أستاذ الحلقة الدراسية الاستشراقية في جامعة بون، والمتحدث في إذاعة برلين[23]، بعـنوان: «أفارقـة الشمال، والمستعمرون، وفرنسا: هي يمكن التوفيق بين مصالحهم؟»، وكان يمثل شتيمة حادة للسياسة الفرنسية في المغرب.

وكانـت الصحافة الوطنية في تطوان تشيد، تحت الأنظار المحبذة للإدارة الإسبانية على وجه العموم، بسياسة ألمانيا التقليدية تجاه المغرب[24]. ولم يكن المحـررون الصـحفيون المختلفون، وكان فيهم طامي الوزاني، وعبد الخالق الطـريس، يخفون إعجابهم بالقوة الاقتصادية والعسكرية للرايخ الثالث اللتين كـان يضـعانها في مواجهـة القدرات المادية والمعنوية المستهلكة لمغامري المستعمرات في فرنسا وبريطانيا.

وكان أولئك الذين يصرحون بآرائهم في أحداث الساعة، إذا لم يكونوا مـن المغاربـة. تركوا الدور في الكلام لأشقائهم العرب في بعض الصحف الوطنية التي لا شك في أنه كانت تجمع بينها وبينهم نقاط تماس محدّدة. ومن ذلـك أن صحيفة (الوحدة) المغربية نشرت في شباط عام (1940 م)، مقالة مطولـة بقـلم شكيب أرسلان عن الصراع العالمي، وكان يرى أن حرب الأعوام (1914-1918 م) قوت موقف بريطانيا وفرنسا في مواجهة الشعوب الـتي كانـت تخضع لنفوذها. ورأى الكاتب أن كلتيهما كانت خليقة بأن تحـافظ على هذا النفوذ محافظة متواصلة، إذ كان الكاتب يرى أن «القاعدة السارية لدى هذه الأمم، أو بالأحرى لدى كل أمم أوربة، هي أنا لا تحترم إلا القوة».

ثم إن الصـحيفة ذاتـها، وهي، بالمناسبة، لسان حزب الوحدة المغربية، بقـيادة المكي الناصري، قدمت لقرائها، في (1940/10/25 م)، مقالة أخرى لأرسـلان، جاء فيها: لن يقدم هتلر، العبقري، أبدًا على شيء يمكن أن يثير ثائـرة التمع العربي ضده. وألمانيا ليست لها نوايا ضد سورية، أو لبنان، أو

أي بلد عربي آخر. وحين تكتفي بأن تنتزع الجزائر وتونس من نفوذ فرنسا، لتردهما إلى سادتهما الشرعيين، تؤمن إيطاليا لنفسها صداقة العرب.

وقد ثارت ثائرة وطنيي 'القطاع الإسباني' في المغرب ثورة جامحة على الاتهامات الموجهة ضدهم بأنهم ينطوون على تفاهم سري مع ألمانيا، وأشاروا إلى استقلالهم وحقهم في استغلال موقف أتيح لهم من أجل تحرير وطنهم.

والأرجح أن هذا الموقف كان أيضًا يشكل الدافع إلى هجوم صحيفة المكّي الناصري العنيف على ألمانيا. وكانت مقالة قد ظهرت بين الحادي عشر والسابع عشر من آب عام (1940 م)، في صحيفة (الوحدة المغربية) جعلت الصداقة الإسبانية المغربية مرتبطة بإلغاء تفويض إيزابيلا للكاثوليك. وهوجمت فرنسا لأنها ظلت متغطرسة على الرغم من هزيمتها، وكان يشار إلى ألمانيا في الموضع ذاته بأنها «أمة المنتصرين العنصرية»، التي «تريد أن تبسط سلطانها على العالم كله».

وقد تسبب هذا الهجوم غير المألوف للصحافة الوطنية في 'القطاع الإسباني' في ظهور موقف رسمي صدر عن القنصل الألماني في العام في تطوان، فيدمن (Widmann)، ونشر في صحيفة (الوحدة المغربية) كما نشر أيضًا في صحيفة (الحرية)، وفيما يلي أهم فقراته: ولقد قرأنا في (الوحدة المغربية) مقالة تمثل هجومًا على الشعب الألماني، ولم نتعود سلوكًا من هذا النوع من جانب الصحافة المغربية التي تستحق التقدير. فإلى جانب المآخذ الأخرى على ألمانيا يذكر الكاتب موقف المنتصر المظّفر للرايخ . . ولولا هذا النصر لما أتيح للكاتب أن يدرك ببصره حلاً للمشكلة المغربية، بل ما كان ليستطيع أن يطرح هذا السؤال وحده: أمّا ما يتصل بإيمان الألمان بتفوقهم على الأعراق الأخرى فليس ما يجدي أن نناقش ذلك هنا، بل نقتصر على القول إن السيادة والتفوق إنما هما من خصائص أولئك الذين يستحقونهما، وإنما يحصد المرء ما زرع فحسب. والشعب المغربي يعرف

جـيدًا جدًا أن علاقات ألمانيا بالعالم الإسلامي كانت على الدوام ذات سمة وديـة، ونتـيجة لذلك أننا نرتاب في أن العالم الإسلامي سوف يظل بعد ذلـك يـولي ألمانـيا ثقته، وهذه لن تنسى، من جانبها، الأهمية التي كانت للمسـألة المغربـية عـلى مر الأحداث السياسية وكرّها، وهي التي سبقت الحرب الأخيرة[25].

2/ 3/ 2] طنجة

بعـد هـزيمة فرنسـا وإبرام اتفاقية الهدنة مع ألمانيا، استهلّت صحيفة (الإصلاح) التي تصدر في طنجة، في (1940/07/07 م)، تحليلاً لبنود الاتفاقية التي كانت خليقة بأن توجه لمكانة فرنسا ضربة فادحة. ولقي هذا العدد لدى قـرائه من النجاح ما جعله يباع بخمسة فرنكات للنسخة[26]، أي: أضعاف السعر العادي. وواصلت صورة ألمانيا تحسنها من جراء ذلك.

ولم يكـن قـد جرح ألمانيا أبدًا أننا استبعدت من كل المفاوضات التي جـرت بعد الحرب العالمية الأولى، وهي المفاوضات التي ثبتت وضع طنجة بصـفتها مديـنة دولية. على أن فرنسا أكثرت هذا الازدراء (لألمانيا) بعد أيضـًا بتركها المبنى القديم الخاص بالبعثة الألمانية، لممثل السلطان في هذه المديـنة، ليكون مقرًا لإدارته. ومنذ الثلاثينيات كان العملاء الألمان يمارسون أنشـطتهم المـناوئة لفرنسـا بالانطلاق من هذه المدينة، كما يمارسونا من 'القطـاع الإسـباني' بأسـرها. وقد كانت لهم يد أكثر حرية بعد الانيار الفرنسـي حين احتلت قوات فرانكو المدينة في تشرين الأول عام (1940 م) وضـمتها إلى 'القطـاع الإسباني' في المغرب. واستطاعت القنصلية الألمانية العامـة، الـتي أعيد افتتاحها الآن، في طنجة، بفضل وساطة بارون دنترغ (Baron d'Entraigues)، أن تشـتري، خلافـًا للقواعد السارية المفعول،

صـحيفة (صـدى طنجة/ L’Echo de Tanger) التي عادت إلى الظهور بعد توقـف، من جديد، عام (1942 م) من جراء مصادفة غريبة، في (8) تشرين الـثاني، وهـو تاريخ الـ ول الأمريكي على الساحل المغربي. وفي ظل إدارة دنـترغ، كانـت هذه الصحيفة تثني على إخلاص بيتان (1856-1951 م) ولافـال (Laval, 1883-1945)، وتشـيد بالتعاون الذي لا مندوحة عنه (مع ألمانـيا، ملاحظة المحرر) «من أجل بناء أوربة الجديدة»[27]. وظلت (صدى طـنجة) موالية لحكومة فيشي، والألمان حتى (1944/05/28 م)، حين غادر مديرها المدينة وهرب إلى إسبانيا.

وإلى جانب (صدى طنجة) كان يوجد تحت تصرف البعثة الألمانية مزيد مـن الوسائل الدعائية، التي كانت توزع مجانـًا على الشخصيات المغربية، والمسـألة تتعلق ب(نشرة الأخبار) التي كانت تصدرها السفارة الألمانية في مدريد، في البداية، في نيسان عام (1942 م)، من اعتبارًا من العدد رقم (8) المؤرخ في (10) حزيران، في طنجة، باللغة العربية. كانت رسالتها الجوهرية هـي أن ألمانيا، على النقيض من فرنسا وبريطانيا، الصديق المخلص للإسلام والمسلمين، وان هؤلاء خليقون بالتالي، أن يحرروا أنفسهم، من خلال العمل الـتعاوني، مع ألمانيا، من الأطلسي إلى القوقاز، على السواء، من الاستعمار والبلفشية وحكم الأغنياء من اليهود. ويستطيع المرء، في نحو ثمانين عددًا، أن يـدرك وهو مفعم بالدهشة، كيف كان قاموس المفردات الإسلامي يستغل للأغراض السياسية، وفي كل عدد كان القارئ المغربي يطالب بتوسيع معارفه بالاستماع إلى راديو برلين وراديو باريس، بلغته.

وكـان نشر (نشرة الأخبار) وتوزيعها يثير انتباه الحلفاء. وكان رد فعل القنصـلية الـبريطانية العامة هو تحرير الـلة الأسبوعية (أخبار الأسبوع) التي كانـت تشبه في كلها وقالبها، على نحو دقيق، الراية البحرية المثلثة الألمانية. وحتى النشرة البريطانية كانت توزع مجانـًا على الشخصيات المغربية.

4/2] بعد الحرب العالمية الثانية

ولم تكن آثار الدعاية النازية في المغرب مقصورة في الوجود العابر الزائل للرايخ الثالث إذ واصل بعضهم البقاء بعد عام (1945 م) أيضـًا.

فـبعد نـزول الأمريكيين ظلت الحقبة النازية تشغل مرة أخرى، أعمدة الصحافة المغربية. وتم وضع الشخصيات على لوائح سود فيما يتعلق (بتشويه سمعـته) الشخصيات الفرنسية والمغربية من دول المحور، ولم يستطع الإفلات في غمرة «هذه المطاردة للساحرات» لا الصناعيّ جان إيبينا (Jean Epinat, 1877-1950)، ولا قطـب الصـحافة بيير ماس[28]. وتوجه التطهير، بوجه خصوصـي تمامـًا، ضد الحركة الوطنية المغربية، وطرد من طنجة، بناء على رغبة السلطات الفرنسية، تقي الدين (الهلال)ي وإبراهيم الوزاني، وآخرون.

وفي مناسبتين على الأقل، كانت الأحداث التي حدثت في الحقبة النازية، هي التي تقرر ماهية العناوين في الصحافة المغربية، في عام (1947 م)، بمناسبة حمـلات الصحيفة الوطنية (صوت المغرب) في طنجة، وبعد خلع السلطان سيدي محمد بن يوسف (1922- 1961 م) في آب عام (1953 م).

وحـين استعادت طنجة، بعد الحرب العالمية الثانية وضعها الدولي، قام حـزب الوحدة المغربي بإحياء صحيفة باسم (صوت المغرب/ La Voix du Maroc). ومنذ البداية فصاعدًا أكدت هذه الصحيفة انتماء المغاربة إلى رهط الديموقراطـيات المغربية مثلما أكدت تمسكهم بمبادئ منظمة الأمم المتحدة. وقـد أثبت هذا التوضيح الدقيق أنه ضروري للغاية، حين اتجهت الشبهة إلى أقـرب المـتعاونين عـلى تأسيس (صوت المغرب) المكي الناصري، إذ اتهم بالـتفاهم مـع النازيين. وبعد أن كان تم الكشف عن هذا الاتهام ودحضه، شرعت الصحيفة في انتقاد السياسة الفرنسية في المغرب الحاد، فكان تقارنا حيـنـًا بسياسة الحركة النازية في المناطق الواقعة لاحتلال الرايخ الثالث في

أيامها، وكانت تشبهها حينـًا آخر بالشيوعية في بلدان المعسكر الشرقي[29]. وحين نفذ القناصون السنغاليون العاملون في خدمة فرنسا، في (1947/04/07 م)[30]، عشـية رحيل السلطان ابن يوسف إلى طنجة[31] في الدار البيضاء، حمام دم، لم تتردد صحيفة (صوت المغرب) في تشبيه هذه الأحداث بالفظائع التي ارتكبت، فيما سلف في معسكرات اعتقال النازيين[32]. وبلغ من مجاوزة الحد في هذا التشبيه أن السلطات الفرنسية مارست الضغط على لجنة الرقابة على المنطقة الدولية بهدف الوصول إلى حظر للصحيفة.

وفي تشـرين الأول من عام (1953 م)، أي: بعد بضعة شهور من خلع السلطان محمد بن يوسف ونفيه إلى مدغشقر، كشفت صحيفة فرانس سوار (France-Soir) اليومـية الباريسية المعروفة بتقديمها للتقارير المثيرة للخواطر، عن تفاصيل قيل إنها فاضحة، محرجة، حول العلاقات بين القصر في الرباط، والـنازيين، ونشرت نسخـًا طبق الأصل لبرقيات كانت أرسلتها القنصلية الألمانـية العامـة في طنجة بين عامي (1941-1943 م) إلى حكومته. وقد وقعـت هذه الوثائق عام (1945 م) غنيمة في أيدي الأمريكيين، في برلين، وسلمت إلى الحكومة الفرنسية للاستعمال اللاحق[34].

ثم إن صـحيفة (لـورور/ Laurore) وسعت هذه "القضية"، والتقطت عـلى الفور وبحجمها الكامل من جزء محدد من الصحافة، في المغرب، كان يعتزم إلحاق الضرر بصورة السلطان المنفي لإعطاء فرصة لابن عرفة (1878-1976 م) الـذي كان ارتقى العرش لتوه. وشاركت في هذه الحملة صحف مجموعـة ماس التي هي الأقوى على الإطلاق. غير أن اللهجات الأكثر حدة وصـراخـًا جـاءت مـن صحيفة (باريس/ Paris)، عضو اتحاد (الوجود الفرنسـي/ Présence Française). ويسـتفاد من هذه الصحيفة الأسبوعية اليمينية المتطرفة التي يحررها كميل إيمار (Camille Aymard, 1881-1964) في الدار البيضاء، أن السلطان المنفي كان، بلا ريب، من رجال الرايخ الثالث.

ويقال أنه كان أبلغ الألمان بتصريحات روزفلت (1879-1949 م) وتشرشل (1874-1965 م) وجـيرو (Girauds, 1882-1945) في مؤتمر أنفا (Anfā) في كـانون الـثاني[35]. ولكـي تب لهذه الاتامات الخطيرة حدًا أقصى من المصـداقية، نشـرت صحيفة (باريس) أيضـًا، بيانـًا صادرًا عن (الوجود الفرنسي) طالبت فيه باتخاذ خطوات قانونية ضد «السلطان السابق وأبنائه»، لأنـه ما من مجرم يعّد، كما قالت الصحيفة، خارج القانون، أو فوقه. وبلغ من اشتداد النكير على ابن يوسف والأشكال التي اتخذها أن وزير تلك الأيام للشـؤون المغربية والتونسية، كريستيان فوشيه (Christian Fouchet, 1911-1974)، لم يكـن لـه بد، في (1954/08/27 م)، أن يتدخل، أمام الجمعية الوطنـية الفرنسـية، ليضع الرجل في إطار الضوء المناسب، وهو الذي كان ديغول قد اختاره قبل بضع سنوات ليكون رفيقـًا له في عملية التحرير. وقد صـرح ديغـول، من جانبه في (1954/06/30 م)، أمام الصحافة قائلاً: «لا أملك إلا أن أهز كتفي، لقد طولب السلطان كما طولب كثير من الفرنسيين سواه، ومع ذلك فقد صمد في وجه كل شيء. وهو بالناسبة، رفيق التحرير.

2/ 5] استنتاجات

لقـد صاغ صورة الحركة النازية في صحافة المغرب التراث التاريخي من العلاقـات المغربية-الألمانية التي ترجع أصولها إلى انعطافة القرن، من التاسع عشـر، إلى العشرين. وقد حاولت دعاية الرايخ الثالث استخراج رأسمال من الـتعاطف الـذي كانت ألمانيا تحظى به لدى المغاربة. وقد نقلت هالة الـد المتمـثلة في لقب "الحاج" فلهلم، ببساطة، إلى أدولف هتلر. وما من شك في أن النخـبة المغربـية، والوطنـيين على وجه التحديد، لم تكن تؤثر بالمحبة الخصوصـية ألمانـيا النازية، بل كانت المسألة تتعلق، بالأحرى، بتوافق بين المصـالح المرتـبطة بالأوضاع الاقتصادية، بين هذا النظام والوطنيين الشباب

الذيــن قــد كــانوا عقدوا العزم على ان يزيحوا عن كاهلهم نير الاستعمار الفرنسي. وكانت السياسة البريطانية في الشرق الأدنى، فوق ذلك، ولاسيما في فلسطين، منذ سنوات الثلاثينيات، قد تسببت في خوف معين من الإنغليز كــان يسود، بأشد أشكاله، الأجزاء المسيسة من المجتمع المغربي: وسرعان ما يسفر هذا عن تفاهم متبادل بين الحركة الوطنية المغربية وفكرة الجامعة العربية في الشــرق، وعلى أساس أنشطة أمثال تلك الشخصيات العربية ذات النفوذ والتأثير مثل الدرزي شكيب أرسلان، ومفتي فلسطين أمين الحسيني (1897-1974 م)، لهــذا كان الرضى والتقبل أثر محدد في صورة ألمانيا، زاد في قوته أيضــًا صحافة الشرق العربي التي كان المغاربة يتابعونا بظمأ ولهفة[39].

وقد حاولت الصحافة الفرنسية في المغرب، وفيها تلك التي كانت تتعاون مع المحتلين قبل نزول الأمريكيين على البر، أن تستغل من أجل ذلك الصور، التي تصور الأحوال الاقتصادية في الرايخ الثالث، والمواقف الشخصية لبعض المغاربة، وأن تقيم العوائق في وجه أمل الشعب في الاستقلال، كما حاولت عــلى الــنحو ذاته، أن تبدد الصورة الإيجابية التي ظلت ألمانيا تستفيد منها عقودًا من الزمان ولكن أوليس كل شيء مباحًا في مضمار الدعاية؟.

تأليف: إسرائيل غِرشوني

3] «اليهودي المطارد»: رد فعل مجلة (الهلال) على معاداة السامية في أوربة ووصول هتلر إلى السلطة

تُصَور الثلاثينيات من القرن الماضي، عادة، على أنها عَقْد الأزمة في تجربة مصر الليبرالية، وذلك أن جانب السرْد القصصي الذي يهيمن على كتابة التاريخ في مصر الثلاثينيات هو جانب السرد القصصي في «أزمة الليبرالية المصرية». ثمّ إن الأزمة الذي كانت، بمقتضى أسلوب السرد القصصي، ظاهرة منذ بداية العقد، كانت تسمى باسم بديل، هو: «أزمة التوجه» أو: «أزمة الديمقراطية المصرية». وإذا نظرنا فيها نظرة منهجية، من خلال تظاهُراتها الداخلية، في الميادين الاقتصادية والثقافية والاجتماعية-السياسية، فقد كان يُفْتَرَض، تقليديًا، أن الأزمة كانت تعكس أيضًا الأزمة الأكثر عموميّة، التي كانت تمر بها الديمقراطيات الليبيراليّة الأوربية، في وجه تحدي النظم

الشموليّة والفاشية التي تواجهها. وكان تأثير الفاشية في إيطاليا والنازية في ألمانيا في المؤسسـة السياسـية المصرية، وفي كثير من فئاتا الاجتماعية، وأوساطها الفكـرية، تـأثيرًا جوهريـًا. لقد كان يفترض أن كثيرًا من قطاعات المجتمع المصـري تتطابق بحماسة مع الأفكار السياسية والاجتماعية لهتلر وموسوليني. وبـناءً عـلى ذلك، كان يجري تأكيد أن المصريين ينظرون إلى النازية الألمانية وإلى الفاشية الإيطالية على أنهما أنموذجان مثاليان، في الثقافة السياسية، للحلول محل نظام الحكم الدستوري، البرلماني الذي انتهى إلى الإخفاق في مصر. وعلى هـذا، فقـد كانت الديمقراطيات الكبرى، كما أكد ب ج فتيكْيتس (P.J. Vatikiotis)، «تواجـه تحديـًا خطـيرًا من قِبَل الفاشية والنازية في أوربة، وكانت مكانتها [في مصر] في حالة انحسار شديد»[1]. بل وصلت المسألة إلى مـا هو أبعد من ذلك، في تقديرهن لأن المصريين، الذين يمثلون صدى الشعبية والنجاح المتناميْين بسرعة، والذين وصلت إليها الإيدلوجيتان، الفاشية والنازية ومؤسسـاتما، «كانوا يتجاوبون كل التجاوب»، ولاسيما في ضوء الإخفاق الظاهـريّ للديمقراطـيات الدستورية في أوربة[2]. وبالأسلوب ذاته، حاجج نـداف سـفران (Nadaf Safran) بـأن الأزمات الثقافية والاقتصادية العميقة الـتي كـان المـجتمع المصري يمر بها خلال الثلاثينيات أضفت المصداقية على إدعـاءات الفاشية والنازية والشيوعية، وأن الديمقراطية الليبرالية نظام متعفن. واسـتنتج أن النظامْين الشموليْين في إيطاليا وألمانيا، أحدثا انطباعـًا عميقـًا لدى المصريين الذين كانوا قد رأوْا في بلادهم ما يمثل رقمـًا قياسيـًا كاملاً، غير مُلطف، لألوان إخفاق الديمقراطية[3].

وكـان السرد القصصي التأريخيّ (historiographische Narrativ)، يشير عمومـًا، إلى عام (1933 م)، أي: العام الذي وصل فيه هتلر إلى السلطة، على أنه العام الذي يعلن عن نهضة التيارات القومية الموالية للنازية في مصر. وقـد رسخ جذور ندائه بين صفوف الجيل الجديد، وأكثر ما حدث ذلك،

بروزًا، في حركاته الشبابية. ومن الأمثلة الأولى التي يُعْثر عليها في السرد القصصي، (مصر الفتاة) التي تأسست في تشرين الأول عام (1933 م)، وتُعْرَف أيضًا ب(القمصان الخضر). وكانت، كما يقول برنارد لويس: «منظمة شعبية رفيعة المستوى، وكانت أكثر وضوحًا في نازيتها، من حيث الشكل، من المنظمات الأخرى المماثلة، ذات التعاليم الموالية للفاشية والموالية للنازية، التي كانت تنبت وتتكاثر بسرعة في أنحاء الشرق الأوسط العربي في ذلك الوقت. وكانت الميول النازية عند أحمد حسين، مؤسس حزب (مصر الفتاة) وزعيمه، واضحة منذ البداية». ورأى برنارد لويس في النزعة العنصرية ونزعة معاداة السامية عند هذا التنظيم تبنيًا مباشرًا لمعتقدات ألمانيا الفتاة. وبالقياس إليه، كانت عقيدة مصر الفتاة، شكل التنظيم ونشاطه، خلال الثلاثينيات من القرن الماضي، يتسِمان بالسمة النازية الكاملة[4].

وثمة دراسة قمنا بها في السنوات الأخيرة، وكانت مخصصة لتفكيك تركيب هذا المثال المرتبط بالأزمة. فقد رأيت أن «جانب السرد القصصي في الأزمة» يرتكز على الدليل الجزئي والمُتَشَظي بدرجة عالية، ويفتقر إلى الدراسة المنهجية للرأي العام المصري خلال الثلاثينيات. وكانت إحدى الستراتيجيات في عملية التفكيك عندي تتمثل في الكشف عن الإشكالية في مواقف الجماهير المتنوعة داخل المجتمع المصري في الثلاثينيات، إلى أن أصل إلى الفاشية والنازية. وترمي محاولتي إلى إظهار أنه ومع وجود تعبيرات انتقائية عن التطابق مع الفاشية والنازية تتموْضع في الأطراف المحيطية للحديث الشعبي، أو حديث عامة الناس، فإن القوى السياسية والفكرية الرئيسة، وكذلك التيارات العقائدية المهيمنة، كانت ترفض الفاشية والنازية وتعارضهما. وظلت من القوى المساندة، بإخلاص ووفاء، للديمقراطية الليبرالية القائمة على الحكومة الدستورية البرلمانية. ويضاف إلى ذلك أنني

حاولت أن أُظهر أنه حتى الظاهرة التي تستهدي بالفاشية، مثل (مصر الفتاة)، لم تكـن تنظيمات نازية، كما كان يجري تصورها. فلم تكن (مصر الفتاة) معاديـة للسـامية، وكانت تعارض نظرية العرق النازية، وكان عقائديوها يعـبرون عـن المعارضة الواضحة للطبيعة الإمبريالية في النازية وفي الفاشية الإيطالـية، وعـلى وجـه الخصوص كما كان يتم التعبير عن هذا منذ عام (1934 م) فصـاعدًا من خلال تديد موسوليني بغزو الحبشة. ويضاف إلى ذلك أن مصر الفتاة لم تكن أبدًا عاملاً مهيمنـًا في مصر في الثلاثينيات، بل عـلى النقـيض، وحتى بين الأجيال الأحدث سنـًا، كانت قوة هامشية لم تنجح أبدًا في تعبئة أكثر من فئات قليلة، في أي وقت واحد.

وتقـوم استنتاجاتي على دراسة منهجية لثقافة المطبوعات المصرية، وعلى وجـه الخصوص، آلاف الأعداد من الصحف اليومية والأسبوعية والشهرية، والصـحافة المصـورة، ومـئات الدراسـات الفكرية والكتب التي تتناول الموضـوعات الاجتماعية والاقتصادية، والفكر السياسي، والقصة والرواية، والشعر والمسرحيات. وبصرف النظر عن البعد الفكري، كنت أعيد البحث والتحقيق في السياسة المصرية في ذلك العقد: في الحكومات، والقصر والقوى والتنظـيمات الموجودة خارج البرلمان، والعلاقات مع الحكم البريطاني. كما أوْلَت دراستي ردود الفعل المصرية في عامي (1933 و1934 م)، على ظهور النازية، اهتمامـًا خصوصيـًا. وقد وجدت أنه منذ البداية، كانت استجابة كـثير من الجماهير والأفراد داخل المجتمع المصري حيال النازية بوجه عام، وحيال نظرية العرق، وعمليات اضطهاد اليهود بوجه خاص، سلبية على نحو حاسـم[5]. وفي هـذه المقالـة، سوف أُركز على رد فعل واحدة من أرفع المجلات الشهرية مكانة، وهي مجلة (الهلال)، على ظهور النازية وعلى معاداة النازيين للسامية.

[1/3] (الهلال): دفاع عن الحداثة والليبرالية، والمجتمع المدني المنفتح

لم يكـن قد انقضى وقت طويل حين تبين أن مجلة (الهلال) قد حققت لنفسـها وضـعـًا خصوصـيـًا، متميزًا في الصحافة العربية المصرية، إذ أصـبحت واحدة من الدوريات الفكرية الأرفع مقامـًا في ثقافة المطبوعات العربية في مصر وفي أرجاء العالم العربي. وقد أسست هذه المجلة الشهيرة التي تـتخذ من القاهرة قاعدة لها في عام (1892 م)، أسرة زيدان، المهاجرة من أصل لبناني. وفي ظل قيادة جرجي زيدان أصبحت (الهلال) موقعـًا هامـًا لإنشـاء الـثقافة العربية الحديثة، وظفرت بالألوف من المشتركين النظاميين وأصـبحت بسرعة واحدة من أكثر الدوريات الثقافية استئثارًا بالاحترام بين مجتمعات النخبة المثقفة في مصر وسورية الكبرى.

وخـلال حقـبة ما بين الحربين، ارتقت (الهلال) إلى ذرى جديدة، إذ انتقلت إدارة المجلة إلى ولدي جرجي. وفي ظل قيادة إميل، الذين كان يلقى العـون من أخيه شكري، أصبحت (الهلال) من كبريات المنتديات الثقافية. فكانت تجتذب كبار المفكرين العرب من كل أنحاء المنطقة وتساعد في صياغة الخطاب الفكري في كل الشرق الأوسط العربي. ولن يكون من قبيل المبالغة أن يقال إن كل مفكر أو كاتب ذي شأن، في إطار ثقافة المطبوعات العربية، أسـهم، أو كان يتوق إلى أن يسهم، في هذه المجلة الشهرية. وكان النشر في (الهلال) يعني ما يقارب ضمان العضوية في مجتمع الخطاب الفكري الرفيع.

وعشـية الحرب العالمية الثانية، وبانتشار لا يقل عن (40000) (وربما أكثر) لم تقتصـر (الهلال) على مضاعفة حجم قرائها، منذ السنوات الأولى التي تلت الحرب العالمية الأولى، بل باتت تنوع. وانتهت إلى أن تضم إلى قرائها الأجيال الجديـدة، الأحدث سنـًا، في المجتمعات الثقافية الطامحة على المراكز المرموقة،

في مصر وفي البلدان العربية الأخرى، وأصبحت دار النشر العائدة لآل زيدان، وهي دار (الهلال) من أكبر دور النشر في الشرق الأوسط. وأصدرت مجلات مصورة، ومجلات صور أسبوعية مثل: (المصوّر) منذ عام (1924 م) و(الاثنين) مـنذ عام (1934 م)، وبلغ انتشار هاتين الـلتين في نهاية الثلاثينيات (80000 و100000) عـلى الـتوالي، وأعانـت شعبيتها على تحويل دار (الهلال) إلى إمـبراطورية صـغيرة من إمبراطوريات وسائل الإعلام، كانت تستخدم نفوذًا هائلاً في صياغة الملامح العامة لثقافة المطبوعات العربية وتجديدها.

وكانت (الهلال) ناطقـًا رسميـًا بامتياز، يتحدث بلسان الطبقة الوسطى المـثقفة (الأفندية) في سنوات ما بين الحربين، وكان كثير من كتابها ينتمون إلى هـذا الوسط الاجتماعي. وكانت الـلة الشهرية تحاول، من جانبها، أن تلبي التطلعات الثقافية والاجتماعية والسياسية لفئات (الأفندية) في مصر وفي الـبلدان العربـية الأخرى. وكانت تنظر إلى نفسها على أنها ممثلة للمجتمع المـدني المنفـتح والثقافة التعددية التي تنمو وتتطور في إطار ديموقراطية مصر الدستورية البرلمانية.

وهـي تتميز بسياسة يمليها عليها الضمير الحيّ تقوم على إنشاء ثقافة عربية مشتركة بتطوير خطاب عربي يشمل الناس جميعـًا، على صفحاتها، يظهر فيه الكـتاب المسـلمون إلى جانـب المسيحيين، وفي بعض الأحيان، إلى جانب الكـتاب الـيهود أيضـًا. وفي ظل الثقافة العربية العلمانية الحديثة نجحت (الهلال) في الجمع بين كلّ من المثقفين المسيحيين والمسلمين في الشرق الأوسط العربي، للإدلاء بدلوهم في الخطاب الثقافي الليبرالي الحداثي المزدهر[6].

وكـان أحـد أسباب ليبرالية (الهلال) والتزامها بالـتمع المدني المنفتح، التعددي، الديموقراطي يرجع إلى موقع الـلة، ومالكيها، وهم الجيل الثاني من المهاجـرين السـوريين اللبنانيين والمسيحيين، داخل الـتمع المسلم المصري. وبصـفتهم أفرادًا من أقلية دينية كان آل زيدان مرهفي الحس حتى تجاه كل

مثال من أمثلة التمييز الإثني، أو الطائفي، أو العنصري، وكانوا يخشون من تضمناته أو توريطاته، على وضعهم في إطار الثقافة العربية المصرية. وكان من التعبيرات الرئيسة من ليبرالية (الهلال) معارضتها، في الثلاثينيات، للفاشية في إيطاليا وللنازية في ألمانيا. وكانت لا تفتأ تقدم النظام الشمولي الذي يتطور في ظل النظام الفاشيستي والنازي، بشكل من أشكال الحكم غير قابل لأن تعقد مصالحة بينه وبين الحضارة الأوربية ذات النزعة الإنسانية، التي كانت نتاج عصر التنوير، وكانت ممثلة من حيث المبدأ بثقافات إنغلترا وفرنسا والولايات المتحدة، الليبرالية والديموقراطية. وكانوا يتصورون هذه القوى في صورة المعادية للعقلانية والرجعية والمستبدة وكان يجري عرضها في صورة تهديد لإنشاء الثقافة العربية القائمة على الحداثة، والنزعة العقلانية والعلمانية التعددية، التي كانت (الهلال) تعززها، ثقافة لا يمكن أن تتطور وتزدهر إلا في إطار نظام ديموقراطي برلماني سوف يشجع ظهور مجتمع مدني منفتح ينطوي على عناصر متغايرة.

وكان نقد (الهلال) المؤلم الشديد للفاشية والنازية يتوجّه في ثلاث قنوات رئيسة، أولها أنه كان ينتقد السمة الشمولية للفاشية والنازية، وإقدام هذه النظم على خنق أصوات المعارضة عن طريق القمع الوحشي للحقوق المدنية الفردية، كحرية الصحافة، وحرية التعبير، والتخريب المتعمد للتعددية الثقافية. والثاني أنه كان يعرض نقدًا منهجيًا للتمييز الإثني ومفهومات التفوق العنصري، والنقاء العنصري، مع توجيه ذلك، في المقام الأول، ضد النظام النازي في ألمانيا. والثالث أنه كان ينتقد مطامح موسوليني وهتلر الإمبريالية التي كان يراها توسعية، كما ينتقد شهيتهما للضم والتوحيد، من أجل اكتساب المجال الحيوي في أوربة، وفي سبيل انتزاع مستعمرات جديدة لإيطاليا وألمانيا في آسيا وإفريقية، وتقويض دعائم النظام العالمي السلميّ الذي تم إرساء أسسه في نهاية الحرب العالمية الأولى. وكان يتمّ التعبير عن موقف (الهلال) المعادي

للفاشـية والنازية بمئات المقالات والتقارير خلال الثلاثينيات وفي أثناء الحرب العالمية الثانية، يكتبها أعضاء هيئة التحرير وعدد كبير من المثقفين[7].

3/ 2] عرض قضية «اليهود المطاردين»:

موقف (الهلال) من اضطهاد اليهود في تاريخ أوربة

إن وصول هتلر إلى السلطة في ألمانيا في نهاية كانون الثاني عام (1933 م) زاد مـن اهتمامه بالثقافة السياسية الشمولية الجديدة التي ظهرت في أوربة، وكانت هذه تعرب على نحو آخر الزيادة، عن اعتراضها الشديد على النظام الـنازي وتهاجم هتلر شخصيـًا بسبب الإجراءات العنيفة التي اتخذها نظامه لطبع الحياة في ألمانيا بالطابع النازي. وكانت تركز بوجه خاص على التدمير المنهجي للحقوق المدنية الفردية، وتقويض دعائم الديموقراطية البرلمانية. ومن المهـم أن نلاحـظ أن اضطهاد اليهود أصبح من الموضوعات ذات الأهمية الرئيسة للمجلة الشهيرة خلال السنة الأولى من حكم هتلر. وبنقدها المطرد الـزيادة كانت (الهلال) تتابع بأمانة ودقة العمليات التي كان يرسم بها خط فاصـل بين اليهود والألمان الآخرين، وكان ثمة مركزان من مراكز اهتمامها يتمثلان في اضطهاد المثقفين اليهود، وإبعاد المهنيين اليهود عن أماكن عملهم. وبحلـول صـيف عام (1933 م) كانت (الهلال) قد استنتجت أن اضطهاد الـيهود عـلى أساس عنصري يتمثل في معاداة السامية آخذ في التحول إلى سياسـة ثابتة للنظام النازي. وكانت تجنح على نحو مطرد الزيادة إلى طرح هـذا الموضوع على قرائها وإلى محاولة الكشف عن مصادره وأسبابه. وكما سبق أن ذكرت، وبسبب وضعها من حيث كونها صحيفة مسيحية في مجتمع مسـلم، كانـت (الهلال) تجنح إلى التعاطف، على وجه العموم، مع مآزق الأقليات المضطهدة لأسباب إثنية أو دينية، وفي حالة اليهود في ألمانيا النازية،

علـى أساس العرق. ورأت أن من المناسب أن تزود قرائها بالخلفية التاريخية العريضـة لاضطهاد اليهود في أوربة بحكم كون ذلك طريقة لإعلامهم فيما يتعلق بالسياسة العنصرية القائمة على معاداة السامية التي كان النظام النازي يـنفذها حيال مواطني ألمانيا من اليهود[8]. ولما لم يكن للهلال إلا قليل من القرار أو المشتركين اليهود فسوف يكون من الصعب الاحتجاج بأن اليهود لعـبوا دورًا في صياغة موقف المجلة الشهرية. ثم إننا لا نملك دليلاً يوحي بأنه كان هناك أي دور خصوصي يهودي في مجلة (الهلال). وقد احتجت الطائفة الـيهودية في مصر بالفعل على اضطهاد اليهود في ألمانيا، وكان احتجاجـًا حظي ببعض دعم جماهير المسلمين والمسيحيين[9]. ولكن موقف (الهلال) من الموضـوع لم يكن له ارتباط بيهود مصر، بل نجم عن الأسباب التي عددتها لـتوي: وأولها أن المجلة الشهرية كانت تلتزم التزامـًا عميقـًا بتعزيز القيم والمـثل الخاصة بمجتمع ليبرالي منفتح، وكانت تعارض، نتيجة لذلك، الـ عة الشمولية الفاشية والنازية، معارضة شديدة. والثاني أنها كانت تتعاطف على وجه العموم مع الأقليات المضطهدة لأسباب إثنية وعنصرية.

وفي تموز عام (1933 م) أتيحت لاستراتيجية التعامل المباشر مع موضوع اضـطهاد اليهود أبرز أشكال التعبير عنها عندما نشرت هذه الدورية مقالاً مستفيضـ ـًا حـول الموضوع بعنوان «الشعوب المضطهدة ومذابح التاريخ الكـبرى». وحاول المقال أن يضع اضطهاد اليهود الألمان في إطار الحالات التاريخـية الأخرى للاضطهاد والإبادة الجماعية[10]. وكان المقال مقرونـًا بملاحظة من المحرر، كتبها إميل زيدان، أعلمت القراء أن توقيت نشر المقال يرجع إلى حقيقة أن اليهود يعانون الاضطهاد والقمع في ألمانيا في هذه الأيام[11]. واستخدم كاتب المقال مصطلح مذبحة، ومذابح في صيغة الجمع، ولكن كان يتضح من سياق الكلام أن معناه إنما هو (الإبادة الجماعية). وناقش الأسباب النوعية المختلفة الكامنة وراء سياسات عمليات الاضطهاد. أتراها نجمت عن

(الاضـطهاد المنظم) بغرض الانتقام من اليهود لأنم يغادرون ألمانيا مغادرة جماعـية؟، أم كان أكثر اتسامـًا بالسمة الشخصية؟، أي أنه كان اضطهادًا لشخصـيات يهودية نوعية، لا يعكس سياسة عامة أوسع، للاضطهاد؟[12]. ولكـي يشـرح الموضوع شرحـًا عميقـًا، ويضعه داخل سياقه التاريخي والثقافي، استعرض المقال تاريخ اضطهاد الشعوب.

وأكـد الكاتـب في كلماته الاستهلالية أن اضطهاد اليوم في ألمانيا ليس بالحالـة الأولى مـن نوعهـا في التاريخ، فقد شهد العالم مذابح وعمليات اضـطهاد خلفـت في سجل النوع الإنساني سمة الجريمة. وكتب يقول إنا حدثت في آسيا وأوربة، منذ العصور القديمة، وقال يشرح، إنا كانت محصلة الحـروب الدينية والاشتباكات العنيفة بين المعتقدات والثقافات المتباينة، ولم تكـن حروب أتيلا وقبائل الهون، أي: حروب الغزو والإبادة، في أوربة، في القرن الخامس، غزوات المغول (التتار) القادمين من آسيا، إلى الغرب، حيث روسـيا، وإلى أوربة الشرقية والوسطى، وإلى الشرق الأوسط الإسلامي، في القرن الثالث عشر، والتخريب الثقافي والقتل الذي خلّفوا من بعدهم، سوى مـثلين مـن أمثلة التاريخ على «سفك أنار من الدماء في كل أرجاء العالم (القـديم والوسـيط). وأكد الكاتب وحشية الغزاة المغول الرهيبة والأرض المحـروقة الـتي خلفوها وراءهم، وحرقهم المدن بأسرها وإبادتم مجتمعات بشرية كاملة، ونشرهم روح العداء للحضارة. وعدّ الهون والمغول مسؤولين عـن قتلهم (ثلاثين مليونـًا) من الأوربيين وأبناء الشرق الأوسط، وكتب يقول إن أتيلا، وجنكيز خان وتيمورلنك كانوا قادتم المتعطشين إلى الدماء، المروّعين، وكانوا لعنة الله على الأرض[13].

ويسـتفاد مـن الكاتب أن المسلمين عانوا كثيرًا أعمال النهب والسلب والقـتل والـتدمير بـلا رحمة التي كان المغول (التتار) يرتكبونا في مراكز الحضارة الإسلامية. فقد احتل «أعداء الحضارة» المدن الإسلامية، واحرقوها،

وقضـوا على مجتمعات محلية بأسرها من المسلمين. وعندما أخضعوا بغداد، التي كانت حينئذ حاضرة الإسلام قتلوا سكانها، رجالاً ونساءً وأطفالاً، أما مكتـبة بغداد الشهيرة «التي لم يكن لها نظير في العالم بأسره» فقد أحرقت، مـع كل التحف الفنية الأخرى، القيمة، المعمارية اليدوية الصنع، إذا كانوا يهدفون إلى وضع نهاية للحضارة العربية الإسلامية». ويستنتج الكاتب قائلاً: «وهكذا كان المسلمون يقتلون ببساطة لأنهم كانوا مسلمين أتقياء»[14].

ولكـن الأوربـيين أنفسهم أثاروا أيضـًا حروبـًا دينية وثقافية. وأدخل كاتـب (الهـلال) هـذه أيضـًا في تأريخه لأعمال الاضطهاد، ولاحظ أن الإمبراطورية الرومانية قتلت، بفظاظة ووحشية، مجتمعات بأسرها رفضت تقبل المعـتقدات الرومانية والحضارة الرومانية. وربما كانت هوية (الهلال) المسيحية هـي الـتي حملت الكاتب على تأكيد عمليات اضطهاد المسيحيين في القرنين الأول والـثاني، في الإمـبراطورية الرومانية. وروى أن نيرون حرض جماهير الرومان ضد المسيحيين باتهامهم بالشروع في إشعال النار التي دمرت أكثر من نصـف رومـا. وأثـار اتهامـه الهجمات الجماهيرية على المسيحيين وذبح المسـيحيين، رجـالاً ونساءً وأطفالاً، وكان نيرون يغطسهم في القار الساخن حـتى الإحمـرار «ويحولهم إلى مشاعل تضيء في الليل وتنير الطرق والحدائق والسـاحات العمومية». وبرأي الكاتب كان نيرون مثلاً آخر لمقترف الإبادة الجماعية. ولاحظ أن خلفاءه أيضـًا كانوا يضطهدون المسيحيون ويقمعونهم. واستمرت عمليات قتل المسيحيين الذين رفضوا الارتداد عن معتقداتهم[15].

وأعـاد مقـال (الهـلال) إلى الذاكرة أيضـًا أمثلة من مذابح أقيمت للمسـيحيين عـلى أيدي المسيحيين، ومذابح للمسلمين أقيمت على أيدي المسلمين في أواخر العصور الوسطى. وقد أدى ظهور البروتستانتية في أوربة في القرن السادس عشر إلى موجة من الاضطهادات الموجعة للبروتستانت من الكنيسة الكاثوليكية. وشهد القرنان السادس عشر والسابع عشر «حروبـًا

دينـية دامية» ومجازر للبروتستانت على أيدي الكاثوليك، وعمليات انتقامية للبروتستانت من النوع ذاته. «ففي يوم واحد فحسب، هو الرابع والعشرون مـن آب، في مذبحة سان برتلمي (Bartholomäusnacht) (في فرنسا) قتل ما يقـارب ثلاثـين ألفـًـا من البروتستانت [على أيدي الكاثوليك]. وقدر الكاتـب أن الكاثولـيك قتلوا «بضعة ملايين» من البروتستانت في هولندا وألمانيا وسويسرا وإسبانيا وفرنسا على مدى القرن السادس عشر، وقد يكون في هذا مبالغة، ولكن العدد الفعلي يبدو أنه مئات الألوف[16].

وتحـدث أيضـًـا عن مئات ألوف المسلمين الذين قتلوا على يد جيش سـليم الأول، المنتصر، خلال الاكتساح العسكري السريع للشرق الأوسط في أوائـل القرن السادس عشر، وتكبد المماليك، حكام سورية ومصر، أكبر الخسـائر. إذ قضى سليم، على آلاف عديدة منهم. ويستنتج الكاتب قائلاً: إن عمليـات قـتل الشـعوب بأسرها، أو المذابح البشرية، حدثت داخل مجتمعات المعتنقين للديانة ذاتها[17].

غـير أن أشـكال القمع والاضطهاد التي عاناها اليهود بسبب دينهم، هي الـتي أفردها الكاتب من بين هذه الأمثلة التاريخية. ففي الحقيقة، وعلى الرغم مـن وضعه اضطهاد اليهود في سياق تاريخي أوسع نطاقـًـا، كان يرى فيهم الضـحايا الأولى في «تـاريخ الشـعوب المضـطهدة»، وكان تركيزه على الاضطهاد المسيحي لليهود. وقد تميزت الحروب الدينية والحروب الصليبية التي شـنت على فلسطين خلال العصور الوسطى، بتعصب ديني وصل إلى أقصى الحـدود. وكـان كثيرًا ما يتوجه ضد الطوائف اليهودية في أنحاء أوربة. أما الصـليبيون فكانوا يرون أن واجبهم هو القضاء على أعداء المسيحية، وأولهم، وفي مقدمتهم، اليهود. وأعاد الكاتب إلى الأذهان مأزق الطوائف اليهودية في أنحـاء أوربـة، الـتي وقعت في القرن الحادي عشر والثاني عشر، وعلى وجه الخصـوص في القـرن الثالـث عشـر، ضحية للتحريض المرتبط بالصليبيين

المتعصبين. وكتب يقول إنه في ألمانيا وفرنسا، على وجه الخصوص، كان اليهود يضطهدون كلما كان المحاربون الدينيون يتأهبون للشروع في حرب صليبية. واستشهد على وجه الخصوص بمجزرة القرن الحادي عشر التي أقيمت للطائفة اليهودية المزدهرة في ماينتس (Mainz)، وتحدث عنها بالتفصيل وقال إن اليهود الذين نظموا أنفسهم بهدف الدفاع الذاتي بأنفسهم قاتلوا بشجاعة إلى أن غلبوا على أمرهم. وقال إنه قتل في يوم واحد نحو (1100) يهودي من الرجال والنساء والأطفال. وانتحر كثير منهم ليتجنبوا التعذيب والارتداد القسري عن دينهم، وللسبب ذاته قتل الزواج زوجاتهم وانتحروا[18].

ثم إنه أشار أيضًا إلى حالة يهود يورك، في نهاية القرن الثاني عشر (1189-1190 م). فحين نشبت أعمال الشغب ضد اليهود في مدينة يورك، لأسباب دينية واقتصادية معًا، لجأ أفراد الطائفة اليهودية إلى القلعة الملكية، بإذن من الحاكم المحلي، وقاد رعاع مشاغبون حصارًا للقلعة، وقرر زعيم الطائفة اليهودية الحاخام إلياهو يوم توف أن القوم خليقون أن يقتلوهم «اضطر أن يقتل ستين من اليهود لينقذهم من العذاب الذي كان مهيئًا لهم [على أيدي المشاغبين المسيحيين]. ولاحظ الكاتب أن القرار إنما اتخذ أيضًا بصفة اختيار لمصير أفضل من وليحول دون ارتدادهم[19].

وكان يتم إضفاء الصفة المؤسساتية على عمليات الاضطهاد وأعمال الشغب عن طريقة أيديولوجية رسمية معادية لليهود. وأعاد المقال تركيب شكليات الممارسات التمييزية الاستبعادية فيما يتعلق باليهود، عن طريق إجراءات تتراوح بين ترويج الكتابات المثيرة للمشاعر، والمقولبة في قوالب جاهزة، وفرض مطلب يتمثل في ارتداء اليهود مطالب خاصة وفرض قيود على تحركاتهم.

وأعاد الكاتب أيضًا سرد حكاية مصير اليهود خلال حقبة ما بعد العصر الوسيط لينتهي بها إلى حقبة ما قبل العصر الحديث. ولاحظ الكاتب،

في إطار مسعاه هذا، أنه كان ينسج على منوال «المؤرخ اليهودي» والروائي لـيون فويشتفانغر (Lion Feuchwagner, 1884-1958)، (وهو الآن في منفاه خـارج ألمانـيا). ولم يعـد فويتشـفانغر أبدًا إلى ألمانيا، بعد جولته لإلقاء المحاضرات في الولايات المتحدة. وفي البداية وجد ملاذًا له في سويسرا، وفيما بعـد في جنوبي فرنسا[20]. وقرر أنه كان تعلم من كتابات فويتشفانغر، وأن معظم اليهود الذين أخرجوا من ألمانيا في نهاية العصور الوسطى: هاجروا إلى بولـندا وعاشـوا هناك في خوف دائم، يترقبون موتهم في أية لحظة. ورسم الكتاب بألوان قاتمة، حياة اليهود في بولندا، على أنها تصوير للاضطهاد الذي عاناه اليهود في أرجاء أوربة خلال حقبة ما قبل العصر الحديث. وتشير نبرة وصفه إلى أنه كان يتمثل في ذهنه المشاعر المرتبطة بمصيرهم تمثلاً قويـًا.

[ففي بولندا] سنت لهم الحكومة قوانين في منتهى الشدة فلم تأذن بأن تـزيد نسـبة عددهـم في أي بلـدة على يهودي واحد لكل ستمئة مسيحي. وفرضت على الضرائب والمكوس الباهظة، وقيدت حركاتهم وسـكناتهم وحرفهم وصناعاتهم بقيود ثقيلة، وحظرت عليهم مزاولة المهـن الحرة، ومنعتهم من حلق لحاهم، وفرضت عليهم ثيابـًا معينة، وحصرتهم في أحياء قذرة لا يجوز لهم أن يتعدوها. وضربت لهم مواعيد للخروج في النهار، إلى غير ذلك من القيود الثقيلة التي أرهقتهم بها[21].

وعـلى كـل حـال فعلى الرغم من هذه الأشكال من الحظر والتقييد، ازدهـرت أحوال اليهود وتكاثروا في أحياء (الغيتو) القذرة المظلمة، الباعثة للكآبـة، المخصصة لهم. على أن محدودية الفرص المهنية، كما قال الكاتب، قـادت كثيرًا منهم إلى اتخاذ مهنة (إقراض المال بالفائدة) التي أتاحت لهم أن يـتحملوا عبء الحياة الذي لا يحتمل. وقرر كاتب المقال بوضوح، تقديره لمقدرة (اليهودي المطارد) على البقاء، ولمواهبه ومقدرته على الالتزام الصلب العنـيد بطريقته في الحياة ومعتقداته، في ظل ظروف لا تحتمل، بل كان في بعض الأحيان، ما لا يليق بالبشر[22].

وقـد جنح المرء إلى أن يتساءل: هل كان ثمة لهجة تنم عن معاداة الكاتب للسـامية تكمـن في وصفه اليهود بأنهم مقرضوا أموال؟. ولكن سيكون من الخطأ أن يعزى إليه هذا المقصد؟ فقد كان إعجابه بمقدرة اليهود على التكيف مـع ظـروف الحياة القاسية وكسب معيشتهم، في ظل انعدام الأمن الدائم، إعجابـًا صادقـًا. ولم يكن ينظر إلى براعة اليهود في الأمور المالية نظرته على سمـة سلبية، ولا كان ينظر إليها على أنها ما يمثل «عقلية يهودية» نوعية، بل كـان يراها على النقيض من ذلك، ما يقدم أنموذجـًا وظيفيـًا، اجتماعيـًا اقتصاديـًا، لحياة اجتماعية وللبقاء الثقافي في ظل أصعب الظروف[23].

3/ 3] من كراهية اليهود إلى معاداة السامية:
حركة معاداة السامية في أوربة الحديثة

وقـد كـان المقصود من المناقشة المستفيضة، في المقال، لتاريخ الشعوب المضـطهدة، عـلى وجـه العموم، تزويد القارئ بخلفية تاريخية للاضطهاد الحديـث لليهود. أما الموضوع الذي كانت مجلة (الهلال) تركز عليه، على وجـه التخصيص، فكان اضطهاد اليهود في ألمانيا في عام (1933 م): فعلى مدى صيف ذلك العام نشرت الصحيفة الشهرية عددًا من المقالات والتقارير حـول الموضـوع. عـلى أن أعلاها شأنـًا كان مقالاً صدر في عدد آب بعنوان: «اضطهاد اليهود الحديث:كيف نشأت الحركة ضد السامية وكيف تطورت»، وكان هذا متابعة لموضوع «الشعوب المضطهدة ومذابح التاريخ الكـبرى» الـذي كـان ظهـر قبل شهر من هذا، وكان مقال عدد آب مكتوبـًا: بمناسبة ما أصاب اليهود أخيرًا في ألمانيا على أثر قيام حكومة[24]. وحاول كاتب المقال (ولعله هو المحرر؟) تصوير جوهر حركة معاداة السامية (الحـركة ضد السامية) وأسباب ظهورها وتطورها في أوربة الحديثة خلال

النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ويستهل المقال بمحاولة تعريف معاداة السامية ووضعها في إطار عصر نوعي ومكان نوعي:

> **في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، كانت أوربة تتنازعها الأهواءالسياسية والاحتلافات الدولية، وما لبثت أن نشأت بين هذه الحركات حركة موجهة ضد اليهود عرفت باسم (ضد السامية) [ويستخدم الكاتب المصطلح العربي: ضد السامية، إلى جانب الكلمة الإنغليزية (anti-Semitism)][25].**

ومن المهم أن نلاحظ أن الكاتب لم يكن ينظر إلى معاداة السامية على أنها حركة ضد كل الساميين، لأن معاداة السامية، تشمل بحكم التعريف أيضًا العرب والمسلمين، وبوجه أكثر عمومًا، شعوب الشرق، أي: أبناء (سام). وفي أوساط معينة، وفي إطار الخطاب العصري الشائع في الوسط الثقافي المصري العربي، كان هناك ميل إلى رؤية معاداة السامية من الوجهة النازية على أنها حركة تشتمل على كل الحركة المعادية للسامية. ونص الكاتب يوضح أنه لا يشاطر أصحاب هذا الرأي رأيهم: «. . على أساس كره اليهود الذي يرجع إلى القرون الخالية»[26]. وعلى كل حال فهو يضع النزعة العنصرية المرتبطة بمعاداة السامية في إطار الخلفية المعاصرة الأوسع مع ارتباطها بحقبة الإمبريالية والغزو الأوربي لأقاليم وبلدان مترامية الأطراف في شرقي آسيا. وكان قادة حركة معاداة السامية يرتدون ثيابًا حديثة ويدعون أنهم يرغبون في منع الأجناس السامية من السيطرة على الأجناس الآرية، ووقف تيار المهاجرين الساميين من آسيا إلى أوربة:

> **[وكان] زعماء هذه الحركة [ضد الصهيونية، ز م]، ألبسوها ثوبًا عصريًا وزعموا أنهم يقصدون بها منع الأجناس السامية من التغلب على الأجناس الآرية، وإيقاف تدفق سيل الساميين من آسية إلى أوربة، ونادوا بأنها حركة غايتها إنقاذ المدنية الأوربية من غارة الجاهلية الآسيوية![27].**

وعلى كل حال فقد ظل تركيزه على معاداة السامية من حيث كونها حركة معادية لليهود أولاً وقبل كل شيء. ولم يكن لها في نظرية الكاتب ارتباط مباشر بالنضال التقليدي القديم بين أوربة وآسيا، أو النضال المتطاول بين الكنيسة والبيعة، أي: بين المسيحية واليهودية، أي بذلك النضال ذاته الذي سفك من أجله كثير من الدم وأزهقت في سبيله كثيرًا من الأرواح في العصور الوسطى. وأكد أن معاداة السامية حديثة بطبيعتها ذاتها، وأنها محصلة لتحرر اليهود في منتصف القرن التاسع عشر[28]. وهنا يوجد تناقض في حجج الكاتب، إنه تناقض يعكس معضلة كانت ما تفتأ تشوش مجلة (الهلال). وبحكم كونها دورية تتسم بالحداثة وجدت نفسها تلعب دورًا في صياغة الثقافية العلمانية المتنورة في مصر وفي العالم العربي، كانت تستنكر الاضطهاد على أساس ديني، وكثيرًا ما يتم التأكيد، في صفحات المجلة، أن الاضطهاد الديني لليهود يمثل تظاهرة قبيحة، لاإنسانية ترجع إلى عصر ما قبل الحداثة. وفي عدد تموز عام (1933 م)، مثلاً كتب كاتب مقالة (الشعوب المضطهدة . .) يقول إن الاضطهادات الدينية: قد قلّت بسبب تقدم المدنية[29].

ومع ذلك فقد كانت نظرة (الهلال) إلى الحداثة رصينة واقعية. فحتى على الرغم من أنها كانت تصفق للتقدم والحداثة، والإنسانية، مكررة التعبير عن التزامها بالثقافة الصناعية والتكنولوجية، ظلت هذه المجلة تعي نقائص الحداثة ومثالبها وأوجه ضعفها، ذلك لأنها كانت غير قادرة على أن تستأصل هذه الظاهرة [أي: اضطهاد الشعوب، على غرار ما كان يحدث في العصور الوسطى]، ذلك أن لهيبها يندلع اندلاع نيران الاضطهاد القائم على التعصب، على أساس طائفي أو إثني، وينفجر من حين إلى آخر كأنها جذوة نار تحت الرماد. وبالنسبة لمجلة (الهلال) كانت هذه هي الخلفية الخاصة بالانفجار الحديث لمعاداة السامية الموجهة ضد اليهود. وقد تولدت في الواقع الحديث الذي أعقب العصر الوسيط، وكانت نتاجًا بامتياز للظروف الحديثة التي

تطورت في أوربة المتقدمة الصناعية، العلمية، والعقلانية، في القرن التاسع عشر. ولكن كان لها أيضًا جذور أعمق في الاضطهادات التي لحقت بالأمم والأديان، وفي «قتل الشعوب والطوائف الدينية» خلال العصور الوسطى، على أن صاحبة نزعة الحداثة الصامدة المخلصة، أي: مجلة (الهلال)، اعترفت بمحدودية قدرة الحداثة في تغيير الطبيعة البشرية والثقافة البشرية[30].

فكيف استفحلت معاداة السامية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر؟، وماذا كانت أسبابها التاريخية النوعية؟. لقد كانت الجزء الأخير من (اضطهاد اليهود الحديث) مكرسة لمحاولة لتقديم أجوبة متماسكة منطقيًا ومنهجية ومقنعة، عن هذه الأسئلة. وعرض الكاتب أولاً تفسيرًا شاملاً لكل من الأوربيين لظاهرة معاداة السامية، ثم فحص عمليات تطورها الخصوصي في عدد من بلدان أوربة، حيث انتهت إلى أن تكون إحدى السمات الرئيسة للثقافة الحديثة. وكان وصفه للأحداث والعمليات، على العموم، دقيقًا وكان تفسيره التاريخي متعاطفًا مع اليهود واليهودية.

لقد نظر كاتب المقالة إلى «التحرر الذي منح لليهود في القرن التاسع عشر» على أنه السياق التاريخي الإجمالي لرد الفعل الناجم عن معاداة السامية، وشرح قائلاً إن اليهود كانوا يعيشون في أوربة على مدى آلاف السنين، بصفة: أجانب دخلاء، فلم تتمثلهم المجتمعات الأوربية التي عاشوا فيها، وكانت معظم هذه المجتمعات والطوائف مسيحية ولم تفتح أبوابها لليهود، وفوق ذلك، لأسباب دينية، أما اليهود من جانبهم، فقد كانوا يحافظون على شخصيتهم اليهودية الخاصة محافظة المتحمس، ولم يرغبوا في الاندماج أبدًا، وكانوا يحافظون محافظة لا رادع فيها، على تفردهم وانفصاليتهم (إذا كانوا يعزلون أنفسهم في أحيائهم الخاصة بهم) (ويستخدم الكاتب مصطلح الغيتو)، ويتمسكون بهويتهم المتفردة، القومية والدينية. واستنتج الكاتب أن عزلة اليهود وتميزهم اللذين كانا بالفعل الباعث لهم على

تطوير قوى وطاقات غير عادية للبقاء. ونسمع مرة أخرى نبرة الإعجاب ببقاء اليهود على الزمن، وقدرتهم على التكيف، وعندما كانت تفرض عليهم أشكال من التقييد وإجراءات تمييزية من قبل الكنيسة والدولة، ونتيجة لذلك كان اليهود يمنعون من الخدمة في الجيش، فيكتسبون الأرض، أو يؤسسون الشركات التجارية، كان رد فعلهم كما قال الكاتب هو التفوق في إنشاء مصادر مستقلة للدخل، وتكديس الثروة، وادخارها لأوقات عصيبة، بدرجة أكبر. وكانوا يحسنون براعاتهم في البقاء على الزمن، فأصبحوا دهاة، أولي براعة وذكاء حاد، وطوروا مقدرة على المناورة بين المجتمعات والثقافات. ولاحظ الكاتب أيضًا أن اليهود، بعد الثورة الفرنسية، أكثر المحامين الأكثر إخلاصًا ووفاءً عن المبادئ الحديثة في المساواة والحرية والديموقراطية وكانوا يدعون إلى تنفيذها الكامل، بحكم كون ذلك وسيلة لهم على الاندماج في البلدان والمجتمعات الأوربية العلمانية[31].

وفي الحقيقة أكد الكاتب أن «الخروج من الغيتو» والتحرر من القرن التاسع عشر غير حياة اليهود في كل جانب من جوانبها. فقد أتيحت لهم فرصة ترك حيواتهم المعزولة في «مجتمعات الغيتو»، والتخلي عن هويتهم الدينية والإثنية، والاندماج الكامل في المجتمع والثقافة الأوربيتين. وبالفعل وثب كثير من اليهود لاغتنام الفرصة التي أتاحت لهم إمكانية الوصول إلى ثقافة التنوير العلمانية.

> **ولما حرر من قيوده سمح له بأن يغادر (حيّ اليهود)، والتمتع بحقوق المواطنين الآخرين برز من حيه مخلوقًا جديدًا فلم يعد ذلك اليهودي الشرقي، وإنما كان أوربيًا عصريًا يمتاز عن الأوربيين بدقة ذكائه الحاد وسعة حيلته[32].**

وأصبحت ألمانيا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الحلبة الرئيسة «لخروج اليهود من الغيتو»، وشرح الكاتب ذلك قائلاً: إن اليهود كانوا

ينـتمون إلى الطبقات الوسطى، ولذلك ركزوا جهودهم على الاندماج في الطـبقة الوسطى التي تعيش في المدن، والمتعلمة، وسرعان ما اصبحوا طليعة هذه الطبقة من الناحية المالية، والسياسية والاجتماعية، وكانوا ناجحين على وجـه الخصوص، كما قال، في ألمانيا والنمسا (النمسا والمر). وتبوأ اليهود الأكفاء مراكز رفيعة في المؤسسات الحكومية، والتعليمية، والقانونية، والثقافية لهـذه البلدان. وذكر الكاتب لودفيغ برونه، وهاينريش هاين، وإدوارد غانز، وكـارل مـاركس، وموسـيس هس، إذا شئنا أن نضرب أمثلة فائقة على النجاح الذي تحقق على أيدي اليهود الذين تركوا (الغيتو)، وأصبحوا جزءًا من ثقافة ألمانيا والنمسا الحديثة. على أن التأثير المالي لليهود وعدد المصارف والمشـروعات الـتجارية التي يديرها اليهود ازداد زيادة كبيرة. وهذه القوة والنفوذ المتناميان في أيدي اليهود أثار الخوف والشبهة لدى الألمان، سواء في ذلك فئات النخب، أم الجماهير. كان الألمان والنمساويون يخافون أن يجدوا أنفسـهم غرباء في بلادهم، لأنم خليقون أن يصبحوا، قبل أن ينقضي وقت ليس بالمفرط في الطول، خدمـًا، ويكون اليهود هم الأسياد. وهذا النجاح اليهودي المحلق وردود الأفعال المنطوية على الخوف بصورة أنموذجية، من قبل الألمـان والنمساويين، كانا، كما يقول الكاتب، المواد المتفجرة التي أشعلت نـار العداء للسامية، حركة عدوانية ضد اليهود، ومضى يشرح الظلم الذي يـنطوي عليه رد الفعل هذا على النجاح اليهودي، وذلك، على وجه على وجـه الخصوص مع افتراض أن اليهود كانوا أيضـًا أكثر المواطنين حماسة، عندما تتعلق المسألة بالحفاظ على القانون والامتثال لكل القواعد والتنظيمات الـتي تسنها الدولة، ولم يكونوا يدخرون جهدًا من أجل تعزيز مكانة ألمانيا الـتي جعلوها موطنهم الثاني». ومن الأمثلة على ولائهم ما استشهد به من تسـليم بسـمارك بـأن بعـض الحروب التي شنها من أجل وحدة ألمانيا، والحروب التالية ضد فرنسا كانت تمولها قروض قدمها له وللحكومة الألمانية

المموول اليهودي والمصرفي غيرسون فون بلايشرودر (Gerson von Bleichröder). وتم الحصول على ودائع بلايشرودر بعد أن كانت المصادر المالية الألمانية الأخرى رفضت تمويل سياسية الحكومة الألمانية التي تجنح إلى القتال. ومن هنا كان نجاح اليهود، كما استنتج الكاتب، نتيجة لمهاراتم في التعامل مع التمع المدني المنفتح، واستغلال الفرص الكثيرة التي أتيحت لهم، ولكونهم أصبحوا موطنين من اليهود الألمان البنائين والناجحين. وثمة إنجاز يهودي آخر، كما لاحظ، تمثل في العالم السياسي: وذلك أن إدوارد لاسكر (Eduard Lasker, 1829-1884)، وهو أحد مؤسسي الحزب القومي الليبرالي، في عام (1867 م)، لم يكن ينتمي إلى المراتب العليا في قيادته فحسب في السبعينيات من ذلك القرن، بل كان في الحقيقة رجل الحزب القوي[33].

وكان النجاح اليهودي يقابل بردود أفعال تزداد نزعتها العدائية ازديادًا مطردًا، وبلغ من ذلك، كما قرر الكاتب، أن تسبب في ظهور أيديولوجية معادية للسامية وأدب معاد للسامية. وكانت كراهية اليهود تستكن في أرواحهم، لا تنتظر إلا فرصة لتنفجر منطلقة من عقالها. وفي عام (1873 م) (وفي الحقيقة الفعلية لم يكن ذلك إلا في عام 1879 م)، نشر الصحفي ضئيل الشأن، من هامبورغ هو فلهلم مار (Wilhelm Marr, 1819-1904) منشورًا معاديًا للسامية بعنوان ‹انتصار اليهودية على القومية الألمانية› (وترجم كاتب المقالة العنوان الألماني إلى العربية). وأسفر هذا عن نص معاد للسامية عداءً كاملاً، وحظي بشعبية كبيرة: وقد طبعت منه اثنتا عشر طبعة خلال ست سنوات، وكان مار، الذي ينسب إليه صكه لمصطلح (معاداة السامية) يحذر الألمان من أن اليهود يمسكون بزمام الأمور في ألمانيا واقتصادها وثقافتها[34]. وأشار كاتب (الهلال) إلى المنشور بصفته حفازًا لنشر سلسلة طويلة من المقالات والكتب المعادية للسامية في ألمانيا، كتبت على أثره وتم تكريسها، ومنها: الحركة العنصرية المعادية للسامية، وقال إنا ستواصل نموها وتنتشر.

وذكـر الكاتـب أيضـًا أدولف شتوكر (Adolf Stoecker) الذي كان يـرأس (حـزب العمـال الاجـتماعي المسـيحي/ Christlich-Sozialen Arbeiterpartei)، المعـادي للسـامية، فـيما بين عامي (1878 و1885 م) (والمعـروف أيضـًا باسم حركة برلين/ Berliner Bewegung) والذي كان يبـث الدعاية للمعادية للسامية بين قطاعات واسعة من المجتمع الألماني. وقد سـاعد الـنفوذ الثقافي الواسع الذي كان يتمتع به دعائيون مثله، كما قال الكاتب، ومهارات الخطابية والديموغاجية، فضلاً على اللغة الملتهبة التي كان يستخدمها، على إضفاء سمة الشعبية على مذهبه العنصري في معاداة السامية، وغرسـه من بين «صفوف الطبقات الدنيا الجاهلة». وتتبع الكاتب التطور المتواصل لمعاداة السامية القائمة على العنصرية خلال الثمانينيات والتسعينيات من ذلك القرن، حيث أصبحت هذه النزعة أيديولوجية سائدة بين قطاعات واسـعة من المجتمع الألماني، كما أصبحت قوة ثقافية وسياسية لها نفوذها في ألمانـيا. وكانت أعمال الاضطهاد الموجهة ضد اليهود تنتشر في كل مكان: فكـانوا يدافعون ويلعنون، وينهبون، ويهانون، وأصبحوا موضوعات تتركز حولها الكراهية. ففي البرلمان الألماني قدمت مشروعات قوانين لمنع اليهود من دخول المدارس والجامعات، ومنع تعينهم في الوظائف الحكومية. وسرعان ما اسـتحوذت معـاداة السـامية عند الألمان على السمة الخاصة بالتحريض الجمـاهيري: فكان يجري تحريض الرعاع ضد اليهود. وكانوا يحرقون البِيَع، ويقـتلون كثيرًا من اليهود. وأعيد إحياء اتهام قديم يفيد أن اليهود يخطفون الأطفـال المسيحيين ويذبحونهم، ليستعملوا دمهم لخبز فطير صهيون. وأكد الكاتب أن الاتهام قد ثبت أن ليس له أساس، في المحاكم، غير أنه قرر أن هذا لم يقنع الرعاع المحرضين بسحب اتهامهم[35].

ولاحـظ الكاتب أن معاداة السامية، القائمة على العنصرية كانت شقت صـفوف المؤسسـة السياسية الألمانية في نهاية القرن التاسع عشر. وأصبح

(الحزب الألماني المحافظ/ Die Deutschkonservative Partei) القاعدة السياسية للـ عة الجديدة إلى معاداة السامية، وكان يشجع التصرفات المعادية للسامية، ويحرض المواطنين الألمان على المواطنين اليهود على نحو مكشوف، أو ضمني، على السواء. وكان (الحزب القومي الليبرالي/ Die Nationalliberal Partei)، من الناحية الأخرى، يدافع عن اليهود، ويتهم الحزب المحافظ بتشجيع حركة معـاداة السامية. واستثار الكفاح السياسي الذي كان يدور في إطار معاداة السـامية أشـكالاً حادة من الجدل السياسي، وخصومات في ألمانيا في هذه الحقـبة. ورأى كاتب مجلة (الهلال) في هذه الأشكال إشارة واضحة إلى أن معاداة السامية عمت قطاعات كثيرة من الـتمع والسياسة الألمانية[36]. ومع ذلك فهو ينهي رصده لمعاداة السامية عند الألمان بملاحظة متفائلة نوعـًا ما. ويسـتفاد من تقديره، أن قوى معاداة السامية في السياسة الألمانية كانت في حالة تراجع منذ بداية القرن العشرين، وأن حركة معاداة السامية العاملة ضد الـيهود قـد انحسر مدها، وأنها انتهت إلى الموت مادام الرأي العام في كل أرجـاء أوربـة قد وقف الآن ضدها بقوة. وفسر التجدد الضخم لعمليات اضطهاد اليهود في عام (1933 م) بأنه ثوران انفجاري وخطير للـ عة الألمانية العنصـرية، على معاداة السامية، ويصح هذا على وجه الخصوص مادام هذا الثوران يلقى الدعم والعون من أجهزة الدولة النازية[37].

ثم انـتقل الكاتب إلى مناقشة معاداة السامية في روسيا، في النصف الثاني مـن القـرن التاسع عشر، بحكم كونها البلد الثاني الذي ظهرت فيه حركة عدوانـية معاديـة للسـامية. ومـن الواضح أن الكاتب يتمتع بفهم جيد للموضـوع. فقـد زود القارئ بصورة تاريخية واقعية تصف وصفـًا يمكن الاعتماد عليه والوثوق به، مراحل تطور معاداة السامية الروسية الحديثة (مع إدخـال بولـندا في الصورة أحيانـًا) وهو يشرح أسباب تناميها. فعلى مر مئات السنين، كما قرر الكاتب، كان يهود روسيا يعيشون في أحياء يهودية

(غيتو)، خارج حدود الاستيطان، في ظروف يسودها الازدحام والاكتظاظ، في عزلة عن الآخرين من المواطنين الروس. وكان الروس بدورهم ينظرون إلى اليهود نظرتهم إلى أجانب غرباء. وتغير الوضع في منتصف القرن التاسع عشر، كما قال الكاتب، عندما تم تحرير الأقنان في روسيا، على يد دولة القياصرة وهو الأمر الذي أدى إلى أشكال من التوتر بين طبقة ملاك الأرض وطبقة الفلاحين الذين لا يملكون أرضًا. ولاحظ الكاتب أن اليهود، الذين لم يكن معظمهم فلاحين ولا ملاكي أرض، سرعان ما أصبحوا قوة تتوسط بين هاتين الطبقتين، وكانوا في المقام الأول، يقومون بدور الوسطاء الماليين، فيمنحون القروض ويحولون المبالغ، وبذلك يخدمون كلاً من الطبقتين اللتين تعارض إحداهما الأخرى. وكانوا يجنون فوائد لا يستهان بها (اقتصادية واجتماعية) من التوسط بين الجانبين، وازدادت قوتهم ونفوذهم في مقابل الفلاحين ومالكي الأرض. ومضى قائلاً إن ألكسندر الثاني (1855-1881 م) ألغى القيود المفروضة على حركة اليهود، ومراسيم أخرى مزعجة كان صادرة ضدهم، فباتوا قادرين على الاندماج السريع في المجتمع الروسي، كما أدرجت أسماؤهم، أول مرة في لائحة القرعة التي كانت ترتب لإدخالهم في الجيش الروسي.

ووصف الكاتب حركة التنوير الثقافي لليهودية التي تطورت وازدهرت في الوقت الذي كانت فرص جديدة تتاح فيه أمام اليهود، وليدرسوا في المدارس الروسية. في هذه المحاولة نتبين أن المستفيدين الرئيسين من التحرر الجديد هم التجار اليهود والصناع المهرة وأصحاب الحرف والأغنياء الذين باتوا الآن أحرارًا في أن يقيموا أينما شاءوا في روسيا. غير أن الكاتب لاحظ أيضًا، أن الطائفة اليهودية، بمجموعها، استفادت من التحرر الجديد، ولاحظ أن هذا كان ينعكس في الزيادة اللاحقة في معدل النمو السكاني. وسرعان ما باتت الطائفة اليهودية في روسيا أوسع طائفة يهودية في العالم[38].

وعلى كل حال فقد أثار النجاح اليهودي الكبير في الاندماج في المجتمع الروسي المشاعر بين صفوف الروس، إذ شعروا بأن اليهود يظفرون بالسيطرة على موارد البلاد المالية والاقتصادية ويتعاملون معها على أنها مواردهم هم. وتنامت الكراهية والعداء تجاه اليهود، وانتشر في قطاعات واسعة من المجتمع الروسـي، وسرعان ما أديا إلى انفجارات معادية للسامية، واتهامات. وكان الـيهود يتعرضون للاضطهاد، ويعتقلون ويضربون، وفي مناسبات متكررة، هـاجم الغوغاء المستثارون المدن في منطقة الاستيطان اليهودي خارج نطاق إقامـة الروس، وأحرقوا البيع، ودمروا الأملاك اليهودية، وضربوا اليهود، بل وقـتلوهم. وقـال الكاتب، وهو يلخص إرهاب أوائل الثمانينيات، إن كل روسـيا الغربـية، من البحر الأسود إلى بحر البلطيق، أصبحت مشعلاً وقادًا يشعل النيران لليهود، ومضى قائلاً، وهو يناقش المذابح المنظمة التي بدأت في هـذا الوقـت: «وقد أحرقت مساكنهم ودمرت دورهم ونهبت ممتلكاتهم وسفكت دماؤهم وذبح مئات من الرجال والأطفال اليهود وهتكت أعراض المـئات من اليهوديات وأضبح الآلاف منهم لا يجدون مأوى ولا طعامـًا. وانتشـرت المذابـح والحرائق في أكثر من (167) مدينة وقرية بينها وارسو وأوديسا وكييف»[39].

واتهـم الكاتب الدولة الروسية الأخيرة في القرن التاسع عشر، والقياصرة الذيـن حكموهـا بتشجيع معاداة السامية (تشجيعـًا مباشرًا أو غير مباشر) والـتحريض على اليهود، وعدهم مسؤولين مباشرة عن المذابح المنظمة. وقد اسـتثير غضب الرأي العام في أوربة، كما قال، من جراء هذه المجازر الفظيعة. واتهمـت الحكومـة الروسية «بأنها تؤيد هذه المذابح لتشغل الناس عن دعاية الفوضـويين وعـن الـتذمر من الحكم القائم في البلاد». واتهم كاتب المقال بصراحة القيصرين ألكسندر الثالث، ونيقولا الثاني (اللذين حكما، على التوالي مـن عام (1881 م) إلى عام (1917 م)، ببذل المساعدة لحركة معاداة السامية

في إقامــة المذابح المنظمة من جراء تقصيرهما في اتخاذ الإجراءات لمكافحتها، أو لتهدئة ثائرة الجماهير. كما أشار أيضـًا إلى أنه خلال حكم ألكسندر الثالث (1881-1894 م)، تمــت إعادة العمل بتنظيمات تقييدية وقوانين ضد اليهود، للغرض المعلن عنه وهو للحيلولة دون اندماجهم في حياة الدولة. وبات اليهود يــرغمون مرة أخرى على البقاء داخل المنطقة الواقعة خارج نطاق الاستيطان الروســي «ومــن دون التدخل في الشؤون العامة للبلاد». وأسفرت المراسيم الجديــدة عــن وضع نهاية لهم [من حيث كونهم مواطنين في الدولة]، وكانوا يــرغمون عــلى اللجوء إلى حجرات يحبسون أنفسهم فيها على الدوام، مع حرمانهم من كل حقوقهم المدنية. وروى الكاتب أن مناشدات عديدة قدمت عــلى روســيا لتخفف من وطأة المراسيم أو تبطلها، بما في ذلك طلب خاص قدمــته الحكومة البريطانية على الكسندر الثالث، ليكف عن اضطهاد اليهود، وكان جواب القيصر: «لا أريد أن أسمع شيءًا عن هذا الشعب»، وتلت ذلك موجــة ضخمة من الهجرة اليهودية إلى الغرب. وعلق الكاتب بأنه حتى عندما تبين للقيصر وللنخبة الحاكمة أن خسارة الإسهام اليهودي في ميادين الاقتصاد والــثقافة والتربية كانت تسبب دمارًا فادحـًا، ماليـًا واقتصاديـًا وفكريـًا للبلاد، لم يكفوا عن سياستهم في معاداة السامية التي كان الغرض الحقيقي منها القضــاء على الوجود اليهودي في روسيا. وقرر الكاتب أن العواطف المعادية للسامية لدى المؤسسة السياسية هدأت حدتها نوعـًا ما بوفاة ألكسندر الثالث وارتقاء نيقولا الثاني سدة الحكم، وتناقص عدد المذابح المنظمة ولكن الكاتب أشــار إلى أن هــذا لم يكن سوى فترة استراحة مؤقتة، وكانت حركة معاداة الســامية في روسيا قد ضربت بجذور عميقة في مستويات الحياة الروسية، وما عاد من الممكن قمعها أو خفضها إلى الحد الأدنى، مدة طويلة[40].

وكــان أسوأ الأعمال التي ارتكبتها حركة معاداة السامية في روسيا، في نظــر كاتــب المقالة، هو المذبحة المنظمة في كشينف، عام (1903 م). ففي

نيسـان مـن ذلك العام، كما قال الكاتب، نشبت أعمال دامية في المدينة، خلفـت أثرًا لا يمحى في الحي اليهودي في روسيا، وهي الحركة الصهيونية الناشـئة، وفي الأوساط المتنورة بين مثقفي روسيا الذين صعقوا جميعـًا من جـراء معـاداة السـامية، ذات الجذور العميقة في بلادهم. ووصفت مجلة (الهلال) المذبحة المنظمة بشيء من التفصيل:

> **ففـي سنة (1903 م) وقعت مذبحة كشينف المشهورة التي هلك فيها الكـثيرون مـن اليهود وعقبتها مذابح أخرى شبيهة بها في كياف [كيـيف]، وأوديسا، وغيرهما من المدن الروسية، فهلك الألوف من الرجال والنساء والأولاد لغير سبب سوى كونهم يهودًا [في الحقيقة كان عدد الضحايا نحو خمسين].**

وقرر الكاتب أن مجزرة كشينف عكست بوضوح سياسة نيقولا الثاني في «استئصال شأفة تلك الطائفة»[41].

وإذا كان كاتب المقال متزامنـًا مع تظاهرات لمعاداة السامية الحديثة في رومانـيا والنمسا (إمبراطورية النمسا والمجر) وفرنسا، ولاحظ الكاتب أن في الوقـت الـذي كانـت رومانيا فيه خاضعة لحكم الإمبراطورية العثمانية، الإسلامي، لم تظهر هناك حركة معادية للسامية، وكانت أشكال التعبير عن كراهية اليهود هامشية، في الحالات القليلة التي طغت فيها هذه الأشكال على السطح، على وجه الإطلاق، «وكان اليهود يعيشون هناك في سعادة وبهجة خـلال أيـام الحكم التركي (العثماني)». وعلى كل حال فقد حمل تحرير رومانيا، وتشكيل الدولة الرومانية التي تمثل الأمة الرومانية، المستقلة، في عام (1870 م)، الرومانـيين على الشروع في اضطهاد اليهود. ودعا زعيمهم إلى إعـلان حـرب دينـية ضد اليهود، وأقروا قانونيـًا يعامل اليهود «معاملة الغرباء» مع أنهم يقيمون في البلاد على مدى مئات السنين. وخلال العقدين الأخيريـن من القرن التاسع عشر ازدادت حدة تظاهرات العداء للسامية في

المجتمع الروماني وفي السياسة الرومانية إلى حد بعيد، فكان اليهود يطردون من المدارس العامة، وينكر عليهم حق المواطنة الرومانية. وفي عام (1900 م) أقام الغوغاء في رومانيا مذابح منظمة (بوغروم) ضد اليهود هدمت في أثناءها منازل اليهود وأحياؤهم وأشعلت فيها النيران. وحمل الاضطهاد القائم على معاداة السامية كثيرًا من اليهود على الهجرة إلى أوربة الغربية، وإلى أماكن أخرى[42].

وتحدث عن تطور حركة معادية للسامية قوية، في النمسا، متأثرة بمعاداة السامية المستقرة في الأعماق، والتي كانت آخذة في التنامي في ألمانيا وروسيا. فبالقياس إليه كانت الإشارة الأولى الواضحة إلى أن معاداة السامية اكتسبت الصفة المؤسساتية في النمسا تبوأت مركز الصدارة في يوم عيد الفصح من عام (1882 م)، وبدأت المسألة بجريمة دموية ناشئة عن كتابات بذيئة، عندما اختطفت فتاة مسيحية وقتلت في بلدة نمساوية بالقرب من فيينا. وعلى الفور نشر الدعائيون المعادون للسامية خبرًا مفاده أن «اليهود خطفوها وقتلوها». واتهم خمسة وعشرين من اليهود تقريبًا، وألقي القبض عليهم وزج بهم في السجن. واحتجزت الشرطة ابن أحد المتهمين اليهود «وهو طفل في الرابعة» وعذبته عقابًا على الجريمة التي كان أبوه اتهم بها. وكانت المحاكمة التالية محاكمة صورية زائفة. ولم ترشح براءة اليهود إلا في أثناء إعادة المحاكمة التي انعقدت بعد شهرين وبرأت ساحتهم، وترددت أقوال تفيد أن ضباط الشرطة قد حرضوا بخبث ومكر على معاداة السامية. ومع أن الحكم كان ضربة لمعاداة السامية في النمسا فقد كان هذا مجرد حكم مؤقت، كما لاحظ الكاتب إذ ظلت باقية خلال ما تبقى من القرن التاسع عشر، وخلال مطلع القرن العشرين. وبالقياس إليه كان حادث عام (1882 م) مثلاً على انتشار معاداة السامية، من ألمانيا وروسيا إلى النمسا[43].

وبالنسـبة لمجلة (الهلال)، أصيبت حتى فرنسا المتنورة، فرنسا بعد الثورة، مهـد الحرية والمساواة والإخاء، بمأزق معاداة السامية عند نهاية القرن التاسع عشر. ومع أن الكاتب لاحظ أن معاداة السامية عند الفرنسيين كانت معتدلة مقارنة بنظيرتها الألمانية، فقد كانت آثارها، كما قال، ما يمكن ملاحظته منذ عام (1820 م) فصاعدًا، ولاسيما في عالمي المال والاقتصاد. وذلك أن الأسر الـيهودية الموسرة، مثل آل روتشيلد، كانت ضحية للدعاية المعادية للسامية التي اتهمتهم بالشروع في السيطرة على الاقتصاد الفرنسي. وكانت النصوص المعاديـة للسامية، المتضمنة للطعن والتشنيع، متداولة في أرجاء فرنسا. ومن الأمثلة على ذلك أن الكاتب ذكر كتيبـًا مكتوبـًا في عام (1886 م) بقلم إدوار درومـون (Eduard Drumont)، بعنوان ‹فرنسا اليهودية/ La France Juive›، كـان يستنكر بفظاظة أمر اليهود وينتقص منهم، ويلصق بهم أفعالاً شـنيعة معيـبة. وكان الكتيب واسع التوزيع جدًا، وفي الحقيقة أصبح من الكتـب الأكثر مبيعـًا. وفيه اتهم درمون قوة اليهود المتنامية في فرنسا بأنها تفسـد روح الأمة، وتبتلي «فرنسا المسيحية» بكل أنواع الأمراض. وكان درومون الكاتب الذائع الصيت، الذي كان أيضـًا ناشر ‹لا ليبر بارول/ la libre parole›، الصحيفة المعادية للسامية، المكرسة تكريسـًا كاملاً للدعاية المضـادة لليهود. وكانت هذه الصحيفة أيضـًا تتلقى طلبـًا كبيرًا، وتتمتع بتداول واسع[44].

ومضـى الكاتب يقول عن الدعاية المعادية للسامية أنها انتشرت أيضـًا بين صفوف الجيش الفرنسي، وأعاد سرد قضية دريفوس بالتفصيل ورأى أنها تمـثل ذروة من ذرى معاداة السامية في فرنسا، في نهاية القرن التاسع عشر. وعـندما اتهم "الضابط اليهودي" ألفريد دريفوس، في عام (1894 م) بخيانة الدولة، جرد من كل مراتبه وأوسمته، وزج بها في السجن مدى الحياة. وكان الاتـهام بـلا أساس، ولاحظ الكاتب أن ذلك تعبيرًا واضحـًا عن معاداة

الســامية المبنــية على العنصرية. ولم ينفع الرجل في شيء، لا مركز أسرته الرفيع، ولا الضغط الذي مورس على الحكومة والجيش لتخليص دريفوس من هــذا الخزي والعار، ولا جهود المثقفين الليبراليين للكشف عن زيف الاتام، ولا حــتى حقــيقة أن ثمة دليلاً لا يدحض قد أظهر براءته. وأصرت وزارة الحربــية عــلى أن دريفوس مذنب وأنه مجرم. وعلى كل حال ففي النهاية كانت الغلبة لضغط القوى الليبرالية، بالفعل، ومنح دريفوس حقــًا في إعادة محاكمــته. ولاحظ الكاتب أن نتائجها ترددت أصداؤها في كل أنحاء أوربة المتــنورة، وأصــدرت المحكمــة تعليماتا إلى رئيس الجمهورية بالعفو عن دريفــوس، وردت إليه رتبته العسكرية وألقابه وأوسمته وكوفئ بميدالية جوقة الشــرف الفرنســي، وعوض عن الظلم الذي لحق به والمعاناة النفسية التي نجمــت عــنه. وفي الحالة الفرنسية ظن الكاتب أن «نهاية القضية» وإعادة الاعتــبار الكاملــة التي منحت دريفوس، وضعت حدًا لاضطهاد اليهود في فرنسا. وفي الحقيقة فإن القضية الفرنسية، بالنسبة إليه أفادت من حيث كونها بــرهانــًا عــلى أن القوى الإنسانية الليبرالية (وهي في هذه الحالة، القوى المواليــية لدريفوس) استطاعت أن تشن حربــًا تتسم بالعزم والتصميم، على معــاداة السامية، كانت، في الواقع، حربــًا مظفرة. وقال الكاتب إنها برأت ســاحة دريفــوس، ولكن الأهم من هذا أنها طهرت فرنسا من عار معاداة الســامية[45]. وكان الدرس واضحــًا: وهو أن معاداة السامية يمكن إلحاق الهزيمة بها عن طريق القوى الليبرالية، إذا هي وحدت صفوفها، وأقدمت على تصرف حاسم.

ولم يكــن يقصد بالوصف المفصل للتظاهرات المتنوعة لمعاداة السامية في أوربــة أن تكون كما ذكرنا، إلا خلفية حديثة للاضطهاد المعاصر لليهود في ألمانــيا في عام (1933 م). وكانت مجلة (الهلال) تعمل جاهدة على معالجة الــتطور المتواصــل لمعــاداة السامية في أوربة في العقدين الأولين من القرن

العشـرين، وكان هدفها المقرر بصراحة، التحديد الدقيق للأصول التاريخية والإيديولوجـية والسياسية لمعاداة السامية في النصف الثاني من القرن التاسع عشـر، وتقـديم صـورة يمكن الاعتماد عليها إلى أقصى حد ممكن، لهذه الظاهرة. وبالنسبة للكاتب، كان ما لا يمكن إنكاره أن تجد اضطهاد اليهود عـلى نطـاق واسع في ألمانيا النازية، في عام (1933 م)، كان تعبيرًا باعثـًا للقلق، عن انبثاق جديد لمعاداة السامية[46].

ومـن المهم أن نلاحظ الارتباط الذي أنشأه كاتب المقال بين اضطهاد اليهود في ألمانيا النازية على أساس ديني-إثني، والإبادة الجماعية الأرمنية التي ارتكبتها الدولة التركية العثمانية. ففي التأريخ الحديث بصدد الإبادة الجماعية الأرمنية، يحتجون بوجه عام، بأن كتاب فرنتس فرفل ‹ Franz Werfel, Die vierzig Tage des Musa Dagh› هـو المـرجع المعاصر الوحيد الذي يسرد قصص الإبادة الجماعية. وبعيد هذا الكتاب، الذي نشر في ألمانيا في نهاية عام (1933 م) (وبالتالي حظر في عام (1934 م)، من قبل السلطات النازية) سرد القصة المروعة لإبادة الأتراك العثمانيين الشعب الأرمني في أثناء الحرب العالمية الأولى[47]. وكان هناك ادعاء سائد بين المؤرخين في السنوات الخيرة يفيد أن المأسـاة الأرمنية شطبت من الوعي الغربي بين الحربين العالميتين. ثم إن هؤلاء المؤرخين يحتجون بأن قصة مذبحة الأرمن كتمت أيضـًا فيما بين الشعوب والـبلدان الـتي ورثت أراضي الإمبراطورية العثمانية، وأن دلالتها الحقيقية تعرضت للتشويه والتحريف، والتهوين من شأنها إلى حد بعيد.

وعـلى كل حال فإشارة مجلة (الهلال) إلى الإبادة الجماعية تدحض هذا الافـتراض. وكان الكاتب ينظر إلى الإبادة الجماعية للأرمن على أنها مثال فائق، مروع على وجه الخصوص، من التاريخ الحديث لـ«مذبحة الشعوب». ولخـص كلامه بالقول أنه ما من شك في أن هذا كان إنذارًا من القدر كان مهيأ للشعب اليهودي، ما لم يتحقق القضاء على معاداة السامية، تلك المعاداة

المبنية على العنصرية والإبادة، وتتبع الاضطهاد العثماني للأرمن حتى وصل به على حكم السلطان عبد الحميد الثاني في نهاية القرن التاسع عشر. وأكد كاتب المقال أن عبد الحميد الثاني عمل جاهدًا على الثأر من الأرمن لأنهم عبروا عن شعورهم بالمرارة والاشمئزاز من الحكم التركي. وتم بين عام (1893 م) ونشوب الحرب العالمية الأولى، وعلى وجه الخصوص في أثناء الفصل الأول من الحرب، الإقدام على سلسلة من عمليات الاضطهاد والقتل ضد الأرمن، في أنحاء تركيا العثمانية.

وقرر الكاتب أن من قتل من الأرمن وحدهم في عام (1915 م)، وحده، فاق أربعة ملايين [وهو يبالغ، فمن المقبول، بوجه عام أنه قتل ما بين المليون الواحد والمليون ونصف المليون من الأرمن، من قبل الدولة العثمانية في أثناء الحرب العالمية الأولى]، هذا إضافة إلى مئات الألوف الذين قتلوا قبل ذلك العام من رجال، ونساء، وأطفال، ورضع، وكهول، وفتيات. وكانت هذه المجازر هي التصرفات الأكثر شناعة ووضاعة بين ما تم الإقدام عليه في تاريخ الحضارة الحديثة. وما من قلم يستطيع أن يصف أهوال هذه الإبادة الجماعية. ويستفاد من الكاتب أن العالم المتحضر، أو ممثليه، حاولوا وقف هذه المجازر. وعلى كل حال فإن صراع المصالح بين الدول الأوربية الكبرى، وعجزها عن صياغة سياسة موحدة حيال هذا الموضوع «لم يزيدا على أن شجعا الحكومة العثمانية بالتمسك بسياستها [في الإبادة الجماعية] وتنفيذ تلك السياسة». وفي التحليل النهائي أخفقت أوربة وأمريكا في إنقاذ الأرمن. ولم تفعل أوربة وأمريكا شيئًا لإنقاذ الأرمن سوى إرسال المعونة المالية للضحايا[48].

وكان يتجسد أيضًا في الموقف الذي تم تبنيه في المقالة، وهو أن المجزرة الأرمنية كانت ظاهرة الإبادة الجماعية الأكثر إثارة للاشمئزاز في تاريخ البشرية، لهجة تنم عن الإنذار المرتبط باضطهاد اليهود في ألمانيا في ذلك الوقت. فقبل سنوات من تحول «الحل النهائي» والمحرقة إلى أمرين ظاهرين

يمكن تصورهما، كانت مجلة (الهلال) قد ألمحت إلى التهديد المتمثل في «القتل» ومـن ثم أدخلـت القصة اليهودية في إطار سرد قصصي من الطراز الأول، للإبـادة الجماعية الكبيرة في التاريخ». وسيكون من الصعب الاحتجاج بأن مجلة (الهلال) كانت تتكهن بالفعل بأهوال الأحداث القادمة، غير أن رسالتها كانـت مـن الوضوح حيث لا يمكن أن يحدث خطأ في فهمها: وذلك أن الاضطهاد المتجدد لليهود، والوجه العنصري لمعاداة السامية، وهما اللذان كانا يوجهان نحوهم، كان خليقـًا بأن يفضي إلى كارثة كبرى، لا لليهود على وجه الخصوص، بل للحضارة البشرية بأسرها.

[3/ 4] خاتمة

في عـدد تمـوز (1933 م) من مجلة (الهلال)، وفي عمود (بين 'الهلال' وقـرائها) جـاء في رسالة استفسار من قارئ، قوله: «ما الدول التي تحب الـيهود الـيوم؟». وجاء في جواب المحرر تحت العنوان (أو الترويسة) قوله: «يـبدو أن اليهود في العالم [اليوم] يمثلون الموقف الذي تبنته الـملة فيما يتعلق باضـطهاد الـيهود في ألمانيا النازية في ذلك الوقت. وكان مؤطرًا في لهجة متسـامحة، تعليمية، معتدلاً، رصينـًا، واقعيـًا، وقرر المحرر أن عبارة «المحبة للـيهود» غـير ذات معـنى بالقياس إليه. وذلك أن من واجب كل الدول المتحضـرة أن تحب مواطنيها محبة متساوية، وأن تحميهم من دون أي تمييز، وبصـرف النظر عن الطائفة التي ينتمون إليها، كما أكد ذلك. وبينما كان يقـرر أن اضـطهاد اليهود باعث للأسى، كان يبين أن أشكال الاضطهاد المماثلة، ضد المسيحيين والمسلمين كان يتم الإقدام عليها «في عصور وأماكن شـتى» في الـتاريخ، وقال إنه في كثير من الحالات، كانت القوى الفكرية والسياسية، السليمة تسود في وجه «الطيش والتهور والجنون وقصر النظر في الـنهاية. وعلى الرغم من عمليات الاضطهاد في ألمانيا، يستفيد اليهود اليوم،

في كـل أصقاع العالم تقريبـًا من العدالة، والتهذيب، والـ اهة التي لا شك في أنم يستخدمونا، فهي حقهم»، وختم المحرر جوابه بالتعبير عن الأمل في أن «تتـبدد الرياح السيئة التي تب الآن في ألمانيا على اليهود، عما قريب»، وتنتصر العلاقات السارة، القائمة على الاتفاق السلمي والانسجام، وتسود مرة أخرى وتنتصر العدالة»[49].

وهـذه الاستجابة، تعكس بوضوح، المعضلة الأساس التي كانت تواجه مجلـة (الهـلال): فبحكم كونا دورية تـ ع إلى الحداثة، وتتسم بالعلمانية، وتلـتزم بنشـر النتاج التقدمي والعلمي لثقافة التنوير الأوربية في إطار ثقافة المطبوعات العربية، وجدت، على نحو مفهوم أنه من الصعب أن يتشبث المرء بظاهـرات رجعية ولاعقلانية، كالتمييز العنصري الذي يرتكز على الدولة، ضـد المواطنين، أو بما هو أسوأ بعد، وهو اضطهادهم على أساس الدين أو الإثنـية أو العـرق. ومع أن الـلة كنت تعي الظاهرة وكانت تدرك مصير اليهود، وتتوجس منه، مثلما كانت تتم بمصير الثقافة المتنورة تمامـًا، تعلقت بالإيمـان بـأن قـيم التـنوير، وهي العقل، والتقدم، والتسامح، والحرية، والمسـاواة،، سوف تزم، في التحليل النهائي، الشمولية الفاشية، والعنصرية الـنازية. وهـذه هـي المعضلة التي كانت تشكل جزءًا من أساس العنصر المتناقض المزدوج، الذي كان يظهر مرارًا وتكرارًا في موقف (الهلال). ذلك أنـه كان يكشف من ناحية أولى، عن بعد النظر في تفسيره لاضطهاد النظام الـنازي لليهود في عام (1933 م)، بالاستناد إلى مثال «الإبادة الجماعية». وكانت المثال البارد، وهو قتل (أربعة ملايين) من الأرمن في الحرب العظمى، مـا مـثل في نظـر مجلة (الهلال)، جريمة القتل الأكثر ترويعـًا، وجدارة بالازدراء في تاريخ الحضارة الحديثة، وكان بمثابة إشارة إنذار واضحة إلى ما كـان يمكن أن يحدث للشعب اليهودي إذا ما ظل يقع ضحية لـ عة معاداة السـامية، المبنية على العدوانية والعنصرية. على أن هذا كان أكثر انطباقـًا

عـلى الواقـع، بالنظر إلى افتراض أن الأرمن ذبحوا على خلفية كراهية إثنية وعنصرية. فبالنسبة للهلال كانت «الإبادة الجماعية» مصطلحـًا ملائمـًا، لا لمـجرد تفسـير الخلفـية التاريخية لاضطهاد اليهود، ولكن لإنذار النازية الكامـنة، المروعة، التي تنذر بالشر بالمستقبل، بل ربما كان هذا هو السبب الرئيسـي. ومن الناحية الأخرى فقد حالت المجلة الشهرية الحداثة التقدمية، والإنسانية البناءة، واللهجة الإجمالية التي تتحدث عن نزاعة التفاؤل الثقافي، دون أن توصـف لقـرائها مشاهد تنم عن التشاؤم لمستقبل مظلم. وكانت تتطلع إلى مرور «أيام الظلام» وكانت ترغب في أن تقود قرائها إلى مستقبل يكمن وراء حدود الشر البشري، والرعب والمآسي، على مستقبل يسود فيه العقـل، والعدالة والسلام، ويقضي فيه على الحكم المسبق المرتكز على إثنية معينة، أو عقيدة أو لون. وكان موقف المجلة مؤسسـًا على إيمان بأن الإبادة الجماعية مسألة مؤقتة. وإذا نظرت نظرة تفاؤلية، كانت ترى في عناصر الخير وعناصر التنوير، العناصر الأكثر ديمومة في التجربة الإنسانية الحديثة، وختمت القول أنها سوف تسود، بناءً على هذا.

ولم يكـن الموقف الذي تبنته (الهلال) صوت منشق في الخطاب الفكري الصـحفي الذي تطور في مصر في التسعينيات من القرن الماضي، ولم تقتصر المسـألة على أن المجلة الشهرية لم تكن استثنائية في مواقفها المعادية للعنصرية، ونقدهـا الجارح للفاشية والنازية، وكذلك في تعاطفها مع «اليهود المطاردين» بل كانت هذه المجلة تعكس موقفـًا غالبـًا في الصحافة المصرية، وبين معظم المفكـرين والكتاب المصريين في تلك الفترة. وكما حاولنا أن نبين بالتفصيل في موضـع آخر[50] كانت مجلة (الهلال) تمثل التصورات والمواقف التي تبناها عـدد لا يسـتهان به من معاصريها، سواء من الصحف اليومية أو الدوريات المصرية، ويمكن العثور على هذه المواقف أيضـًا في الكتب والنصوص المكتوبة بـأقلام المفكرين المصريين الأكثر بروزًا وشهرة في ذلك العصر. وحين اتخذت

مجلـة (الهـلال) هذا الموقف انضمت بذلك إلى قوى إبداعية أخرى في ميدان الإنـتاج الـثقافي. وكانت الطرق التي مثلت الـلة بـا مواقفها المعادية للنازية وللفاشـية، تتبع أشكال التصوير الخاصة بالمواقف الشاملة المطبقة في الخطاب الصـحفي والفكـري الأوسـع نطاقـًا، والموجه نحو هتلر والنظام النازي وموسوليني والنظام الفاشي، وتضمنت ثلاثة عناصر رئيسة في التمثيل.

كان العنصر الأول هو تصور النازية والفاشية على أنـما نظامان شموليان ينـتهكان الحقوق المدنية الأساس إلى أقصى الحدود، ويفرضان معايير ثقافية فاشية، ويلغيان الحياة البرلمانية الدستورية ويدمران الديموقراطية الليبرالية. أما الـثاني فهـو تصوير هذه النظم على أنـا إمبريالية متلهفة إلى عمليات غزو أراضـي المستعمرات. وفي هذا الصدد كانت مجلة (الهلال) نقادة على وجه الخصوص لموسوليني وإيطاليا الفاشية التي كانت تراها ممثلة «لإمبريالية أوربية من نوع جديد خطير، جائعة إلى التوسع في آسيا وإفريقية». ومع أن أغلبية الصـحافة المصـرية كانت ملتزمة بالهدف القومي المصري، وكانت تشارك مشاركة فاعلة في الكفاح الوطني للتحرر من الحكم الاستعماري البريطاني، ولم تكن تقيم علاقة سببية بإيطاليا الفاشية على أساس البدهية القائلة: «عدو عـدوي هو حليفي». وكانت إذا ترك لها الخيار فضلت الاستعمار التقليدي الـبريطاني المشبع الرغائب، الذي كانت مصر عندئذ في طور تحرير نفسها مـنه، إلى «إمبريالية موسوليني النهابة السلابة». ومنذ نـاية عام (1934 م)، عـندما كانـت الصـحافة المصرية والمثقفون المصريون أول من تبين أهواء وسـوليني الإمبريالية ومطامعه في الشرق الأوسط وشرقي إفريقية (ولاسيما الحبشة)، أصبح فهمهم أن موسوليني والفاشية الإيطالية يمثلان إمبريالية أوربية جديدة شيئًا فشيئًا أكثر حدة.

وكـان العنصـر الثالث موقف شامل، معاد للعنصرية، اتخذته الصحافة المصـرية، ومـا وراءها عن طريق شبكة واسعة من الوكالات المتنوعة التي

أنتجـت ثقافة المطبوعات المصرية. وهذا الموقف يتم التعبير عنه بوضوح في موقـف مجلـة (الهـلال)، ليـبرالي معاد للعنصرية. وكان يعكس الأساس الاجـتماعي لـثقافة المطبوعات المصرية خلال فترة ما بين الحربين. وينبغي لـلمرء أن يضع نصب عينيه أن تركيب النخبة المثقفة المدنية في مصر، التي كانت على مدى الشطر الأكبر المنتجة لثقافة المطبوعات المستهلكة لها، كان تعدديـًـا ومـتغايرًا على نحو واضح وجلي. وكانت هذه الطبقات المثقفة تـتألف من عناصر مختلفة، دينية وإثنية ولغوية. وكان مسلمو التيار الرئيس ينـتمون إلى مـدارس وطبقات شتى، وكان المسيحيون من أنواع وطوائف شـتى، وكـان اليهود أعضاء الفئات الدينية والإثنية، ملتزمين بتطوير ثقافة منفتحة إنسانية ليبرالية، متسامحة، متعددة الوجوه، خالصة من أشكال التمييز الديني والإثني والعنصري. ومن هنا نرى معارضة مصممة حازمة ومنهجية، لأي مذهـب أو ممارسة تفصل أو تميز عرقـيًا عن آخر، داخل المجتمع المدني الوطـني، الواحـد. ولا حاجـة بنا إلى أن نقول إن نظرية النقاء العنصري وتحسـين العرق، وتفوق العنصر الآري، كان ينظر إليها باشمئزاز يتم التعبير عنه بقوة. ولكن حماية البيئة الثقافية المتعددة الأعراق، المتعددة الأديان كانت أيضـًا عملاً من أعمال الدفاع عن النفس من قبل فئات النخبة المختلفة في مصـر، وهي الفئات التي كانت تريد ضمان تعايش تعددي متسامح. وقد مارسـت مجلـة (الهـلال)، بوضوح، دورًا أساسـيًا في صياغة هذه الثقافة التعددية. وعلى كل حال فلم يكن هذا بالصوت الحصري الذي يستبعد ما عـداه، بل كان بالأحرى صوتـيًا داخل نسق واسع، متعدد الأصوات، من منتجي الثقافة الذين كانوا يساندون جميعـًا ثقافة متغايرة، متعددة الوجوه، بعيدة عن العنصرية المدينية.

تأليف: بيتر فِين

4] «الجيل الجديد» والحنين إلى القائد: صراع الأجيال والميول الشمولية في عراق الثلاثينيات[1]

كـثيرًا ما يشار في عراق ما قبل صدام حسين، إلى ميول موالية لفاشية، وإلى الـتقارب مع ألمانيا النازية، وهما اللذان وضعا منذ الثلاثينيات، ومطلع الأربعينيات من القرن الماضي، حجر الأساس للتطور السيء للبلاد في الشطر الـثاني مـن القـرن[2]. وثمـة حجج كثيرة تؤيد قول القائلين إن الأساس الأيديولوجي للقومية العربية، في الثلاثينيات، كان بالفعل أساسـًا شموليـًا بدرجـة قوية في جزء منه على الأقل، إن لم يكن اتخذ انعطافة شمولية بمعنى الكلمة. على أن التطورات في العراق مارست دورًا هامـًا على هذا الطريق. ثم إن حقـبة الانقلابات العسكرية بين عامي (1936 و1941 م)، مع الرايخ الثالـث بقـيادة هتلر يقدمان الحجج المؤيدة لهذا. وقد كان الكيلاني انتزع

السـلطة لنفسـه بمعونة مجموعة من شباب ضباط الأركان وبمساعدة مفتي فلسطين، أمين الحسيني، الذي كان في منفاه بالعراق، وأقام حكومة (للدفاع الوطـني). ولكـن بريطانيا التي كانت هذه الحكومة التي تنطوي من خلال مشـاركة المفـتي، على ميول موالية للألمان، شوكة في العين بالقياس إليها، أخرجـتها مـن السلطة في حملة وجيزة في أيار. وبذلك تم احتلال بريطانيا العـراق بعـد عام (1917 م) للمرة الثانية. ويتمثل التفصيل المشين في هذا الـتاريخ في أن طـيارين من الألمان والإيطاليين جاؤوا ليكونوا معبئين على الجانـب العراقي، ولم تكن لهم مع ذلك تأثيرات في الحدث القتالي. على أن حقيقة أن المسألة انتهت، بعد الهزيمة الألمانية، إلى عاصفة (بوغروم) عصفت بالسـكان الـيهود، وظلت المرة بعد الأخرى، تقدم حافزًا للتكهن بوجود آصرة آيديولوجية تكمن وراء التقارب العراقي الألماني أيضـًا[3].

ومـع ذلك فسيكون من قبيل الاقتصار على البعد الواحد، أن يرد المرء الأحداث التقبل المباشر للتراث الفكري النازي والفاشي في العراق أن ينظر المرء إلى الارتباط التقريبي له بدول المحور. على أن شراكة تم الإعداد لها منذ عهـد بعيد، من الوجهة الأيديولوجية والأحرى أن يقال إن المثقفين وأرباب السياسة في العراق كانوا يتكيفون، في هذه الحقبة، مع تيار ذي نطاق عالمي يـ ع إلى مـوالاة الـ عة الشمولية الدكتاتورية، التي كانت الشعوب التي فرضت عليها الهيمنة الاستعمارية، تريد تعزيز الوحدة الوطنية بها على الطريق إلى الاستقلال. وبذا الروح يفترض في هذا المقال أن يحول وجهة النظر إلى أحـداث عـام (1941 م). فلنبتعد عن التفسير الظاهري الذي جعل علل الأحـداث تابعـة للعناصـر الفاعلة في سياسة الدولة. على أن المستويات الحكومـية وتقاربـا مع ألمانيا، فحولها إلى منظور داخلي يدفع بمسألة تبدل الأجـيال ومـا ينشأ عنه من الصراعات السياسية، إلى بؤرة الاهتمام. أما الهدف فهو تفسير للسياسة الداخلية والاجتماعية.

1/4] مشكلة الأجيال

وفي الثلاثينيات تنامت في مراكز المدن، بالعراق، نخبة من شباب المثقفين العـرب كانـت تسـتخدم الصحافة والعدد المتنامي من المنتديات، ندوة للمناقشات الثقافية. وكانت الفئة المسماة (الأفندية الشباب) تتألف من أبناء المجموعات المهنية الحديثة، كالصحفيين والمحامين والمعلمين والأطباء، وكذلك طلاب المعاهد العليا والثانويات[4]. وقد تطور هؤلاء العراقيون، الذين ينتمون إلى فـئة من فئات العمر الأحدث سنـًا، في إطار صراع بين الأجيال تسود فـيه الـنظرات الشـمولية فيما يتعلق بالتغيّر الاجتماعي بهدف تنمية فكرة القومـية العربـية. وكانت القيادة والطاعة يمارسان دوراً حاسمـًا في معين الموضوعات والتداعيات الذي كان هؤلاء المثقفون يمتحون منه.

وفي هـذه المقالـة يفترض في عدد من التراجم والسير أن يفيدا، بحكم كونهمـا أمثلة على تطور وعي جيل من الأجيال في العراق: فهذا عبد الأمير علوي، وهو طبيب أنشأ طب الأطفال، ورفائيل بطي، محرر الصحيفة اليومية العراقية: (البلاد)، والناشر والسياسي يونس السبعاوي، ومحمد مهدي كبة، معاون مدير (نادي المثنى الوطني)، وكان هؤلاء على الإجمال من نخبة المثقفين الشباب. ويفترض في السيرة الذاتية للشاعر اليهودي، أنور شاؤول، أن تفيد بصـفتها أرضـية فكرية تصلح لعقد المقارنات. وفي القسم الثاني من المقالة يجري البحث في نظراتهم المتعلقة بالفاشية وميولهم الشمولية التي تستند استنادًا حاسمـًا إلى إعلان رفضهم الجيل الأقدم.

وكـثير من الأبحاث التي تتناول صعود نجم النظم الأوربية للشمولية يشير إلى مفهـوم الصراع بين الأجيال. وهي تفيد بأن المثقفين الذين ينتمون إلى جـيل جديد لم يجر إفساده، كانوا ينتظرون أن يتغلبوا على ضيق أفق المجتمع القديم المحكوم بالسلطة الأبوية وتوجهه الرجعي. وفي إطار الحيز الزمني الذي

نتطرق إليه هنا، كثيرًا ما يستخدم المثقفون الأوربيون والعرب، على السواء، مفهومات من قبيل (الجيل) و(صراع الأجيال) ليفسروا بذلك علاقات مختلة وصـراعات في مجـتمعاتهم. وحوالي نهاية القرن التاسع عشر كان القوم قد شـرعوا في الـنظر إلى التبدل الاجتماعي المسرع على أنه تحد لإحساسهم الخصوصـي بالعـالم، وبالـتالي على أنه موضع ثغرة قائمة يحسون بها، بين تجـارب بالفئات العمرية المختلفة. وكان يتم استخدام الصراع بين الأجيال الذي كان يستحضر بوجوه عديدة، لأغراض سياسية وأيديولوجية، لتطوير مشـروعات مسـتقبلية لمجتمع ما، ولكي يؤمنوا لأنفسهم أهدافـًا ملائمة. وكانت تجري صياغة مشكلات الأجيال أيضـًا، في صورة تعد للتقدم، وفي صـورة مقاومـة لـه. كما طور الأدب لمحافظ الجديد في جمهورية فايمار مفهومـًـا للشـباب لم يكن يمثل مقولة بحتة من المقولات المرتبطة بالسن. وكـان يـنظر إلى الشبيبة على أنها مسألة موجودة خارج السياسة الحزبية، وكـان يفترض أن بقاء المجتمع يرتبط بها. وبذلك كان يستكن وراء صراع الأجيال الظاهري، الكفاح والصراع بين الأنماط الاجتماعية المختلفة[5]، وهو الكفاح الذي استطاعت أن تضرب بجذورها فيه الفاشية والنازية.

وحـتى في حالة الطبقة الوسطى في مجتمع حقبة الفلهلمينية، كان يوجد انعدام عام لليقين في صدد القيم «السابقة على الحداثة فيها، وهي القيم التي مـا عـادت تتماشى مع الوقائع الاجتماعية. وقد وجد عدم الارتياح هذا، تعـبيرًا عـنه في العلوم الاجتماعية الآخذة في الظهور. ومن ذلك أن مفهوم «الجيل» من حيث كونه مقولة خاصة بالتفريق والتمييز، أصبحت ذات نفوذ بـالغ، ولاسـيما في جمرة القلاقل التي سادت بعد الهزيمة الألمانية في الحرب العالمية الأولى[6].

وقـد فسر (نمط الجيل/ Generationsmodell) عند عالم الاجتماع كارل مانـهايم (Karl Mannheim) نشوء وعي الجيل والسلوك النوعي المشترك عند

فئات عمرية محددة. وبموجب ذلك كان تحقيق «سياق الجيل» وخروجه إلى نطـاق الوعي، أول الأمر، يكمنان في أساس ظاهرة «وضع الجيل» الذي لم يكـن يسـوغ، بحكم الضرورة، تبعية يجري الإحساس بها، بل التطابق في ظـروف المعيشـة في الحال الاجتماعي. وذلك أن وضع الجيل يطبع بطابعه مضمار حركة الفرد وأداءه وظائفه، واكتسابه الخبرات والتجاريب، وتصرفه في الأمـور، كمـا يطبع بطابعه شعوره وتفكيره. وهو يطبع بطابعه الطريقة الفردية في المعاشرة والتعامل مع المعطيات التاريخية. والتغير في الأجيال يتجلى ظاهـرًا للعـيان عندما تنظر فئة عمرية أحدث سنـًا إلى هذه المعطيات من مسـافة جديدة، وتؤولها تأويلاً يختلف عن تأويل القدماء. ويفيد مانهايم أن هذا التبدل في النظرة يتضمن كامنـًا من كوامن الصراع ينطوي حتى على قدر من التطرف أكبر من التغيرات في البنى الاجتماعية[7].

عـلى أن التبعـية لوضـع من أوضاع الجيل لا تنطوي إلا على إمكانية المشاركة في أفعال وتجاريب مشتركة لا أكثر. ومع ذلك فالمرحلة الأعلى من «سياق الجيل» تحتاج إلى «ارتباط واقعي» وإلى مشاركة إيجابية أو سلبية في التجاريب والخبرات. ويستفاد من مانهايم أن وجهات النظر والرغائب المتعلقة بالجيل من الوجهة المادية المحسوسة، إنما تنشأ في الأغلب عن فئة تمثل نواة ما، موجـودة بالفعل. وبالانطلاق من هذا تؤثر هذه في الأفراد الذين يوجدون خـارج هـذه الفئة، غير أنها تنتمي إلى سياق جيل مماثل. ويلخص مانهايم أعضـاء الفـئات الأكـبر الناجمة عن هذا في مفهوم «وحدة الجيل» وهم يطـورون مواقع وأشكالاً مشتركة للتمثيل[8]. ففي الحالة العراقية كان بطي والسبعاوي، ومحيطهما يشكلون فئة النواة التي كانت تضع الأساس لتشكيل وحدة من وحدات الجيل.

وثمـة مقولتان، قد كان أدخلهما المؤرخ راينهارت كُسِلك (Reinhart Kosselleck)، تظهـران أنهمـا ذوات فـائدة على وجه الخصوص في حالة

الـتحديد الأدق للجيل وصراعاته: ألا وهما «مجال الخبرة» المشترك، «وأفق التوقعات» ويقول كُسِلك إن كل جيل يعتمد على معينه الخاص بين الخبرة والـتجربة. وعـلى أسـاس أسيقة الخبرة والتجربة، المتباينة، تشكل الفئات المخـتلفة توقعـات مستقبلية متباينة، وتطور قيمـًا محددة[10]. وفي العراق شـكلت الحرب العالمية الأولى خط تقسيم المياه الذي فصل النخبة السياسية الأقـدم، وهـي الـتي كانت تتمثل في كان يسمى الضباط الأشراف، عن الأفندية، بصفتهم الجيل الأحدث سنـًا.

وقد كان الملك فيصل الأول حليفـًا مخلصا للبريطانيين في أثناء الحرب، وحـين ارتقى العرش العراقي جاء معه بنخبة من الضباط لا تقل عنه موالاة، إلى المملكـة المؤسسـة حديـثـًا على نري الفرات ودجلة. وكان هؤلاء الضباط، المنتمون إلى فئة الأشراف، قد حاربوا في ظل قيادة فيصل، في التمرد العـربي[11]. وبصفتهم أنم كانوا ضباطـًا عثمانيين، من أصل عراقي، فقد نـالوا في كلـية أركـان الحرب، في إسطنبول، تدريبـًا عسكريـًا رفيع المستوى، وتعلموا اللغات الأوربية. وكانت الخبرة التي أتيحت لهم من خلال التـبادل مـع الضباط البريطانيين في أثناء التمرد قد محتهم أفضلية على بقية العراقيين بالعلاقة مع كيفية التعامل مع البريطانيين. والضباط الأشراف هؤلاء عـدوا أنم يمثلون فئة النخبة في إطار القومية العربية، ويشغلون المواقع ذات الـ عـة القومـية في أثـناء الحرب، والخبرة القتالية في جيش فيصل، يطبعن بطابعهن روح لجماعة عندهم[12]. ومن الناحية الأخرى كانت المقاومة التي كانـت القبائل العراقية الشديدة البأس تبديها تجاه وصاية الحكومة المركزية حتى الثلاثينيات، تشكل موقع هذه النخبة[13].

ومـع ذلـك فقد كان الجيل الأحدث سنـًا من المثقفين العراقيين، لا يعرف البريطانيين إلا على أنم محتلين. وكان يتم تدريبهم ضمن نظام التعليم ذي الـ عة القومية التابع للدولة. وعلى مر الثلاثينيات كان المثقفون الأحدث

سناً يتصدون للنخبة الحاكمة العائدة للعشرينيات تصدياً مطرد الزيادة، ولاسيما بعد أن تحولت، في أثناء ذلك، إلى طبقة من مالكي الأراضي. وبناءً على ذلك كان الحكم العسكري العراقي، البعيد عن الصفة الرسمية من عام (1936 م) إلى عام (1941 م) يمثل تمرد جيل أحدث سناً، على هذه الطبقة. على أن حنا بطاطو يساند الأطروحة القائلة إن الجيل الأحدث سناً من الضباط ذوي النزعة القومية، الذي كانوا قد اجتازوا مرحلة أكاديمية أركان الحرب العراقية هو أيضاً الأفندية الشباب، أي: من طبقة وسطى جديدة، من العاملين في الدولة، والمحامين، والأطباء، الذين كانوا في هذه الحقبة يخرجون إلى العلانية ويواجهون الجمهور. وكان جيل الضباط الجديد يتوجه ضد معلميهم، وهم الضباط الأشراف الذين خيبوا آمالهم بسوء استغلالهم للسلطة وتعاونهم مع الدولة المنتدبة. وكان الأفندية الشباب يتوقعون بالانطلاق من إعراض العراق عن التعاون مع الاستعمار، أن يتمكنوا من الاستفادة بالوصول إلى «انبعاث قومي»، ومثلما ضربت لهم على ذلك المثل تركيا أو إيران، أو بعض الدول الأوربية[14]. وبدلاً من الموقف التصالحي الذي كان يتخذه الضباط الأشراف الموالون لبريطانيا، كان الأفندية الشباب يتقبلون أنفسهم التراث الفكري وأيديولوجيات «الغربية» اللواتي أصبحن معروفات عن طريق النشر في الصحافة وفي الكتب. وبات من قبيل الحداثة أن يعبر المرء عن حنينه إلى قائد إلى شخصية متفوقة يفترض أن يفيد الشباب إذ يكون مثلاً يضيء الطريق.

ومع ذلك فقد كان سياق الجيل، الذي يرجع إليه المنتمون إلى الأفندية الشباب، غير محدود بحدود زمرة من شباب سكان المدن. فقد تحول «الشباب»، الذي كانت تسانده ثقافة المدرسة الحكومية التي تم إدخالها حديثاً، إلى مقولة اجتماعية خاصة، ولكن في مراكز العمران في العراق فحسب[15]. وكان مؤلفو المذكرات[16] الذي سيتم تناولهم بعيد هذا القسم

مباشرة، ينظرون إلى حقبة دراستهم على وجه الإطلاق على أنا حقبة منعزلة في تـاريخ حـياتم. وكان هذه الحقبة تضع الأساس لوعي الجيل عندهم، وتحدد «سياق الجيل».

2/4] ملاحظات في التراجم والسيرة

كان عبد الأمير علوي شيعيـًا. وقد وُلد ببغداد عام (1912 م)، وكان مـن جهة أبيه، ابنـًا لأسرة من التجار، ومن جهة أمه، ابنـًا لعلماء الدين الشـيعة. وبعد أن اجتاز، في العشرينيات، نظام التعليم الحكومي، درس في مطلـع الثلاثينيات، طب الأطفال في لندن. وبعد عودته، اصطدم أول الأمر بمقاومـة مخططاته القائمة على إدخال طب الأطفال إلى موطنه، مادةً علميةً جديـدة. وبعد الحرب العالمية الثانية، وصل حتى إلى منصب وزير الصحة، وبعد الثورة العراقية عام (1958 م) تعرض للنقمة، واضطر إلى مغادرة العراق في مسـتهل الثمانينيات، بصورة نائية، وتعد مذكراته مرجعاً قيّمـًا لروح نظام التربية الوطنية في أواخر العشرينيات، ولجهود الأفندية الشباب في سبيل التحديث[17].

أمـا رفائيل بُطي (1899-1956 م) فقد خلف مجموعة من الملاحظات على شكل يوميات، ونصوصًا في السيرة الذاتية[18]، تعدُ أساس لفهم الحياة الفكـرية في فترة ما بين الحربين. أما يونس السبعاوي فقد ولد عام (1910 م)، في بغداد، وأُعدم في عام (1942 م) بصفته عضوًا قياديـًا في حركة الكيلاني المعاديـة للـبريطانيين، التي قامت عام (1941 م). وثمة أعمال مختلفة، وفيها ضمن أعمال أخرى، مذكرات بُطي، تتضمن أمثلة على نصوص السبعاوي، ومـنها، مـثلاً، مقالات وقصائد في الصحف[19]. وقد ولد كل من بُطي والسـبعاوي في الموصـل، وكانـا ينتميان إلى أسرتين فقيرتين. كان بُطي

مسـيحيـًا مـن السريان الأرثوذوكس، وأما السبعاوي فكان مسلمـًا، وعمل كلاهما، منذ أيام الصبا، بصفة معلم، ودخل مؤسسات التعليم العالي في بغـداد. كـان السبعاوي أول المتخرجين في المدرسة الابتدائية في العام الدراسـي (1924-1925 م) في العـراق. ودرس كلاهما الحقوق في بغداد، وشرعا، وهما بعد تلميذان في الثانوية، في العمل صحفيين، وأسس بُطي عام (1929 م) صـحيفة (الـبلاد). وفي مسـتهل الثلاثينيات اكتشف موهبة السبعاوي وعهد إليه بالعمل مترجمـًا للأخبار الأجنبية، والأدب الأجنبي في صـحيفته. وبعد قليل، انتهت المسألة، مع ذلك، فيما يقول بطي، إلى شقاق وقطيعة بينهما، على أساس عدم ولاء السبعاوي. ولكن السبعاوي ظل، من بعـد ذلـك، من أرباب القلم، وتحول إلى صوت قيادي للتطرف السياسي المطرد الزيادة، في بغداد. واشتبكت صحيفة بُطي، خلال الثلاثينيات، مرارًا في صـراع مـع السلطات، واعُتقل هو عام (1931 م)، وحُظِرَت جريدته مرارًا، ومع ذلك ففي أوقات أخرى ساند بطي حظر الحكومة أيضـًا. وفي عـام (1935 م) أصبح عضوًا في البرلمان، وبعد عام (1941 م) لم يكن له بُد من دخول السجن، وكان ذلك هذه المرة بمأخذ تعاطفه مع النازيين.

ولا يمكـن تجـاهل خطـوط التوازي في كلتا السيرتين، في خلفيتهما الاجتماعـية، وفي تعليمهما، وكهنتهما. وقد كان كلاهما مطبوعـًا بطابع الدولة العراقية الفتية، ومذهب الدولة في القومية العربية، وكان كلاهما يؤمن بأهمـية الأدب «الحديـث»، وأفكار الكّتّاب المحدثين. ومع ذلك فقد تجلى فارق السن، البالغ عشر سنين، في أن بطي كان أكثر اعتدالاً ورصانة، وكان من الواضح للعيان أنه ينأى بنفسه عن المتطرفين في مضمار السياسة القومية في أواخـر الثلاثينـيات، على حين كان السبعاوي واحدًا من رواد النضال الفكـري في مضمارها. وفي الدراسات المتعلقة بمجموعة الانقلابيين، في عام (1941 م)، يتبوأ السبعاوي مركزًا بارزًا، ومع ذلك يظل بطي بعيدًا عن ذلك

بُعـدًا مطلقـًـا. ومـع بعض أشكال التقييد والتحديد، يستطيع المرء أن يسلكهما في الجيل ذاته. وفي هذه الدراسة يُعد مأخذ التعاطف مع النازيين ذا أهمية، ولابد من النظر فيه بمزيد من التفصيل.

وأمـا محمد مهدي كبة فقد كان من لدات بطي وأترابه، ومع ذلك فقد كان شيعيـًا مثل علوي. وقد خرج إلى نور الدنيا عام (1900 م) في سامراء، حيث كان أبوه من علماء الشيعة ينحدر من أسرة بغدادية من التجار، ودخل كـبة منشآت تعليمية شيعية مختلفة، قبل أن يهاجر، عام (1924 م) إلى بغداد. ومع ذلك فمذكراته لا تكاد تعدم معلومات نوعية عن تفاصيل تعليمه العالي. وفي عام (1928 م) ظفر كبة، لأول مرة، ومن دون أن يتكلل ذلك بالنجاح، بمقعد في البرلمان. وفيما بعد أصبح نائب رئيس نادي المثنى ذي النزعة القومية. وفي عام (1946 م) كان أول رئيس لحزب الاستقلال المؤسس حديثـًا وكان يسـتند إلى نـادي المثنى[20]. على أن اشتغال كبة بالسياسة العراقية وبالحياة الفكـرية في الثلاثينـيات يـبين أنـه كان ينشط في الأوساط ذاتها التي كان ينشط فيها بطي والسبعاوي. بل كان كبة ينشر من حين إلى آخر، مقالات في صحيفة بطي، (البلاد). وبحكم كونه نائب رئيس نادي المثنى، كان، بلا ريب، يحتك بالسبعاوي، أحد أبرز أعضائه[21].

عـلى أن ذكـريات الشاعر العراقي اليهودي، أنور شاؤول، تشكل في سـياق هذه الدراسة، تضادًا مع الرواد الآنفي الذكر. فقد ولد شاؤول عام (1904 م) أو (1907 م)، ويرجع أصله إلى أسرة من التجار الأغنياء في الحلة كانت تمارس دورًا هامـًا بين صفوف الطائفة اليهودية في المدينة: وفي عام (1916 م) انتقلـت أسرة شاؤول. وتلقى تعليمه الابتدائي في مدرسة الاتحاد الإسـرائيلي (Alliance Israélite) اليهودية، وختم تعليمه الأعلى في مدرسة مسـائية حكومية، ليسجل نفسه، عام (1928 م) في المعهد العالي للحقوق، حيث ظل يدرس حتى عام (1931 م). ولكي يمول دراسته، عمل مدرسـًا

للغـة العربية. وفي عام (1929 م) أصبح محرر الصحيفة الأسبوعية، الأدبية، السياسية، (الحصيد)[22].

وبالنتـيجة، يفترض أن يتناول البحث ماهية نقاط التقاطع والفروق التي كانـت توجد بين هذه السِّيَر، وكيف كانت هذه تتجلى في وجهات نظر متباينة، حول الأمة والجيل والأفكار الفاشية. على أن استخدام المذكرات في صورة مصادر للتاريخ يحتاج مع ذلك إلى بعض الملاحظات التمهيدية. فمن الـبدَهي أن التجاريب الشخصية لا يمكن تبنيها والأخذ بما تنطوي عليه من دون نقد. ثم إن علم المطبوعات والمراجع يقتضي أن نفرق، في صدد المراجع الخاصـة بالسيرة الذاتية، أيضـًا، بين الكاتب، والقاص، وموضوع القصة. وعـلى هذا فالكاتب والقارئ يتصرفان بموجب اتفاقية، للحفاظ على وهم الثقة في المعلومات المفترضة[23]. وهكذا تظل السير الذاتية والمذكرات، على السـواء، في تركيـبات (Ronstrakte). وفي الأسـاس، أشكالاً من السرد القصصي، من دون أن تدعى لنفسها الحق في أن توصف بأنا حقيقية. وكل موقف يتخذه كاتب السيرة الذاتية يحدث في إطار مقالة معاصرة، ولابد أن يفهم في ضوء المعطيات الاجتماعية والسياسية-الاجتماعية الخاصة بالعصر. أمـا المؤثـرات، من قبيل السن، والتجاريب الجديدة والتحديات الجديدة، السياسـية-الاجتماعـية، فلا ينجم عنها أن يقوم الفرد بتصفية الذكريات، وتركيـبها من جديد ويتكيف مع المتطلبات «الحديثة». والذكريات تساعد عـلى تفسـير تسلسـل الأحداث حتى الحاضر، سواءًا أكان ذلك بطريقة اعـتذارية، أم كـان بطريق الإثبات والتأكيد، والذكريات المشتركة تنشئ الهويـات، عـلى حين تعمد الهويات المفترضة، على نحو معكوس، إلى قلب أشـكال الذكريات رأسـًا على عقب، هذا إذا لم تبادر حتى إلى إنشائها. والذكريات الفردية عن الأحداث تتحدث عن صفة التجربة أكثر مما تتحدث عـن الحقائق والوقائع. ثم إن التأكيد على موضوعات محددة، وبنية السرد،

وظهـور تداعيات محددة، أمور تشير إلى الأهمية المحسوسة للانطباعات، التي تُخلف خبرات محددة في فترة محددة-ويكون ذلك أقرب إلى أن يحدث بالنظر إلى ما حدث فيما بعد، منه إلى أن يحدث بالنظر إلى ما سلف حدوثه. وعلى هذا فلا يمكن لوصف الحدث الفذ أن يرى إلا في مرآة المجموع الكامل[24]. وهذه الأفكار والخواطر تمس بوضوح خاص نص العلوي الذي كان يكتب في نهاية القرن العشرين، لقد كتب كبة مذكراته متأثرًا بالانطباع الناجم عن دوره، سياسيـًا قومي النزعة، بعد الحرب العالمية الثانية، أما مذكرات بطي فتتضـمن، في مقـابل ذلـك، وعـلى وجه الخصوص، ملاحظات ترد في اليومـيات، أو ذكريات من منظور قريب، حررها فائق بطي، نجل الكاتب. أما أنور شاؤول فكان يكتب، بعد أن هاجر نهائيـًا، في عام (1971 م) إلى إسـرائيل، ومع مراعاة وجهات النظر المختلفة هذه، فإن هذا المقال لا يلفت الانتـباه إلى الأحداث وإلى وقت وصفها، بمقدار ما يلفت الانتباه بالأحرى، إلى مـيزية الـتجربة، ومفعول الانطباعات وأثرها في الفرد. والتجاريب التي تتسم بأهمية كبيرة للفرد، تفرض نفسها في غمرة الذكريات، وتكتسب، لهذا السـبب، في الحقب اللاحقة أيضـًا قيمة معلوماتية نوعية رفيعة المستوى. ومـن ذلـك أن وعـي علاوي هويته العربية، وانتماءه إلى مجتمع الشباب العـراقي، والبالغين من الشباب، ربما لم يكتسب كل هذه الأهمية إلا بعد أن قسره الطغيان على الذهاب إلى المنفى.

3/4] وعي الجيل

لقـد كانـت تجربة التعليم حاسمة لاستكمال صياغة وعي للجيل عند الأفـندية من الشباب في عراق ما بين الحربين. وبهذا المعنى يؤكد عبد الأمير عـلاوي في مذكـراته أنه كان ينتمي إلى فئة من الطلاب كان يجمع بينها موقفهـا المناوئ للبريطانيين. ويفيد وصفه أن خريجي المعاهد العليا مفعمون

بالكراهية للإمبريالية بوجه عام، وللإمبريالية بوجهها البريطاني بوجه خاص، وأنم قرروا أن البريطانيين يستغلون الإهانات والخيانات المتبادلة بين الأديان والمذاهب في العراق، وأن دولة الانتداب قد أعلت من شأن الأقليات الدينية وهـيأت لهـا أماكن التربية ومواقعها عملاً بشعار (فرق تسد)، وأن الحال كانـت كذلـك حتى بعد الاستقلال العراقي في عام (1932 م)[25]. وربط عـلاوي بذه الإفادات موضوعين يشغلانه الرفض المطبوع بالطابع القومي، للإمـبريالية والإحسـاس با، على الرغم مما يلحق به من الضرر مع تبعيته للأكـثرية. وذلك أن الشيعة كان يجري استبعادهم من المواقع ذات النفوذ، وأوساط النخب منذ تأسيس الدولة، مع أنم كانوا يشكلون أغلبية في البلاد. ومـن أجل ذلك كان علاوي يتهم البريطانيين بأنم يحكمون وفقـًا لمبدأ: «فرق تسد».

وكان علاوي يحدد تبعية لفئة ملموسة: وهي الأشراف (die Gradiortent). وكـان وعي الانتماء إلى هذه الطبقة يشكل هويته، ويتبوأ مـ لة هي بعد فوق تبعيـته المذهبـية. وكذلك يتحدث، في مذكراته، عما يسمى بالاضطرابات والقلاقل في الحقبة الأخوية، وقد نشبت في عام (1927 م)، حين نشر مدرس الـتاريخ السـوري أنيس النصولي، في العراق كتابـًا عن الدولة الأموية في سورية. وشعر الشيعة أنم يتعرضون للهجوم من جراء وجهة نظر الكتاب التي كانـت معاديـة للشيعة على ما يظهر[26]. ويفيد علاوي بأن الاضطرابات والقلاقل أدت إلى انفصال بين «الشقيقتين اللتين كانتا قلبـًا وروحًا»، وحين مـارس وزيـر التربية في تلك الأيام ضغطـًا على السلطات لكي تبعد هذا المـدرس عن البلاد كان الطلبة قد خرجوا في حملة مظاهرات قوية إلى وزارة التربـية. وكان خلق كثير قد تجمعوا، وألقيت خطب نارية، وكان بعضهم قد اسـتغل الموقـف، ليشعلوا قلاقل دينية بين السنة والشيعة[27]، وهذا التصوير يؤكد أن الهدف القومي العربي المشترك كان وراء تبعية علاوي الجماعية، وهو

هـدف إقامة الأمة على قدميها[27]. ولذلك كانت الاضطرابات برأيه نتيجة تحريض هدام من عناصر هي مثار للشكوك، تريد تقويض الوحدة. وكان ينظر إلى المسلمين العرب، من سنة وشيعة، على أنم متساوون يشكلون وحدة، على النقيض من الأقليات التي كانت تلقى التشجيع من البريطانيين. على أن موقف علاوي جدير بالتنويه، إذ كان الشيعة مهضومي الحقوق في مسألة دخول المدارس الحكومية، ولم يكن يدخل مرحلة التعليم الثانوي إلا القلائل، لأسباب ليس آخرها سوء ظن والديهم بالدولة التي يهيمن عليها السنة، وكان مطبوعة بالطابع العلماني[28]. ولذلك كانت التبعية لخريجي مدرسة حكومية ذات نزعة قومية عربية، أهم عند علاوي من مذهبه الشيعي. وفي مذكراته يؤكد في المقام الأول أنه كان ابن والدين عربيين عراقيين، وفي المقام الثاني فحسب يضيف إلى ذلك أن أسرته تنحدر من قبيلة ربيعة، وأنا هاجرت في أواخر القرن الثامن عشر إلى بغداد[29].

وفي هذه اللحظة من تدوين مذكراته على الأقل، كان علاوي يعي وعيًا لا ريب فيه أنه لم يكن يكتب إلا عن أقلية ضئيلة في العراق، عندما ذكر الأشراف. ولاحظ أن التعليم المدرسي كان يحتفظ به لأبناء العاملين في الدولة والضباط، وأن عدد المدارس الحكومية كان ضئيلاً، وكان معظم البشر الذين ينتمون إلى أصل مختلف، أميين[30]. ثم أدرك علاوي الفروق بين العاصمة وسائر البلاد: «أبناء المدينة الواحدة، وأبناء الوطن الواحد» لا يترافقون. وكان علاوي ينطلق من مسألة أن هذا كان خطأً فاصلاً كان يعترض أن يحافظ على التمزق والتشرذم بين أبناء البلد، وكانت الغطرسة هي التي تحدد، فيما يرى، شكل العلاقة بين الحكام والمحكومين وأصحاب الحقوق المهضومة، كما تحدد، من خلال ذلك أيضًا، مجال التعليم المدرسي الثانوي والجامعي[31]. وعلى وجه الإجمال، يؤكد علاوي أهمية التربية من أجل التخلص من هذه الأشكال من التعارض. وفي موضع آخر يذكر أن المدرسة

الثانوية كانت مكانًا تصل أهميته إلى الحد الأقصى، إذ كان الطلاب يختلطون في محيطهم الأقرب، من دون أن تتاح لهم فرصة اللقاء[32]. ويذكر علاوي التلاميذ في هذه الأثناء عن وعي وقصد، بأنهم والإخوة العراقيون» من دون فارق يتصل بالأصل الإثني أو الأصل الديني. لقد كانوا برأيه، في المقام الأول، عراقيين، وكانت المدرسة هي التي تجلو وجه هذه الطبيعة فتجعله مشرقًا، على حين سيكون هذا خليقًا أن يتعذر حين يكون في أماكنهم الأصلية. وكانت الصورة التي يحملها علاوي لشباب حديث تتضمن، من أجل ذلك، توجهًا نحو المجتمع القومي، الذي كان يتميز تميزًا واضحًا من أشكال الاحتكاك التقليدي في المجتمع، وكانت مهمة المدرسة ترسيخ هذا التوجه في قلوب التلاميذ.

ويصف محمد مهدي كبة في مذكراته، كيف اكتشف، وهو فتى شيعي، حتى في الأيام التي سبقت الحرب العالمية الأولى، أن عروبته كانت تحظى بالأولوية على التبعية المذهبية، في منظوره. لقد نشأ محمد مهدي كبة في سامراء، ودرس هناك العربية والدين (العلوم العربية والدينية) على يد أساتذة مختلفين، إلى أن حاصر الإنكليز المدينة في أثناء الحرب. وهو يذكر أنه استرسل، خلال طفولته، في المدينة في مناقشات جمة، حامية الوطيس، (لم تحدد بالتفصيل)، مع الأجانب الذي كانوا يشكلون في هذه الأثناء أغلبية الطلبة. وكان معظم هذه الانتخابات يمس شؤون الولاء الوطني والإثني، وقد زادت في ميل كبة الوطني، إذ لاحظ أن الأجانب يناصبون العرب العداء، ويرفضون كل ما هو عربي[33]. ومنذ عهد ليس بالبعيد كانت سامراء قد تحولت إلى مركز من المراكز القيادية للعلم والتعلم في المذهب الشيعي، بعد أن كان المجتهد، محمد حسب شيرازي استقر هناك عام (1875 م)، وكانت تعاليمه وتعاليم خلفائه تجتذب كثيرًا من طلبة العلم الشيعة، الذين كانوا، على الاحتمال الأرجح إلى أقصى الحدود، إيرانيين، مع أن المدينة كانت من

قـبل تكـاد تكون سنية كلها[34]. وفي عملية إسقاط تنطوي على استعادة للماضـي، قـرر كبة أن الصياغة، أو الانطباع، اللذين أفضيا به إلى الـ عة القومـية العربية، إنما حدثا منذ أيام طفولته في سامراء. وقد كان بلغه هناك، أن إخوانه في الديانة، على وجه الخصوص يرفضون على أساس أصله الإثني، ويمضـي قائلاً: إن قلاقل واضطرابات نشبت في سامراء بين الطلبة الأجانب وأنـاس مـن (أبناء سامراء) جرت معها، حتى التدخل العسكري من قبل السلطات العثمانية، وكذلك محاولات من قبل القنصلين، الروسي والبريطاني، للظفـر بالنفوذ[35]. وتتبين لنا رواية كبة أن العروبة في هذه الحقبة كانت، لهويته، أهم من هويته الدينية.

ومـع ذلـك حدث التزام كبة القومي الـ عة، بادئ ذي بدء، على صعيد المؤسسات الشيعية، وهاجر، عام (1918 م) إلى الكاظمية (كاظمان)، وهناك كـان له تعـامل ودي مع أسرة الخالصي، وكان عميدها الإمام محمد مهدي الخالصـي والذي كان، كما يكتب كبة، على يقين من أن تكريس المرء نفسه للقضية القومية من أولى واجبات الإنسان الدينية. ويمضي قائلاً إن مـ ل الإمام ومدرسـته كانا مركزين من مراكز الأنشطة السياسية، وكانا مكاني اجتماع للشخصـية السياسـية. وكـان كبة يشارك، بحكم كونه منتميـًا لـموعة مـن الشـباب، من الكاظمية، في هذه الأنشطة[36]، ويجب أن ينظر إليهم في سـياق ثـورة العشـرين العراقية. وكان الـتهدون الشيعة في المدن المقدسة يجتهدون في الدعوة إلى الثورة على الإدارة البريطانية للعراق. فعلى حين كانت الميثولوجـيا العراقية ذات الـ عة القومية تـب للثورة، في لحظة نشوب الكفاح القومي العربي في العراق تأويلاً جديدًا، كان الدافع المحرك الكامن وراء الجهود الشـيعية، مـع ذلك، أقرب إلى السمة الاجتماعية-الاقتصادية، وإلى السمة الدينية، وذلك أن الهيمنة البريطانية كانت تـدد مركز الـتهدين الذين يستهدون بإيـران. وكان الاحتلال المسيحي للعراق يبدو لقادة الشيعة تـديدًا للإسلام.

وكانت ألوان الإلماح إلى المشاعر القومية العربية أقرب إلى أن يعثر عليها في الدعاية (الشريفية) منها إلى أن يعثر عليها في تصريحات علماء الشيعة. وكان آل الخالصي على وجه الخصوص يرفضون نظام حكام الملك فيصل على الرغم من الصورة العربية التي كان يظهر بها، إذ كان مواليًا للبريطانيين. وفي عام (1923 م) شنوا حملة شعواء مناوئة للشريفيين. وبالقياس إلينا ينجم عن ذلك أن كبة كان يوفق بين صورة انتمائه إلى الأوساط الشيعية المسيسة، في نظرة تستعيد الماضي، وتكريسه جهوده للقومية العربية. وفي تطابق مع أسطورة ثورة قومية في عام (1920 م)، كان يصور نفسه عضوًا في رهط من الشباب الذين باتوا يعدون من الثوريين في هذه الحقبة.

وفي تصوير كبة يعد الشباب فئة منعزلة، وهو يؤكد هذا التفريق بين المحافظين من كبار السن و«الشباب» التقدميين. وفي سردٍ آخر، انتقل كبة، عام (1924 م)، من الكاظمية إلى بغداد، واختير عضوًا في مديرية المدرسة الجعفرية، التي قد كانت أول مدرسة شيعية تؤسس في بغداد، عام (1909 م)، وكانت تتيح تربية «حديثة» وتدريسًا للفرنسية والرياضيات لتمكين الطلبة الشيعيين من التنافس مع مثقفي اليهود على المناصب العامة[38]. ومع أن المدرسة كانت، بالفعل، منشأة حديثة نسبيًا، فقد وجدت اختلافات في الرأي بين الأعضاء والقدامى في الإدارة والجيل الأحدث سنًا. وكان من بين زملاء كبة الأكبر سنًا، محمد جعفر أبو التمن، الذي قد كان شارك في تأسيس المدرسة عام (1909 م). وانتهت المسألة إلى صراع بين أبي التمن وأعضاء مجلس الإدارة الأحدث سنًا، حول مسألة أن إدارة المدرسة كانت تتألف بصورة أساس، من رجال دين عليهم المهابة والوقار. ويلاحظ كبة، في مذكراته أنه كان يوجد رهط من المثقفين الشباب كان يتألف، في المقام الأول من خريجي المدرسة، الذين كانوا، اختتموا تعليمًا عاليًا، وكان بين هؤلاء صادق البصام وآخرون، كانوا يرون في إعادة تشكيل إدارة

المدرسـة وإعـادة النظر في منهاج التعليم أمرًا ضروريـًا. ومثل كبة، كان بعض هؤلاء الشباب قد نجحوا في انتخابات مجلس الإدارة، وكان مطمحهم الأول يتمـثل في دفـع عجلة تبديل في إدارة المدرسة، إلى الأمام، واقترحوا صادق البصام مرشحًا للمنصب. مع ذلك رفض أبو ـتمن وآخرون ترشيحه، عـلى أساس حداثة سنه، وكان في هذه الحقبة لا يكاد يبلغ من العمر سبعة وعشـرين عامـًا. ويبين كبة أنه كان يقف إلى جانب حديثي السن الذين ساندو الترشيح وكانت لحزبه اليد العليا حين عُين البصام، آخر الأمر، مديرًا للمدرسـة[39]. ويلخص كبة بأنه كان يجمع بين ثلاثة عناصر كانت حاسمة لوعـي الجيل عند رهط المثقفين الشباب، وهي اهتمامهم المشترك بالتجديد، والعروبة، والقومية. بل لقد بدا له، في نظرة تستعيد الماضي، أن كل الطبقات الاجتماعية كانت موحدة في الكفاح ضد الإمبريالية وفي مشاعرها القومية، وهـذا القاسـم المشـترك الذي كان يمتد بالنسبة إليه حتى على نطاق كل التمع، كان يحس بأنه حقيقة واقعة[40].

ومثلما فعل عبد الأمير علاوي، حدد رافائيل بطي، في مذكراته، أنه جيل حديثي السن وصل في أثناء طور تعليمه، خلال حقبة الانتداب البريطاني، إلى الوعـي السياسـي، وداخل الحياة العامة حين عقد العراق وبريطانيا، عام (1930 م)، معـاهدة الاسـتقلال. ولعل ما له دلالته أن بطي يستعمل هنا مفهـوم «جـيل»، ولكن الإضفاء المشترك للسمة السوسيولوجية في حقبة التعلـيم، يتم إيراده على أن السمة الوحيدة المتميزة لتكوين الجيل. وأضاف بطي، قائلاً: إن معظم أفراد هذا الجيل إنما تخرجوا من المعاهد العليا للحقوق، وعـاد فريق منهم من دراسة في الخارج، وكان بعضهم ينحدر من الطبقات الدنيا وكان جزء منهم من دون ثقافة، حيث يطرح بطي هؤلاء، مع ذلك، على أنم أقرب إلى أن يشكلوا استثناء من القاعدة[41]. وكانت الثقافة تؤدي دور الحفاز للتضامن بين أفراد الجيل، وبطي كان يعي ذلك. وكان الخريجون

يشغلون، بعد دراستهم مباشرة، المناصب العامة، وذلك لأنهم لم يكن أمامهم بديل، من ناحية أولى، مع مؤهلاتهم، في سوق العمل المحدود، ومن ناحية أخرى، لأنه كان يسود، في أثناء طور تكوين الدولة، نقص في هذه المؤهلات على وجه الخصوص[42]. وكان كل من بطي والسبعاوي، على السواء، ينتمي إلى هذا الجيل، على الرغم من فارق السن. وكان من الممكن أن تؤدي الثقافة القومية ال عة، والاحتكاك بالأفكار «الحديثة»، إلى معارضة للنخبة القائمة واحتجاج عليها، إذا ما قصرت في تحقيق مُثُل الاستقلال الوطني التي كان يجري تعلمها في المؤسسات التعليمية.

وخلال أوائل الثلاثينيات انتقل الدور الذي يملك القول الفصل في المناقشات السياسية في العراق من أساتذة التعليم وآباء الدولة المؤسسين، إلى تلاميذهم، وتحولت النوادي والجمعيات إلى مؤسسات لها القول الفصل في هذه المناقشة، ومثال ذلك نادي كبة (المُثنى). ويقدم لنا بطي، في مذكراته، فوق ذلك، جمعية الجوال (أو جمعية الجوالين): وكانت هذه الجمعية سرية معارضة إذ كان معظم أعضائها من العاملين في الدولة. وحين تقربوا، في أواخر الثلاثينيات من الضباط الشباب اكتسبوا، كما يقول بطي، نفوذًا سياسيًا قويًا، وكان من أفكارهم المفضلة «النظام الجديد» (أو التنظيم الحديث» للدولة. ويفيد بطي أن شخصية الجوال كانت لها صفة الشخصية النموذجية جنسية للشباب ومن أجل «صياغة كتلتهم»[43].

ويستفاد من روايات بطي أن أفراد طبقة المثقفين الناشئة كانوا يفهمون أنهم كتلة من النخبة تتطلع إلى تبدل في النظام، وأن قيمتهم الزائدة تصاعدت حين اكتسبوا، من جانبهم، بدورهم نفوذًا وتأثيرًا على الشبيبة الناشئة، كما يقول بطي. وحين تقربوا فيما بعد، من الجيش، أنشأوا جمهورًا ناقدًا، صارمًا في أحكامه، ومع ذلك ففي عام (1941 م)، أخفق هذا إخفاقًا يبعث على الرثاء. على أن الأمثلة المستمدة من السير تكشف عن أن فئة

المثقفين الشباب اكتسبت شعورًا بالتضامن والتماسك كان يتميز من ذلك الشعور الذي كان يساور الجيل الأقدم، جيل القائمين على إدارة، دفة الأمور في الدولة، تميزًا فاصلاً. وذلك أن الضباط الشريفين السنيين وأسرهم، كانوا قد ارتفوا من الوجهة الاجتماعية بفضل مواقعهم البارزة الرفيعة. وكانت هذه المواقع باتت مخصصة لهم بحكم كونهم فئة كانت سلكت نظام تدريب الضباط العثماني وكانوا في الأصل ينحدرون من طبقات دنيا في المجتمع العراقي السني. وعلى لا نقيض من ذلك كان الأفندية الشباب يتألفون من الشيعة، والسنة، والمسيحيين، وبالمعنى الأوسع أيضًا، من اليهود، كما تكشف عن ذلك الأصول المختلفة لأنساب الرواد الأوائل. وينتج عن هذا السياق الافتراض الذي يغير أن المواجهة بين المؤسسة الموالية لبريطانيا وفئة المثقفين الشباب أفضت إلى صراحة محددة من أجل التراث الفكري ذي التطرف السياسي. الذي تطور حوالي فكرة جيل جديد كان يفترض أن يتغلب على المؤسسة القديمة التي تطرق عليها الفساد.

وكان من أماكن اجتماعات المثقفين الشباب، نادي المثنى، وكان يستخدم «حجراته أيضًا جمعية الجوال»[44]. ومع ذلك فلم يكن النادي شأنًا من شؤون الأفندية الشباب حصريًا. وكان رئيس النادي، صائب شوكت، ينتمي إلى المؤسسة القديمة[45]. وكان نوري السعيد، الذي كان يجسد النخبة الشريفية وموقعها الموالي لبريطانيا، يلقي محاضرات في النادي، مثلما كان يفعل ساطع الحصري، وكان هذا الأستاذ الكبير في القومية العربية في جيل الشريفيين. ولم يكن اهتمامه يتوجه إلى نظام أساس، أو تبديل في النخبة، ولذلك فالاتهامات اللاحقة التي تفيد أن النادي كان يمثل خطًا مواليًا للنازيين بوضوح، لا تتوافر لها أسس صلبة[46]. وفي الأساس يستطيع المرء أن يتخذ، وهو على يقين، موقف القائلين إن النادي كان يمثل اتجاهًا يجنح إلى الجامعة العربية وميولاً شمولية[47].

وقد وقف كبة، نائب رئيس نادي المثنى، فصلاً من مذكراته لأنشطة النادي[48] وهو يقر أن النادي قد كان أسس لكي يتعرض «لوجهات النظر ذات النزعة العالمية»، التي ظهرت في الثلاثينيات. وكان هذا، فيما يقول كبة، نتيجة لانتشار الإيديولوجيات في البلاد، وهي التي كان يتم تبسيطها إلى حد الإفراط من جراء أمور متعددة، بينها ظهور وسائل التواصل الحديثة. وقد كانت فئة من المثقفين الشباب خليقة بأن تخشى أن يضيف هذا مكانة القومية العربية وأهمية التراث القومي في السياسة العراقية والمجتمع العراقي، وإنما تهدف ملاحظات كبة هنا إلى نجاح فئة «الأهالي» ذات التوجه الاشتراكي، التي كانت تساند الحكومة القائمة برئاسة حكمت سليمان، والتي كان يقف وراءها، مرة أخرى، الجيش بقيادة اللواء بكر صدقي، وقد كان هذا قاد، في عام (1936 م)، أول انقلاب عسكري في تاريخ العراق. وكان صدقي كرديًا، وكان نظامه يفضل القومية ذات النزعة «العراقية» على التوجه نحو الجامعة العربية السائد بين صفوف النخبة الشريفية، غير أن خصوم صدقي وسليمان كانوا يثيرون الشبهات والشكوك أيضًا حول الميول الاشتراكية لدى حكومتهم[49].

ومع ذلك يؤكد كبة أن مؤسسي نادي المثنى لم يكونوا ذوي توجه رجعي بحال من الأحوال، بل كانوا يريدون، بالأحرى، أن يدخلوا تطويرات جديدة وطرقًا في السياسة والمجتمع والاقتصاد. جديدة، وأن يضعوا أسسًا حديثة للحق والتضامن، في إهاب قومي عربي، ويقول إنهم كانوا على يقين من أن النزعة العربية هي الطريق الوحيد إلى بلوغ هذا الهدف، وأنهم أرسوا نادي المثنى على هذه الأسس، وهو الذي كان يفترض أن يعرض جهود الشباب ذات النزعة العربية هي الطريق الوحيد إلى بلوغ هذا الهدف، وأنهم أرسوا نادي المثنى على هذه الأسس، وهو الذي كان يفترض أن يعرض جهود الشباب ذات النزعة القومية[50]. وقد كان هدف النادي

بعـث الحياة من جديد في المشاعر القومية ووعي التضامن العربي في صفوف أبـناء الشعب، والحفاظ على التراث القومي، وعلى تنمية الوعي تجاه الثقافة العربية في كل طبقات المجتمع، وكان يفترض تعزيز الاعتداد بالانتماء القومي وبتاريخ الأمة بين صفوف الشباب.

وكـان أعضاء النادي قوميين عربـًا، من فئات مهنية شتى، كالمحامين، والأطـباء والمعـلمين، وعـلى الإجمال، كانوا هم الأفندية، وفي الحفلات والاجـتماعات كان الأعضاء أو الضيوف يلقون المحاضرات في موضوعات متبدلة، من الأدب، والتاريخ، والمجتمع، تمت بصلة إلى الثقافة العربية، وكان يـتم نشر بعض المحاضرات[51]. ثم إن النادي كان ينظم رحلات جماعية إلى المواقـع التاريخـية، ويستقبل وفودًا ونوابـًا من البلدان العربية الأخرى في الاحـتفالات، وبهدف تبادل المستجدات والأخبار عن الأمة العربية، وكان كبة، ورئيس النادي، صائب شوكت، يتوافقان في قناعة مؤداها أن التورط في شؤون السياسة الداخلية سيهدد وجود النادي وتوافق الآراء بين أعضائه، وهـو خلـيق بأن يمثل صرفـًا للنادي، عن أهدافه الأساس، إذ يدخل في مضـمار آخر. ولتأكيد هذا التخوف، يتحدث كبة عن حادثة حدثت حين شـارك رئـيس الـوزراء في تلك الأيام، جميل المدفعي، في احتفال أقيم في حجـرات النادي الرئيسة، إذ هاجم أحد المتحدثين المدفعي، وسياسة حزبه، ولم يكـن أمام المدفعي خيار آخر سوى أن يغادر القاعة مغيظـًا محنقـًا. واعتذر كبة إلى المدفعي حين شكا هذا من المتحدث، كما أخذ عليه أعضاء آخرون في النادي بعض المآخذ.

وفي مناسـبة مماثلـة انسحب كبة نفسه بعض الوقت من النادي، حين حـاول نوري السعيد أن يستخدمه لأهدافه، وكان النادي قد نظم من أجله مؤتمـرًا للمناقشـة، بصـفته رئيسـًا جديدًا للوزراء بعد استقالة حكومة المدفعي. وتبين لكبة أن بعض أعضاء النادي ممن كانوا ينظموا اللقاء بناء على

رغبة نوري، وذلك، بلا ريب، من دون معرفة سائر الأعضاء الذين أغاظهم ذلك إلى حد بعيد.

وهكذا كله يشير إلى أن نادي المثنى كان ملتقى للقوميين المؤمنين بالجامعة العربية من كل لون، ومع تمثيل درجات شتى من التطرف، بما يتماشى مع فئة الأعمـار التي كانوا ينتمون إليها. وكانت الـ عة العربية تشكل القوس الذي يلتف حولها تبعـًا لتأكيد التراث القومي في سياسة العصر العراقية المطبوعة بالطابع القومي، التي كان يفترض أن تقيم للدولة الناشئة «مجتمعـًا محليـًا متخـيلاً»[52]. ومـن الممكن الاحتجاج، فوق ذلك، بأن النادي كان منبرًا تقدمـه المؤسسة السياسية للمثقفين الشباب لكي تراقبهم وتضبطهم بطريقة أسـهل، وتتمكن بذلك، من إدخالهم في معسكرها إن صح التعبير. ولذلك رحب أفراد الجيل الشريفي أيضـًا بالنادي وكانوا يترددون عليه.

ويجـب أن نفترض أن الأفكار كانت تُناقش في نادي المثنى، مهما يكن نوعها، ومع ذلك فقد أعلن كبة، بعد الحرب البريطانية العراقية عام (1941 م)، بـلهجة التأكيد، بطلان اتام إنغليزي أعرب عن مأخذ له، في نادي إخوان الحـرية، وهو المؤسسة التي خلفت نادي المثنى، مؤداه أن أعضاء هذا النادي كـانوا يسـاندون النازية ويتعاونون مع ألمانيا[54]. ومع ذلك يشير خلدون سـاطع الحصري الذي كان ينظر إلى كبة على أنه أحد أكثر مفكري العصر نفوذًا وتأثيرًا خلال حقبة ما بين الحربين، إلى أن الأخير قد كان نشر في مجلة المـثنى، بعـد سقوط نظام حكمت-بكر، مقالة أعرب فيها عن افتراضه أن الـنازية (أو الاشتراكية القومية) تستطيع أن تحل التناقض بين الأمة الواحدة والوطـن الواحـد والصراع الطبقي[55]. ولذلك كان من الراجح كثيرًا أن يـناقش النازية بين ما يناقش من النماذج التي كانت تناقش في نادي المثنى. وعـلى الـرغم من أن المصطلحات فيه تقنع بتقارب مع النازية، فإن مجرد الاستخدام للصاقة معينة لا ينضح إلا بالقليل عن سمة المفهومات والتصورات

الـتي كانـت تكمن وراءها. وعلى حين ترسم النازية في هذه الأيام صورة واضـحة لإيديولوجية وحقبة تاريخية، فإن من الممكن لهذا المفهوم أن يكون أصـبح منقسمـًا للمثقف العراقي. وفي العصر الذي تتناوله، وفي دلالات المندمجة والمعزولة مع ذلك، منقسمـًا، إلى قومية واشتراكية، واكتسب بذلك جاذبـية خاصـة. أما توضيح مقاصد كبة فما كان له أن يتحقق إلا بالنص الأصلي للمقالة الذي لا يتوافر لدينا، مع الأسف.

وفي مقابل ذلك كان كبة على يقين من أن البريطانيين إنما أرادوا، بافتتاح نادي إخوان الحرية بعد الهزيمة العراقية، عام (1941 م)، أن يخوضوا حربـًا دعائـية ضد الفاشية. وكان النادي يؤدي وظيفته على شاكلته نادي المثنى، وكـان يتولى المسؤولية عنه فرايا ستارك. وكان كثير من البريطانيين يلقون المحاضرات هناك. وشغل النادي حجرات نادي المثنى التي قد كان هذا أقامها مـن تبرعات الأعضاء والمؤازرين والمتعاطفين، وشكا كبة من أن البريطانيين كان يعرضون أفلامـًا دعائية إمبريالية، ويحطون من شأن القومية العربية، ثم قال إن النادي أصبح مركزًا لنشاط المخابرات البريطانية. ويقرر نائب رئيس نـادي المـثنى في ذلـك الوقـت أن التناقض بين المؤسسات التي سلفت والمؤسسات التي جاءت بعدها ما كان من الممكن أن يكون أكثر من ذلك، إذ كان النادي قبل ذلك، مركزًا ومعقلاً للـ عة العربية. ويبدو أن البريطانيين كـانوا يدركـون أحسـن الإدراك دور نادي المثنى قبل حركة رشيد عالي الكـيلاني: فقـد كان المكان الذي تتم فيه الرقابة على مناقشة المثقفين في العراق، ويمكن التأثير فيها والحد منها. ولو كان هذا المكان مكانـًا خالصًا للدعاية النازية كما كان البريطانيون يريدون أن يحملوا أعضاءه على الاعتقاد بذلـك، عـلى مـا يبدو، لما ألحقوا به هم، أنفسهم، نادي إخوان الحرية. والأحرى أنم قرروا أن النادي كان للمثقفين العراقيين ذوي التوجه القومي العـربي مكانـًا محبوبـًا، مألوفـًا لمناقشة التيارات السياسية الجديدة، وأن البريطانيين لم يكن لهم بد أن يفتتحوه لأنفسهم.

أما مذكرات الشاعر اليهودي أنور شاؤول فتشير إلى أنه كان يقف خارج إطار الانتماء إلى الجيل الذي كان يحس به الرواد الآخرون، ومع ذلك فقد كان يشاطرهم كثيرون من المصالح والمواقف وكان يشارك في الأنشطة المشتركة. وكان يكاد يشارك القوم جميعًا في أنه كان يخلف وراء ظهره التربية القديمة المطبوعة بطابع الدين، ويتلقى نوعًا من التربية الحديثة. ثم إن المدرسة العائدة ل(الاتحاد الإسرءيلي) الذي كان يتخذ من باريس مقرًا له، والتي دخلها في بغداد، كانت المثال البارز للتربية الإسرائيلية التي اتخذت في القرن التاسع عشر بداية لها. وكانت لغات التعليم هي الفرنسية والإنغليزية والعربية، وكان نظام التعليم الذي يستهدي بنظام فرنسا يهيئ لخريجي المدرسة مزية نوعية مقابل مواطنيهم عند التقدم لطلب الوظائف الرسمية[56]. وكان الانتقال إلى بغداد يعني بالقياس لشاؤول مثل الذي كان يعنيه لُبطي، وسبعاوي وكبة، وهو إدخال الواحد منهم في ميدان «الحداثة»، إذ خلف هؤلاء جميعًا، وراءهم، حياتم التقليدية، البائسة في شطر منها، وتحولوا إلى شخصيات تدخل في إطار الحياة العامة للمدينة وما يدور فيها من المناقشات والأحاديث.

ويضيف شاؤول هذا بالتفصيل، فبعد انتقال أسرته إلى بغداد، دخل عددًا من المؤسسات التعليمية[57]. وهو يروي أن هذا كان على وجه الخصوص اكتشافًا أضاء له السبيل. وقد احتضنته المدرسة وعلمته وصقلته، وعن طريق المدرسة حظي بالأمثلة الرفيعة على سيادة الحق والقانون واحترام العدالة، واكتشف محبته للحرية. ووصل آخر الأمر إلى أن المدرسة تمكنت من تحويله إلى مواطن عراقي أصيل، وإلى يهودي مؤمن، مفعهم بالزهو بيهوديته[58]. وكان هذا على وجه الدقة هو ما ميزه عن زملائه بين المثقفين العراقيين: فقد كان هؤلاء يمثلون ما أخرجه نظام التعليم الحكومي ذو الـ عة القومية، وكانوا ينظرون إلى أنفسهم نظرة تنطوي على تأكيد كونم عربًا عراقيين، على حين كان شاؤول يفهم نفسه على أنه عراقي يهودي. وبينما كان

يجـري إنشاء نظام التعليم الحكومي في العشرينيات، اتخذت مدرسة الاتحاد (اليهودي) أيضـًا، في الحقيقة، توجهًا عربيـًا بدرجة أقوى من ذي قبل[59] ومـع ذلـك كانت تستخدم، في المقام الأول، الطائفة اليهودية في العراق، وتنمي هويتها الطائفية.

وكـان شاؤول كثير الاحتكاك مع السبعاوي وبطي، على الأقل. كان السـبعاوي رفـيقه في الفصل الدراسي حين سجل نفسه عام (1928 م) في المعهـد العـالي للحقوق[60]. وحين بات السبعاوي في السجن زاره ونشر استطلاعـًا مطـولاً في مجلـة (المصير) عن وضع زملائه الصحفيين وراء القضبان[61]. وكان شاؤول ينتمي إلى (وضع الجيل) ذاته، ومع ذلك تختلف مذكـراتم اختلافـًا أساسـًا عن مذكرات الرواد الآخرين: وكان شاؤول في مثل سن بطي، وكان يتخذ الأسلوب ذاته، القائم على الدين والمذهب في شـطر مـنه، والقائم على خوض مسيرة التعليم الحكومي، مثل كبة. وقد مـارس، بصـفته صحفيـًا، المهنة ذاتا التي مارسها معظمهم، ومارس هو أيضـًا، التعليم في المدارس، ومع ذلك لا توجد في كتابه، خلافـًا لما يوجد لدى الآخرين، ملاحظات حول وحدة الجيل في إطار الشباب العراقي، وعلى الرغم من أنه شارك في المؤتمرات الشعبية القومية، بل ألقى فيها قصائده، وفي أمـثال هذه المناسبات كان يستحضر الاخوة والتسامح. ومن ذلك ما فعله مـثلاً في حفل تأبين رئيس وزراء العراق المتوفى، عبد المحسن السعدون، في جامع الكيلاني، في تشرين الثاني (1929 م)[62]. وكانت مصطلحات شاؤول الخاصة بالانتماء إلى الوطن وثيقة الصلة بموضوع الفروق بين كل طائفة من الطوائف على حدة. ومن منظوره كان التسامح هو الوصية التي يفترض أن تـؤدي إلى وحدة المجتمع الذي مزقه الانشقاق والانقسام. وفي مقابل ذلك كـان بطي والسبعاوي يتوقعان من الجيل الجديد أن يتغلب على التناقضات داخـل المـجتمع، عـن طـريق العروبة المشتركة. وكان شاؤول يؤكد في

روايته الفروق في التمع على وجه الخصوص، إذ يروي كيف سمع اثنين من المشاركين في حفل تأبين السعدون، يعبران عن دهشتهما لمشاركة شاعر يهودي في هذا الاحتفال، واستخدامه اللغة العربية مع هذا، «لغة الضاد».

ونلخص بالقول إن هذا التحليل للمذكرات يعزز قول القائلين إن تجربة التعليم تمثل الأساس المميز لوعي الجيل. ولعلاوي وبطي والسبعاوي، كان التعليم المدرسي الحكومي، والتعليم العالي، المكان الذي كان الطلبة فيه يعمقون فكرة الجامعة العربية. وحتى عندما كان التعليم المدرسي لا يتبع الطرق الحكومية الرسمية، كما في حالة كبة، كان هذا يرى في نشوء وعيه العربي مسألة راجعة إلى المحيط الذي كان يعيش فيه في أثناء تعليمه، وفي صباه. ويبدو أن الطائفة اليهودية وحدها هي التي كانت تظل خارج هذا المثال أو الأنموذج الخاص بالتمع القومي، كما تبين لنا رواية شاؤول. وكان الآخرون جميعاً يشاطر بعضهم بعضاً تجربة مؤداها أنه يمثل أول فئة من فئات السن تستفيد من التعليم القومي الحكومي، وأدى هذا إلى وعي خاص بالنخبة كان يتميز من وعي كبار السن وخلفيتهم العثمانية. وفي الثلاثينيات وصل وعي الجيل هذا إلى الجمهور، حين شرع الأفندية الناشئون في ممارسة الوظائف العامة، وكانت الشركات، والنوادي هي ميادينهم وحلباتهم، غير أنها كانت من ناحية أخرى الأماكن التي كان من الممكن أن يراقبهم فيها الكبار، ويضعوا الحواجز في وجه انتشارهم.

[4/4] قضايا إيديولوجية

ويشير بطي، في فقرة من فقرات مذكراته، إلى أن السبعاوي كان له نفوذ كبير بين صفوف الآخرين من الشباب، عندما كانت المسألة تتعلق بتنمية وعي النخبة عندهم. وحين كان السبعاوي يعمل في صحيفة (البلاد)، أتاح

لـه بطـي أن يشتري كل ما يمكن شراؤه من المجلات والصحف والكتب الإنجليزية، مـن أجل التحرير. وكان السبعاوي، فيما يقول بطي يعرض الكتب أيضـًا على أصدقائه وعلى الآخرين من الشباب ما جعله وسيطـًا ناقلاً للمعرفة[64]. وعندما يضع المرء في حسبانه أن شباب المثقفين في ذلك الوقـت كـانوا يشكلون فئة قليلة، وأنهم كانوا يرتبطون فيما بينهم برباط وثـيق، من جراء التعليم المشترك في مدارس الدولة وفي معاهدها العليا، في بغـداد، لا ينتبغي له أن يقدر تأثير السبعاوي في صياغة الوعي عند الأفندية الشـباب، من دون قدرة. وإذا جارينا كارل مانهايم في نظريته في الفئة التي تصـوغ، بحكـم كونهـا نـواة، مواقع محددة ومقاصد محددة، فقد مارس السـبعاوي دورًا رئيسـيًا في تشكيل مثل هذه الفئة، إذ نشر موضوعات ومصـطلحات للمناقشة الداخلية. وكانت هذه المعرفة الحصرية التي لاقت انتشـارًا عن طريق تسربها إلى الصحف والكتب، تمثل عاملاً هامـًا في نشر الوعي عند الجيل.

ويصـف بطـي كيف دُفع بالسبعاوي وأصدقائه إلى صفوف المعارضة والتطرف، وذلك أن الحزب الوطني الذي رفض معاهدة الاستقلال الأنجلو-عراقية، شرع في عام (1930 م) في استغلال الشباب ودفعهم إلى إثارة الهياج السياسي. على أن الحكومة التي كان أعضاؤها ينتمون إلى الجيل ذاته، شأن قادة الحزب الوطني، ردت الشباب على أعقابهم واعتقلت بعضـًا منهم بعد أن نشـروا نـداءًا يدعـو إلى الاحتجاج على المعاهدة[65]. ويستطيع المرء، بسهولة، أن يتصور أن استغلال هذه التجربة في أيام المجابهة السياسية الحادة، ودحـرها، أسـهما في انحـراف النظام السياسي، وانحراف النخبة القديمة وتحولهما عن مسارها. ثم إن تجربة السجن المشتركة بين الشباب زادت هذا الانطـباع قوة، فوق ذلك. وكان الشعور بالإحباط يتسع نطاقه ويستفحل، حين تركت المؤسسة ذاتها، الخاصة بسياسة الحزب، والتي كانت قد اتخذت

موقفـً ـا مـناوئًا للسياسة الموالية لبريطانيا، أي سياسة معاهدة الاستقلال، تقاليد الحكم، بالموقف ذاته المتعاون مع البريطانيين. وكانت النتيجة المباشرة هي البحث عن بدائل سياسية.

ويسـتفاد مـن كارل مانهايم أن ثمة إشارات من قبيل العبارات الثابتة في اللغـة، واللفـتات والأسـئلة الأسلوبية، تعد لتكوين وعي الجيل، أهم من المضامين الفعلية التي ترتبط با[66]. وقد يستطيع المرء أن يضيف إلى ذلك أن المعالجة الثابتة لموضوعات محددة، في المناقشة، إذ شئنا أن نتحدث بلغة ميشيل فوكو، يمكن أن تكون بنية استلالية محددة[67]. ويمكن أن تكون عاملاً آخر في أثـناء تكويـن الشعور الجماعي. أما الموضوع الذي كان يعبر عن حنين الأفـندية الشباب إلى التغيير. فقد كان من اتباع خيال قائد عظيم. لقد كان موضـوعـًا يقرر مصير صحافة العصر القومية. ثم إن كثير من الأمور يشير إلى أنه كان جزءًا مركزيـًا، لا يتجزأ، لا من نظرة بطي إلى العالم فحسب.

وتتألف مذكرات بطي، في شطر منها، من مقتطفات من دفتر ملاحظاته، أو يومـياته، وتـدل كل المظاهر على أنه كان يستخدمه ليدون شواهد أو أقوالاً مأثورة من مطالعاته الواسعة النطاق. على أن ما يحظى بالذكر المتواتر، في هـذا، فكـرة نيتشه عن (الإنسان الأعلى/ Ubermensch)، الذي ترفعه مطامحه فوق العمومية والابتذال. ويقول إن على الآخرين أن يخدموا العظيم، وأن يكونوا أدواتٍ لتحقيق أهدافه[68].

ويـبدو أن استقبال بطي نيتشه كان سحطيـًا حقـًا، ما دام موضوع الإنسـان الأعلى هو الشيء الوحيد الذي يعود به على الفيلسوف. في كل مذكـراته هناك عزاء كبير أن يتكهن المرء بوجود ميول موالية للفاشية وراء تصوره أن الجماهير كأدوات المواهب المتوسطة يفترض فيها أن تمتثل لأوامر شخصـية متفوقة، ومع ذلك فلا يوجد اعتماد منفصل على الفاشية في هذا السـياق. وكـان أهم معبود عند بطي، في صدد القيادة، مصطفى كمال

أتـاتورك، وكان من أهداف بطي المعلنة تقديم منجزات "البعث الكمالي". وكان يعتقد اعتقادًا راسخـًا أن تركيا، من حيث كونها بلدًا إسلاميـًا من بلـدان الشرق، كانت أنموذجـًا يحتذى به للمثقفين العرب في هذا الصدد، لكـي يقودوا بلدانهم إلى نهضة حقيقية وانبعاث سياسي واجتماعي يمتد على كل مجالات الجهود البشرية، من أجل حياة متحضرة[69].

وقـد كان تقارب بطي مع المبادئ الشمولية ملتبسـًا، يحتمل أكثر من دلالة. فقد كان من ناحية أولى، يتوق إلى قائد طيب القلب، حسن المقاصد، ولم تكن هذه الرغبة، من ناحية أخرى، مرتبطة بالقسر والنزعة العسكرية، إذ كـان يتوقع، من أجل حياة متحضرة، من القائد، أن يقدم الدافع من أجل إعادة الحياة إلى العرب في المجال المدني.

ويسـتفاد مـن فائق بطي، محقق مذكرات أبيه، أن رافائيل كان يساند حركة الفتوة، الحكومية العراقية[70]. وكان ينظر إليها على أنها خطوة أساس لإنشـاء تنظـيم (فتيان الزعيم)، وكان يفترض في القائد أن يُمسك بزمام الأمـور العامـة في الدولة العراقية، من خلال حرب عام شامل لكل شيء. ويستشهد المحقق برافائيل بطي، الذي قال في كلمة له في البرلمان: «أنا أؤمن بـنظام القـوة»[71]. وفي موضع آخر يفصل القول في الكيفية التي يمكن أن تستفيد بها البلاد إذا ما أسس المثقفون الناشئون مثل هذا الحزب لكي يراقبوا أحاسيس عامة الناس. ويقول إن معظم كبار السن لن يعرفوا الدلالة الحديثة لمفهـوم الدولـة، ومن أجل ذلك ينادي بطي بثورة الشباب للتخلص من الشيوخ. ولو حدثت هذه لما مارست سوى القسر، وإن كان ذلك في بعض الأحيان ضد الصالح العام. ويشكو بطي من أن الشباب ما كانوا ليتوصلوا، أبـدًا، إلى تشـكيل مـنظمة تعقد عزمها، مثل منظمة شبيبة يابانية محددة، يؤكدهـا، وهو يصف كيف تنامى روح الخدعة العامة بين الناشئين. ويقول إن طلبة الطب ومعاهد الحقوق العليا أسسوا نادي الشباب عام (1936 م)،

ومـع ذلك فلم يتوجه النادي سوى نحو طلبة هذين المعهدين العاليين، وعاد إلى الانحلال من جديد عام (1939 م). واستنتج بطي من ذلك أن الأحزاب السياسية كانت جاهلة، وأن الرأي العام في العراق كان يقمع الشباب، وقال إن الشـباب انقسموا على أنفسهم، وكل منهم لا يحل إلا بمقدراته الخاصة، ومنفعـته الخاصـة[72]. وكـان المثقفون، من أمثال بطي، ينادون ب«قائد حقيقي»، لكي يسد هذه الثغرة.

لقد تسبب وعي جيل معين، كذلك الذي كان بطي يطالب به وينشده، في كمـون احتجاج لدى أجزاء من الشبيبة في العراق. وينتج عن هذا إلينا مسـألة كيف كان الأفندية الشباب يتخذون مواقع لهم في مواجهة الفاشية، عـندما نـنطلق من أن الدول الفاشية، بمظهرها الخارجي الثوري والقومي، كانت تعرض صورة ناجحة للكيفية التي يتحدى بها المرء كل السلطات[73].

ويصـف عبد الأمير علاوي الجو السياسي في تلك الأيام التي اختتم فيها عامـه الدراسي في كلية الطب. ويقول إن هذا كان الوقت الذي ظهر فيه هـتلر قائدًا للنازية في ألمانيا، ويقرر أن الرأي العام في العراق كان إلى جانب الـنازية، ومـا من شك في أن ذلك لم يكن بدافع محبة الناس لها، بل بدافع كراهية الاستعمار[74]. واختتم علاوي دراسته عام (1933 م)، حين كانت المشـاعر المـناوئة للبريطانيين في العراق تغلي كالمرجل، على أساس معاهدة الاسـتقلال التي قد كان تم التوقيع عليها منذ حين، إذ كان ينظر إليها على أنـها انحـناء أمام السيادة البريطانية على البلاد. وبذلك كانت، بلا ريب، سـببـًا في نظرة العراقيين إلى ألمانيا لتكون بديلاً. على أن ما يجدر ذكره في هذه المناسبة أن علاوي يبين أنه كان ينظر إلى ألمانيا من قبل، في تلك الأيام، عـلى أنها منافس لبريطانيا، مع أن خصومة كليهما في هذه اللحظة لم تكن تحوصـلت على نحو واضح. فإما أن تكون ملاحظة علاوي، إذًا، إسقاطـًا من الحقبة التي كان يكتب فيها المذكرات، وإما أنها كانت تؤسس للتعاطف

مع ألمانيا قوية على أراضي الحقبة العثمانية، التي كان ينظر فيها إلى ألمانيا على أنا شريك تحالف قوي تعرض للامتهان والإذلال، بالاشتراك مع الدول التي خلقت الدولة العثمانية في معاهدات باريس، من قبل دول الوفاق. وإذًا فمن الممكـن أن لا يكـون التعاطف مع ألمانيا شيئًا آخر سوى لصاقة تعبر عن المشـاعر المعادية للبريطانيين أيام التوقيع على معاهدة الاستقلال. وعلى أي حال، فلم يكن يمت إلى أشكال التجاذب الإيديولوجي إلا بصلة واهية.

على أن سطحية تصريح علاوي الموالي للنازية تتجلى بوضوح في التضاد الـذي يحولـه إلى رواية يتحدث فيها عن صداقة جمعته بطبيب نمساوي من أصـل يهودي. وذلك أن طبيب الأطفال الدكتور (ليديرار) قد كان اضطر إلى الهـرب من النمسا، عام (1938 م) بعد ضمها إلى ألمانيا، وكان من قبل أستاذًا في طب الأطفال في جامعة فيينا. ويذكر علاوي الدكتور ليديرار، في مذكـراته، بأقصى قدر من الامتنان، إذ أعجب بمعلوماته الواسعة من حيث كونـه طبيب أطفال، كما أعجب بشخصيته المهذبة والمثقفة، وإن كثير من البشـر لخليقون أن يذكروا، في بغداد، الأمسيات الموسيقية في منزله أو في منزل أصدقائه.

وأصبح علاوي مساعد ليديرر في المستشفى الملكي، وكان أكثر من أب لـه، كمـا قـال علاوي. وهو يكتب ميله إلى تمضية وقت فراغه بألوان التسليات، في مقابل صبر ليديرار الذي يستحق أن يكون مثالاً يحتذى به، في الصبر والمثابرة، وهي خصال كان النمساوي علمه إياها إلى جانب كثير من الأمـور الأخـرى. وكانت هذه الدروس لعلاوي لا يستعاض عنها لحياته المهنية اللاحقة. وحين اضطر ليديرار إلى الهرب من النازيين، كان قد خلف وراءه زوجـته وابنته، ولم يتلق، بعد ذلك خبرًا عنهم. وفي عام (1941 م)، أي في عـام وفـاة لـيديّرر، كان علاوي متحمسـًا فيما يتعلق بمستقبل الـتحالف العـراقي الألماني، وكان القوم يتابعون تطور النازية ونجاحها، في

ألمانـيا باهتمام كبير. ولدى نشوب الحرب العالمية الثانية كان القوم خليقين بأن يقفوا، بوجه عام، إلى جانب ألمانيا. وكان مدير المستشفى الملكي صائب شوكت، قد أوعز، والأرجح أن يكون ذلك حدث بعد انقلاب عام (1941 م)، بأن يتعلم علاوي والزملاء الآخرون، اللغة الألمانية، وقيل إنه لم يتلق مع ذلك سـوى أربـع حصص في تعليم الألمانية، قبل أن يضع نهاية لذلك قبل بداية الحرب مع بريطانيا[76]. والظاهر أن علاوي لم يلاحظ أن ثمة تناقضات بين تعاطفـه الشديد مع ليديرر وموقفه الموالي للألمان، على الرغم من أن حكاية رشيد عالي وانتحار ليديرر لابد أن أحدهما كانا متقاربين أحدهما من الآخر في الزمن. وحتى في مذكراته لم ينشئ علاوي علاقة بين كلا الحدثين.

وكان ليديرر فوق ذلك، ملائمـًا كل الملاءمة، لمطامح علاوي للمهنية والتقدمية، ثم إن الطريقة التي كان طبيب الأطفال العراقي يؤكد بها خدماته الجلى، بحكم كونه أستاذه في المسائل العملية والنظرية على السواء، تتناقض تناقضـًا صـارخـًا مـع الأسلوب الذي يصف به علاوي كفاحه ضد مؤسسة الأطباء ذات الطراز القديم في العراق. وحين عاد علاوي، في مستهل الثلاثينـيات، من إقامته الدراسية في لندن، رأى نفسه يواجه مقاومة الأطباء العراقـيين المتمكـنين في مواقعهم الشديدة البأس، والذين كانوا يعارضون أفكاره في صدد التخصص في طب الأطفال.

واضـطر إلى ممارسـة الطب في العمارة، بدلاً من ممارسته في مستشفى بغـداد، كما اضطر إلى العمل فيما بعد طبيبـًا في الشرطة. وكان علاوي يفكر في وضع الطب في العراق على النحو التالي: لم يحدث تغيير في الممارسة إلا حين تخرج طلاب المعهد العالي للطب: وذلك أنهم ما عادوا مجرد ممرضين (من الذكور) أو أنصاف أطباء، كما كان يرغب في ذلك الخريجون القدامى مـن مدارس إسطنبول. لقد كانت الحاجة تحث إلى تبدل في العقلية، عندما كان القوم يدعون إلى أن تلد الأمهات أولادهن في المستشفى، لا في المنزل.

وكـان من العلامات الدالة على مثل هذا الإصلاح، فيما يقول علاوي، أن جمعية لحماية الطفل تم تأسيسها في أوائل الثلاثينيات[77].

على أن صراع الأجيال يتضح على هذا النحو في ذكريات علاوي، على وجـه الخصـوص: فقـد كان النمط البالي، والخرافة، يقفان في وجه العِلم الحديـث والمتنور الذي أدخله إلى العراق، بعد أن كان استوعبها في الغرب. وكـان لـيديرر، الرجل المصقول المهذب، من الغرب، يمثل الصورة المثالية للطبيـب عنده، ومع ذلك فقد ظل غريبـًا، وحيدًا في البلاد. وكان ليديرر بنظر علاوي رائدًا من رواد الحداثة في العراق، وكان في الوقت ذاته، ضحية مـن ضـحايا النازية. ومثل الكثيرين من لداته وأترابه، كان علاوي يتابع تطـورات الحركة النازية باهتمام، والأرجح أن ذلك كان مماثلاً على وجه الدقة للكثير من 'تيارات التحديث' الأخرى في عالم الغرب، وكان يحس بها عـلى أنها مجرد قوة مناوئة للبريطانيين. كما أدرك، من ناحية أخرى، الآثار المدمـرة لطغيانها، حين تولاه الحزن على صديقه ليديرر ومع ذلك فقد ظل التناقض مكشوفـًا.

ويقـرر فائق بطي أن أباه رافائيل كان واقعـًا خلال حقبة الانقلابات العسكرية تحت تأثير الجو القومي الذي امتد ليشمل العالم، والجو التوسعي، وانتشـار النزعة العسكرية[78]. ويقول إنه ساند، عام (1941 م)، أيضـًا، رشـيد عـالي الكيلاني والضباط الأربعة[79]. ومن الناحية الأخرى تؤكد تصريحات معينة في مذكرات بطي، ما هو أقرب إلى أن يكون تصويرًا ذاتيـًا ليبراليـًا. وتقول فاطمة محسن في مقدمتها للمذكرات، أنه كان يمثل مثقفـًا عراقـيـًا أنموذجيـًا. ويستفاد منها أن «المشروع الليبرالي»، كان له موقع بـالغ الضعف في العراق، لأن المثقفين العراقيين كانوا ممزقين تتنازعهم الصيغ السياسـية المختلفة، رائحة بهم وغادية، ولأن قدرًا بالغ الكثرة من «العوامل الموضوعية» كان يعمل عمله. وكان مساندو الليبرالية يتأرجحون بين الرغبة

في الأسـلوب البرلماني الأصيل، والـ عة الدستورية وسيادة القانون من ناحية أولى، ومـن الإغراءات المتناقضة التي تتصل بفكرة، القائد. وتضيف فاطمة محسن قائلة إن كلاً منهم كان يريد أن يكون القائد[80].

وكـان رافائيل بطي يدعي أن صحيفته تتمسك في أثناء الحرب العالمية الثانية بالاتجاه الديموقراطي، ويروي أنه كان معرضـًا للهجمات، سواء من جهة الشبيبة ذات الـ عة القومية، إذا لم يكن معدودًا، في نظرهم قومي الـ عة بما يكفي، ومن جهة الحكومة الموالية لبريطانيا، أي حكومة نوري السعيد[81]. ومـع ذلك فربما كتب رافائيل بطي هذا بدف الدفاع عن نفسه فحسب، حـين زجّ به في السجن بعد سقوط حكومة (الدفاع الوطني) التي نشأت في عـام (1941 م)، بتهمة كونه متعاطفـًا مع النازيين. وكان بطي ينطوي في الحقـيقة، عـلى وجهـات نظر متناقضة في صدد التراث الفكري الفاشي. والظاهـر أنـه كان من الأمور الأقل أهمية، في المناقشة حول الأمور المتعلقة بالـ عة القومية، في العراق، أنه يعد المرء الأنموذج المنشود إعدادًا دقيقـًا قدر الإمكان. بل كان الأمر الأهم من ذلك أن تتوافر لدى المرء الحجة الأقوى، ولا يتميز المشاركون في المناقشة، بعضهم من بعض، إلا في اختيار الأسلحة، الـتي كانـت بدورهـا فقط إرهاب للأفكار التي تستكن وراءه، وتتطور بالانطلاق من سياقها الإقليمي أو المحلي.

أمـا في سياق موضوع القائد، فلم يكن بطي يحفل، في المقام الأول، إلا بجانـب الـ عـة الفردية، وكان يتوافق مع صحفي أمريكي في وجهة النظر القائلـة: إن الظـروف المعاصرة في ألمانيا لا ترتبط إلا بعبقرية هتلر الفردية؛ فلـولا هـتلر لمـا قامـت حرب، ولكانت ألمانيا جمهورية. أما التضمنات الإيديولوجـية للحركة النازية فيبدو أنا لم تكن تمه على وجه الخصوص: فقـد كان بطي يؤكد أنه ظل يرفض الماركسية طوال حياته بسبب نزعتها المعاديـة للفرد، ومع ذلك فقد كان يربط استهداءه بالفرد بمبدأ القائد الذي

كان ذا صبغة فاشية في جزء منه على الأقل. وقد فات بطي في أثناء ذلك أن يدخـل في حسبانه حقيقة أن نظم القائد الدكتاتورية مؤسسة على الحط من كـرامة الفـرد وامتهانه على نحو مماثل على وجه الدقة لنظم الدكتاتوريات الشـيوعية. وحين كان بطي يستند إلى ‹زرداشت› لنيتشه، كان يفترض أن الفرد العظيم يفترض أن توقظ الأمة من سباتها. وكان ينادي قائلاً: متى يبرز الفـرد الذي نتوق إليه، في العراق، خارجـًا من صفوف العراقيين؟، ومتى يخرج هذا الفرد العربي في العالم العربي[82].

وكـان السـبعاوي أيضـًا يطمح إلى أن يكون قائدًا عربيـًا، وفي حالته يسـتطيع المرء أن يتابع طريقـًا للتقبل والتلقي الخاصين بأنماط القائد الأوربية مـنذ انطلاقـته الأولى: لقد كان السبعاوي شديد التأثر بسيرة نابليون لإميل لودفـيغ[83]. وهو يروي في رسالة له إلى صديق، في إطار من السرية، أنه ود لو كان مثل هذا الرجل، متمتعـًا بمثل قوته، ومع ذلك فسوف يضطر إلى أن يتعلم الكثير عن البشر والحياة، لكي يغدو ممن يمكن مقارنتهم به[84]. والظاهر أن المثقفين العراقيين، كالسبعاوي لم تكن لديهم أفضليات أو أوليات في اختيار الأمـثلة. لقـد اسـتطاع نابلـيون أن يكـون أنموذجـًا للقـيادة ذات النزعة الفـردية، مثلما كان هتلر. وكذلك يعد استعمال السبعاوي المزدوج للـنماذج والأنماط، أمر جدير بالذكر، ولم يكن آخر ما يتسم به نابليون من حيـث كونـه غازيـًا لمصر، أنه ممثل للاستعمار الفرنسي. وهذا يشير إلى أن المرء لم يكن في وسعه أن يتوقع من قومي يستعر حماسة، كالسبعاوي كثيرًا من التماسك المنطقي على وجه الخصوص، في اختيار النماذج.

وعـلى الـرغم مـن أن السبعاوي كثيرًا ما يشير إلى أنماط من القادة الفاشيين، فقد كان يقدر مثال أتاتورك الأقرب من الوجهة الجغرافية، تقديرًا أعـلى من تقديره للفاشية. وكان السبعاوي يقارن النهضة الإيطالية بالنهضة التركـية، ويفضل الأخيرة، إذا لم تكن تسير في ظل موقف استعماري[85].

ومـع ذلك فقد شاع عن السبعاوي نبأ لا يسر سماعه، وهو أنه اخرج أول ترجمة لكتاب هتلر ‹كفاحي› إلى العربية، ونشرها سلسلة في صحيفة (العلم العـربي) مـنذ 21 تشرين الأول فصاعدًا وشجع قراءه على تعلم المزيد عن مضامين الحركة النازية وقدم السبعاوي هتلر قائدًا سياسيـًا عظيمـًا تمكن من التصدي للمشكلات السياسية المعقدة والظروف الصعبة[86]. وقد كانت الحركة الهتلرية برأي السبعاوي، حركة حديثة، وكان يكمن وراءها غضب الشباب في ألمانيا. وكان السبعاوي يفترض أن مضامين هذه الحركة وأهدافها مناسبة للعراق ولسائر العالم أيضـًا. وبرأيه كان هذا الكتاب القصة الرائعة لمغامر عظيم، هو الزعيم الألماني الذي ارتقى من مرتبة جندي بسيط إلى قيادة شعب كان يعد، في ثقافته ومعرفته، من أكثر الشعوب تقدمـًا[87].

ويتـبين أن المسـألة من منظور السبعاوي، في حالة حركة هتلر النازية، كانـت تتعلق بزعامة هتلر الفردية، وبالحداثة، وبالجرأة الشخصية والمغامرة. وكـان مـا يبـتغي السبعاوي الوصول إليه أن يعدّ العراق من «الشعوب المتقدمة»، كما كان يسميها، وعلى هذا فقد كان هذا يعني أيضـًا، الأخذ بمشـروع عربي للتحديث، الذي من الممكن بدوره أن يكون هذا المشروع شموليـًا. وقد أشارت سميرة الحاج إلى أن الحركة النازية في العراق كانت في الوقـت ذاتـه معاديـة للاستعمار وموالية للغرب. وكانت دولة الانتداب البريطانية تتهم بأنها تعوق التحديث والتحويل الليبرالي في العراق، كما كان هـذان خلـيقين أن يتماشيا مع أنموذج عصر التنوير الأوربي. وكان القوم ينظرون إلى البريطانيين نظرتهم إلى مستغلين يريدون أن يجعلوا العراق تابعـًا لهم بغية الإمداد بالمواد الخام. ومع ذلك فقد كان تأكيد التحديث من حيث هـو هـدف للـ عـة القومية، يؤكد، فيما تقول سميرة الحاج (من جانبها) «المشـروع الاسـتعماري»[88]. وكـان بعض المثقفين يستند إلى مفهوم للتحديث، منافس، مأخوذ من السياق الحضاري ذاته، أي: السياق الأوربي،

ومــع ذلــك فقد كان يحمل صورة ظاهرة مختلفة كل الاختلاف. وكانت الحركــتان النازية والفاشية الواردتان من البلدان الأوربية تتمتعان بجاذبية من وجهة النظر العربية المعاصرة لأنهما كانتا تمثلان أنموذجــًا ناجحًا.

وتقــرر ســيرة الحــاج أن البورجوازية كانت، بالاشتراك مع الطبقات الأخرى المهيمنة في العراق، يطبعن بطابعهن المقاومة المناهضة للاستعمار[89]. وكــان يوجد، فوق ذلك في الثلاثينيات، تبدل في المثل والنماذج، في إطار موضــوع التحرير من الاستعمار والتنمية والتحديث لتمع القوم أنفسهم. وشــرع القــوم في النزج بالأفكار الشمولية، وهكذا أصبحت الأرض مهيأة لتطورات تتماشى مع ذلك في الإقليم، خلال النصف الثاني من القرن. ومع ذلــك كــان دور هتلر في هذا الجدل مجرد تقديم أنموذج عن الفرد المتفوق. والظاهر أن التضمنات العنصرية والتوسعية لهذه الأيديولوجيا كانت غير ذات أهمية، ما دمنا نستطيع أن نستنتج هذا من المادة الموجودة تحت تصرفنا.

لقــد ربــط كاتب سيرة السبعاوي اهتمام شخصيته المركزية بالحركة الــنازية، أيضــًا، بتقبله لمفهوم الإنسان الأعلى عند نيتشه، وقال إنه كان يكمــن وراء الميل، في بعض مقالاته، إلى تمجيد الموت والاستعداد للتضحية، كما حدث ذلك مثلاً في نقد لفيلم «لا جديد على الجبهة الغربية» ظهر في 19 آذار في «السياسة» وقد أعرب السبعاوي عن موقف إيجابي من الأهداف النبــيلة للموت، كما كانت تعرض في الفيلم. وقال إن المحارب يقف وحده (فــردًا) ويكــافح ليحيا، ويسلك طرقه المرسومة سلفــًا، ويتوافق مع نظام اجتماعي ونظام للتفكير محدد، وهو يتبع هذا الطراز من التفكير على النحو الــذي يــرياه صحيحًا. وهكذا تفتح أمامه ميادين المعارك عند كل الأمم والأعــراق، في الكفاح في سبيل الدين أو الأيديولوجيا، وهناك يحاول تحقيق أهدافــه[90]. وهــذه السطور تمثل موقف السبعاوي من الـ عة الفردية بين الحســم الفردي والرغبة التي تجرد من الـ عة الفردية، في تضحية المرء بنفسه،

وأن يموت في سبيل الأيديولوجيا بحكم كونا جزءًا من الجماهير. على أن هذا الموقف كان يتماشى مع الموقف المتناقض عند بطي بدقة كبيرة. ومن الظاهر للعيان أن السبعاوي كان ينظر إلى الفرد على أنه «إنسان جديد» أمكنت صياغته لينضم إلى جيل جديد على «الطريق المقرر سلفًا». وبهذه الطريقة اقترب السبعاوي من الأفكار الأوربية في أوائل القرن العشرين، والتي كانت تنطلق من فكرة مؤداها أن ثمة جيلاً أمكنت صياغته بدلاً من أن يتقبلها على أنا وحدة عن المعطيات[91].

أما وجهة النظر الشائعة، القائلة إن الفرد العظيم هو المدافع العظيم عن الحداثة، فقد كانت برأي أنور شاؤول المفتاح المؤدي إلى الميول الشمولية الطغيانية عند فئة الأفندية الشباب. وفي موضع معّين من سيرته الذاتية، يقيم ارتباطًا بين الميول الموالية للنازية (الظاهرية) عند المثقفين، وعبادتم الفرد. ويقول إنه حارب في جريدته (الحصيد) أولئك الذين ساروا في ركاب الدكتاتوريات وكانوا يمارسون تأليه الفرد، كما حدث أيضًا في الفاشية الإيطالية والنظام النازي الألماني[92].

ويشكو شاؤول في مذكراته، من وجوه عديدة، من أناس استسلموا للدعاية النازية، كما استسلموا لأنشطة السفارة الألمانية في بغداد. وكان يكن إزدراءًا خصوصيًا لرشيد عالي الكيلاني ويونس السبعاوي. أما الأول فكان أستاذه في كلية الحقوق إذ كان كل من السبعاوي وشاؤول طالبًا هناك. وكان شاؤول يتهم الكيلاني بالتزمت، إذ كان يؤكد على الدوام أهمية سيادة القانون، في حين أنه بادر في عام (1941 م)، وهو رئيس للوزراء، إلى انتهاك حرمة القانون، وسار في طريق الحركة النازية[93]. على أنه يوجه الاتهام ذاته إلى السبعاوي الذي يصفه شاؤول بأنه أخ في السلاح هادئ، حسن المعشر، ويقول أنه عمل مترجمًا بعد تخرجه، ومع ذلك تجلت شخصيته النازية الحقيقية حين ترجم ‹كفاحي›. على أن هذا وصل إلى ذروته

في إسـهامه في حركة رشيد عالي الكيلاني[94]. ويذكر شاؤول أسماء أخرى لعملاء النازية في هيئات تحرير الصحف[95]، ويقيم في كل مرة ارتباطـًا بين أنشـطتهم والممثلـيات الألمانية والإيطالية، على وجه الخصوص مع السفير الألمـاني فـرتس غرّبا (Fritz Grobba). ونذكر أنه كان يواجه في كل مرة مشـكلات مع مديرية شؤون الصحافة في وزارة الداخلية إذا نشر مقالات موجهـة ضد الدول الفاشية، ويقول إن هذا كان يحدث في بعض الأحيان بـتحريض من الممثليات الدبلوماسية[96]. ومع ذلك لايقدم شاؤول تفاصيل أوفى عن أنشطة غرّبا أو آثارها.

وعـلى وجه الإجمال لا تحتل الأنشطة المعادية لليهود أو الموالية للنازية في الحقـبة الـتي يجري التعرض لها، مكانـًا واسعـًا في سيرته الذاتية، بل هي اقرب إلى أن تذكر ذكرًا عامـًا، وتحسب لصالح الأوغاد والانتهازيين[97]. ولا يتسم بالسمة المادية المحسوسة بدولة أكبر سوى مثال محمود الوتاري[98]، الذي كان معلم شاؤول في مادة العربية في مرحلة تعليمه الابتدائي في مدرسة الألـيانس، ولم يكن سمع عنه المزيد منذ أيام المدرسة، إلى أن نشرت صحف بغداد ذات يوم من عام (1938 م)، تقريرًا في صفحاتا الأولى، يفيد أن بعثة عراقـية برئاسة الوتاري عادت من برلين، وأنا زارت معلمين من العاصمة الـنازية واتحادها. وكانت بذلك تلبي دعوة خصوصية من غبلز (Goebbels) يفـترض أن توثق عرى الصداقة بين كلا الشعبين وطبعت الصحف صورة يظهر فيها غوبلز والوتاري يتصافحان. ومع ذلك فقد كان ما يستحق الذكر أن هذا الحدث لم يثر الهواجس الجدية في نفوس الطائفة العراقية اليهودية بلا ريـب، ويذكـر شـاؤول بدلاً من ذلك، أن المسألة كانت سببـًا للمرح والنكات بين صفوف أولئك الذين كانوا يعرفون محمود الوتاري. وكان من الممكـن أن يقرأ المرء هذا على أنه إشارة أخرى إلى تقرير أن تراث الأفكار النازية حظي بنفوذ عميق الأثر بين صفوف السكان غير اليهود ينعكس، في

إطـار النظرة الارتدادية، إلى تاريخ الثلاثينيات. وصدرت مذكرات شاؤول عـام (1980 م)، ولا يكـون هناك بد من أن تقرأ في ضوء التجاريب التي حدثـت بعد عام (1945 م) والجادلات حول المحرقة في إسرائيل على وجه الخصـوص. واضطر شاؤول عام (1971 م) إلى مغادرة وطنه، العراق تحت وطـأة القسر، وهاجر إلى إسرائيل[99]. ولذلك فمن غير الممكن أن تكون بعـض الاتجاهـات الموجهـة إلى زملائـه العراقيين، من قبيل الإسقاطات الارتداديـة. وما صنفه بأنه ميول موالية للنازية فهو خليق عندئذ بأن يكون أقـرب إلى الميول الدكتاتورية بالمعنى الأكثر عمومـًا، مما سبق وصفه هنا. عـلى أن الصعوبات المتنامية في وجه اليهود في العراق إنما نجمت بالأحرى، عـن أن القوميين العرب في العراق كانوا يزدادون، على نحو مطرد، اشتغالاً بالقضـية الفلسـطينية، أكثر مما كانت تصدر عن نزعة عنصرية من الطراز النازي. وفي مقابل ذلك كان التأريخ للأحداث يحاول في كثير من الأحيان تفسـير المـيول الموالية للنظم الشمولية في الثلاثينيات، في العراق على أنها إرهـاص لما يسمى (فرهد) وملاحقة اليهود العراقيين في العقود التي جاءت بعد عام (1948 م)[100]. وينعكس تقويم شاؤول المزاج العام في الثلاثينيات، ربما في هذا التأريخ، ومن ناحية أخرى لا يذكر نتائج سلبية للمشاعر المعادية لليهود في الجيش في روايته عن الفترة التي قضاها فيه عام (1941 م)[101].

[5/4] تلخيص

لم يتوال التقارب بين القوميين العرب العراقيين والفاشية في الثلاثينيات وفي أوائـل الأربعينيات حيث كان يُنظر إلى الدول الفاشية في أوربة على أنها أمثلة للقـيادة القوية والانبعاث القومي. وكان يقدم النماذج الأهم في هذه الأثناء، الـدول المجاورة مثل تركيا، وكان ينظر إلى هذه الدول على أنها نماذج لثورة جيل فتي من الأقوياء، على الشيوخ والجامدين الذين لا سبيل إلى تحركهم.

ومـع ذلـك فقد أثبت استخدام النماذج الغربية في سياق عراقي، أنه صعب. وقد ناقش السبعاوي هذه المشكلة في مقال نشره في العاشر من آذار عـام (1931 م) في صحيفة (السياسة) إذ كتب يقول عن الشباب أنه يظل ألعوبـة في أيدي الكتاب والمترجمين. فأما أولئك الذين ينقلون تراث الغرب الفكري فهم خليقون بأن يعانوا تشوش الذهن واختلاط الأمور عليهم، وبناءً عـلى ضعفهم سيظلون يروحون جيئة وذهابـًا بين الأيديولوجيات. فهذا فـريق سيفضـل كارل ماركس، وثمة آخرون سيؤثرون لينين أو غوستاف لوبـون، أو يدعون إلى أيديولوجيا القوة عند نيتشه، على أن اتجاهات الفكر المختلفة ستحملهم فوق ما يحتملون، وبذلك يتم إفساد ثقة الشباب أيضـًا[102]. وإذًا فقـد كانت مشكلة التلقي مشكلة النقل عن طرف ثالث وسيط. وقد كـان المـترجمون، برأي السبعاوي، نقطة البداية فيما حدث من التشوش والاخـتلاط، إذ لم يكونوا على يقين في مسألة الاختيار والتقديم. وكان من بـين نـتائج هذا أن المتلقي السبعاوي كان يضع نيتشه إلى جانب لينين، لا كفيلسـوفيين، بل كعقائديين، ولذلك ظلت الأفكار المتعلقة بالفردية وأتباع الـ عة الجماهيرية مائعة، يتداخل بعضها في بعض.

ثم نشـأت الوحـدة وتناسق الأهداف من جديد عن طريق وعي جيل الأفندية من الشباب. وكان الانتصار على القمع الإمبريالي موضوعـًا ينشئ الـتوافق والوحـدة للشباب المثقف. ومع ذلك، فقد كانت الدوافع الكامنة وراء هـذا الحنين إلى الانتماء إلى الجيل مختلفة بين هذا الفرد أو ذاك. فبرأي عـلاوي كان من المهم على وجه الخصوص أن يتغلب القوم على الانقسام المذهبي الذي كان هو ذاته يعانيه، وكان كبة يلتمس الطريق إلى الحداثة أول الأمر عن طريق المؤسسات التي أجريت عليها الإصلاحات في مذهبه هو. أما بطـي والسبعاوي فكانا يبحثان عن القائد الذي يفترض فيه أن يقود الجيل الذي تم إصلاحه من جديد، وكان السبعاوي يريد أن يكون هو ذاته القائد.

أما أنور شاؤول فيقدم بين يدي هذه الخلفية، اللعبة المقابلة، وهي أن اللعبة المتنامية في مضمار الدين في الشرق الأدنى تدفع باليهود الذين يعيشون في البلدان العربية إلى الحافة، أو الهامش، على الرغم من كل الجهود المتسمة بالتعارض، وما عاد الارتباط بالجيل، في الوضع الذي يمكنه من ردم الهوة القائمة بين التناقضات الاجتماعية-الدينية الموروثة عن العهد العثماني.

وفي عام (1941 م) ثار جيل الشباب من الأفندية ثورة مشتركة مع رفاق جيلهم من الضباط على المؤسسة القديمة وتبعيتها لبريطانيا، ولعل من أهم أحداث التاريخ العراقي المأساوية أن هذا حدث في إطار الحرب العالمية الثانية، وأن الميول التي كانت على أي حال دكتاتورية، وكانت في شطر منها شمولية، شهدت مزيدًا من التدعيم عن طريق المساندة الألمانية. وبالنظر إلى تفوق القوة البريطانية وهيمنة الجناح الموالي لبريطانيا في الطيف السياسي العراق، لم يحدث تبدل الجيل، غير أنه انفجر في مقابل ذلك، محالاً في الزمن إلى ثورة عام (1958 م) ولكن براديكالية أكبر بعد. وتكمن جذور نظم الحكم الدكتاتورية والشمولية في عراق النصف الثاني من القرن العشرين في هذه الحقيقة.

تأليف: رينيه ڤِلدَنغل

5] «ألد أعداء البشرية»: الحركة النازية في الرأي العام العربي في فلسطين في أثناء الحرب العالمية الثانية

5/ 1] «على الجانب الخاطئ»؟ في التصوير القصصي السائد

في كـل مـرة تقام فيها رابطة بين العالم العربي والحركة النازية الألمانية، تكـون هـناك في القـاعدة، شخصية «مفتي القدس الأكبر»، الحاج أمين الحسـيني، في محـور الاهتمام. على أن تاريخ تعاونه مع دولتي المحور، ألمانيا وإيطالـيا، معروف بما يكفي، وهو موضوع تتناوله المنشورات ذوات العدد الجـم[1]. وفي هذا الصدد لا يكاد يكون من الممكن أن توجد خلافات في الـرأي حـول درجة التطابق بين شخصه والأسس الأيديولوجية الجوهرية للـنظام النازي خلال حقبة إقامته في المنفى، في ألمانيا، وإن كان ثمة مسائل معينة تظل من بعد ذلك مفتوحة للمناقشة[2].

ومــع أن الحــاج أحمد الحسيني قد كان فر، حتى في أيام الـ اع المتسم بالعــنف مع دولة الانتداب البريطانية في عام (1937 م)، من فلسطين، فإنه يصــور، في القاعدة، على أنه ممثل الـتمع العربي في فلسطين في أثناء الحرب العالمــية الثانــية. ويســتفاد من التصوير القصصي المبسط، أن الفلسطينيين العــرب، كانوا، على أساس تناقضهم السياسي مع دولة الانتداب بريطانيا، حلفــاء وبحكــم الضــرورة التي لا مندوحة عنها، لألمانيا النازية، وشركاء متحمسين للمحور في الحرب. وبشعار: «عدو عدوي صديقي» يلخص هذا النمط من أنماط التأويل ذو البعد الواحد في العادة، ويتم به تفسير دور الحاج أمين في ألمانيا. وما من شك في أن مثل هذه الطريقة في الرؤية لا تكاد تفسح مجــالاً لإعــادة تركيب متباينة متمايزة للتجارب الفلسطينية في هذه الحقبة، ولاسيما في ما يتعلق بملاحظاتم لألمانيا وللحركة النازية وإدراكهم حقيقتها. على أن إدخال تصوير علمي لهذا الموضوع يبدأ، على سبيل المثال بالكلمات التالــية: يعــد التحالف المقلق، بين المفتي والنازيين مثالاً فريدًا في نوعه على إخفــاق سياســة. قد وصلت السياسة غير الموفقة، الخاصة بالمطمح القومي الفلسطيني، خلال الأعوام (1939-1945 م) إلى دركها الأسفل. ومهما يكن ما يحــاول بــه التبريريون تقديم أعذار لهذه السياسة، فإنا كانت تضع القضية الفلسطينية في تلك الحقبة البالغة الأهمية للأمم المتحررة حديثــًا، من أيام ما بعد الحرب، في الجهة الغلط[3].

وفي إطار هذا التقييم، يتم على وجه الخصوص، الربط الوثيق من الوجهة السببية، بين التطور الذي حدث بعد عام (1948 م) وسنوات الحرب، وذلك أنــه لما كان الفلسطينيون العرب أخفقوا في تحقيق مطمحهم القومي خلال ســنوات (1939-1945 م)، والمقصــود هنا هو تعاون الحاج أمن مع دول المحور، فقد كانوا يقفون بعد عام (1945 م) أيضــًا (على الجانب الخاطئ). وينجم عن الإدانة الأخلاقية لأنشطة المفتي، بذلك، تقرير سياسي يقول: حين

يعـد الفلسـطينيون، بجمعهم جناة، وبالتالي، متعاونين، مع كون تصنيف الجـناة/الضـحايا، على أنهم مثال معبأ قسريـًا على وجه الخصوص، لكل العناصـر الفاعلة في التفسير السوسيولوجي للصراع القائم في الشرق الأدنى، أحـد الثوابـت الهامة يبدو طرد الفلسطينيين العرب، وبالتالي الرفض الدائم لدولة فلسطينية عربية خاصة نتيجة ضرورية من الوجهة التاريخية.

ومهمـا تـبدو هـذه الطريقة في الرؤية مصطنعة ومتكلفة، فإن عرض الفلسـطينيين العـرب في صـورة المـتعاطفين مع النازيين في الثلاثينيات والأربعينيات يعد صورة شعبية، وفي بعض الأحيان تتخذ، عن وعي وقصد، أداة تسـتغل لتحقيق أهداف سياسة القوة. وما من شك في أن استخراجها وصـياغتها يرتـبط بمعارك التسويغ التي يرد الحديث عنها في إطار الصراع الإسـرائيلي الفلسـطيني، وبقضـايا تدخل في باب سياسة التاريخ وثقافة الذكريات، ارتباطـًا ليس على الأقل بأقل قوة ووثوقـًا من ارتباطه بالتطور التاريخي الملموس المحسوس[4].

وتعـد حالـة مصـر التي بحث فيها إسرائيل غِرشوني، مثالاً على نشوء أسـلوب عرض قصصي مماثل تمامـًا. وذلك أن غرشوني يبيّن أن «العرض القصصي الذي يكشف عن موالاة للنازيين»، والذي يفترض وجود مساندة مصرية للنازيين، مع العرض الشائع المتداول لأزمة فادحة في المجتمع المصري في هذه الحقبة. وبذلك لم يؤد العرض القصصي إلى مجرد ملاحظة غير كاملة لـلجمهور المصـري، بل هو بالفعل خاطئ من الوجهة التاريخية لأنه يجهل ميدانـًا بأسره من التجاريب العائدة إلى نوع مختلف. ذلك أنه يوجد بالفعل في سـياق أحاديـث المصـريين، في العشرينيات والثلاثينيات، ولاسيما في المجـلات والصحف الواسعة الانتشار، أمثلة جمة العدد على المواقف الليبرالية والنقد الحاد للحركة النازية، ويدخل في هذا أيضـًا النقد الموجه إلى معاداتها السامية، وهي تلك المعاداة التي تتسم بالسمة العنصرية[6].

وهـذه الحالـة يمكن مقارنتها، على وجه الإطلاق، بالحالة الفلسطينية العربية. فبدلاً من العرض القصصي للأزمات، يمكن أن يتبين المرء بلا ريب، هـنا، بالأحرى الميل إلى تصوير المجتمع العربي في فلسطين في صورة المجتمع السـلبي مـن الوجهة السياسية وغير المؤهل: على نحو ما كان يؤكد كامن طاقته حيال دولة الانتداب، أي: بريطانيا وحيال اليشوف، وبناءً على ذلك يمكن عندئذ تسويغ الميل المفترض إلى النازية بالسذاجة السياسية. غير أن مثل طـريقة الرؤية الدالة على وحدة متراصة متناغمة كليـًا (manolithsch) لا يمكـنها أن تـوفي مـا تنطوي عليه العلاقات المتبادلة من التعقيد والتشابك والصـعوبات الخاصة بحقبة الانتداب، والعناصر الفاعلة، حقهما. وقد توجه جورج أنطونيوس، في كتابه الشهير ‹يقظة العرب› الذي ظهر في عام (1938 م)، أي أيـام ذروة الجـدل والـ اع في مـنطقة الانتداب، ضد الروسم (الكليشيه) الخاص بالعرب ذوي العقلية المعادية لبريطانيا تقليديـًا: . . كلا، ولايعـد الموقف العربي معاديـًا لبريطانيا، بل النقيض تمامـًا هو الصحيح، ذلك أن تعبير «المناوئ لبريطانيا» يتم تناقله وتبادله بحرية، في صدد الإشارة إلى العصـيان العربي الذي كان السبب في نشوء الأسطورة القائلة إن العرب يطوون على عداء أساس لكل ما هو إنغليزي. وفي الحقيقة الفعلية. لا يعدون «معـادين لبريطانيا» إلا في التضامن السياسي لذلك النعت الذي أفرطوا في اسـتعماله، بمعنى أنهم عقدوا العزم على مقاومة السياسة الراهنة في فلسطين بكل وسيلة تدخل في نطاق قدرتهم[7].

ولم يجـر حتى الآن، البحث الشامل، لا في هذه العلاقة، ولا في الروسم المعروف الذي صاغه السكان العرب من حيث كونه، على الإجمال، معنيـًا بالصـداقة حـيال الألمان، وبالتالي مواليـًا للنازية، إذ يفتقد تاريخ التقبل والتبني، الذي يستهدي بالمراجع العربية إلى حد بعيد.

وفي القـاعدة تركـز الدراسـات الموجودة حول «الفلسطينيين العرب وألمانـيا» عـلى وصف السياسة الألمانية في الشرق الأدنى، غير أنها تكاد لا تستطيع الإسهام في فهم متمايز لأشكال المنظور العربية.

وهـذا يتماشـى مـع ميل لدى الأدبيات الأكاديمية، على مدى حقبة الانـتداب، إلى استبعاد التجاريب العربية. وعلى حين تكون الأدبيات التي تتـناول السياسـة الـبريطانية والصهيونية خلال حقبة الانتداب على وجه الإجمـال، شيئًا تتعذر الإحاطة به بنظرة شاملة، لا تكون الدراسات الخاصة بتاريخ سوسيولوجي للمجتمع العربي في متناول اليد إلا في بداياتها وبوادرها.

ولم تترسـخ، في هذا الميدان بوادر أبحاث أكثر نزوعـًا إلى التجديد إلا في الحقبة الأحدث التي تتجاوز أشكال التصوير الخاصة بالنخبة العربية وسياستها، ومن الأمثلة على ذلك محاولة بشارة دوماني إدخال الفلسطينيين العرب في مجال الذكـرى الخـاص بالـتاريخ العـثماني[8]. ومـيول تِد سفندنبورغ (Ted Swendenburg) إلى إعـادة تركيب دور الأوساط الفلاحية خلال اضطرابات أعوام (1936-1939 م)[9]، ودراسات زاخاري لوكمن (Zachary Lockman) وديـبورا بيرنشـتاين (Deborah Bernstein) الـتي تتناول الوسط العمالي في فلسـطين، وضـمن أمـور أخرى إجراء تحليل بحثي للبنى التواصلية القائمة وعلاقات القوة بين المجتمع اليهودي والمجتمع العربي[10]، وأمثال هذه الدراسات إذ تدخل في المسألة أيضـًا مراجع عربية مدّعمة. وثمة تاريخ أحدث للانتداب كتـبه توم سِغِف (Tom Segev) [11] يؤكد هذا الميل. وعلى الرغم من ذلك تظل التجاريب العربية في ميدان البحث العلمي في تاريخ الانتداب ممثلة بأبحاث لا توفهـا حقها، وهذا يمس على وجه الخصوص أيضـًا، حقبة الحرب العالمية الثانـية. ويضـاف إلى ذلك أن أشكال التصوير والوصف للتاريخ العربي في فلسـطين تنتهي على الأغلب بعام (1939 م)[12]. وإلى جانب الوضع المحدود للمراجع، يوجد سبب آخر لذلك في الحقيقة التي ذكرت للتو، وهي أن بعض

الأعضـاء البارزين في النخبة الفلسطينية العربية، ولاسيما المفتي، كانوا في هذا الوقـت خارج البلاد، وكان تاريخ المنفي هذا يتبوأ كثير من الأحيان النقطة المركزية من الاهتمام.

ولكـن المجتمع العربي الفلسطيني لم يطرأ عليه الانحلال مع هذه النخبة في الوقـت ذاته، فحتى عندما كان بعض أشهر القادة، وقسم كبير من رجالات الحياة العامة قد فرضت عليه القيود بفعل الرقابة البريطانية الصارمة، ظل هناك «جمهور عربي» و«رأي عام» من دون شك، وذلك على الخصوص فيما يتعلق بالمنازعات في الموضوعات السياسية أو التطورات العسكرية في الحرب.

وفـيما يـلي يفـترض أن استعادة بعض عناصر هذا الحديث العربي في فلسـطين إلى الذاكـرة: وفي هـذه الأثناء يفترض أن تحتل مركز الصدارة التصريحات العربية الرسمية والتساؤل عن الوضع الإعلامي وعن المزاج السائد في فلسطين فيما يتعلق بالحركة النازية والفاشية.

وتـراعى، عـلى وجه الخصوص في هذا الموضع، الأصوات النقادة التي يجـري تميشها تمامـًا في إطار الإحساس الشائع لدى الفلسطينيين العرب بـأنم "مـتعاونون" وحتى إذا كانوا قد نشأوا في ظل الشروط الخصوصية الخاصـة بحكـم الانتداب البريطاني، فلا بد لهم أن يتسربوا داخلين في إطار تقيـيم الإحساس العربي بدول المحور وبذه الطريقة فحسب يمكن «لإضفاء طابع المفتي» في تاريخ الفلسطينيين العرب في حقبة الانتداب، أن يتم التمييز فـيه بين جوانب معينة وجوانب سواها. والحق أنه ما من شك في أن الحاج أمـين الحسـيني الـذي كان منذ عام (1937 م)، في المنفى، كان من ألمع شخصـيات هذه الحقبة وأكثرها شعبية. غير أنه كان أيضـًا شخصية مثيرة للجدل والتنازع داخل المجتمع العربي، وما عاد في وسعه أن يحظى بعد هربه من منطقة الانتداب بالنفوذ والتأثير على التطورات السياسية في فلسطين، إلا في إطـار جـد محدود، وخلال الحرب العالمية الثانية فقد اتصالاته بفلسطين

فقدانًا كاملاً تقريبًا. وعلى الرغم من أن الحاج أمين الحسيني كان لا يكاد يطلع على المزاج الفعلي السائد في البلاد، حاول محاولة تكللت ببعض النجاح، أن يصور نفسه ممثلاً لكل الفلسطينيين العرب، إن لم يكن ممثلاً للعالم العربي بأسره، أو حتى الإسلامي بأسره. ولكن يفترض فيما يلي أن يتراجع شخصه إلى الخلفية، وأن يكون التساؤل بدلاً من ذلك عن المظاهر التي يتجلى بها السكان العرب في أماكن نشوب الأحداث.

5/ 2] السكان العرب في فلسطين في مستهل الحرب العالمية

في عام (1936 م) بدأت في فلسطين حقبة من الاحتجاجات العربية المتسمة بالعنف نجمت عن الشعور بالصدمة من جراء الإحباط بتأثير سياسة الهجرة البريطانية والخوف المتنامي من أكثرية يهودية بين السكان في فلسطين. وبعد طور من العنف دام ثلاث سنوات انتهت المقاومة العربية آخر الأمر في عام (1939 م). وقد كانت دولة الانتداب البريطانية اتخذت من قبل إجراءات عسكرية قاسية بهدف الإمساك بزمام الموقف في فلسطين، والحيلولة دون الهجمات العربية على المؤسسات البريطانية واليهودية. وإلى جانب «مفتي الديار» الحاج أمين الحسيني الذي كان استبق اعتقاله بالهرب إلى لبنان عام (1937 م)، اضطر أخيرًا، أعضاء آخرون من اللجنة العربية العليا إلى مغادرة فلسطين، وكان فيهم أيضًا أعضاء معتدلون مثل رشيد الحاج إبراهيم وحلمي باشا،كانت دولة الانتداب قد نفتهم إلى جزر سيشل، ولم يتح لهما أن يعودوا إليها إلا بعد عام (1940 م)[13].

وكانت مجموعات القوات البريطانية قد تم تعزيزها خلال حقبة الاضطرابات، وكانت تتخذ في قتالها ضد مقاتلي حرب العصابات العرب إجراءات وحشية على نحو مطرد الزيادة، كان بينها عقوبات جماعية فرضت

عـلى القـرى العربـية، مثل تدمير منازل وعمليات إعدام المدنيين. وانهار الاقتصـاد العربي خلال القلاقل والاضطرابات انهيارًا كاملاً، وكان كثير من العرب، وفيهم أيضـًا أجزاء كبرى من سكان الريف، يهتمون على أساس وضعهم غير المأمون، بنهاية للنزاع المسلح. والحق أن هذه الطبقة من طبقات المجتمع عـلى وجه الخصوص كانت تعي أهمية الاحتجاج العام على دولة الانـتداب وسياسة الهجرة، غير أنها كانت ترفض استئناف ثورة مسلحة، إذ كانت أدت إلى تدهور الوضع الشخصي لكثير من الفلاحين العرب بسرعة أكبر مما فعلت الهجرة اليهودية التي دامت سنين.

وأضيفت إلى ذلك حركات الإضراب والمقاطعة التي كانت موجهة ضد الإنـتاج اليهودي والسلع اليهودية. وفي النهاية الأخيرة نجاح مفهوم «العمل الـيهودي» الـذي كانت تصعده الحركة الصهيونية وتعمل على تصعيده، والـذي يساند سياسة الاستقلال والاكتفاء بالاقتصاديين الذين كان يطمح إليها الاقتصاد اليهودي، بينما كان يدفع بعدد كبير من العاملين بالأجرة من العرب إلى البطالة.

وكانت البطالة المتنامية بين صفوف العرب، والإرهاب المتصاعد من قبل العصابات التي خرجت عن نطاق السيطرة، والتي كان يتزعم جزءًا منها قادة عيـنوا أنفسهم بأنفسهم، وكانوا يفرضون الضرائب الخصوصية في كثير من الأحـيان في صـورة إتاوات بطريقة تعسفية، فيستغلونهم بها، كان هذا كله يسـهم في رفـض العنف المتصاعد، وكان أقرب إلى أن يعزز الأوساط التي تجنح إلى المعارضة، والتي طالما ظلت وقتًا طويلاً تقف عبثـًا في وجه الحاج أمـين الحسيني وحزبه (حزب فلسطين العربية). وكان لأسرة آل النشاشيبي الكلمة الأولى في المعارضة وفي الحزب الذي تسيطر عليه، وهو حزب الدفاع الوطني، وكانوا على وجه العموم مستعدين للتفاوض مع الدولة المنتدبة ومع الممـثلين الصـهاينة. وكان الساسة المعتدلون البارزون، مثل عزت طنوس

وجورج أنطونيوس يلعبون، أيضـًا، دورًا هامـًا في صياغة المواقف المعتدلة. وحين كان يجري التفاوض في عام (1939 م)، على (الكتاب الأبيض)، أظهر بعـض الساسـة المعتدلين موافقتهم، ولكن كان يعلو على أصواتم في هذه اللحظة كلمة (اللا)المطلقة، الصادرة عن الجبهة الوطنية، وهو ما كان يتولى ضـبط إيقاعـه بعد، في تلك الأيام الحاج أمين الحسيني من المنفى. ويطرح عزت طنوس في ذكرياته الأطروحة القائلة إن التفاهم حول الكتاب الأبيض في هـذه اللحظة لم يكن بالأمر المستحيل، وقد كان من الممكن أن يصون الجانـب العـربي مـن التطور الخطير اللاحق[14]. وعلى وجه الإجمال فقد انـارت المسـاندة لـلموقف العربي الراديكالي الذي وقفه حزب فلسطين العربـية، والمفتي نفسه، وأخذت السياسة العربية الفلسطينية تتشذر على نحو مطـرد الـزيادة، إلى أجنحة مختلفة[15]. وعلقت صحيفة (الاتحاد اللبناني)، اللبنانـية على هذه الحالة في (6 حزيران 1939 م) بقولها: نحن نعلم أن هناك أنـاس كـثيرين لا يتفقون في الرأي مع اللجنة (العربية العليا)، ويريدون أن يساندوا سياسة الكتاب الأبيض. ولأن السياسة ليست انتقامـًا، أوليس من الحكمـة أن لا نواصـل شق عصا الطاعة، لمرد أن ننتقم من بريطانيا، لأن أناسـًا معيـنين لايباح لهم أن يعودوا إلى فلسطين، فهل ينبغي أن يضحي بالبلاد بأسرها من أجل المصالح الشخصية لبعض الأفراد؟[16].

وفي هـذه الأثناء حاولت دولة الانتداب البريطانية تنمية ضروب الـ اع والشـقاق القائمـة، ولاسيما المشاعر المعادية لشخص المفتي. وبعد أن كان القـوم اكـتفوا حـتى الآن، وعلى وجه الخصوص، بالإجراءات السلبية، كاسـتعمال العـنف وحظـر الصحف العربية، التحكم في الحالة النفسية لـلجمهور، شـجعت وزارة المستعمرات البريطانية ووزارة الخارجية الآن سياسة (الكتاب الأبيض) بأساليب الدعاية، وحاولت ممارسة الاتصال المعزز بالساسـة العـرب. وفي هـذا الإطار كان يجري إيراد الصور الفوتوغرافية

والمقـالات الموالـية لبريطانيا في الصحافة العربية المعتدلة، كما عملت على زيادتـا بمحطـة الإذاعة التي أنشئت حديثـًا للدعاية للكتاب الأبيض[17]. ومن الناحية الأخرى كانت السلطات البريطانية معنية بإمكان نشوء انطباع مـؤداه أن حكومـة الانتداب موالية للعرب مبدئيـًا، وبالتالي فهي تتخذ موقفـًا معاديـًا لإنشاء (الوطن القومي اليهودي) الموعود بموجب تصريح وعد بلفور.

وحـين ظهرت بوادر الحرب بين ألمانيا النازية والحلفاء، تراجعت الجهود مـن أجل حل المشكلة الفلسطينية إلى الخلفية، وكان من الواضح أنه ما عاد مـن الممكـن، في إطار الوضع المتوتر المرتبط بالحرب، الوصول إلى اتفاق، وكان من الواجب أن يفسح الـال في الأولوية للمجهودات العربية. وما من شـك في أن السكان العرب كانوا يشاطرون البريطانيين وجهة النظر هذه، حيث أمكن الوصول بعد بداية الحرب إلى هدنة حقيقية، وبذلك عادت نـاية العـام (1939 م) عـلى فلسـطين بفترة هدوء جديدة، غير معتادة. وكان المراقبون اليهود والإنغليز العرب يشعرون بالارتياح على السواء. وقد وصف جـندي بسيط الحالة النفسية في تشرين الثاني من عام (1993 م)، في رسالة إلى أسـرته: . . وفي هذه اللحظة يشعر العربي بأنه راضٍ عن نفسه . . فقد كانـت عصابات التمرد تشكل بالوعة ضخمة لموارده، وكانت تفرض عليه الضرائب عن كل ما ينتجه من الناحية العملية، وكان يخامرهم شعور ودي تجـاه الإنغلـيز . . وهـا هم أولاً يتبين لهم أي مجانين كانوا . . ولم تخلف الحرب إلا قليل من الآثار في هذا البلد، إذا قدر لها أن تناقش في أي يوم من الأيـام عوملت على أنا نكتة. لقد خرج منها شيء جيد جدًا وهو أن حملة الإرهـاب يـتم سحبها واستدعاؤها والأشياء تبدو أكثر لمعانـًا بكثير، من أجـل المستقبل، ولم تعرض لنا حادثة قتل في هذه المنطقة على مدى أسبوع حتى الآن . .[18].

وبـالفعل لم يكـن يجري الإحساس في فلسطين إلا بالقليل من نشوب الحـرب بـالهجوم الألماني على بولونيا، وما تبع ذلك من الإعلان البريطاني للحرب، باستثناء متابعة تعزيز الوجود العسكري البريطاني. وكانت الأجزاء الأوفر حظـًا من الثقافة، من السكان، تتابع التطورات الأوربية باهتمام، في إطـار وعـيها لأهميتها بالنسبة للوضع في فلسطين، وفي هذه اللحظة كانت دولتا المحور ألمانيا وإيطاليا قد كثفتا دعايتهما الخاصة بالشرق الأدنى.

أمـا المراعاة التي كان الجانب الألماني يوليها لبريطانيا في الدعاية المتصلة بالشرق الأدنى فقد تم التخلي عنها الآن، وما من شك في أن الدعاية الإذاعية في هـذا الصدد وظيفة هامة. وفي مقابل ذلك لم يكن في وسع شريكة ألمانيا في الحرب وهي إيطاليا، أن تأمل في أية أشكال من التعاطف في فلسطين في أيـام الحرب: فقد كانت دولة موسوليني قد أصبحت بفعل حروبه في ليبيا وأثيوبـيا صـورة للعـداء، وكان يتم تداول الأعداد الجمة من المنشورات والكتيبات المعادية للإيطاليين في منطقة الانتداب.

أما ألوان الوصف والتصوير التاريخي فكانت تكاد تتساءل حتى الآن عن هذا الطراز من الملاحظة العربية في الحرب، بل يستثار، بدلاً من ذلك، على الأغلب الانطباع الذي يوحي بأن المجتمع العربي في هذا العصر كان جمهورًا سـلبيـًا لا مباليـًا، ولم يكن يتخذ مواقف خاصة به حيال مسيرة الحرب والموضوعات السياسية الأخرى.

ومـع ذلـك فقد كان الجو السياسي والاجتماعي والثقافي العربي العام يتواصـل، وكـان الناس يتفاهمون داخل النخبة العربية، وفيما بين السكان البسـطاء، حـول الموقف الخاص من الحرب، فكانت الشخصيات القيادية تصطنع لنفسها أفكارًا معينة بصدد أهمية انتصار بريطاني أو هزيمة بريطانية في الحرب، ونتائجهما المحتملة لفلسطين في الوضع الذي سينشأ بعد الحرب.

على أن صورة الجماهير العربية في فلسطين، التي كانت تعقد الآمال على انتصار دول المحور إنما هي صورة مشوهة لهذه العملية الخاصة بتكوين الرأي العام والمزاج العام في فلسطين. فقد نشأت بعد عام (1945 م) في إطار تعاون المفـتي، الحاج أمين الذي أقام في برلين فيما بين عامي (1940 و 1945 م)، ومـع ذلك تظهر الصورة أيضـًا في الملاحظة المعاصرة للمراجع البريطانية والصهيونية، ومثال ذلك ما يحدث في مذكرة للوكالة اليهودية ترجع إلى عام (1940 م): إنه لمن الخطأ أن يحسب المرء أن عرب فلسطين في هذه الحرب، وقفوا إلى جانب الديموقراطيات تحدوهم الرغبة في إلحاق الهزيمة بهتلر. فليس هـناك عرب يحسون بهتلر مثلما نحس به نحن أو الإنغليز. وذلك أن المعارضة للـرايخ الثالـث ليست في صالحهم. ولابد للمرء أن يقول: لليهود سيكون انتصـار هـتلر خليقـًا أن يعّد بمثابة إبادة لهم، أما العرب فليس عليهم أن يتولاهم الخوف من هذا، بلا ريب، ولذلك فلا بد من التحلي بالحذر حيال الجانب العربي من حيث كونه خصمـًا لألمانيا بنسبة مائة في المائة. فإذا كان هـناك وجود لشيء كهذا بالفعل فلا بد للمرء أن يعدّه أمرًا استثنائيـًا بلا ريب»[19]: وكان في فلسطين، على الجانب العربي، بالفعل ردود أفعال تنم عن الموافقة، بل تنم بموجب روايات متفرقة، في بعض الأحيان، عن الحماسة لهتلر والحركة النازية،وكان تقبل الدعاية النازية في فلسطين، وانتشار الصور الجماعـية عن الدولة النازية، وشخص هتلر يطرحن في هذا السياق أسئلة لم تجـد عـنها إجابة كافية حتى الآن. ولكن ينبغي أن يكون مركز الثقل هنا، بأكمله في الأصوات الناقدة في الـال العربي الرسمي، في فلسطين، ويشار إلى هذه المذكرة التي نقلنا منها على أنـا (استثنائية فائقة). والحق أن من الصعب أن نقـدّر أن انتشـارها أمر يعوّل عليه أو يركن إليه. وما من شك في أنـا كانـت أصـواتًا لم تكـن تتمتع، في إطار مجمل السكان، إلا بجاذبية تقبل محـدودة، غـير أنـا كانت مع ذلك موجودة ضمن مجال باعث للدهشة.

وكانت تطبع بطابعها الحديث السياسي، كما كان النسيان الكامل يطويها في الوقت ذاته، في إطار الملاحظة التاريخية.

5/ 3] مفهوما «الرأي العام»، و«الجمهور»

يعدّ مفهوما الرأي العام، والجمهور، من المفهومات النظرية التي ناقشها علماء السياسة وعلماء الاجتماع والمؤرخين على نطاق واسع[20]. وعلى الرغم من ذلك يظل هذا المفهومان من دون تعريف كاف، وهما يشيران إلى رزمة كبيرة من أنماط التفسير والتصورات المتباينة. وقد عرّفتهما هنّا أرندت عام (1958 م) تعريفًا شديد العموم، بأنما «كل ما يظهر متجليًا للناس، ويكون مرئيًا ومسموعًا»[21].

أما دراسة يورغن هابرماس (Juergen Habermas)، الأساس، في ‹تبدل بنية الحياة العامة/ Strukturwandel der Oeffentlichkeit›[22] فتتخذ منظورًا تاريخيًا وتربط ربطًا وثيق العرى بين مفهوم الجمهور، وحقبة عصر التنوير وإدخال النظام الديموقراطي. وهذا المفهوم الإيجابي الذي يكاد يكون خطيًا على نحو متواصل لا ينقطع، عن (الحياة العامة)، والذي يسير جنبًا إلى جنب مع مفهوم عقلاني للحداثة، يعد إشكاليًا لنظرتنا إلى الرأي العام في فلسطين في أثناء الحرب العالمية الثانية، بلاريب. لقد نشأت الحياة العامة هناك في سياق استعماري تعد أشكال التباسه وما ينطوي عليه من علاقات السلطان المتبادلة وبالتالي، أشكال الارتباط، ما يحتاج إلى الشرح والتفسير. فحقبة الانتداب في فلسطين قدمت في فلسطين، من ناحية أولى، حافزًا لعملية تحديث بعيدة المدى، ومكنت من تحويل اجتماعي سريع للمجتمع العربي، وافتتحت بذلك أيضًا مجالاً لفرص جديدة من أجل قابلية التحرك (Mobilitaet) والمعلومات، على النحو الذي اكتشف هابرماس أيضًا أنه أمر أساس من أجل المجتمعات الأوربية في القرن الثامن عشر، ومن أجل الحياة العامة "المتنورة". ومع

ذلـك فقـد كانت السياسة الاستعمارية البريطانية تهدف، كما هو شأنها في مـناطق المسـتعمرات الأخـرى، وفي الوقت ذاته، إلى إعاقة التطور الثقافي والاقتصـادي في المجتمع العربي (وذلك، مثلاً عن طريق الرقابة) وكان يتم بناء (الحـياة العامة) في فلسطين، بالنظر إلى تعدد العناصر الفاعلة، أيضـًا بطرق متبايـنة. أما (الحياة العامة)، بمعنى نظم الإدارة العامة وشؤون الدولة، أي بمعنى نـوع مـن العمومية التي تأتي من عل، والتي تشمل مثلاً، إدارة دوائر الدولة ونظـام التعلـيم والتثقـيف، فكانـت توجهها بريطانيا كما كانت، خلال العشـرينيات، تعني أيضـًا، بداية شكل جديد من (العمومية العربية التي تأتي من أسفل). فالصحف العربية ما عادت مقصورة على وسط النخبة الحصري، وتطور في المدن على وجه الخصوص، مجتمع متحرر من الأمية على نحو مطرد الزيادة ومثقف[23]. وكانت الصحف، وبقدر أقل أيضـًا، الكتب والكتيبات، والمنشورات، تشكل الأساس والأرضية لهذا الحديث الجديد بين فئات العرب، الـذي نشأ في وسط مزيج من الاستناد إلى بريطانية العظمى والابتعاد عنها. ومـن أجـل ذلك يفترض هنا، في المقام الأول، أن يتم النظر في أمثال تلك المصـادر الـتي كانت تمثل جزءًا من المجال العمومي، وكانت بالتالي، تسهم إسـهامـًا مباشرًا في بناء الحياة العامة، على النقيض من التدوينات الشخصية والذكريات، أو الوثائق الداخلية الخصوصية.

أما مدى تقبل هذه المصادر وقوة مفعولها فمن الصعب للغاية الحكم عليها في كـثير مـن الحالات، وذلك أن التقدير لا يكون ممكنـًا، في كثير من الأحـيان إلا عن طريق معطيات معينة، مثل عدد نسخ الطبعة الواحدة من أحـد المنشورات، في حالة عدم ورود أخبار أخرى. ويضاف إلى ذلك أن تحلـيل المصادر لا يمكنه إلا أن يتيح، في حالة إعادة تركيب المواقف العامة، سوى نظرة انتقائية إلى المجتمع لا تمت من الصلة بالفهم الحالي ل(الرأي العام) إلا بما هو أقل مما تمت به من الصلة باستطلاعات الرأي والإحصاءات الخاصة

بالقيمة التي يظهر أننا ممكنة التحديد بدقة. غير أن وجود الأصوات والعناصر الفاعلة المأخوذة في الحسبان هنا، على الجانب المقابل، الخاص بالتقبل ومدى التأثير على النطاق الواسع، في الحياة العامة، يعد جديرًا بالملاحظة في حد ذاته إذا لم يحـدث حـتى الآن في كتابة تاريخ فلسطين العربية، أن اتخذت هذه موضوعـًا للمناقشة.

5/ 4] النقد العربي العلني للحركة النازية

وكـان الـذي فعل فعله في مجمل المجال الاجتماعي هذا المحيط الرسمي المـتغير. وذلك ان التنظيمات الثقافية والاجتماعية التي كانت موجودة، في شـطر مـنها منذ أيام ما قبل عام (1939 م)، ظلت بعد ذلك تشكل جزءًا هامـًا من القطاع الحديث، وشهدت ازدهارًا خلال فترة الهدوء التي كانت قبـيل التناقض أن الحرب العالمية الثانية كانت تمثلها لفلسطين. فكان يوجد، على سبيل المثال منذ عام (1937 م)، في بيت لحم (رابطة الطلبة العرب) التي كـان لهـا أيضـًا فروع في أنحاء البلاد، وكان من أهدافها الرئيسة المعلنة تحسـين التعليم العربي في فلسطين، وهو ما كان ينظر إليه من منطلق الاتحاد عـلى أنـه نواة للتطور الاجتماعي والسياسي. وفي شباط (1940 م)، ظهر منشـور (الغـد) الـذي كانت تحرره الرابطة، وكان يطبع فيه مقال باللغة الإنجلـيزية بعنوان «الفاشية والطلبة» وكان يوقع عليه بالحرفين الأولين (ت ب). والكاتـب كان يؤكد أيضـًا أهمية تحسين الجودة في التعليم العربي في فلسـطين لأن ضـعفه يمكـن أن يكون أيضـًا سببـًا في ضروب النجاح السالفة والمستقبلية التي أحرزتها «الدعاية الفاشية»: لما كانت الفاشية نظامـًا لـلحكم جديـدًا تم فرضه في إيطاليا وألمانيا من دون إيلاء الاعتبار لإرادة الشـعب، فقد كان لابد لها أن تستخدم طريقة جذابة وملهمة للغاية (كذا) في الدعايـة، خدعت شعوب العالم من خلال حالة الفوضى، أو العماء التي

كان هذان البلدان يعانيانه بعد الحرب الكبرى . . ومع أن هذا النظام كان قائمـًـا عـلى الحديد والنار، فقد شكل طريقة سهلة عن طريق هذا البلد [فلسطين، المؤلف) لأسباب كثيرة يرجع جزء منها إلى الحكومة المنتدبة[24].

وبذلك أعلن عن تقديره أن الأوساط المثقفة هي التي كانت الأقرب إلى أن تمارس النقد بحجة الفاشية، وقال: إن نظام التعليم الأفضل الذي لا تكون المسؤولية عنه هي آخر ما تتحمله حكومة الانتداب، يعدّ من أجل ذلك، ذا أهمية أساس في بناء البنى الديموقراطية والتصدي للفاشية.

ثم إن هذا الموقف النقدي من سياسة حكومة الانتداب يؤكد أيضـًـا أن منشور اتحاد الطلبة العرب الذي كان يصدر باللغة الإنغليزية، لم يكن كتيبـًـا دعائـيـًـا، بل كان يتميز بصفة الاستقلال على وجه الإطلاق. ويفيد رأي كاتـب منشـور الغد أن الجودة المفتقدة في نظام التعليم العربي على وجه الإجمـال تنطوي على خطر التوجه نحو الفاشية. وبالنسبة إليه كان التصدي للمـيول الفاشية يشكل على أية حال هدفـًـا مركزيـًـا: ندائي إلى الطلاب أن ينـبذوا الفاشـية ومبادئها، وأن يضعوا نصب أعينهم أهوالها وفظائعها. فالاستقلال والحرية لا يمكن أن يتطورا في ظل نظام كهذا، وندائي إليهم أن يلتمسـوا التعلـيم والتربية في اتجاهات أخرى يمكنهم أن يتعلموا من خلالها الحرية والأخوة، وندائي إلى الحكومة أن تساعد على نشر المدارس والتعليم، وأن تنشـئ مزيدًا من المدارس والكليات، وأن تيسر الحصول على مزيد من وسائل التعليم الثقافة . .[25].

وهـذا الموقف يتناقض تناقضـًـا واضحًا جليـًـا مع المطلب الذي كان يسمع أحيانـًـا في فلسطين، وهو مطلب «الزعيم القوي» أو الأخذ بأسلوب البنى التسلطية في المجتمع العربي. أما أنه كان موجهًا ضد أنشطة المفتي، الحاج أمين، الذي يندر أن يذكر اسمه في أمثال هذه النداءات، فأمر واضح للعيان. وفي هذه اللحظة كانت الأوساط المعتدلة تأمل في تحسين المجتمع العربي بالنظر

إلى الحل المستقبلي للصراع عن طريق التعاون مع بريطانيا. وما من شك في أن دولة الانتداب كانت، مع إنجاز الكثير من الأمور، لا تكاد تتم بقيادة عربية قادرة على التصرف، بل ربما كانت تتمتع بمساندة واسعة النطاق. ومن أجل ذلك وضعت الإدارة البريطانية. بصورة مسبقة حدودًا للتطور الحر.

ومن المصادر التي تثبت أن المزاج في بعض المدن العربية، حيال مخرج الحرب على الأقل، كان مواليًا للبريطانيين على الرغم من كل شيء، تقارير الوكالة اليهودية التي كان رجال الاتصال فيها يفترض أنهم يتقصون الرأي العام العربي. ويصف رجل اتصال في الوكالة اليهودية كان يحمل الاسم التنكري (م م) المناقشات العلنية في الخليل خلال عامي (1941 و1942 م)[26].

ففي أيلول عام (1940 م) يتحدث عن تجنيد المتطوعين العرب في المدينة، الذين كانوا يلقون المساندة من (مكتب عربي ديموقراطي). وقد دخل نحو خمسين رجلاً في خدمة البريطانيين، وفي ربيع عام (1941 م) تقرر في الخليل إلغاء الاحتفال بالعيد السنوي للنبي موسى على أساس أنه «ليس هناك ما يمكن الاحتفال به بالنظر إلى الوضع العسكري». وتقرر، بدلاً من ذلك أن يحتفل بالعيد «عندما تكون بريطانيا قد كسبت الحرب»[27].

كما توضح تقارير المخبرين أيضًا أن الجمهور في الخليل كان منقسمًا على نفسه في صدد حكمه على الوضع العسكري. فبينما كان أفراد النخبة التقليدية وبعض الشباب المتطرفين يساندون المفتي الحاج أمين الحسيني، كان يبدو أن ثمة أغلبية تتوافق في هذه اللحظة مع الساسة المعتدلين والمتعاونين، من المعارضة، تتوافق مع بريطانيا. وقد اتضح هذا على وجه الخصوص في أثناء الثورة الموالية للألمان في العراق، حين تم التصريح بنقد حاد للمفتي:

فأثناء اجتماع عام بحضور عمدة المدينة، ومفتيها، والنخبة المحلية، صاح عضو من أعضاء المجلس البلدي، في إشارة إلى الحاج أمين، في الجمهور قائلاً: الشيطان في العراق!. وعلى إثر ذلك أكد عمدة المدينة اقتناعه بأن مشروع

المفتي سينتهي إلى الإخفاق، وسيكون قد تم الفراغ منه بعد مدة أقصاها ثلاثة أسابيع أو أربعة[28]. وهو ما قدر له أن يكون مصيبـًا. وعلى وجه الإجمال تعكس التقارير ازدياد المعارضة للمفتي ومطامحه إلى التعاون مع دول المحور.

[5/5] الصحافة العربية في منطقة الانتداب

لم يكـن يوجد خلال الثلاثينيات، في مجتمع فلسطين العربي، منظمة أو حـزب يشيران إلى وجود قواسم أيديولوجية مشتركة بينهما وبين الحركة النازية أو الحركة الفاشية. أما الأوساط الأكثر تطرفـًا فكانت تتابع ممارسة دعاية مناوئة للبريطانيين. وفي هذا السياق كان يوجد أيضـًا، من حين إلى آخر، أشكال من التعاطف مع ألمانيا والحركة النازية.

وكانـت السـلطات البريطانية في فلسطين بمعونة المخابرات الناشطة في مـنطقة الانـتداب (دائـرة الاستخبارات المركزية/ Central Intelliegence Depatment, CID)، كمـا كانت تتابع جهود دول المحور الدعائية الموازية. وكانـت الـرقابة أهـم الوسائل الموجودة في متناول سلطات الانتداب في فلسـطين، للـتأثير والظفر بالنفوذ، ولم يكن هناك بعد من الصحف اليومية التقليدية المسموح بها في منطقة الانتداب بعد عام)(1939 م)، سوى ثلاث، أولاهـا: (فلسطين التي كان يحررها منذ عام (1911 م) "المحارب القديم" في الصحافة العربية الفلسطينية، عيسى العيسى، والثانية (الصراط المستقيم) التي كان يحررها عبد الله القلقيلي، وأخيرًا (الدفاع) التي يحررها إبراهيم الشنطي. وكان يوجد إلى جانب هذه الصحف اليومية أيضـًا، سلسلة من الصحف والمجلات والمنشورات الأخرى[29]. ومع أن هذه الصحف كانت تعرض على الرقابة، وبالتالي لم يكن لها بد من أن تمارس الرقابة الذاتية، يظل من المهم أن نقرر أنها ظلت من بعد ذلك منشورات عربية: فكان يملكها عرب، ويحررها عـرب، ويكتـب فيها كتاب عرب. وظلت بذلك على الرغم من الرقابة

البريطانية، لسانـًا هامـًا ناطقـًا باسم التمع العربي، ولذلك يبدو تأويل ذلك بأنا وسيلة للدعاية البريطانية أمرًا ينطوي على إشكالية[30].

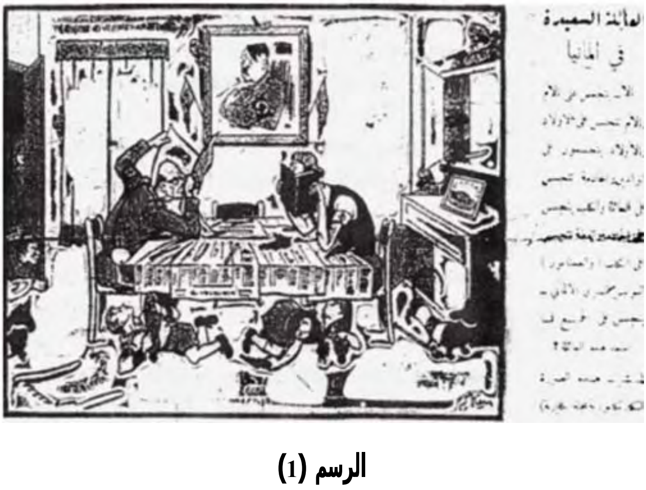
وعلى أساس خطر الصحف الوطنية بدرجة أقوى، والأكثر جذرية، كانت وسائل الإعلام التي تسمح با السلطات تمثل مقدار عشرة بالمئة من الرأي العام في سـني الحـرب. بـلا ريب، غير أنا تعد، على الأقل مصدرًا لنظرة عربية إلى الحـرب وإلى دول الحرب كانت مهمشة على الأغلب. وكانت أقرب إلى أن تمثل نظرة إلى الحرب أقرب إلى الصفة النقدية، كانت موجودة في الصحف الـتي تلائمها، منذ بداية النظام النازي عام (1933 م)، ومن ذلك أن الصحيفة اليومية الفلسطينية العربية التقليدية (فلسطين) كانت تنشر منذ عام (1933 م)، مقـالات نقديـة جمـة العدد، كان يشار فيها إلى اضطهاد اليهود في ألمانيا. أمـا الصحف التي كانت ترحب أحيانـًا بحكم هتلر، مثل صحيفة (الكرمل) الـتي كانت تحرر في حيفا، والتي كانت تـ ع إلى فهم أنموذج دولة (الفوهرر) على أنه قدوة يحتذى با[31]، فلم تكن تصدر في أيام الحرب.

أما صحيفة (الجامعة الإسلامية) التي كان يمدها من حين إلى آخر (مكتب الاستخبارات الألماني/ Deutsches Nachrichten Bureau) بين عامي (1933 و 1938 م)، بمخصصات مالية ومواد دعائية، فقد حظرت أيضـًا. وبذلك تم إضـعاف الدعاية والمواقف الموالية لألمانيا بصورة مسبقة، وعلى نحو حاسم، عـلى الرغم من أنه ظل يظهر من حين إلى آخر، نداءات أو كتيبات، كان جزء منها من أصل من أصل ألماني مباشر في فلسطين.

ولكـن في الوقت ذاته أصبح النقد الموجه إلى دول المحور في أيام الحرب أكـثر حـدة، ولم يكن يتم وضعه وتصميمه من الرقباء البريطانيين وأرباب الدعايـة بل كتبه كتاب عرب، على الأغلب، ثم عن (مكتب الاستعلامات/ Information Bureau) البريطاني الذي كان مختصًا بالدعاية، كان بعيدًا بعدًا شاسـعـًا عن أن يملك الموارد اللازمة لكي ينتج المادة العربية بطبعات ذات

نسخ كبيرة العدد، ولم تكن تأتي، حتى من لندن، منتجات من هذا النوع إلا في النادر.

وكان من الصحف التي تتحدث، إلى جانب الصحف اليومية، بأمر شتى، عن ألمانيا حديث الناقد، صحيفة (الأخبار) التي كانت تظهر في يافا بين عامي (1927 و 1942 م). وكان محررها، بندلي حنا الغرابي، وكان رئيس تحريرها الدكتور محمد نجيب. وإلى جانب المقالات عن الدكتاتورية الألمانية، كانت الصحيفة تنشر سلسلة من الرسوم الكاريكاتورية إما أن تصور نظام هتلر على أنه نظام عسكري فظ، وإما أن توثق الإيمان بهزيمة ألمانية في الحرب على الحلفاء. وفي نهاية عام (1939 م) نشرت صحيفة (فلسطين) رسماً كاريكاتورياً يتخذ الأحوال المتردية في السياسة الداخلية موضوعاً له. تحت عنوان «العائلة السعيدة»، ويجري تصوير أسرة تقض مضاجعها الرقابة والسهر عليها في دولة النازيين.



الرسم (1)

المصدر: فلسطين (1939/12/17).

وكـان بعـض أمـثال هـذه الرسوم الكاريكاتورية يظهر أثناء عرس الانتصـارات الألمانـية في الحرب ومن ذلك أن هتلر يصور في نهاية حزيران (1940 م)، بعـيد الانتصار السريع سرعة مفاجئة، على فرنسا، سائق سيارة ليموزين متداعية، تتفكك أجزاؤها وتتساقط من تلقاء نفسها[32]. وثمة رسم يـرجع إلى آذار عـام (1941 م) يعرض عربة تحمل الصليب المعقوف وهي مسـلحة ببنادق آلية: إنها «آلة هتلر الحربية»، والدكتاتور الألماني يقف إلى جانـب العربة ويمسك بموسوليني المتوجس المذعور من قفاه، وبعض الحلفاء مـازالوا مشـدودين إلى العربة وقد تدلت رؤوسهم، بينما يهرب الآخرون الذين نفضوا نيرها عن أعناقهم[33].

وثمة تعليقات أخرى تذهب في اتجاه نقدي مماثل. فقبل بداية الحرب على فرنسـا، ورد في عنوان مقالة افتتاحية، قولهم: لقد برزت قوة ألمانيا الرهيبة بكـل هولهـا وفظاعتها وهي تتوجه الآن نحو فرنسا. وفي الوقت ذاته كان يجـري نشر الثقة والاطمئنان: «ولكن الحلفاء يعرفون كيف سيقوضون هذه القـوة!»[34]. وبعـد الانتصار على فرنسا ظلت الصحيفة تتمسك تمسك المؤمـن الذي لا يثنيه عن عقيدته شيء بإيمانها بانتصار الحلفاء، وقالت: إن هـتلر طاغـية متعطش إلى الدماء، وعدو للطلبة والعمال، والدين[35]. وفي شباط عام (1942 م) أشير إلى هتلر بأنه «عدو الإنسانية الأكبر »[36].

وكانت تظهر في صحف عربية أخرى أيضـًا، تصريحات تضاهي هذه، غير أن منتجات الصحافة هذه لم تكن تصل إلا إلى جزء محدود من السكان العرب. ففي الوسط الريفي، الذي كان يشمل في أثناء الحرب ما يراوح بين (55 و65) بالمئة من الفلسطينيين العرب[37].

كانـت هذه الصحف تتمتع بقدر من التأثير أقل، مع أن الأميين أيضـًا مـن الممكـن أن يتاح لهم عن طريق تلاوة الصحف، مدخل إلى معلومات الصحف على نحو محدود. وحتى حين كانت طبعات الصحف لا تكاد ترتفع أعداد نسخها، إذ كان النقص في الورق، والمشكلات الاقتصادية يلعبان دورًا

هـنا، كان لاستهلاك الأخبار في هذه اللحظة، مع ذلك، عندما كان سكان المدن من العرب، وصياغتها للجمهور، وللحياة العامة أهمية كبيرة.

ولذلـك لم يكن النقد الذي كانت الصحف تنشره ضد ألمانيا الهتلرية، مـرادفـًا لمعارضة حاسمة للحركة النازية، بل كان في هذه الصورة مقصورًا عـلى المجتمع العربي، غير أن وجود طيف من الأصوات الناقدة، على وجه الإطـلاق، ولاسيما داخل صفوف المعارضة وفي أوساط اليسار، أمر جدير بالذكر. وكان هذا يجد تعزيزًا له وتشجيعـًا، إلى جانب الصحف الحديثة، في الـنداءات والمنشورات الصادرة عن التنظيمات المختلفة؛ وثمة مثال جدير بالملاحظة، على هذه الدعاية الموجهة ضد دول المحور على نحو مطرد الزيادة يتمثل في كتيب نشر في صيف عام (1940 م).

5/ 6] كتيب عربي معاد للفاشية

في الخـامس عشـر مـن تموز (1940 م) ظهر كتيب في شكل ملحق للصحيفة اليومية (فلسطين) وصحيفة (الصراط المستقيم)، الذي يشتمل على اثـنتي عشـر صفحة، والذي طرح في طبعة من ثلاثة آلاف نسخة، يتوجه بـلهجة حـادة ضـد الديكـتاتورية الألمانية، وعلى وجه الخصوص ضد الديكتاتورية الإيطالية[38]. وكانت الطبعة التي بلغت ثلاثة آلاف نسخة تمثل كمية لا يستهان بها لكتيب مهذا، عندما يدخل المرء في الحسبان عدد القراء العـرب عـلى وجه الإجمال. وكانت مقدمة الكتيب على الصفحتين الثانية والثالـثة موقعة باسم محمود الجركس، وهو فلسطيني عربي كان من الواضح للعـيان أنه يعمل جاهدًا على نشر الدعاية للديموقراطية، وكان يعتمد على الاتصـالات بالأوسـاط البريطانية واليهودية في فلسطين[39]. وربما كانت المسألة تتعلق أيضـًا باسم مستعار، مختلق، إذ لم يكن بد للساسة المعتدلين، حتى في أيام الحرب، أن يدخلوا في حسبانهم هجمات الوطنيين المتطرفين.

أما أن يكون المؤلف كتب بنفسه الإسهامات المختلفة، وهي عشر متباينات على الإجمال في هذا الكتيب، فذلك ما لا يتبين بوضوح. وعلى كل حال لا يرد ذكر كتاب آخرين، غير أن المرء يستطيع، على أساس تكلفة المنشور وطوله، أن ينطلق من حقيقة أنه كان نتاجًا جماعيًا، ومن الممكن أن يكون لقي المساندة أيضًا من (مكتب الصحافة/ Press Bureau) البريطاني[40].

وعلى حين لا تعد المقالات التي تجادل دول المحور مجادلة نقدية، وتعبر عن أملها في انتصار للحلفاء، في صحف مثل (فلسطين)، كما ذكرنا، من الأمور النادرة، يصوغ الكتيب النقد في لهجة أكثر حدة ومباشرة لكي يعبئ الرأي العام ضد دول المحور بدرجة أقوى. ولو أن معظم القراء العرب، في هذه اللحظة، إذا كان تموز عام (1940 م) يمثل طور الذروة في الانتصارات الحربية الألمانية، كانوا ينطوون على أشكال من التعاطف الكبير مع دول المحور لكان هذا الشكل من الإدانة قليل المغزى أو الجدوى. غير أن الكتاب كانوا، على ما يبدو يدخلون في حسبانهم أن انتقامهم من ألمانيا وإيطاليا، خليق بأن ينظر إليه من قبل قراء الصحف اليومية التي كان الكتيب يقدم معها، على أنه قابل للتصديق على وجه الإطلاق. ولما كانوا يتمتعون بحالة جيدة من المعرفة فيما يتعلق بدول المحور فقد كان هذا واقعيًا أيضًا. وكانت الصحف قد اتخذت موقفًا نقديًا شديدًا على وجه الخصوص تجاه إيطاليا التي كانت لها في السياسة الاستعمارية الفاشية قدم راسخة، وحظيت من جراء ذلك بمساندة كبيرة من قبل السكان.

أما من حيث المضمون، فكان الكتيب يوجه هذا النقد إلى النظام الديكتاتوري الإيطالي، ولكن كان حكم هتلر أيضًا يلقى إدانة شديدة، وبناءً على ذلك يرد قولهم على صفحة عنوان الكتيب: الرسالة الأولى إلى الشعب العربي، الإيطاليون البرابرة أعداء العرب والمسلمين وهم عريقون في الإجرام والإساءة إلى العرب بطريقة مباشرة وغير مباشرة[41].

وقـد طبع على الصفحة ذاتها رسم كاريكاتوري يفترض أن يلفت انتباه القارئ، فوق ذلك وهو يظهر هتلر وموسوليني يقعدان وقد أكبا على خريطة لأوربـة والشرق الأدنى، مثلما يقعد المرء إلى منصة لعب، ويتفاوضان على مجالات مصالحهما، ويوجد في الخلفية جون بول (John Bull)[42] وهو يرقب المشهد مبتسمـًا، بينما يظهر في الأعلى ملاك يمثل القدر[43].



الرسم رقم (2)

المصدر: (CZA S 25/4131)

وهـذا الرسم الكاريكاتوري يفصح، على الإجمال، السياسة الإمبريالية، الطامحة إلى مركز الدول العظمى، لدى دول المحور في حوض البحر المتوسط، مـا يتناقض مع التوجه المزعوم لمصلحة العرب. وهو يعبر في الوقت ذاته عن الإيمان بتفوق بريطانيا الذي يجعل المخططات الحربية-الألمانية-الإيطالية تبدو «جنونية» وغير ممكنة التنفيذ. ويوجد في السطر الأعلى من صفحة العنوان، العنوان الإضافي «الله والحقيقة» وهو الذي يتم به إنشاء علاقة لهذا الموضوع بالدين. كما يتضح أيضـًا، من خلال المخاطبة بصفة «العرب والمسلمين» مـن ناحية أولى، ومن خلال الإيقونة المسيحية المرسومة في الكاريكاتور من ناحـية أخرى، أنه يفترض أنهم يتوجهون إلى العرب جميعـًا، أي: المسلمين والمسيحيين على السواء.

وفي الصـفحات الإحدى عشرة التالية يجري التعليق على جوانب متباينة مـن الحرب وخوض الحرب من قبل دول المحور. أما التمهيد فيميز الحرب بأنها «حملة على البشرية» تخوضها دولتا المحور، ألمانيا وإيطاليا، بينما تنسب إلى خصـومهما في الحـرب، بريطانـيا والحلفاء، مهمة إنقاذ الديموقراطية بانتصـارهما: الدكتاتورية تقاتل البشرية وتكافح كل المبادئ النبيلة السامية الـتي توصلت إليها البشرية على مر القرون. وتقف في وجه كل توجهات الوحي والأنبياء، وإذا انتهت هذه الحرب لمصلحة الدكتاتورية، لا سمح الله، كـان في ذلـك هـلاك البشرية وإعدامها، ولسوف تتبدد كل الفضائل، والكـرامة البشرية ولسوف ينتهي المطاف بالعالم إلى عصر العبودية لم يشهد التاريخ له مثيلاً بعد[44].

ثم يشـير الكاتـب إلى واجب كل إنسان في مكافحة شبح الدكتاتورية المفـزع، ويعلـن أن الـتهديد جد ملموس ومحسوس حتى بالنسبة للعرب وفلسـطين: لقد هاجم الإيطاليون الكفار حيفا على وجه الخصوص، مثلما هـاجموا أمـاكن أخـرى في هذه البلاد غير المحمية . . ولقد عادت هذه

الهجمـات الإجرامـية بالقنابل من الجو على اليهود والعرب على السواء، بالدمار، من دون أن تفرق بين رجال ونساء وأطفال . .[45].

ويروي محمد الجركس أنه أصبح هو ذاته مع عرب آخرين، شاهد عيان عـلى هذه الغارات وقال عن واحدًا من هؤلاء الرجال كان مصورًا رسم، مـتأثرًا بـالحدث، عددًا من الصور التي سجلت عمليات التدمير، والمعاناة المشـتركة بـين اليهود والعرب. والكتيب يرسم هنا صورة باعثة للرثاء عن تجـربة معاناة مشتركة، ربما كان يجري الإحساس بها على هذا النحو بالفعل في الحـالات الفردية، وكان من الجائز في القاعدة أن ترجح كفة الفصل بين عالمي التجربة، اليهودي والعربي.

ويؤكد الجركس في الوقت ذاته أنه قد قتل في غارات الإيطاليين من العرب أكـثر ممـا قـتل مـن اليهود، وان محطة الإرسال الدعائي في باري أوردت بعد الغارات، في مقابل ذلك تقارير زائفة تتحدث عن الحماسة العربية المزعومة. ويجـري إبـراز مسألة التصدي لهذه الدعاية والكشف عن «الوجه الحقيقي» لإيطالـيا، عـلى أنها تمثل الموضوع الذي يدور حوله المقصد الكامن وراء هذا الكتيـب. أما المقالات الأخرى فتحاول في هذا السياق أن توضح سمة إجرامية تكمن في أساس سياسة إيطاليا وألمانيا، وكان رفض الرايخ الألماني، لا يصل حتى عـند هذه اللحظة، إلى مثل ما وصل إليه الرفض في صدد إيطاليا. غير أن القراء المـنظمين، وذوي الإطلاع، في عام (1940 م)، على بينة من أمرهم في صدد أوجـه التشابه بين كلا النظامين الدكتاتوريين. بل يأتي فوق ذلك أيضـًا أن كثيرًا من العرب أنفسهم أتيح لهم، عن طريق المعلومات المنتشرة عن الاضطهاد الوحشـي لليـهود، كما أتيح لهم أيضـًا، عن طريق خصوم نظامي الحكم، وعـن طـريق الكنائس، في ألمانيا ذاتها، أن يدركوا السمة الأكثر عدوانية بعد، للنظام النازي. على أن الدعاية الألمانية التي كانت تصور الرايخ الثالث حليفـًا للعالم العربي، وصديقـًا له، لم تستطع أن تحول دون انتشار هذه المعلومات.

كما يشار في الكتيب أيضـًا إلى المصالح المباشرة في الشرق، وهي المصالح الـتي لا تكـاد تختلف عن "الجشع الإيطالي". وبذلك يتم دحض الدعاية التي تنتشر في كثير من الأحيان عن ألمانيا من حيث كونها «الدولة العظمى الوحيدة الـتي لم يسبق لها قط أن كانت لها مصالح في البقاع العربية». ويجري تفصيل القـول في خلفـية سياسـة المصالح الألمانية ويشار إلى النتائج السلبية للشراكة العثمانية الألمانية للسكان العرب[46]. ويقال إن بريطانيا كانت تشكل، في مقابل ذلـك بحكـم تقالـيدها، القطـب الديموقراطي المقابل لهاتين الدولتين. ويعد الاحـتجاج هنا على الإجمال أحادي النظرة حقـًا ومؤسسـًا بوضوح على الهـدف الدعـائي للمنشور فهو يلغي من أجل ذلك، الوعود الأساس المبذولة للحركات الوطنية العربية، ويتجاهل الآثار السلبية لحكم الانتداب تجاهلاً كاملاً.

وعـلى الرغم من كل شيء يعد الكتاب، بما فيه من نقد متطرف لدول المحـور، وثـيقة غير عادية، إذ توثق على نحو ظاهر للعيان، نظرة، تصادر، علانـية، عددًا متصاعدًا من المنشورات والمقالات، وغيرها من التصريحات المطـبوعة بالعربية. وقد كان ينظر إليها في الـمع على الأقل على أنها ذات أسس سليمة، وكان لها بذلك أيضـًا تأثير في الرأي العام في فلسطين.

5/ 7] العرب في خدمة دولة الانتداب البريطانية

وقـد كـان لـلإدارة البريطانية، بالطبع مصلحة كبرى في أمثال هذه الأصـوات، وفي انتشـار الدعاية المعادية للألمان والمعادية للإيطاليين. ثم إن حجـم التقبل يصعب تقديره كثيرًا، وما من شك في أن الإسهام العربي في هـذه الصـورة من صور الدعاية وفي هذا السرد لا يمكن أن تفوت العين ملاحظـته. عـلى أن يغدوا أكثر قابلية للفهم، عندما يضع المرء في مقابل القولبة المعادية للبريطانيين، التعاون العربي الشامل مع دولة الانتداب، في هذه

اللحظة، وذلك أن عددًا لا يستهان به من الفلسطينيين العرب كان يشكل، بفعـل العمل في خدمة الإدارة البريطانية، جزءًا من ميدان النشاط الحكومي العمومي. لقد كان كثير من العرب يخدمون في قوة الشرطة العربية، موظفين في إدارة الانـتداب، أو خدمة مكاتب الاستعلامات البريطانية، مثل محطات الإذاعة المختلطة، العربية-اليهودية، الموجودة منذ عام (1936 م). وكان جزء من هؤلاء العاملين تعينه نخبة مثقفة، أحدث سنـًا درس ممثلوها على الأغلب في مدارس وجامعات غربية، مثل مدرسة السان جورج في القدس، أو الكلية الأمريكـية في بيروت. وبناءً على ذلك كانوا متضلعين أيضـًا في القواعد والأصول الثقافية والسياسية، ولاسيما الإنغليزية والأمريكية.

وقـد كـان من الممكن أن يشار إلى هذا الجيل المكمل للثقافة، والأكثر استقلالاً من الوجهة الاقتصادية بأن «الطبقة الوسطى» العربية الجديدة، التي لم تكـن تقف إلى جانب المجهودات الحربية البريطانية بدافع أفكار تكتيكية صـرفة، بـل بدافع خاص من لدنها. وفي كل حال كانت هذه الطبقة تعي الأهمـية المركزية لدولة الانتداب في اتخاذ القرارات المتعلقة بالتطور المستقبلي للقضية الفلسطينية، ولم تكن ترى أن هناك جدوى من استئناف المواجهة في أيـام الحـرب على وجه الخصوص. وقد وصفت كاتبة الأسفار والرحلات الإنغليزية فرايا ستارك (Freya Stark)، في أثناء رحلاتها في الإقليم، أفراد هذه النخب الجديدة الذين نشير إليهم باسم «الأفندية الشباب». والحق أن الصور الوصـفية الملونة باللون المثالي تعد فائقة الوضوح، ومطبوعة بطابع تعاطفها الخاص مع العالم العربي، غير أن روايات كاتبة الرحلات التي جابت الأراضي الفلسـطينية والشامية تسع مرات في أثناء الحرب[47]، تقدم مع ذلك، نظرة ممـتعة إلى التعاون العربي الإنغليزي خلال الحرب العالمية. وهي تتحدث فيما تتحدث عن محطة الإذاعة العربية في يافا: بدأت القصة بأكملها عام (1942 م)، بأربعـة من العاملين في مسكن من مساكن الفلاحين ذي ثلاث حجرات،

ولكـن كان يعمل هناك أكثر من مئة من العرب، حين أقبلت أزورهم، عام (1943 م)، وأخذوا فوق هذا خمسة منازل. وكان هناك من الناحية العملية برنامج لا توقف فيه، يتألف من اثنتي عشر ساعة من عمليات الإرسال الحية، وكـان فـيها الأخبار، والموسيقى، والمسرحيات الإذاعية وبرامج الإرسال الديـني، وبـرامج الإرسـال الخاصة بالأطفال. وفي كل يوم كانت تترجم (13000) كلمة إلى العربية والكردية، وكان هذا أداةً للحرب، موجهًا ضد دول المحـور، الـتي كانـت، في هذه اللحظة ترسل إلى العالم العربي (22) برنامجـًا يوميـًا. غير أن ما كان يهمني أكثر من كل ما عداه هو حقيقة أن مديـر المحطة، دي مارساك (de Marsac) قد كان تجنب أن يجعل من محطة الإرسـال محطة بريطانية أو محطة للحلفاء، بل كانت تدار من العرب ومن أجل العرب، وما من أحد دخل أجنحتها، استطاع أن يتجاهل الحماسة التي يمازجها المرح والبشر عند «شباب الأفندية»، هؤلاء الذين كانوا يعرفون أنم يديرون برنامجهم الخاص[48].

وإذًا فقد نجم عن هذه الأشكال من الوصف لدى الإذاعة العربية، عدد لا يستهان به من العرب الذين عبأوا أنفسهم بذه الطريقة من أجل المهودات الحربية الإنغليزية. وكان بين الصحفيين الذين كانوا يعملون في محطة الإذاعة العربية، عجاج نويهض، الذي كان يساند في مذكراته، الصورة التي رسمتها فرايا ستارك فيما يتعلق باستقلال القسم العربي[49]. وحين التمس مدير محطة الإذاعـة في القدس، في ناية الثلاثينيات من نويهض، أن يتولى إدارة القسم العـربي ،وضـع سلسلة من الشروط حيث قال إنه لن يكون مستعدًا لقيادة البرنامج العربي إلا عندما يستطيع ان يتصرف في هذا الصدد بحرية واستقلال، وطالب بأن يكون في وسعه أن يختار العاملين معه، بنفسه، وأن يحصل على ميزانـية محـددة ثابتة خليقة بأن تتيح له الاستقلال الاقتصادي عن الإدارة الـبريطانية. وفي هذه اللحظة بدت هذه المطاليب مفرطة في الشطط لإدارة

الانـتداب، ولكـن حين تصاعدت بعد بداية الحرب، أهمية المساندة العربية لـبريطانيا تصاعدًا هائلاً، تفاوض القوم مجددًا مع نويهض. في هذه المرة تمت تلبـية شروطه، على أن يلتزم بأن يضع الأخبار العربية قبل بثها الإذاعي بين يدي الأمين العام لإدارة الانتداب. وحين لاحظ نويهض أن الإدارة البريطانية لا تكـاد تـتوافر لديهـا الوسائل التي تختبر خلال أجل قريب، مادة عربية مستفيضة، تم الاتفاق على أن يقوم بهذا الاختبار مساعد للمفوض السامي: وكـان اسمه روحي عبد الهادي، وهو من رفاق نويهض القدماء من حزب الاستقلال المؤسس عام (1933 م)[50].

وهـذا المثال يبين أن السلطات البريطانية كانت تعتمد إلى حد بعيد على تعـاون الفلسطينيين العرب، ومن أجل ذلك كانت أيضـًا مستعدة، على الـرغم مـن السيطرة المحكمة إجمالاً، عن طريق الجيش والشرطة والإدارة، لإفسـاح مجالات للمناورة حين كان هذا يعد بالنجاح. وهذا يصح أيضـًا عـلى العمـل الصحفي لدى الصحف اليومية والمجلات. وكان كل موقف يـتوجه ضد بريطانيا، يتعرض للإعاقة بالطبع. غير أن الفلسطينيين العرب، المعتدلين لم يكونوا يسهمون في الوصول إلى رأي عام متغير عن طريق العمل الصحفي فحسب، بل كانوا بحكم كونهم عاملين في الإدارة، أيضـًا، جزءًا من النظام العام، «الحكومي» الذي أقامته سلطات الانتداب ذاتها. وما يخص النخـبة المثقفة، التي كانت تتمتع بأمثال هذه المواقع، كان الأدب الإنغليزي والفلسفة والثقافة السياسية يمثلن على الأغلب، على أساس من تعلمها، مجالاً فكريـًا مألوفـًا يحظى بالتقدير. وكانت النظرة الشخصية إلى العالم تتأثر به تأثـرًا شديدًا، وكانت التفاصيل المتعلقة بالثقافة الألمانية. لا تكاد تعرف عند هؤلاء باستثناء القلاقل من الفلسطينيين المتعلمين في ألمانيا.

وثمـة فـئة أخـرى كانت تعمل في خدمة البريطانيين، وهي فئة رجال الشرطة العرب، وكان معظم هؤلاء يخدمون بصفة رجال شرطة مساعدين،

لم يكـن لهم في كثير من الأحيان ارتباط خصوصي ببريطانيا، بل كانوا في المقام الأول، يدخلون في هذه السلك من باب الارتزاق.

وعـلى الرغم من ذلك توجد وثائق بريطانية تتحدث في حالات فردية بعينها، عن ولاء خصوصي وحماسة خصوصية، في سلك الشرطة. وكذلك كانـت الحكومة في فلسطين تدافع عن سمعة الشرطة العرب الذين اشتبهت وزارة المسـتعمرات الـبريطانية بهم أثناء أيام القلاقل التي حدثت في تشرين الثاني (1937 م): إنني أشجب بصريح العبارة، المآخذ المعممة وغير المثبتة، في صـدد عدم إمكان الاعتماد عليهم أو الركون إليهم، إذ يسهمون في تثبيط عدد كبير من الرجال الذين نعتمد على ولائهم في كل حال. مادام الوقف لم يصـبح بعـد عديم المخرج، حيث يترتب علينا أن ننظر إلى العرب جميعـًا نظرتـنا إلى أعـداء. على أن الاتهامات تعد، فوق ذلك، في الوقت الحاضر خاطـئة عـلى وجه الخصوص، إذ تبدو المسألة وكان الروح المعنوية لدى الشـرطة العربـية والموظفـين العرب العاملين في الإدارة تتصاعد، ورجال الشـرطة العـرب يعملون في ظروف صعبة، وفي ظل أخطار. ثم إن بعض الرجال بينهم، دفعوا حياتهم، كما نعلم، ثمنـًا لهذا الإخلاص[51].

على أن هذه الملاحظة تصح بدرجة أكبر في أيام الحرب حين كانت قوة الشـرطة العربـية المساعدة تطرأ عليها الزيادة، وحتى في مضمار الوحدات العسـكرية كان العرب يمارسون الخدمة وإن كان ذلك في نطاق أضيق إلى حد بعيد مما يفعله الفلسطينيون اليهود. ففي السادس من آب عام (1941 م) تم تشـكيل فوج من ثلاث كتائب يهودية وكتيبة عربية، لتتم تعبئته في مصر وفي أجـزاء أخرى من الشمال الإفريقي[52]. وفي مدن عربية مختلفة حاولت دولـة الانتداب أن تظفر بالمتطوعين عن طريق الاحتفالات والاستعراضات فتقدم على أثر ذلك عدد أكبر للخدمة العسكرية[53].

وكـان هـناك أيضـًا نساء عربيات التحقن بأجزاء نظامية من القوات، ومـن الأمثلة على ذلك آسية حلبي، وهي عربية مسيحية، من القدس، كانت تعمل، في أثناء الحرب العالمية الثانية سائقة في خدمة الشرطة العسكرية الملكية، وأخـيرًا وصلت إلى مرتبة أمر ثان في مصلحة النقل العسكري[54]. ونشرت الصحف العربية في أيام الحرب إعلانات يطلب فيها إلى المتطوعين الإبلاغ عن أنفسـهم، وإلى جانـب ذلـك كانت تتحدث من حين إلى آخر عن التقدم بالطلبات، مثلما كانت تتحدث عن التعبئة العسكرية لمجموعات عربية[55].

أما الفصيل العربي الممثل لبلاده، والإسهام العربي في العمليات العسكرية البريطانية، فلا تتوافر حولهما دراسات وأبحاث، وأما التقارير المتعلقة بالقوات اليهودية فلا تذكر إلا على الهامش ومثال ذلك ما يذكر عند موريس بكمن (Morris Beckman): «كـان معظـم المراتـب الأخرى يأتي من اليهود، مـع وجود حفنة من العرب»[56]. ويتحدث بكمن فوق ذلك، عن مقدار «واحـد إلى ستة» بين المتطوعين اليهود والعرب، بعد أن تم إلغاء التكافؤ أو التعادل الذي كان مفعوله ساريـًا قبل ذلك. أما الفيلق العربي، الذي أنشأته بريطانـيا بمسـاندة الأمير عبد الله، فقد كان يتألف في معظمه، أيضـًا من العرب الفلسطينيين.

8/5] الحركة العمالية، الاحتكاك بين العرب واليهود، "الحل النهائي"

عـلى أن الأمـثلة الـتي تحدثنا عنها حتى الآن، والتي تشمل التعاون مع بريطانيا، أو الرافض الصريح للفاشية والحركة النازية الألمانية، يمكن توسيعها لتشـمل قطاعـًـا هامـًا من المشاركة السياسية العربية: ألا وهو النقابات واتحـادات الحركة العمالية، حيث كان يحدث، في صورة محددة على الأقل،

احتكاك عربي-يهودي، وتبادل، وقد عادت الدراسات الحدث عهدًا في هذا السياق بمعارف هامة[57].

فقد ارتفعت نسبة العمال العرب في المؤسسات والمصانع التي كانت تنتج مـن أجل التعبئة الحربية البريطانية، على أساس الصناعة الحربية المتوسعة في فلسـطين على الأقل، حيث تحولت هذه الفئة من جراء ذلك إلى عامل هام داخـل المجتمع العربي الذي كان يتغير بسرعة مدهشة. وحوالي نهاية الحرب كان هناك نحو مئة ألف عامل مأجور يعملون في هذا القطاع، وهو ما كان يشكل نحو ثلث السكان العرب الذين هم في سن العمل[58].

وعـلى وجـه الخصوص، في لحظة انتهت فيها الأجور في فلسطين إلى الركود مع اقتران ذلك بارتفاع في الأسعار في الوقت ذاته، كان من الأمور ذات الأهمـية الأسـاس، سواء للعمال اليهود أو للعمال العرب، أن ينظموا صـفوفهم تنظـيمـًا أقوى ليصلوا بالمحن والمطالب النوعية إلى عامة الناس وليمثلوها في مواجهة سلطات الانتداب. ومنذ عام (1940 م) فصاعدًا كان كلا الطرفين يعمل في هذا الميدان في تعاون أوثق، حيث تحول الوسط العمالي بذلـك إلى مـثال للتعاون العربي-اليهودي الذي لم يكن مع ذلك يسير هنا أيضـًا، بطريقة متناغمة بحال من الأحوال. وعلى الرغم من ذلك كان اللقاء المباشـر لجـزء كبير من السكان العرب مع العمال اليهود، تأثير في المواقف والملاحظة، وبعد أن كانت الأنشطة داخل الحركة العمالية العربية قد انتهت إلى الشلل بصورة مؤقتة من جراء الاضطرابات في فلسطين، استأنف (الاتحاد العـربي لعمال الخطوط الحديدية)، من حيث كونه أهم النقابات، عمله من جديـد. أما على الجانب اليهودي فقد وقفت الأقلية ذات التوجه اليساري مزدوجة القومية ولا سيما حركة (هشومير هتسير)، إلى جانب تعاون عربي يهـودي، وقفـت بذلـك في وجه المفهومات التي ترسخت في إطار التيار الصـهيونية الرئـيس، أي: تيار (العمل اليهودي/ أفودا إيفريت) و(الأكثرية

اليهودية). أما في إطار الهستدروت الذي كان مازال يقف على يسار الوسط، أي: نقابة الوحدة الصهيونية فقد كان هناك قسم عربي خاص، كان يحاول جمع المعلومات والقيام باتصالات مع الجانب العربي، وكان نفوذه محدودًا على أساس الموارد المالية والشخصية المحدودة. غير أن الهستدروت كان يتوجه من خلال المنشورات والنداءات، باللغة العربية، بصورة منتظمة، إلى العمال العرب، وكانت تناقش في هذه موضوعات مختلفة، حيث كانت سلسلة من هذه الكتابات تتوجه مباشرة إلى الحرب على النازية وتشير إلى هذه على أنا هدف مشترك مركزي.

وقد توجه نداء مشترك من (هشومير هتسير)، والهستدروت، بمناسبة الأول من أيار عام (1943 م)، إلى الأخوة العرب،كما يصوغ ذلك المنشور: هناك تكتلان يقتتلان في هذه الحرب: الفاشيون المعتدون الذين يقمعون الأمم، ويتوجهون ضد حرية البشرية وسعادتم وفي مواجهة هؤلاء تقف الأمم الاشتراكية والديموقراطية التي تقاتل من أجل العالم الحر والعدالة والسلام . . وبلادنا تشارك في المهودات الحربية أيضًا . . فبالنسبة لنا جميعًا، يهودًا وعربًا، على السواء، يوجد عدو مشترك هو الفاشية الاستبدادية وكل من يحاول أن يزرع الكراهية في القلوب، بينكم وبيننا فليس بشيء آخر سوى متعاون مع العدو المشترك[59].

وفي الفقرة التالية يجري تأكيد مقصد العمل المشترك مع السكان العرب في فلسطين، ويتم إخراج الصهيونية في صورة حركة مسالمة فعلت الكثير من أجل تطور البلاد، بينما يتم الربط المباشر بين القسم الأكبر من حالات التوتر التي أحدثتها الهجرة اليهودية ومحنة اليهود الأوربيين: هناك شعوب عديدة وطئتها جزمات الحركة النازية، ولكن لا يوجد شعب تعرض لقمع في مثل وطأة القمع الذي تعرض له شعبنا اليهودي، وبقسوة لا مثيل لها في التاريخ قتل أرباب القمع شعبنا، وإن دم أشقائنا، وآبائنا وأصدقائنا، الذي أريق في

كـل أصقاع أوربة ليوجه صرخة مدوية إلينا وإلى كل إنسان ينطوي على قلب ذي شعور وإحساس. ففي كل يوم يباد أناس بنيران البنادق الآلية، وبفعل الغاز السام لأنم ارتكبوا «جريمة» واحدة: هي أنم يهود . . .[60].

وفي أيار عام (1943 م) كانت سياسة الإبادة الألمانية في ذروتا، وفي هذه اللحظة كان نطاق سياسة القتل قد بات معروفًا منذ عهد بعيد وكانت قد وصلت إلى فلسطين منذ بداية عام (1942 م)، أخبار موثوقة، رفضت بالطبع أمام الملأ، بصورة جزئية، على أنا دعاوة. وفي مقابل ذلك تثبت الملاحظة العربية، وبالتالي المعرفة بكيفية تقدير سياسة الإبادة الألمانية، أنا صعبة[61]. وما من شك في أنه سيكون من قبيل السذاجة أن ينطلق المرء من منطلق أنه لم تكن لدى المجتمع العربي معرفة بعمليات القتل في أوربة. وذلك أن الصحف اليهودية وحتى الإنغليزية منها مثل (Palestine post)، التي كانت تأتي بالأخبار عن المجازر، كانت تجري متابعتها متابعة جزئية أيضًا، من قبل المثقفين العرب. وكان العمال العرب الذين يجابون بالنداء المذكور آنفًا، والذي يذكر حتى استخدام الغاز، كانوا يتلقون أيضًا معلومات مباشرة عن الإبادة. وقد تحدثت الصحف اليهودية عن اضطهاد اليهود أيام الحركة النازية، فوق ذلك، منذ بداية هذا النظام، عام (1933 م)، بالتفصيل، وكان جزء على الأقل من السكان العرب يحيط علمًا، من هذا الطريق، بالأحداث التي تجري في أوربة. ولا ريب في أنه لا يجوز للمرء أن يقع، في هذا الموضع، ضحية الخلط بين التعامل الحالي مع هذا الموضوع، والإحساس المعاصر، إذ يكون الموقف العربي من المحرقة قد تحول في هذه الأثناء إلى سياسة قبل كل شيء.

فعندما يطرح عزمي بشارة، مثلاً في مقالة جديدة حول موضوع (العرب والمحرقة) الإدعاء الجدلي بأن افتراض وجود علاقة بين العرب والمحرقة يعد مقالة خالية من المضمون خلوًا كاملاً، وهي «موضوع ظاهري فارغ» يمكن

مضاهاته بأي ربط آخر، كائن ما كان، ومثال ذلك: مقولة: «الهنود الحمر والمحرقة» عندما يكون من الواجب فهم هذا التصريح ضمن هذا السياق تمامًا. وذلك أن مجرد ذكر كلمتي «المحرقة» و«العرب»، وبينهما حرف العطف (و) يثير في نفس بشارة شبه مأخذ هائل، لا معنى له، أو سخيف، وهي شبهة وجود مساندة عربية لسياسة الإبادة الألمانية، كما تصادف في الاتهامات الموجهة إلى المفتي. غير أن الخوف في مثل هذا الاتخاذ لمسألة «معينة» أداة لغرض معين، لا يمكن أن يغير شيئًا في مسألة أن اضطهاد اليهود الأوربيين وإبادتهم أصاب، إصابة مباشرة أيضًا، الفلسطينيين العرب. فقد كان جزء من العرب في فلسطين، على الأقل، مطلعًا على الأحداث الجارية في أوربة، حيث لا يجوز للمرء أن ينسى أن سياسة الإبادة إنما طرحت جانبًا، حتى في اليشوف، زمنًا طويلاً، على أنها «دعاية مبنية على الفظائع».

وبالطبع لم يكن رد الفعل العربي مطبوعًا بطابع الرثاء فحسب. ففي البداية كان القوم يريدون، وهم الجانب العربي، أن يشيروا إلى موقفهم الخاص، الإشكالي، في فلسطين، ومثال ذلك أنه كان يشار من وجوه عدة، إلى أن السكان العرب بات عليهم الآن أن يتحملوا النتائج المباشرة لجرائم النازيين. وكان المقصود بذلك، قبل كل شيء، المعدلات المرتفعة للهجرة، (منذ أيام الكتاب الأبيض الصادر عام (1939 م)، ولاسيما الهجرة غير القانونية وما نجم عنها من الإخلال بالتوازن بين السكان اليهود والعرب. ولهذا السبب أيضًا، تبين لبعض العرب أن المسألة لم تكن تنطوي من الأسباب على ما يكفي للتحمس للحركة النازية.

وعلى الإجمال لابد للمرء من أن يتمسك بأن البواعث المؤدية إلى معارضة الحركة النازية، في الجانب العربي، كانت متباينة. فكان منها البواعث البراغماتية، وكان منها الأسباب الأخلاقية، ومن الأمثلة على نظرة تربط ربطًا وثيقًا بين هاتين: «إعلان القاهرة» الصادر عن الجامعة العربية

المؤسسـة حديثـًا، في السابع من تشرين الأول (1944 م): [واللجنة] تأسف لألـوان المعاناة التي نزلت باليهود في أوربة، غير أنها تعبر عن قناعتها بأن هذه المسـألة لا ينبغي الخلط بينها وبين الحركة الصهيونية. فمن الظلم والجور حل مشكلات اليهود عن طريق إنزال الظلم بالعرب الفلسطينيين[63].

5/ 9] الحزب الشيوعي الفلسطيني

وثمـة تكـتل آخـر ينبغي أن يذكر هنا أيضـًا، وهو الحزب الشيوعي الفلسـطيني بفـروعه العربية، وقد كان الحزب الشيوعي الأصلي تنظيمـًا عربيـًا-يهوديـًا مختلطـًا. وعلى الرغم من الوجود الدائم لفروق بين كلتا المجموعـتين، فإن الحزب لم ينقسم على نفسه إلا في عام (1943 م)، حيث كـان من قبل ثمة مواقف مشتركة من الوجهة الرسمية. وقد كانت مكافحة الفاشية، التي كان ينظر إليها على أنها الخصم الرئيس لإيديولوجيتهم الخاصة تتبوأ مركز الصادرة في هذه الأثناء منذ الغارة الألمانية على الاتحاد السوفييتي. أمـا الفـروق التي أفضت لآخر الأمر إلى انهيار الحزب وانحلاله فقد كانت تـتألف في مقـابل ذلك، وبالنظر إلى الحل المستقبلي للقضية الفلسطينية، إذ كان أعضاء الجناح اليهود يتأثرون، على نحو مطرد الزيادة بالأهداف القومية الصهيونية، وكانوا يعلنون موافقتهم على تأسيس دولة يهودية. ومنذ صيف عـام (1941 م) كانـت دعاية الحزب المتصلة بالحرب الألمانية المعلنة على الاتحـاد السـوفييتي مقررة ومحددة. وبمناسبة الثاني والعشرين من حزيران تم إصـدار منشور باللغة العربية يُبلّغ السكان العرب بالهجوم الألماني: في صباح الـيوم هـاجم جيش هتلر الاتحاد السوفييتي، من دون ذريعة ولا إنذار. وفي صباح اليوم زحفت الجيوش الفاشية بأمر هتلر إلى موطن الاشتراكية[64].

وبعد ذلك قدم النداء تفسيرًا ذا بعد واحد حقـًا للحرب من حيث قتال ينشـب بين القوى الرأسمالية الاستعمارية وطبقة العمال والفلاحين. وكانت

التفسيرات من هذا النوع قلما تقنع سائر الجمهور غير الشيوعي من العرب. غير أن الدعاية المتواصلة، واتخاذ الحرب العالمية والأيديولوجيا النازية موضوعين للمناقشة، كانا يمثلان لبنة أخرى في المناقشات العلنية الرسمية، إذ كانت النداءات والكتيبات توضع باللغة العربية، وهي النداءات والكتيبات التي كانت تورد معلومات وآراء تدخلهما في النطاق العلني ونطاق الجمهور، حتى حين لا يكون من الممكن هنا أن يقال أيضًا، إلا القليل عن تقبلهما. وبعد انقضاء سنة على بداية الهجوم الألماني على الاتحاد السوفياتي في (22 حزيران 1942 م)، تم تداول منشور آخر، وفيه أشير إلى هذه الحرب بأنها حرب على كل المبادئ الإنسانية، وعلى كل شعوب العالم، بما في ذلك العالم العربي: الفاشية خطر كبير على حريتنا وعلى مستقبل شعبنا، وقد جاءت بالدمار والموت، والكفاح ضدها ليست مسألة المبدأ أو مسألة الميل إلى شيء ما أو النفور منه، بل هي مسألة الاختيار بين الحياة والموت[65].

وبالاستناد إلى هذا السبب ينادى إلى الوحدة العربية: ونحن العرب نرص صفوفنا في هذه الأيام، ونوحد قوانا ومجهوداتنا بالتعبئة المشتركة لكل شعوب العالم في كفاحها لضرب الفاشية، وفي سبيل العدالة والحرية والمساواة بين كل الشعوب[66].

وفي نهاية العام تم إصدار منشور بمناسبة الهزيمة الألمانية في ستالينغراد، عبروا فيه عن الأمل في نهاية سريعة للحرب وانتصار على الحركة النازية[67].

وللحفاظ على الذكرى الرسمية لانتصارات الحلفاء نظمت أوساط تغلب عليها النزعة اليسارية أيضًا، في الشهور التالية، احتفالات في المدن المختلفة في فلسطين. ففي حيفا وجه النداء إلى اجتماع كبير في أحد المقاهي كان يفترض أن يحتفل فيه الهزيمة الألمانية أمام روسيا، وبانتصار الحلفاء في شمالي إفريقية، وكذلك مرور (22) عامًا على تأسيس الجيش الأحمر[68].

وفي الصـحيفة الشـيوعية (الاتحـاد) عكست رواية متلائمة مع ذلك، المواقـف الموصوفة، وعلى نحو مماثل للمنشورات والعمليات الرسمية، وكان مداهـا في الحقـيقة محدودًا أيضـًا، بلا ريب. غير أنه كان حجر موزاييك إضـافية في المناقشة الرسمية والمعلومات. وعلى كل حال فقد كان موضوعا الفاشـية وسـير الحـرب، عـلى كل حال، موضوعين هامين في الحديث السياسـي. وقـد جعلـتها منظمة أسست خصيصًا في النقطة المحورية من نشاطها، وهي و(عصبة مكافحة الفاشستية والنازية)، التي أسست في لبنان، وكانت ذات فاعلية أيضـًا بفروعها في فلسطين، وكانت تحاول كذلك، أن تؤثـر في الجمهور بالمنشورات والكتيبات. وفي الأول من تشرين الأول عام (1942 م) ظهرت الكتابات الأولى. وكان أولئك الذين استهلوها يؤكدون معـاداة شديد للفاشية وأهمية القيم الديموقراطية، التي لم يكن بد لتحقيقها، كمـا يفيد الكتيب، أن يكون نتيجة من نتائج الحرب العالمية. ومن الأمور المـثيرة للاهـتمام أن هذا المنشور نسخته نسخـًا كثيرة مطبعة إسلامية في القدس، على الرغم من أنه لم يكن يشير إلى أي من المراجع الدينية.

وبـدلاً من ذلك كان محور ثقل يتركز في المطالبة بدور فاعل في الحرب. أما الحركة النازية فيشار إليها، على النقيض من الدعاية الألمانية في هذا الصدد، عـلى أنـا عـدّوة للثقافة العربية وللإسلام: يريد النازيون أن يحملونا على تصديق أنم ليسوا بالاستعماريين الذين يحتلون أرضـًا أجنبية ويسفكون دماء سـكانا، ليزيدوا في ثروة كبار المتمولين وملاك الأراضي الألمان، إنم يريدون أن نصـدق أن كفاحنا العادل ووطنيتنا شيء رديء، ويحاولون ان يطعنوا في تاريخنا المشرّف الذي أضاء العالم بديانة كبرى وثقافة رائعة[69].

وفي الـنهاية سـقط الحزب الشيوعي ذاته، كما ذكرنا ضحية الاستقطاب الـيهودي-العـربي. وأدى انحـلال الحزب إلى تأسيس تنظيمين مستقلين أما عـلى الجانب العربي فكان هناك (عصبة التحرر الوطني). وحدث هذا الانقسام

الجديد حين بات التأسيس العربي يوسع أهدافه، ويستأنف على وجه الخصوص، الدعايـة المناوئة للفاشية. وبحكم كونه حزبـًا عربيـًا صرفـًا، كان يتمسك بمعارضـته الحاسمة للمحور، ولكن التساؤل عن مستقبل الحركة الوطنية العربية كـان يزداد تزخرفـًا عن موضعه في نظر اليسار العربي. وبينما كانت النخبة الفلسـطينية القديمة، وهي في حالة الشلل والتشظي لا تكاد تتقدم بمبادرات من أجـل تصميم خط سياسي مستقبلي، كانت عصبة التحرر الوطني ومساندوها يشكلون حوالي نهاية الحرب قوة يعول عليها داخل الحركة الوطنية العربية.

وقـد لخص بيانها التأسيسي الصادر في (1) شباط عام (1944 م)، تسعة عشـر هدفـًـا مـن أجل سياسة خاصة به بعد الحرب، كان أولها وأهمها اسـتقلال فلسـطين والتحرر الوطني، وكانوا يطمحون إلى حل وسط مع بريطانـيا، ولكن على أن لا يكون ذلك إلا في انسجام مع مطالب من أقدم المطاليـب الخاصـة بالحـركة الوطنية العربية، وهو الإنهاء الفوري للهجرة اليهودية، ولبيع الأراضي العربية إلى المنظمات اليهودية والأملاك الخاصة. غير أن المطاليـب كانـت تدخـل على وجه العموم، في حدود أدنى القواسم المشـتركة الـتي تجمع الحركة الوطنية العربية، ولم تكن تشكل عدولاً عن مسـاندة بريطانيا في الحرب، والرفض القاطع للحركة النازية، وحتى البيان التأسيسـي لعصـبة الـتحرر الوطني يفسح مجالاً خصوصيـًا لهذا الرفض. ويدخله في عداد أهم أهداف الحركة الوطنية العربية.

5/ 10] نهاية الحرب والذكرى المهمشة عن الحركة العربية والنازية

يعـد الموقـف العربي المعاصر في أثناء الحرب العالمية الثانية ممكن التمثل والـتقمص عـلى الإطلاق من الوجهة السياسية، ومتماسكـًا من الوجهة المنطقـية في احتجاجه. فقد تم إخراج المعارضة للصهيونية ولدولة يهودية في

فلسطين منذ بداية القرن العشرين، وكان أساس هذه المعارضة منذ أوائل أيامها دوافع سياسية لم تكن تنطوي على نبرات من معاداة السامية إلا على نحو متفرق. والحق أن الكليشهات المعادية للسامية، وللآراء المقولبة كانت تظهر في بعض الأحيان، في الأوساط ذات النزعة الوطنية، في صورة صدى لأمثالها الأوروبية التي يحتذى بها، غير أن هذه ينجم عنها مدى أكبر في فلسطين حتى عام (1948 م)[71]. وكانت المقاومة العربية الواسعة الانتشار للهجرة اليهودية مطلبًا سياسيًا صرفًا، لا ينطوي على دوافع عنصرية. لماذا بات من الواجب على العرب الآن، من وجهة نظر عربية، أن يدفعوا ثمن كراهية الألمان لليهود، وسياسة الإبادة؟. لقد كانت القوى السياسة العربية، التي كانت تعيد تنظيم صفوفها منذ عام (1943 م)، في فلسطين، متوافقة فيما بينها على رفض النازية ومبادئها، وكانت تعبر عن أملها في الوصول إلى الجولة الخاصة بها في فلسطين بطريقة أخرى. غير أن التطورات بعد الحرب كان مقدرًا لها أن تعني نهاية مفاجئة لهذا الاشتداد في عضد القوى المعتدلة بين صفوف السكان العرب.

وفي عام (1944 م)، على أبعد تقدير، كانت نهاية الحرب وهزيمة المحور ماعادتا للمراقبين في فلسطين بعد، سوى مسألة وقت. وفي حقبة من إعادة التنظيم الفاعل للجيوسياسي كانت الأحداث الجارية في أوربة والهزيمة الألمانية، بعد ذلك تشكل موضوعًا من الموضوعات الهامة.

وقد كان طول مكث المفتي في برلين حتى الأيام الأخيرة من الحرب قد أفسد عليه ثقة القوى الفاعلة في المضمار السياسي لدى أجزاء واسعة النطاق من السكان، على الرغم من أن أنشطته المتعددة الجوانب، في خدمة دول المحور، كل على حدة لم يكن يبدو أنها كانت معروفة لدى كل القادة العرب.

ولقد لقيت نهاية الحرب في فلسطين ترحيبًا من الجانب العربي مع الاحتفالات. وما من شك في أن ذلك ارتبط لدى السكان العرب على وجه

الخصـوص، بطـور جديـد من عدم اليقين. وبالمقارنة مع هذا كانت أيام الحـرب، تمثل حقبة من الهدوء النسبي، ولم يكن مستوى المعيشة العربي على وجه الإجمال يزداد سوءًا.

أمـا من الوجهة السياسية فكان الساسة العرب المعتدلون قد راهنوا على التعاون مع بريطانيا. وكانت مجهوداتهم الآن خليقة بأن يترتب عليها تسديد الاستحقاقات الواجبة من جانب إنغلترا، بتنازلات سياسية مناسبة. ولكن لم يكـن هناك على الجانب البريطاني بعد نهاية الحرب، بوادر تدل على سياسة تفسـح مجالاً لرؤية تنازلات تقدم إلى الجانب العربي. وفي وجه هذه الأنفة الواضحة من التسبب في الوصول إلى حل ينسجم مع المطالب العربية، كان الساسـة العرب، على وجه الخصوص الأوساط المعتدلة بينهم، يفيقون من سكرتهم في مثل لمح البصر. وأضيف إلى ذلك أن الضغط على بريطانيا بالنظر إلى المشـردين بمئات الألوف في أوربة، من ناحية أولى، وبالنظر إلى الأنشطة العسـكرية اليهودية التي كان تنظيمها يزداد تحسنـًا في فلسطين من ناحية أخـرى لكـي يـدع الأمـل العربي في تعديل وجهة دولة الانتداب يبدو مسـوغـًا. أما أن بعض الأوساط أرادت بعد نهاية الحرب أن تستعيد المفتي من جديد إلى حلبة الصراع في سياسة الفلسطينيين، فقد كان ذلك، أيضـًا، مـا لا يتلاءم مع مصالح معينة. وقد لخص أهم الساسة العرب الفلسطينيين المعـتدلين، راغب النشاشيبي، حين أفاق من السكرة وثاب إلى رشده، خيبة أمله عام (1946 م) بقوله: الحكومة البريطانية تمثل نوعـًا ضمن الديموقراطية التي تستمد سلطتها من الشعب البريطاني، وأين تحسب أن الشعب البريطاني يقـف الآن، في الحرب بين العرب واليهود؟، وهل تقف الأمة البريطانية إلى جانـب ضحايا هتلر الذي كان حتى الأمس، يقصف لندن بالقنابل، أم إلى جانـب مـتعاون مع هتلر كان يبتهل إلى الله من أجل انتصار ألماني في تلك الحرب[72].

أمـا المـتعاون الـذي ذكره، وهو الحاج أمين الحسيني، فقد كان راغب النشاشـيبي يحاربـه على الدوام. وكان هذا يساند دولة الانتداب مع آخرين مـن الساسـة المعتدلين، ويتخذ موقفـًا معينـًا حيال دول المحور أيضـًا. وعـلى الـرغم من ذلك كان يعي أن سلوك المفتي في أثناء الحرب خليق بأن يكون له الآن وزن أكبر إلى حد لا يقبل المقارنة، من التوجه نحو بريطانيا عند المعـتدلين، إذ مـا عـاد في وسع هؤلاء، في أيام ما بعد الحرب، أن يضعوا اسـتراتيجيات بديلة، حيث باتت بريطانيا الآن ترفض مساندتم. وفي أجواء مـابعد الحرب التي جنحت إلى التطرف جنوحًا هائلاً، وبالنظر إلى الإرهاب المطـرد الزيادة من جانب المتطرفين اليهود، سرعان ما حظيت البوادر الأكثر تطرفـًا، في المعسكر العربي أيضـًا، بالرواج. وكان كثير من الساسة العرب يرون الآن الطريق وقد بات مفتوحًا من جديد، إلى مواجهة مع قوة الانتداب، وفي كفـاح مسـلح. وإذا التعاون البعيد المدى، من قبل الساسة المعتدلين في فلسـطين، وهـو التعاون الذي كان يتضمن أيضـًا رفض خصوم الخلفاء في الحـرب، وإدانتهم يطرح جانبـًا من قبل بريطانيا. بالنظر إلى علاقات القوة المبنـية على السياسة الواقعية في فلسطين، ما عادت هذه القوى المعتدلة تؤخذ في الحسبان الآن، وكانت تدان الآن من جانبها، بكونا «من المتعاونين».

ويضاف إلى ذلك أن هذه الأصوات المعارضة دفع با إلى هامش الذكرى في الحديـث الـذي كان يجري بعد عام (1948 م). وفي هذا السياق كان يجـري التأكـيد عـلى قصة تعاون المفتي بما يتلاءم مع هذا، ويوصم عرب فلسـطين في كثير من الأحيان بوصمة الإدانة الأخلاقية التي تحملهم جريرة النكـبة عـام (1948 م). ولكـن عندما ينظر المرء في الرأي العام في ذلك الوقـت، في فلسـطين، مع ما فيه، ولاسيما الأصوات النقدية، يتبين له أن المسألة تتعلق هنا بصورة مشوهة.

أمـا عـلى الجانب الإسرائيلي فقد وجه في هذه الأثناء ما سمي بأساطير التسـويغ التي ظلت على مدى عقود من الزمان، تتغذى بعلم للتاريخ مبني على الانحياز والهوى في شطر منه على نحو مكشوف ويجري البحث فيها من الوجهـة التاريخية، وتجعل موضع التساؤل. وفي مقابل ذلك كانت الصورة المركبة للمجتمع العربي والسياسة العربية لا تتخذ موضوعـًا للأحاديث إلا في حالات قليلة نسبيـًا. والرأي العام العربي في فلسطين، في الحرب العالمية الثانـية مـثال على أن كثيرًا من هذه الصور التي تأسست خلال الحقبة التي أعقبت عام (1948 م)، كانت أكثر تعقيدًا في واقعها التاريخي.

تأليف: كرستفر شومان

6] مكاسب رمزية: قومية أنطون سعادة المتطرفة في الحقبة الفاشية

يميز إرنست نلته (Ernst Nolte)، في تحليله المقارن (العمل الفرنسي/ Action française) للفاشـية الإيطالـية والـنازية الألمانية، الحقبة الفاصلة بين الحربين العالميـتين، بأنـها «حقبة الفاشية»[1]. ويقول نولته، إن الجذور الأيديولوجية لهـذه الظاهـرة تمتد إلى أن تبلغ المناقشات والجدالات المتعلقة بقضية الكابتن دريفـوس في فرنسـا أوائل القرن العشرين. وقد انتهت ظواهرها الأخيرة في أوربـة في السـبعينيات. بانهيار نظامي سالازار وفرانكو. ومن بين الأشكال المخـتلفة للفاشية تبرز الحركة النازية الألمانية بجنوحها إلى التطرف الفريد من نوعـه في مضمار السياسة الداخلية والخارجية، وهو التطرف الذي يبلغ ذروته في محاولة غزو أجزاء واسعة النطاق من أوربة، والحط من شأن المجتمعات التي

سبق إخضاعها، والـ ول بـا إلى مـ لة الشعوب المساعدة أو الشعوب التي تماثل العبيد والإبادة الكاملة لليهودية الأوربية. ولذلك يمثل قتلى الحرب العالمية الثانية وضـحايا المحـرقة، من دون شك، أكثر فصول القرن العشرين، القصير، أي: (عصـر الحـدود القصـوى) (إريك هبسباوم/ Eric Hobsbawm)[2]. ولكن الحركة النازية قوضت، بفعل وحشيتها التي لا مثيل لها، أسسها الأيديولوجية، وأسـس الفاشـية عـلى وجه الإجمال. والحق أنه وجدت منذ ذلك الوقت محـاولات للتهوين من شأن الجرائم الفظيعة للرايخ الثالث، أو حتى إنكارها. غـير أن محاولة تسويغ هذه الجرائم أيديولوجيـًا أو أخلاقيـًا، محاولة لم يقم بـا حتى مجرمو الحرب الرئيسون المتهمون في نورنبرغ[3].

عـلى أن ظاهرة الفاشية لم تبق مقصورة على غربي أوربة ووسطها، إذ كـان يوجـد في الثلاثينـيات والأربعينيات، في أوربة الشرقية، على وجه الخصوص، سلسلة من نظم الحكم الاستبدادية التي كانت تجمع بين الأشكال الفاشـية، والأفكار ذات العناصر الطبقية-التقليدية، أو العسكرية، أو حتى الكهنوتـية. وبيـنما ظلت الاشتراكية في تلك الأيام مقصورة على منطقة روسيا السوفييتية المعزولة عن العالم، وبالتالي على الاتحاد السوفييتي اللاحق، كانـت الديموقراطـيات الليبرالية، كما لابد أن يكون ذلك بدا لكثير من المعاصرين على الأقل، في مواجهة النظم الاستبدادية، في حالة تقهقر.

وحـتى في الشـرق الأدنى لم يـبق هذا الانطباع الخاص بعلاقات القوة المتـبدلة، في أوربـة مـن دون تأثير. وعلى وجه الخصوص مادامت فرنسا وبريطانـيا كان يجري الإحساس بأنما ليستا مجرد ممثلتين للديموقراطية، بل على أنما، أيضـًا، دولتان استعماريتان غير محبوبتين كان من الواضح الجلي أنمـا تتعرضان للتحدي من قبل نظم الحكم الفتية ذوات الطموح، وكان الشـباب على وجه الخصوص يشعرون أنم مخاطبون بالصيغ البرلمانية ورموز الـنظم الفاشـية في أوربة. وهكذا انبثقت سلسلة من الأحزاب والمنظمات

الجديـدة، المتطرفة، من الأرض. وكانت البداية في عام (1932 م) على يد الحزب السوري القومي الاجتماعي، الذي ظل وجوده حتى عام (1936 م) سـريـًا بلا ريب، وتبعته عصبة العمل القومي، وهي سلف حزب البعث اللاحـق، والكتائب اللبنانية (الكتائب)[4]. وفي صورة رد الفعل على هذا، شعرت القوى الراسخة الجذور، في الحركة الوطنية، من جانبها، من جديد، بأنا مرغمة على أن تؤسس أيضـًا منظمات شبابية. وكان القاسم المشترك بـين كل هذه الفئات أنا كانت تعبر عن شعور أفرادها بانتماء بعضهم إلى بعـض بارتداء قمصان ذات لون واحد حيث كانت الأوان المتباينة (البني، الأشـهب والأزرق . . إلخ» تمـثل شـارة دالة على التوجهات السياسية المخـتلفة، بالنسـبة للمطلعين على الأقل. وأدى الحضور القوي لمنظمات الشـباب هـذه التي كانت تتنافس فيما بينها، على الأغلب، على الملأ، إلى التسـمية التي ترجع بأنظارها إلى الوراء، في الثلاثينيات والأربعينيات، لهذه الحقبة، بأنا «عصر القمصان» في الشرق الأدنى[5].

لقد جاء الحزب الذي ذكرناه آنفـًا، والذي أسسه أنطون سعادة (1904-1949 م) عام (1932 م) في بيروت، وهو الحزب السوري القومي الاجتماعي، أقـرب الأحـزاب من حيث المظهر الخارجي الصرف على الأقل إلى النماذج الفاشـية التي يحتذى با في أوربة[6]. والحق أن هذا الحزب يكاد يكون اليوم، مـع ذلـك عديم الأهمية من الوجهة السياسية، لأسباب متعددة: فحتى وإن كان يرى هو ذاته على الدوام أن من غير الجائز أن تكون له ارتباطات فكرية وسياسـية بدولـتي المحـور في تلك الأيام، إيطاليا وألمانيا، فإنه كان ومازال، حـتى الـيوم، يعد في نظر خصومه على الأقل، جوهر الفاشية، بمعنى الكلمة، في سـورية الجغرافية[7]، فهو إلى جانب ذلك أيضـًا، وعلى نحو معترف به، الحـزب العلماني إلى الحد الأكثر حسمـًا على الإطلاق. وكان يمارس على وجه الخصوص بفعل توليفه النوعي بين الـ عة القومية والـ عة العلمانية، نفوذًا

كـبيرًا عـلى جيل فتيان المثقفين خلال الأربعينيات والخمسينيات. وفي تلك الحقـبة بلـغ الحزب أيضـًا ذروة سلطانه السياسي. وبفعل تنظيمه الصارم وسـلوكه ومظهره العسكري، غدا عاملاً يترتب على وجه الإطلاق أن يؤخذ مـأخذ الجـد في الكفاح من أجل الوصول إلى السلطة في كلتا الجمهوريتين الناشـئتين: سـورية ولبـنان[8]، ولأسباب متباينة، انهزم الحزب مع ذلك في كلـتا الدولـتين ما أدى إلى الزج بكثير من أعضائه في السجون، وإلى إعدام أنطون سعادة نفسه، رميـًا بالرصاص بموجب حكم عرفي، بعد أن كان نادى قبل هذا بالثورة القومية الاجتماعية الأولى في لبنان[9].

وفي التفصيلات التالية أحاول أن أبيّن أن قومية أنطون سعادة الاجتماعية السـورية إنمـا تأثـرت بالفاشيات الأوربية، ولاسيما من الوجهة الرمزية والتنظيمـية، على حين لم يلعب التقبل الأيديولوجي دورًا ذا شأن، ولم يكن آخر الأسباب المرتبطة بسيرته يتمثل بالمفهوم الكلاسيكي للدولة القومية. وقد كـان المفهوم الفرنسي للجغرافية القومية عند سعادة أكثر إقناعـًا وأسهل نقـلاً إلى سورية، من معاداة السامية، العرقية عند الألمان، كما كانت تتبوأ مكانـة مركـزية في الأيديولوجـيا النازية. والحق أنه كان يرى في الحركة الصـهيونية مـنذ عـام (1925 م) نوعـًا من العدوان اليهودي على الأمة السـورية، ومع ذلك فقد أول هذه بطريقة تقليدية، على أنها تعرّض الدولة القومية للخطر بفعل قوى الطائفية السياسية في تآزرها مع الـ عة الاستعمارية الأوربـية، وليس في صورة مؤامرة من العرق اليهودي لابد أن تكافح على نطـاق عالمي. أما ميل الفاشيات الأوربية، على أساس معاداة الشيوعية، إلى الـتماس سمة سياسية مشتركة، فقد ظل غريبـًا عن أنطون سعادة، إذ ظل حبـيس المفهوم التقليدي عن قومية الدولة والـ عة القومية، إلا أن ذلك كان في متغير متطرف.

1/6] الخلفية الخاصة بسيرة أنطون سعادة

تتميز سيرة أنطون سعادة بخصوصيتين، أولاهما أنه عاش شطرًا كبيرًا من حـياته خـارج سورية الجغرافية، أي في الحقبة الواقعة بين عامي (1920 و 1930 م)، في الـبرازيل في المقام الأول، وفيما بين عامي (1939 و 1949 م) في الأرجنتين على وجه الخصوص[11]. والثانية أن أنطون سعادة كان يعتمد مـن دون شك على معرفة جيدة باللغات الأجنبية وعلى ثقافة واسعة، وهو كـان يدين به لجهات لم يكن آخرها أبوه، الدكتور خليل سعادة (1857-1934 م)، وهـو طبيب معروف وأديب وناشر. ومع ذلك فلم يدخل أبدًا هـو نفسه جامعة، فضلاً على أن يحصل على تخرج جامعي. على أن الأمر الأخـير يميزه تميزًا له دلالته عن كل الآخرين من مؤسسي الأحزاب ذوي الـ عة القومية في ذلك العصر، وهم الذين كانت مكانتهم تقدم، ضمن أمور اخـرى، على تعليمهم الأكاديمي الرسمي مثل (ميشيل عفلق وصلاح الدين البـيطار، وزكـي الأرسـوزي)، أو حتى أولئك الذين كان في وسعهم أن يشيروا إلى انحدارهم من الطبقة العليا (مثل أكرم الحوراني، وكمال جنبلاط، أو حتى ببير الجميل). وكانت السنون الطوال في بلدان الشتات السوري، في أمـريكا اللاتينـية من ناحية، والثقافة المبنية على التعليم الذاتي، التي حصلها سعادة من ناحية أخرى، قد أثرا في بعض الجوانب الهامة من تفكيره، وذلك ما يترتب علينا، من أجله أن نفصل القول في هاتين الخصوصيتين من سيرته عما قريب.

أمـا الإقامتان في أمريكا اللاتينية فقد كانت الأولى منهما هي التي طبعته بطابعها. فحين أتى أنطون سعادة عام (1920 م)، إلى سان باولو، كان عمره لا يتجاوز الستة عشر عامـًا. وفي السنوات العشر التالية حظي بمكانة أقرب العاملين مع والده، إليه، في تحرير صحيفة (الجريدة) وطبعها، وفيما بعد، في

تحرير مجلة (المجلة) وطبعها[12]. وهكذا بات في وسعه أن ينشر هو نفسه، المقالات الأولى وأن يدخل في احتكاك مباشر بالحياة الفكرية والهموم الاجتماعية والمسؤوليات الخاصة ببلدان الشتات السوري اللبناني في أمريكا اللاتينية. وعلى نحو يربو على ما فعله زعماء الأحزاب القوميون الآخرون، كان يكشف في السنوات اللاحقة أيضًا عن وعي لمسألة أن الآلاف من السوريين كانوا يعيشون خارج سورية الجغرافية، ويدعو إلى المحافظة على روابطهم السياسية والثقافية بالمجتمع الذي ينتمون إليه. وحتى اليوم مازال محور ثقل نشاط الحزب السوري القومي الاجتماعي، لأسباب ليس آخرها هذا السبب، يتركز في بلدان الشتات.

ويكاد التصور النظري عند سعادة يكون نظرة من الخارج، للوحدة المطلقة، وعدم إمكان تبدل الأمة السورية والتباسها بغيرها، وهي التي انبثقت تاريخيًا من الحياة المشتركة التي دامت ألوف السنين، أي: حياة المجتمع في مجال يمكن تحديده "موضوعيًا" ويتميز بالوحدة الجغرافية وهو سورية الكبرى. على أن سعادة ذاته يجهد بعد ذلك طاقة الخيال الجغرافي بصريح العبارة عندما يحاول في المبدأ الخامس من مبادئ الحزب تدعيم الانتماء المشترك، الذي لم يكن ممكن الفهم بحكم البدهية على وجه الخصوص، مع قبرص، قائلاً: سورية الكبرى هي (الهلال) الخصيب السوري وجزيرة قبرص نجمته[13]. وبتوكيده وحدة سورية يقف سعادة بحكم كونه من الروم الأرثوذكس، من ناحية أولى بلا ريب، في غمار تقليد النزعة القومية المسيحية الأولى منذ أيام بطرس البستاني وخليل الخوري[14]. ولكنه يعد، من ناحية أخرى أيضًا، مثالاً على أن السوريين في بلدان الشتات، سواء أكان هذا في أمريكا اللاتينية، أم في مصر[15]، كانوا يعيشون قواسمهم المشتركة، الثقافية والسياسية على الأغلب بدرجة أكثر حدة وتكثيفًا، وأبكر مما فعل أولئك الذين تخلفوا في الوطن!

ربما كان غياب التعليم الأكاديمي الرسمي يطبع بطابعه عمل سعادة بدرجة أشد بعد، وعلى وجه الخصوص بطريقة أكثر تعددًا في جوانبها. لقد نشأت الأحزاب القومية الفتية، المتطرفة في الثلاثينيات والأربعينيات، على الأغلب، في وسـط المـدارس الثانوية والجامعات، وكانت كثيرًا ما تنبثق من أوساط التلاميذ والطلبة. في إطار العلاقة بين قادة الأحزاب والأتباع، كانت السلطة السياسية والفكرية يتداخل بعضها في بعض، من دون أن تظهر مواضع الربط تقريـبـًا[16]. وكان مؤسسو الأحزاب يرون أنفسهم معلمين (أو أساتذة)، و(زعماء) كما كان أتباعهم ينظرون إليهم هذه النظرة. ولم تكن الحال شيئًا آخـر مع أنطون سعادة. والحق أنه قام، فيما بين عامي (1925 و 1930 م) بمحاولـتين لم تصيبا من النجاح إلا قليلاً وهما تأسيس المنظمات القومية بين المعـارف ذوي الفئة العمرية الواحدة، وضمان موقع الزعيم في هذه الأثناء لنفسـه[17]. ومـع ذلـك فقد أدى إدعاؤه الحق المطلق في الزعامة إلى شق صفوف الجماعة الأولى، كما ظلت أوجه نجاح الثانية محدودة.

وبعد أن عاد إلى بيروت عام (1930 م) التمس لنفسه أول الأمر، بنجاح، وظيفة محاضر في اللغة العربية في الجامعة الأمريكية في بيروت، قبل أن يشرع في تجنـيد الأتباع السياسيين من بين طلابه. وفي السنوات التالية ظل إدعاؤه الحـق بـأن يكون 'الزعيم' والأيديولوجي الوحيد في الحزب، بغير منازع، وكـان يستخدم في التعامل مع أعضاء الحزب الذين يأتون من حديثي السن على الأغلب، منذ الآن فصاعدًا مفهومات تربوية مثل: تعليم، أو، توجيه، أو محاضرة[19].

أمـا الأسـباب الكامنة وراء تأثير سعادة في أتباعه فهي متعددة الوجوه يكـون معها إدعاؤه الحق لنفسه في أن يكون هو من وضع الأساس العلمي لمذهـب الحـزب عاملاً هامـًا، على الرغم من الحقيقة القائلة إنه لم يكن يتمـتع، هـو ذاته بتعليم علمي. وهناك على وجه الخصوص ثلاثة نصوص

طويلـة لـه، تدعي الحق في الاعتراف بسمتها العلمية الصريحة أو الضمنية، وهي تتميز من نصوصه الأقصر، كالمقالات المنشورة في المجلات، أو الشروح التعليمية على أيديولوجية الحزب. وفي حالة النصوص الثلاثة المذكورة تتعلق المسـألة بـنقد أدبي بعنوان (الصراع الفكري في الأدب السوري)، والمقالة الفلسـفية: الإسلام في رسالتيه: المسيحية والمحمدية، وفيها يبحث في العلاقة بين الدين والسياسة، وعمله الرئيس، النظري، الأيديولوجي ‹نشوء الأمم›[20]. ومـا تشـترك فـيه هذه النصوص الثلاثة هو أنها كتبت بلغة بالغة التجريد والتعقيد، ولا تمت إلا بالقليل من الصلة إلى المسائل السياسية المحسوسة. ومن دون أن نقصـد إلى تقويم إدعاء الحق المذكور، في الإقرار له بالسمة العلمية، بالتفصـيل، ينبغي أن نقرر أن مفهومي (علم) و(علمي) تمتد قبل كل شيء عبر كتاب ‹نشوء الأمم› مثل خيط أحمر. على أن سعادة يعلن منذ التمهيد، قائلاً في هذا الصدد بأسلوب منهجي:

> **إن ‹نشـوء الأمم› كتاب اجتماعي علمي بحت تجنبت فيه التأويلات والاسـتنتاجات الـنظرية وسائر فروع الفلسفة، ما وجدت إلى ذلك سـبيلاً. وقـد أسـندت حقائقـه إلى مصادرها الموثوقة، واجتهدت الاجتهاد الكلي في الوقوف على أحدث الحقائق الفنية التي تنير داخلية المظاهر الاجتماعية وتمنع من إجراء الأحكام الاعتباطية عليها[21].**

ويتـبين لـدى قراءة الكتاب، أن مفهوم (العلمي) يتخذ معاني مختلفة في السـياقات المخـتلفة. فهـو يعـني «الموضوعي» و«الحديث» و«العلماني» و«الصريح» غير الملتبس، وقبل كل شيء «الحق»[22]. وبناء على ذلك كانت المسـألة تقتضـي، في إطار المناقشات داخل الحزب حول المسائل الأساس في مذهـب الحزب، في صدد حجج سعادة، أن لا يكتفي القوم بأن ينكروا على خصـومه الحـق في التصـريح بمضمون الحقيقة في أقوالهم، بل لا يقرون لهم أيضـًـا بـالمقدرة على الاحتجاج العلمي على الإطلاق[23]. أي أن موقعه

القيادي بعبارة أخرى، في جزء منه على الأقل، على كونه أصاب نجاحًا في تبديل سمعته بحكم كونه «باحثًا» وبالتالي مفكرًا لتتحول إلى سلطة سياسية ملموسة[24]. ولكن لما كان لا يتمتع بمكانة مسوغة أكاديميًا، في صورة دبلومات يمكن إبرازها، مثل عفلق والبيطار والأرسوزي، فقد زاد ذلك لديه في أهمية توثيق كفاءته ومقدرته، في كتاباته. أما بين صفوف أتباعه فقد كان تفوقه، في مسائل الأيديولوجيا أمرًا بعيدًا عن التنازع فيه، وكثير من أولئك الذين كتبوا السيرة الذاتية فيما بعد وضعوه في نظرة تستعيد الماضي، بأنه شخصية «مستحوذة». ومما هو جدير بالذكر، في هذا الصدد مع ذلك انه قلما يدعي أحد منهم أنه اهتم على وجه الخصوص بنصوصه الأساس، فضلاً على أن يكون تأثر بها[26]. ومن الواضح الجلي أن مجرد وجود هذه الكتب كان أهم من مضمونها الملموس، من أجل ضمان الامتياز الفكري المطلوب. على أن السياسي الوحيد المعروف لدي، الذي اشتغل اشتغالاً رسميًا بمفهوم المدرحية (المادية الروحية/ Spiritualisms) هو كمال جنبلاط الذي كان، من جانبه مؤسس الحزب التقدمي الاشتراكي، والأيديولوجي الرئيس فيه[27].

[6/ 2] خطوط التقبل: الجغرافية القومية ونظرية العرق

وقبل أن تتم فيما يلي محاولة بيان ماهية الأفكار التي يعود أنطون سعادة عليها من حيث الجوهر، ينبغي أن يشار بإيجاز إلى الصعوبة المنهجية المبدئية الكامنة في متابعة الأفكار السياسية للعودة بها إلى أصولها المفترضة. ولابد من أن يطرح نفسه في صدد هذا الجهد، تساؤل عن مسألة هل طور المفكرون السياسيون الذين تناولهم بالبحث، أفكارهم بالفعل، بالاستناد إلى المادة التي سبق أن خطرت ببالهم، ليدعموها بعد ذلك؟. وعلى هذا سيكون من قبيل استباق الأمور القول إن سعادة أصبح من القائلين بفكرة الأمة السورية لأنه

قـرأ أعمال هنري لامانس (Henry Lammens) وفيليب حتي في تاريخ سورية الجغرافية[28]. والأحرى أن نتصور وحدة سورية منذ القرن التاسع عشر على أنـا جزء راسخ لا يتجزأ من الحديث السياسي العام، الذي لم يكن يتناقض مـع فكرة (العروبة) على وجه الإطلاق، وأنا كانت راسخة الجذور بدرجة قوية بين المسيحيين الروم الأرثوذوكس والمهاجرين إلى بلدان الشتات (المهجر) عـلى وجه الخصوص. ومن هذا الأساس يتبين أن سعادة لم يجد لدى لامانس وحتي إلا توكيد التصورات التي كان قد اكتسبها من محيطه المباشر[29].

على أن خصوصيات سعادة التي وصفناها آنفـًا، والمرتبطة بسرية حياته، وأعـني إقامته الطويلة الأمد في بلدان الشتات (أو المهجر) وثقافته المتحصلة بطـريق التعلـيم الذاتي، يجعلان من الأمور الأصعب علينا، فوق ذلك، أن نسلكه في إطار خطوط للتقبل محددة، وذلك أنه لم يكن من ناحية أولى، مثل عفلق، أو الأرسوزي أو البيطار، معرضـًا أثناء أيام الدراسة لتيارات فكرية محددة يمكن تمثلها أو تقمصها. ومن ناحية أخرى لا يكاد يكون من الممكن تقدير ماهية الكتب التي كانت في متناول يده وهو في سان باولو العشرينيات عـلى وجه الإطلاق. والشيء ذاته ينطبق على الحقبة التي قضاها سعادة في السجن، في بيروت والتي استغلها لوضع كتابه ‹نشوء الأمم›.

وفي هـذه الحالـة لم يكن سعادة يجتهد في التكتم على مصادره. ثم إن الأدبيات التي يشير إليها تتيح المال في الحقيقة لنظرات نلقيها على الأسلوب والطـريقة اللـتين كان يتقبل بما الأدبيات التي ترجح فيها كفة الأدبيات الأوربـية. وبناءً على ذلك يعد كتاب ‹نشوء الأمم› قبل كل شيء، حافلاً بالحواشـي، أكثر لفتًا للأنظار إلى حد بعيد. ففي الطبعة الأولى الصادرة عام (1938 م) توجـد البـيانات الخاصة بالمصادر في مستهل الكتاب، حتى قبل الفهرسـت، وهذا ظرف من الممكن أن تكون له علاقة بسعيه واجتهاده في توثـيق «السمة العلمية» لكتابه. أما في الطبعات اللاحقة فترد هذه الحواشي

كما هو مألوف عند خاتمة النص. وفي لائحة المصادر، هذه التي تقع في أكثر من ثلاث صفحات، ولا يوجد سوى عنوان عربي وحيد، يعرض، بالطبع في السطر الأول، وهو مقدمة ابن خلدون[30]. أما العناوين الأخرى فإنغليزية أو ألمانـية، ولا يسـتثنى من هذه إلا اثنتان. ولم تطل لائحة المراجع على وجه الخصوص إلا أن هناك ثلاثة مجلدات تجميعية يتم إيرادها هنا مع كل المقالات المتضـمنة فـيها[32]. أما النصوص العائدة إلى أوائل المفكرين في الحركتين الفاشـية والـنازية، كما كانت داخلة في إطار الزي الشائع في وسط قومية البعث في الأربعينيات على وجه الإطلاق، فلا توجد بينها.

أمـا المـيل العـام في المراجع المشار إليها فيتمثل بالأحرى، في أن المسألة تـتعلق بأعمال ترجع إلى سياقات أكاديمية، وليست سياسية. وثمة جزء كبير منها يعد بدوره، علميـًا إلى حد القيام فيها، بمحاولة إنشاء صلات وثيقة بين عـلم الاجـتماع والعلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية. وفي هذا الصدد تتعلق المسـألة مـثلاً بموضوعات مثل البنى الاجتماعية في مملكة الحيوان (الديمقراطية في مملكـة الـنمل)، أو (الدكتاتورية في حياة الطيور الاجتماعية)، والأصول المشتركة بين الإنسان والقردة، والعلاقة بين الطبيعة والثقافة، وبالتالي بين العرق والـثقافة. أما سبب هذا الإيثار لأنماط التفسير المبني على علم الطبيعة فيوضحه سـعادة لقرائه، منذ الفصل التمهيدي للكتاب، إذ يضع الفهم الحديث للنشوء الـتطوري للأنـواع في مواجهـة قصة الخلق التوراتية. وعلى حين لا تستند الأخيرة إلا على الأساطير والحكايات الدينية، كما يقول، يثبت العلم نظرياته بالأدلـة والشواهد[33]. ويكون استنتاجه الضمني أنه لابد من أن ينطبق على تقريـر مصير الأمة. وبذلك يأخذ على القوميين اللبنانيين والعرب، ولا سيما المعاصرين منهم، الخلط بين الدين والسياسية وتقسيم الأمة بذلك.

وثمـة كـتابان يعدان ذي أهمية كبيرة من أجل احتجاج سعادة، ولذلك يـنقل عـنهما أيضـًا، بالتفصيل، في النص وفي الحواشي. وفي هذا الصدد

تـتعلق المسألة بكتاب (باول فيدال لابلاش: مبادئ الجغرافية البشرية/ Paul Vidal de la Blache, Principes de Géographie humaine (Paris 1922) وكـتاب (فريدريش هِرْتس العرق والثقافة، بحث نقدي في نظريات العرق/ Friedrich Hertz, Rasse und Kultur. Eine kritische Untersuchung der Rassentheorien, Leipzig 1925). ولا ينقل سعادة عن النصين في الأصل بل عـن ترجماتهما الإنغليزية. ويعد فيدال دي لا بلاش (1845-1918 م)، أحد الآبـاء المؤسسـين لعلم الجغرافية الاجتماعية والثقافية الفرنسي، وهو بنظر سـعادة، أهـم الشهود على انطباع الثقافة البشرية بطابع الجغرافية والبيئة الطبيعـية. ومـن هـذه المقدمات المنطقية ومن القياس على الدولة القومية الفرنسـية وخصوصـيات جغرافيتها، يشتق سعادة الأولوية المطلقة لوحدة سـورية الجغرافية، ويقول إنه بفعل التعايش الاجتماعي في بيئة جغرافية يتم اقتسامها بصورة مشتركة، كما ذكرنا آنفـًا تثبت حجته الرئيسة، وهي أن الأمة السورية كانت تنبثق عبر القرون وتتجدد[35].

ويشـكل كـتاب ‹العرق والثقافة› لفريدريش هِرْتس (1838-1964 م) الأسـاس، كمـا يشكل على ما هو ظاهر للعيان، مصدر المعلومات الأهم، للمناقشـة المفصـلة التي يخوضها سعادة، للنظريات المعاصرة في العرق[36]. وحتى عندما يتحدث عن منظرين في العرق، مثل غوبينو (Gobineau) أو هـ. س تشـمبرلين (H.S. Chamberlain) فهو يرجع على سبيل الحصر تقريبـًا، إلى هـذا الكتاب. وقد كان هِرْتس منذ عام (1930 م) إلى عام (1933 م) أسـتاذًا في علـوم السياسة الاقتصادية وفي علم الاجتماع بجامعة هاله[37]. وعـلى أساس أصله اليهودي سرحه النازيون، ثم هرب أول الأمر إلى فيينا، وفي عـام (1938 م) تـابع مسيرته إلى لندن، حيث عمل كاتبـًا علميـًا مسـتقلاً منذ ذلك الوقت فصاعدًا. وكما يشي بذلك عنوان كتابه الفرعي، فإن المسألة لا تتعلق ببحث تجريبي، بل بنقد للجدل المذهبي بين يدي موكب

انتصار النظريات العرقية في العلوم الاجتماعية الألمانية خلال العشرينيات، وهو نقد يتميز بالألمعية والظرف، ويركز على مواضيع يختارها بالتحديد. وفي هذه الأثناء يكشف هِرْتس عن التناقضات الداخلية في النظريات المختلفة، كما يكشف عن التعسف الذي يحاول ممثلوها أن يسوقوا الخصائص البدنية لينتهوا منها إلى «وحدات عرقية». غير أن هذه الخاصة، التي هي أقرب إلى الجدل المذهبي منها إلى صفة العلم التجريبي، يبدو أنها غابت كل الغياب عن ذهن سعادة. وعلى نحو مماثل بالضبط لما يحدث في الكتب الأخرى التي يجري الاستشهاد بها، يفصل أيضًا هذا الكتاب عن سياقه الصارم والمنطقي ويورده على أنه إثبات للمرحلة التي يصل إليها العلم.

أما من حيث المضمون فيعد سعادة وجود مجتمعات الأصالة والنسب (السلالات) أمرًا مسلمًا به ويشير إلى ابن خلدون الذي كشف، حتى في تعاليم أرسطو، عن أن هذه المجتمعات إنما انطبعت بطابع بيئتها الطبيعية والروحية[38]. ومع ذلك فالتصور القائل إن ثمة عرقًا يعد متفوقًا على كل الأعراق في مواهبه الفكرية يمكن تصعيد خصائصه، عن طريق «الحفاظ على نقاء العرق» تصور باطل، كما يقول سعادة، بموجب «براهين متعددة الجوانب» حيث يشير في الحاشية المقابلة، من جديد إلى هِرْتس[39]. ويقول إن المطالبات بحظر للاختلاط، إنما هي من أجل ذلك، إما أن تكون تعبيرًا عن وعي قبلي بدائي، كما هو الحال عند الوهابيين في شبه الجزيرة العربية. ويقول إن من الممكن أن يرى المرء، من خلال مثال اسبارطة، أن الانعزال أقرب أن يؤدي إلى انحطاط المجتمع منه إلى أن يؤدي إلى ارتقائه. وعلى النقيض من هذا تمامًا، كما يقول، تمثل الأمم: بالنظر إلى أصلها ونسبها . . مركبًا، أو مزيجًا، على نحو مماثل بدقة لما تكون عليه المواد الكيميائية التي يتميز بعضها من بعض تبعًا للأجزاء الداخلة في تركيبها وتبعًا للنسب الموجودة في المزيج»[41]. ويقول سعادة إن أفضل الأمثلة على ذلك، هي

الولايات المتحدة، والبرازيل، وسائر الدول الأمريكية. وبالنتيجة فإن تحسين الـمجتمع لا يكون ممكنـًا إلا عن طريق الاختلاط بين أجزاء سكانه في بيئة جغرافية محددة، واستغلال الموارد الطبيعية المتوافرة هناك[42].

وليس من الممكن أن نتبين تقبلاً صريحًا للأدبيات الفاشية أو النازية، كما يمكـن أن يقـال، في كتابات سعادة. وعلى حين يكون استعماله الأدبيات الغربية بعيدًا عن المنهجية من حيث المبدأ، يفضل مسايرة لميله، النصوص التي تـرجع إلى سياق أكاديمي وتتميز بسمة مفرطة في الصبغة العلمية. ولعل مما يتماشـى مـع بدهيته الأساس الخاصة بالوحدة المطلقة لسورية الجغرافية أن التقلـيد الفرنسي الخاص بالجغرافية الوطنية وفقـًا لفيدال دي لابلاش، بما تنطوي عليها من الاجتهاد في الكشف عن مؤثرات البيئة الطبيعية في الـمجتمع، أكثر إقناعـًا من الحديث الألماني عن العرق، الذي ينضم إلى نقاده فريدريش هِـرْتس بجماح فكره وقلبه. ومع ذلك يظل سؤال، أولا توجد آصرة قربى مباشـرة بين القومية عند الحزب السوري القومي الاجتماعي، على أساس تطرفه، والفاشية الأوربية المعاصرة.

3/6] مناوأة الشيوعية والنزعة العرقية

مـا من شك في أن المسألة في حالة الحزب السوري القومي الاجتماعي، كانـت تـتعلق بأيديولوجـيا مناقضـة لليبرالية تـ ع إلى الدمج العنصري والاسـتبدادي، إذ ينـبغي للفرد، كما تفيد طوباوية الحزب، أن يذوب في الإطار الجماعي للأمة، وأن يتخلى عن إرادته و«وعيه» (شخصيته، وإرادته، ووجدانـه). أمـا الحزب الذي كان يفهم على أنه صورة طبق الأصل لهذه الحالـة المثالـية، المستقبلية، فكان أعضاؤه ينتظمون في تراتب هرمي صارم، حيـث كـان كـل عضو يلتزم من خلال قسم شخصي، بعقيدة الحزب

وبالطاعـة المطلقة تجاه «الزعيم» (أي: سعادة) . وكان الحزب يفهم نفسه على أنه معارض للنظام، وهذا يعني أنه كان ينطلق من أن الأمة لا تستطيع، من دون حدوث انقلاب في النظام السياسي، وبل كل شيء، من دون سقوط الحدود القائمة في سورية الكبرى، أن تنتقل من حالة الغربة إلى مصيرها الحقيقي. وبناء على ذلك تعد الأيديولوجيا التمامية (integristic)، والتنظيم الصارم، ومعارضة النظام، من السمات الجوهرية التي تميز الحزب السوري القومي الاجتماعي من حيث كونه «متطرفًا في نزعته القومية».

وبنظرة إلى الأنظمة الفاشية في أوربة في الثلاثينيات والأربعينيات، يطرح نفسه سؤال: هل تتميز الفاشية والنازية من المتغيرات التقليدية في النازية بمجرد تطرفها فحسب؟، أم تراها أضافت إلى ال عة القومية شيئًا جعل منها شيئًا جديدًا من حيث الكيف؟. والتفكير في ال عة القومية التقليدية بأسلوب متماسك منطقيًا إلى النهاية، يعني فرض المصلحة القومية لا في الداخل فحسب، بل في الخارج مطلقًا. وبناءًا على ذلك، فعلى الصعيد الدولي ستكون العلاقة بالأمم الأخرى في أفضل الأحوال براغماتية، وفي أسوأ الأحوال قائمة على الخصومة والمعاداة، وأقصد ذلك في حالة تصادم المصالح القومية. غير أن الحركات الفاشية في أوربة أيام مابين الحربين أنشأت، كما يقول إرنست نلته في دراسته التي استشهدنا با منذ حين، من خلال البوادر ادعاء لحق شموليًا (Universalistic)، أي تقاربًا: أيديولوجيًا على الجانب المقابل، جانب الفوارق القومية. وكانت نقطة الانطلاق الخاصة بذه السمة المشتركة، وبالتالي، في الوقت ذاته، العنصر التكويني في الأيديولوجيات، الفاشية، بموجب فهمها، هي، لنفسها، رفض الماركسية رفضًا لا يقبل الحلول الوسط، وعلى وجه الخصوص فكرة المساواة الملازمة للماركسية والملازمة أيضًا للديمقراطية والليبرالية. وبذلك أدى الانتباه إلى الأيديولوجيات الفاشية المبنية على التشاؤم فيما يتعلق

بمسـتقبل الثقافة والحضارة إلى تفكيك الأمة من الداخل. ولذلك لم يتمثل الجـواب السياسـي الذي ردت به على نزعة المساواة هذه، في مجرد الإلغاء المعلـن للتـناقض بين العمل ورأس المال في مجمع «الشعب» الذي يترتب إنشـاؤه، بـل تمثل أيضـًا في نزعة نخبوية عنصرية، وفي نزعة إلى الحروب. وصـورة كـان يفترض أن تساعد مبدأ عدم المساواة على العودة إلى التمتع بحقه من جديد بالقوة.

وإلى جانـب معاداة السامية جاءت ال عة العرقية بمكونات جديدة كل الجـدة، في ال عـة القومية. ومثلما بينت هنّا أرندت (Hanna Arendt) في دراستها ال عة الشمولية، حول تراث الأفكار الشعبية ال عات القومية وسط أوربة، الحركات المشاكلة للدولة بطريقة تقليدية إلى حركات ثورية توجهت في النهاية ضد مؤسسة الدولة القومية ذاتا. وهكذا طالبت الحركات الشعبية في أيـام مـابين الحربين، من دون مراعاة للحدود القائمة والنظم السياسية، باستبعاد جزء من مواطني دولتها، هي، وتجريدهم من الحقوق وبأن يتم، بدلاً مـن ذلـك، إدخال أجزاء من سكان الدول الأجنبية، في هذه الدولة، على أساس شعبي، وبالتالي، على الأساس العرقي وحده.

وفي سـياق هذه النظرية العرقية العنصرية، إلى العالم، تم في ألمانيا النازية إعـلان أن اليهود هم الأعداء الرئيسون، فاتموا بوجود رابطة تجمع بينهم وبـين كـل الدول المعادية، كما اتموا بأنم مسؤولون في الوقت ذاته عن الاستغلال الرأسمالي، واتموا فوق ذلك كثيرًا بعد، بمسؤوليتهم عن الماركسية حيـث تم بذلـك إنشـاء ارتباط وثيق مباشر بين معاداة السامية ومعاداة الشـيوعية[44]، وبيـنما كانـت معاداة السامية في بلدان كفرنسا وإيطاليا وإسبانيا تتغذى قبل كل شيء من مصادر تقليدية كاثوليكية، كان اليهود في إطـار نظـرية العرق النازية يجري تقرير أوضاعهم الاجتماعية بالاستناد إلى التعليلات البيولوجية على أنم عناصر تلحق الأذى بجسد وبذلك يجردون من

الصـفة البشـرية. وتعد إرادة الإبادة المطلقة لدى النظام الألماني النازي تجاه اليهود، كما ذكر في التمهيد أيضـًا ، فرقـًا جوهريـًا

ولم تكن معاداة السامية والا عة العنصرية، في مقابل ذلك، جزءًا لا يتجزأ مـن أيديولوجـيا الحزب السوري القومي الاجتماعي، ولقد بينا منذ حين أن تمسـك سـعادة المطلق بمفهوم الأمة السورية المرتبط بالأرض، كان يقف في مواجهـة تقبل النظريات العنصرية، وكانت هذه تلقى الرفض من قبله أيضـًا بصـريح العـبارة. ولأسـباب أخرى لا تلعب معاداة السامية لديه إلا بعدًا هامشـيـًا بدرجـة كبيرة[45]. وخلال الثلاثينيات والأربعينيات التي انطبعت بـتأثير الطور الأخير من حكم الانتداب وكذلك بالتنازل لتركيا عن سنجق الإسـكندرون والهجـرة الصهيونية المتواصلة إلى فلسطين، لم يجر الانتباه، في صـفوف الجمهور، لا إلى الاتحاد السوفييتي ولا إلى الحزب الشيوعي السوري الناشـئ، على أنهما تهديد فعلي للأمة. والحق أن معارك الشوارع التي كانت تنشـب بـين مـنظمات الشـبيبة والشيوعيين، والوطنيين، في الثلاثينيات والأربعينـيات كانـت تدخل في نظام الحياة اليومية. غير أن هذا لم يجعل من المادلـة الماركسية عنصرًا مركزيـًا للأيديولوجيا والدعاية القوميتين. بالطبع، كان هؤلاء يأخذون، في أبكر المراحل، وبأعلى الأصوات، على الحزب، وعلى زعـيمه، نـزوعهما إلى الفاشية[46]. ولكن بينما كانت الحركات الفاشية في أوربـة تجد التجاوب الجوهري معها لدى فئة المواطنين المعذبين بسبب البطالة والركود والمخاوف من تردي الأوضاع، كان القوميون المتطرفون والشيوعيون في الشـرق الأدنى، عـلى السواء، يمارسون جاذبيتهم ببعث الآمال بنهوض الشباب، ذوي الثقافة والتعليم الحسن، والطبقة الوسطى الجديدة، التي تستهلك بفكرة الإصلاح، مع تعلقها بالنظريات العلمية والتصريحات العالمية الشاملة[47].

وبمنظور أنطون سعادة لا تشكل الشيوعية، بل الطائفية، الخطر الأكبر إلى حـد بعيد، على وحدة الأمة، إلى جانب التشظي الإقليمي والحكم الأجنبي

الـذي طـال قرونـًا، وهي سبب جوهري لحالة الاستغراب الراهن الذي تعانـيه. ومن بين مبادئ الإصلاح الخمسة التي يطرحها على الحزب، تتوجه الثلاثة الأولى منها، وحدها إلى هذا السؤال بينما يتوجه المبدآن الأخيران، من ناحـية أخـرى، نحو إلغاء «الإقطاعية» مثلما يتوجهان نحو تنظيم الاقتصاد الوطني، ومن ناحية أخرى، نحو إنشاء «جيش قوي»[48]. أما المبادئ الثلاثة المذكـورة التي تتخذ من الطائفية موضوعـًا لها، فتهدف إلى جوانب ثلاثة متباينة في كل مرة، وهي برأي سعادة جوانب أساس في المشكلة. أما المطلب الأول المتمـثل في الفصل بين الدين والدولة، فيسوغه باستحالة إنشاء الدول في العالم الحديث على أساس ديني[49]. فالخلافة والكنيسة اللاتينية لم تصمدا مـن حيث هما دولتان سياسيتان لأن المصالح المشتركة بين المؤمنين إنما هي آخـر الأمـر مـن النوع الروحي، لا السياسي أو المادي. وفي إطار المبدأ الإصلاحي الثاني، يطرح مطلب حظر تدخل رجال الكهنوت وحملة الألقاب والمراتب الدينية (رجال الدين)، وفي المبدأ الثالث يطرح مطلب القضاء على الحواجز بين الطوائف والمذاهب الدينية ، إذ إنها تقف عقبة في طريق الوحدة الوطنية. ثم إن الأهمية الهائلة التي ينسبها سعادة للطائفية تنعكس بوجه خاص في أصـلها اللبناني وهي أيضـًا سبب من الأسباب العديدة التي يرجع إليها اسـتمرار حضور الحزب حتى اليوم، ولاسيما في لبنان. فليس هناك بلد آخر توجـد فـيه فـروق طائفـية تتمـتع بمثل هذه الديمومة والبقاء، وتحدث الاضـطرابات والقلاقـل ذات الخطورة مثلما يحدث هنا، وما من بلد آخر تنطـبع فـيه الثقافة السياسية بطابع هذه الفروق. بمثل هذه القوة، فالنظام السياسـي والإداري المـبني عـلى تعداد الطوائف والذي جرى تنفيذه في منتصف القرن التاسع عشر، وليكون حلاً اضطراريـًا، مازال ساري المفعول حتى اليوم. وما من شك في أنه أدى إلى تخليد أسباب المشكلة أكثر مما قضى عليها، وأثبت أنه كان، فوق ذلك بعد، بالغ الجمود والتصلب حيال التبدل

السـكاني. ولكن حتى دول الشتات (أو المهجر) في شمالي أمريكا وجنوبا، كانت الطائفية ظاهرة اجتماعية وثقافية متغلغلة فيها، وكان كثير من الناس يحسون أنا مشكلة[51].

وإذا كـان سعادة يرى في الطائفية الشر المستطير في التاريخ السوري، إذ كان يجعل الاندماج الثقافي والاجتماعي في الأمة، صعبـًا. ولكن منذ القرن التاسـع عشر، كما يقول محتجـًا، ازدادت حدة المشكلة فوق ذلك. فمن ناحية أولى، كانت الطائفية تفتح على الدوام، لدول الاستعمار الغربية بابـًا للإغارة على البلد، لتتدخل بصفتها قوة حماية تعّين نفسها بنفسها، للأقليات الدينـية، في الشـؤون الداخلـية لسـورية. وفي الوقـت ذاته يقول إن الأيديولوجـيات ذات الـ ـعـة القومـية الزائفة، كانت تتكون على أساس طـائفي، وكانت تقف على طرف النقيض من الأمة السورية، التي تم إثباتا علمـيـًا. ويقول سعادة إن الطائفية، والتدخل الاستعماري وغياب الوعي القومـي، وبالـتالي غربته، كن يشكلن سياقـًا من أجل التأثير يهدد الأمة السـورية في وجودهـا. وبناء على ذلك يحتج بأن القوميين اللبنانيين كانوا يـتابعون في الحقيقة مصالح مارونية صرفة، ويخدمون، على وجه الخصوص، مصـالح فرنسا في الإقليم. ويقول إن القومية العربية لا تعد، في مقابل ذلك شـيئًا آخر سوى شكل جديد من الـ ـعة الإسلامية السنية، وإنا ترتبط فوق ذلـك، بالمطـامح التوسـعية للأسرتين الحاكمتين الهاشمية والسعودية[53]. وباسـتثناء ذلك، يقف موقف البعيد كل البعد عن انتقاد الدعاية الإسلامية الـتي تبثها دول المحور. ويخطئ، في هذه الأثناء، كل الخطأ، إذ لا يتبين له أن هذه الدول كانت تحدوها المطامع الاستعمارية لإيطاليا في البحر المتوسط[54].

ويمكـن أن نقول بعبارة أخرى، إن أهم الأخطار التي كانت تدد الأمة السـورية، كما يتبين لسعادة، لا يتمثل في الماركسية، ولافي المؤامرة العالمية الـيهودية، بل في التقليد المحلي المرتبط بالطائفية. لقد كانت الطائفية بمنظوره

المـثال المركـزي لكـي يعلن، أولاً، غياب انغلاق الأمة، وثانيـًا لسحب مشروعية القوميات المتنافسة، ولكي يشوه، ثالثـًا سمعة هذه القوميات على أنـا طابور خامس للدول الأجنبية. وفي مواجهة هذا قدم الحزب السوري القومـي الاجـتماعي نفسه، على أنه الحزب الوحيد في سورية الذي يعد متحررًا من كل المؤثرات الفكرية والمادية للدول الأجنبية.

6/ 4] اليهودية والصهيونية

كان سعادة قد حذر، منذ السنين الأولى، من التهديد الذي كانت تعنيه حـركة الاسـتيطان الصهيونية، غير أنه كان يدخل في هذا الباب أيضـًا التـنازل عـن لواء الإسكندرون لوحدة أراضي سورية الجغرافية، وبالتالي أيضـًا، بالنسبة لمستقبل الأمة السورية[55]. ولكن بمقارنة هذا مع كتاباته التي كانت تعترض على الميول الطائفية في دول الشتات (المهجر) وفي الوطن تعـد مقالاتـه في هـذه المسائل أقل غزارة. على أن هذه النسبة لا تسمح بالضـرورة باستنتاج مدى الأهمية التي كان سعادة يعلقها على الإسكندرون وعـلى القضية الفلسطينية، غير أنا تبين أنه مثلما يكون كل ثوري حقيقي ينطوي على قناعة مؤداها أنه لابد في البداية من محاربة العدو الداخلي قبل أن يكون من الممكن الدفاع الفعال عن الأمة في مواجهة أعدائها الخارجيين.

أمـا إذا نظرنا إليها من حيث المضمون، فقد كانت ملاحظة سعادة ذات المـيول السلبية، لليهودية وهجماته الضارية مطلقـًا على الصهيونية، تتصدى عـلى نحو كامل للمثال الموصوف آنفـًا: التحالف غير المقدس بين الطائفية، والاسـتعمار والقومـية ذات الـ عة الطائفية. ولأسباب سبق أن نوقشت تعد معـاداة السامية العرقية في النازية الألمانية غريبة عنه مع ذلك. وهو ينكر على اليهود بصريح العبارة، أن يكونوا مجتمعـًا يجمعه أصل واحد، يرجع إلى عرق

واحـد، أو حتى أن يكونوا أمة: لقد حافظ اليهود على يهوديتهم الجامدة من حيـث كونها مذهبـًا دينيـًا، وكانت ديانتهم الشخصية تضفي عليهم صفة العصـابية (الشـعور بالانـتماء إلى مجـتمع واحد) التي لا يسيء فهمها إلا أولوا الخرق والأحكام المسبقة على شعور قومي بالانتماء إلى مجتمع واحد:

الـيهود ليسوا أمة أكثر مما هم سلالة (وهم ليسوا سلالة مطلقـًا)، إنهـم كنيس وثقافة. لا يمكننا ان نسمى اليهود أمة أكثر مما يمكن أن نسـمي المسـلمين أمة والمسيحيين أمة أو السنيين أمة والشيعة أمة والأرثوذكـس والكاثولـيك أمـة . . إلخ. ولجميع هذه المذاهب عصبياتها وتقاليدها التي تتميز بها[56].

ويقول سعادة أنه «بالمعنى الموضوعي العلمي» ما كان اليهود ليشكلوا أمة عـلى الإطلاق، ما داموا يفتقرون إلى الأرض المشتركة الضرورية من أجل إخـراج الشخصية القومية وإلى المصالح القومية المشتركة[57]. وبرأي سعادة ليس هناك شك في أن اليهودية من حيث هي دين، تمثل أساسـًا ومنطلقـًا لكلـتا الديانتين الآخرتين التوحيديتين، غير أن التشريع عن طريق موسى لم يتهيأ له أن يحدث إلا بعد الهجرة من مصر، وفي ظل المعطيات الجغرافية للبيئة السورية، وتحت تأثير التقاليد الحقوقية السورية-الكنعانية[58]. وبعد طردهم من فلسطين على أيدي الرومان تجمدت الديانة اليهودية مع ذلك (ما سبق) وتحولت إلى سمة مميزة حصرية لمجتمع هو في العادة قبلي. ويقول إن اليهودية تظل تقف، في تطورها، بالتالي، دون مستوى الإسلام في شبه الجزيرة العربية[59]. فالشـريعتان الموسـوية والمحمدية، كما يقول سعادة، تتماثلان في الأساس وتستندان إلى الأساس ذاته[60]، أما صرامتهما وعنصر القسر وعدم المرونة فيهما فهما خليقتان أن تتماشيا، في هذه الأثناء بالضرورة مع ظروف مجتمع قبلي، نصـف متحضر، ومع ذلك فهذه الأمور غير قابلة للتوفيق بينها وبين مجتمع سوري أكثر إيغالاً في التطور.

وعلى النقيض من اليهودية كان الإسلام، على كل حال، يتمسك بادعاء الحق في الصفة العالمية. ويقول سعادة إن «الهجرة اليهودية إلى فلسطين»، وسعادة لا يفرق بين مفهومي اليهودي والصهيوني على نحو منهجي، أمر غير مقبول للأمة السورية، ولا سيما حين تصبح سيادتنا من جراء ذلك، على ترابنا الوطني، موضع الشك والتساؤل. وكان سعادة تساوره فوق ذلك هواجس فيما يتعلق بمقدرة المهاجرين اليهود على الاندماج في سائر المجتمع:

> **إن في سورية عناصر وهجرات كبيرة متجانسة من المزيج السوري الأصلي، يمكن أن تضمها الأمة إذا مر عليها الزمن الكافي لذلك، ويمكن أن تذوب فيها وتزول عصبياتها الخاصة. وفيها هجرة كبيرة لا يمكن بوجه من الوجوه أن تتفق مع مبدأ القومية السورية هي الهجرة اليهودية. إنها هجرة خجرة لا يمكن أن تضم، لأنها هجرة شعب اختلط مع شعوب كثيرة، فهو خليط متنافر خطر وله عقائد غريبة جامدة، وأهدافه تتضارب مع حقيقة الأمة السورية وحقوقها، وسيادتنا، ومع المثل العليا السورية تضارباً جوهرياً. وعلى السوريين القوميين أن يدفعوا هذه الهجرة بكل قوتهم[61].**

أما رفض سعادة التفريق بين اليهودية والصهيونية، فمسألة ترتبط عنده بتحقيقه أنه يأبى أن يعترف بالصهيونية على أنها ند للقومية، وإن كانت منافسة لها. ولما لم يكن هناك أمة يهودية كما كان يرى، فإنه لا يمكن أن يكون هناك وجود لقومية يهودية ويقول: ولكن الصهيونية الموجودة في الواقع إنما هي على غرار القومية اللبنانية والعربية، تعبير عن وعي طائفي تقترن بعقائد جامدة فريدة في نوعها. وفي هذا الصدد يعترف سعادة مطلقاً بأن هناك "فريق من اليهود الراقين" تقاوم الصهيونية «من أجل اليهود ومن أجل البشرية» غير أنه يحذر السوريين من الاعتماد على هذه الفئة بدلاً من أن يكونوا بأنفسهم عناصر فاعلة ضد الهجرة الصهيونية».

وقـد وصـف سـعادة، في عام (1925 م)، في أول مقال طويل له عن الصـهيونية مـن حيـث خطرها الخصوصي تنظيمها. فالانضباط الصارم، والرسـم الواضح للأهداف، والتصرف الفاعل على الصعيد الدولي، أمور لا تشكل بنظره عناصر لنظرية شاملة لمؤامرة تتشكى قبل كل شيء من عجزها هـي، هـي بالأحرى، ولكنها تحديات، وأنموذج يحتذى به من أجل العمل السياسـي، الخـاص بـهم. ويسـتنتج سعادة، في هذا السياق، أن الحركة الصـهيونية حققـت لتوها بفعل تنظيمها أوجهـًا من النجاح غير مألوفة، وسوف تفعل هذا في المستقبل أيضـًا، ما لم تتصد لها «حركة منظمة تقف في وجههـا»[63]. وفي هذه اللحظة كان قد بدا بالفعل بالشروع في إنشاء تنظـيم حـزبي سري بين صفوف أصدقائه في المهجر البرازيلي. وفي وقت متأخر، بدرجة جوهرية، في عام (1944 م)، أبلغ سعادة قراء صحيفة الحزب (الـزوبعة) [الـتي تصـدر في بوينوس ايريس] بالتفصيل، بالجهود الناجحة للصـهاينة، مـن أجل إنشاء جيش خاص بهم في فلسطين، يستخدم طرائق الحـرب الحديـثة، ويكون مستقلاً كل الاستقلال، أو لا يكون تابعـًا إلا لقـيادته هـو[64]. ولم يكن من الجائز أن يظل خافيـًا على عضو الحزب المدرب المتمرس في هذه الأثناء، أن الحزب السوري القومي الاجتماعي كان يطالـب في مبدئه الإصلاحي الخامس على وجه الدقة، بما كان الصهاينة في فلسطين قد حققوه تقريبـًا وهو تنظيم جيش قومي حديث قوي.

5/6] تنظيم الحزب والرموز

وبـناء على ذلك كان «النظام» و«التنظيم» مفهومين مركزيين في فهم الحـزب لذاته ولمؤسسته. وما من شك في أنهما لم يكونا مجرد رد فعل على الـتحدي الصهيونية، بل كانا يفيدان، فيما يفيدان، في رسم الحدود الرمزية لفهم السياسة التقليدية التي كانت ترسمها النخبة الحاكمة المكونة من الوجهاء

وائتلافاتم السياسية التي يغلب عليها عدم التماسك، والتي هي أقرب إلى أن تقـوم عـلى العلاقات الشخصية منها إلى أن تقوم على أسس أيديولوجية واضحة. وفي مقابل هذا لم يكن الحزب السوري القومي الاجتماعي وحده أنموذجـًـا، بـل قدمـه أيضـًـا الأحزاب الأخرى، ذات الـ عة الوطنية والاشتراكية، وبالتالي الأحزاب الشيوعية، إذ أصبحت المدينة الفاضلة الخاصة بالـتمع الذي يترتب تنظيمه في المستقبل وفقـًـا لمعايير عقلانية وأيديولوجية، على يد منظمة حزبية مركبة بوضوح ومدربة تدريـبـًا عقائديـًـا، ملموسة في الوقـت الحاضـر، وجعلت ممكنة الإطلاع عليها. وبعبارة أخرى باتت المـنظمة الحزبية ينظر إليها على أنا نواة المنظمة المستقبلية، أي منظمة الأمة الـتي انبعثت من جديد[66]، وعلى هذا يشير عنوان صحف الحزب البيروتية المـأخوذان مـن الأربعينيات، (النظام الجديد) و(الجيل الجديد)، ومن ناحية أولى، إلى الفـرق في سياسة النخبة الحاكمة، في الوقت الحاضر كما يشيران مـن ناحـية أخـرى إلى الاستبشار الاحتفالي لدى الأمة المحدثة، التي اشتد عضدها من جديد بالمستقبل[67].

وحـتى عـندما كان الحزب ومؤسسه يكررون مرارًا أن تنظيم الحزب وأيديولوجيـته من أصل سوري حقيقي، يترتب علينا أن نفترض أنه كانت توجـد مؤثـرات من الخارج. حتى وإن كان من النادر إثبات حالات من الأخذ المباشر عن الخارج بل يمكن الكشف في كل الأحوال عن أشكال من المماثلة والعلاقات المرتبطة بالتأثر والمفعول. ولقد تمت الإشارة إلى أمثال هذا النوع من سياق التأثير، حين تم بيان أن القوميين السوريين كانوا ينظروا في الحقـيقة إلى الحـركة الصهيونية على أنا تديد، غير أنم كانوا يشعرون بما يستحثهم، من جراء ذلك في الوقت ذاته، إلى بذل مجهودات تنظيمية مماثلة.

وكـان ثمة مؤثرًا آخر في محيط سعادة المباشر، يرجع أصله إلى الماسونية. وذلك أن والد أنطون، خليل سعادة، كان على مدى سنوات طوال، عضوًا

في المحافل الماسونية المختلفة وأصبح منذ بداية العشرينيات، آخر الأمر رئيس المحفل السوري (نجمة سورية)، في سان باولو. وخلال ولايته رئيسـًا، دخل أنطـون أيضـًا المحفل في عام (1925 م)، وسرعان ما عين أمين سر لها[68]. وبعد عام ونصف، أنهى الأب وابنه مع ذلك التزامهما تجاه الماسونية برسالتين مفتوحـتين في كـل مرة. وكانت الخلفية هي رفض أكثر أعضاء المحافل أن يـتخذوا موقفـًا سياسيـًا حيال المسائل الوطنية. ومنذ هذا الوقت يظل ما يستحق الذكر أن سعادة يجعل من الحفاظ على السرية، أهم مبدأ من مبادئ التنظـيم، في كل محاولات تأسيس الحزب. وهذه الخصوصية التي يتسم بها الحـزب السوري القومي الاجتماعي لا ترجع إذًا بصورة مباشرة إلى ضغط اضـطهاد سـلطات الانتداب الفرنسي في سورية ولبنان السياسي، بل تجد اصلها في التجاريب السالفة مع الماسونية في البرازيل. وبينما انارت المنظمة الأولى التي بعثت فيها الحياة، عام (1926 م)، في سان باولو، من قبل سعادة، عـلى صـخرة هذا المبدأ بدقة[69]، وفق آخر الأمر، إلى فرض سرية الحزب السـوري القومـي الاجـتماعي الناشئ اعتبارًا من عام (1932 م)، إلى أن كشفت سلطات الانتداب الفرنسية عنه عام (1936 م).

أما المعاصرون، فكان ما هو أكثر لفتًا للأنظار بالقياس إليهم، مع ذلك، أشـكال التماثل الكبرى بين الحزب السوري القومي الاجتماعي والمنظمات الفاشـية في أوربة، وذلك في الحقيقة على صعيد رمزي وتنظيمي. والحق أن أنطـوان سـعادة وحزبه كانوا يتنازعون أيضـًا فيما يتعلق بهذا، في صدد استهدائهم بالنماذج الأوربية التي يحتذي بها، غير أن الاستلهام غير المباشر هو أول ما يرد إلى الأذهان على الأقل. ومازال الحزب يستخدم عاصفة الزوبعة الحمـراء على أرضية بيضاء، مع تأطيرها بإطار أسود رمزًا للحزب. ومثلما كانت السواستيكا النازية (الصليب المعقوف) وكذلك كانت الزوبعة تدور في اتجـاه عقارب الساعة، وتقف على واحدة من ذؤواباتها، ولكن هذه لا

تكـون معقوفـة، كما هو الحال في الصليب المعقوف، بل تكون مستديرة. عـلى أن للتفسير الأكثر رواجـًا وتداولاً، الذي قدمه سعادة، لهذه الشارة هما انصهار كلا الرمزين الرئيسيين التوحيديين، (الهلال) والصليب، ليشكلا اتحاد شعبي بعد التخلص من الفروق الدينية[70]. وكان سعادة قد فصل القول في هذه الفكرة من الناحية النظرية فيما بعد في أثناء الحرب العالمية الثانية، في كـتابه الـذي أتينا على ذكره آنفـًا، وهو ‹الإسلام في رسالتيه المسيحية والمحمديـة›. ولكن يجب أن نفترض أن كلاً من المسيحيين والمسلمين على السـواء كانوا أقرب إلى أن يوجهوا هذا النوع من الـ عة التوفيقية مواجهة ريبـبة، وكـان أعضاء الحزب أنفسهم أقرب إلى أن يربطوا شعار الحزب بالـ عة القومية المتطرفة بدلاً من أن يربطوه بدلالات دينية.

أمـا الحجة القائلة إنه في حالة (الزوبعة) فالمسألة لا تتعلق بعملية اقتراض مـن الحركات الفاشية في أوربة، فهي أقل إقناعـًا عندما ينظر المرء في هذا الرمـز في سـياق الممارسـة السياسية في الحزب، وباجتماع الحلل الحزبية الموحدة وما يسمى بالتحية السورية القومية الاجتماعية (عاشت سورية، تحيا سـورية، يحيا سعادة) ورفع الذراع اليمنى تنتج توليفة رمزية ولن يكون من قبـيل المصادفة مماثلة ذلك للفاشيات الأوربية. فهنا كما هناك، كان يجري تعلـيق القـيمة الأكبر على الإطلاق على تفاصيل كل عملية من عمليات الإخـراج عـلى حـدة، وهي العمليات التي لم يفتقد تأثيرها لدى المراقبين والمشاركين على الأغلب. وإن كثيرًا من أعضاء الحزب السالفين ليتذكرون، ولم تفـتر عزيمتهم على نحو يبعث على الدهشة، الطاقة الإيجابية، والدينامية والانضباط في أمثال هذه الأحداث، وكذلك أيضـًا حال الباحث السياسي الفلسطيني الأمريكي في أول سيرة ذاتية له ‹اللهيب والرماد›:

كـنا [أنطون سعادة وهشام شرابي] دومـًا عندما نصل إلى مكان الاحـتفال نجـد جمعـًا حاشدًا ينتظرنا خارج الدار. كان القوميون

يـنظمون حرس شرف ويؤدون التحية الحزبية. كنت أسير خطوات قلـيلة خلـف سـعادة، فـأرى عيون القوميين المصوبة إليه، وهو يستعرضـهم، رافعًـا يـده بالتحـية. في نظراتم كنت أرى العزة والكـبرياء. وكـان هو عندما يقف ليخطب بم، يرى أمامه أبطالاً مقـاتلين، منقذي الأمة الوحيدين.. كانو يستمدون من الثقة بالنفس وكان يستمد منهم الثقة بالحزب[71].

فـلا لبيـب زويـة يمق، ولا هشام شرابي، وكلاهما من أعضاء الحزب السالفين، وفيما بعد، من الباحثين في السياسة في الولايات المتحدة، أشارا إلى الحزب السوري القومي الاجتماعي، مع ذلك، في نظرة إلى الوراء، على أنه فاشسـتي[72]. وهذا ينطبق أيضـًا على المنشقين الآخرين، ذوي العدد الجم الذيـن كـانوا يخرجون على الحزب على الأغلب. وإذا كانوا إما لا يتقبلوا سلطة سعادة غير المحدودة، أو كانوا يجنحون إلى القومية العربية، أو اللبنانية[73]. وعلى الرغم من الاكتساب البادي للعيان، للأقوال الرمزية الخاصة بالفاشية، يمكـن أن يقال إن الحزب وفق إلى أن يقنع أتباعه هو على الأقل بأن يفهموا هذه القومية على أنا تعبير صادق أصيل عن أيديولوجية الحزب، لا على أنا محاكاة للنماذج الأوربية. وفي مقابل ذلك خلال خصومهم الأكثر حدة غير مـتأثرين إلى حـد بعيد، ببيانات الحزب، وكانوا يجدون في الظهور العلني للحزب حججـًا إضافية أيضـًا لمأخذ الفاشية الذي يؤخذ عليهم.

وبصـرف الـنظر عـن الصعيد الرمزي، كان الحزب السوري القومي الاجـتماعي يحـاكي الأحـزاب الفاشـية من الوجهة التنظيمية على الأقل؛ تقسـيمات أعضـائه المبنـية عـلى التراتب الهرمي الصارم وتأكيد متشدد «الانضـباط» و«المسـؤولية» عند الأعضاء، والسلطة المطلقة أو السلطة غير المحـدودة، للزعـيم أنطون سعادة. وكان هذا قد نظم في كتابه ‹التعاليم› وفي (تعاليم الحزب ودستوره)، عملية إنشاء الحزب، حتى في التفاصيل. وكان بين

ذلـك أيضـًا، نص القسمين الذين كان يؤخذ بما على عضو الحزب وعلى زعـيم الحـزب، في كل مرة وعلى نحو متبادل، عهد الولاء والتبعية، وبالتالي عهد القيادة والزعامة[74]. أما ادعاء الحق في قيادة الحزب، واللقب الذي تماشى معها وهو لقب (الزعيم) فقد أكده سعادة منذ محاولاته الأولى لتأسيس الحزب عـام (1925 م)، في سـان باولو[75]. وسوغ هذا منذ ذلك الوقت بضرورة ضمان وحدة التشريع والتنظيم والقيادة، في الحزب، عن هذا الطريق، وأن من الواجـب أن تظل هذه الأمور داخلة في إطار حق التصرف العائد للمؤسس، وحده. وعندما أخذت على الحزب في عام (1941 م) من قبل صحيفة الهدى المارونـية في الـبرازيل، مشابة للحركة النازية، جادل سعادة في هذا بالحجة القائلـة إن هـتلر تسلم حزبـًا كان من قبل قائمـًا، على حين أن الحزب السوري القومي الاجتماعي أنشأه هو نفسه[76]. وفي صدد الحديث عن حزبه الخاص يكتسب أسلوبه في البيان مسحة تكاد تكون دينية:

> **وسبب هذا القول الجهل الفاضح وحده. والحقيقة أن لا وجه للشبه بـين حصر السلطة في زعيم الحزب السوري القومي إلا في الصورة الخارجـية فقط. أما الأسباب فمختلفة إذ إن زعيم الحزب السوري القومي معلم شارع ومصلح أوجد الدعوة القومية الإصلاحية بنفسه لم يشـاركه في ذلك احد، وكل أتباعه هم في محل تلاميذ له، وحصر السلطة فيه هو من باب التأمين على دعوته وعمله الإصلاحي[77].**

وفي مقابل ذلك أكد خط احتجاجي آخر، في الحزب، أن فساد الشعب قد بلغ من شططه أن يحتاج إلى شخصية تحررت هي ذاتا من هذا الانحلال والـتداعي، ولا بد من حماية هذه الشخصية، من جانبها «بضمان السلطة» من شر فساد الشعب، وليس العكس، أي: بحماية الشعب من مصلحه[78]. أما في الواقع قد كان الحزب السوري القومي الاجتماعي وسعادة قد أنشى، حـتى في أيام حياة هذا الأخير، عبادة للشخصية على نحو لم يكن معروفـًا

حتى ذلك التاريخ في العالم العربي. وحين عاد عام (1947 م) من منفاه، في أمريكا اللاتينية إلى بيروت، حج مئات من الأعضاء في الحزب، ومئات من المتعاطفون معه، في مزاج كمزاج من رأى المسيح المنتظر، إلى المطار لاستقباله. ويتذكر مصطفى عبد الساتر، وهو عضو سابق في الحزب، هذا الحدث، على النحو التالي:

> **كان ذلك اليوم مشهودًا تقاطر في عشرات الألوف إلى مطار بيروت القديم في بئر حسن، مرحبين بالرجل الذي قاوم الاستعمار في أوج جبروته. كانوا يرون فيه الربان الوحيد المنتظر لقيادة السفينة وتوجيهها في الاتجاه الصحيح، بعد خيبات الأمل المريرة في حكام عهد الاستقلال، الجديد-القدامى، ومع بواد العاصفة الهوجاء التي كانت تتجمع في الأفق للنقضاض على فلسطين[79].**

وبموت سعادة انتهت أيضًا الآمال المعقودة على هذا المسيح المنتظر والتي كان كثيرون قد عقدوها على شخصه وعلى الحزب، فجأة. وفي الحزب السوري القومي الاجتماعي تحولت ذكراه إلى أيقونة، على حين ما عاد يجري الإقرار بلقب الزعيم على قادة الحزب اللاحقين. وإذا نظرنا إلى المسألة من الوجهة التاريخية فقد كان أنطون سعادة على الأرجح أول زعيم ذو هالة شخصية في منظمة قومية في الشرق الأدنى[80]. وبينما كان يعمل جاهدًا على تسويغ ادعائه الحجة العلمية على وجه الخصوص، كانت الممارسة السياسية في الحزب تستخدم جزئيًا عناصر دينية كان يتم في هذه الأثناء فصلها عن سياقها التقليدي وإخراجها وحدها. وكان مطلب «الإيمان» بمذهب الحزب والاستعداد للتضحية، وجاذبية الآمال في الخلاص السياسي، يخاطب قبل كل شيء التوقعات العريضة للطبقة الوسطى الناشئة، الطامحة إلى الارتقاء، بثقافتها التي تتجاوز المستوى مثل (الزوبعة) المذكورة آنفًا، إحساسها بشيء غير مفهوم، إن لم يكن من قبيل الهرطقة. وقد

كانـت دراسـة أدق للبرنامج الحزبي للحزب السوري القومي الاجتماعي أقـرب إلى أن تـزيد مـن قوة هذا الانطباع لدى معظم هؤلاء الناس على الأرجـح، منها إلى أن توهنه. ومع كونه بعيدًا بعدًا شاسعـًا عن أن يكون حـركة جماهيريـة شعبية، ظلت فعالية هالة الزعامة عند سعادة، السياسة الرمزية لحزبه، وقوة الجاذبية في أيديولوجيته راجحة غالبة على وسط المدارس الثانية والجامعات مقصورة على بلدان سورية الجغرافية خلال تلك الحقبة.

6/6] النتيجة

وفي الحقبة الواقعة بين الحربين العالميتين، نشأت في الشرق الأدنى سلسلة مـن الحـركات والأحزاب ذات الـ عة القومية المتطرفة، كانت تقوم على الأرجح، على كواهل الشباب والطبقة الوسطى الجديدة ذات الثقافة الحسنة. وكانـت تمـاثل، في تصـويرها الذاتي الرمزي، وفي بناها الحزبية الداخلية، المـنظمات الفاشية في أوربة، وكانت تجر على نفسها، من أجل ذلك، على الأغلب، المأخذ الذي يفيد أنا كانت الممثل السياسي لدول المحور في الشرق الأدنى، وكانـت أولى هـذه المنظمات الحزب السوري القومي الاجتماعي الذي أسسه عام (1932 م) أنطون سعادة في بيروت.

ومـع ذلـك فالنظرة الأدق في سيرة سعادة وكتاباته تكشف عن أن ما أخـذه عـن الفاشـية الأوربية ظل مقصورًا إلى حد بعيد على المكتسبات الرمزية. وعلى أساس إقامته الطويلة الأمد في الشتات السوري (المهجر)، في أمـريكا اللاتينـية، وتعلمه الذاتي بطريق المباشرة والاقتحام، كان تعامله مع التـيارات الفكرية في أوربة من ناحية، توفيقيـًا بدرجة شديدة، ومن ناحية أخرى، مطبوعـًا بطابع الجهد الهادف إلى تسويغ نظريته الخاصة في القومية، تسويغا علميـًا لا سياسيـًا. وبينما كان تصور الوحدة الضرورية لسورية

الجغرافـية يدخل في باب القناعات البدهية السائدة في الوسط الخاص بالروم الأرثوذوكس وفي وسط السوريين في بلدان المهجر، وجد من أجل ذلك في كـتابات الباحث في الجغرافية القومية الفرنسي، فيدال دي لابلاش، تأكيدًا "علمـيًـا" مقـنعـًا. والحق أن سعادة تعرض بالمناقشة المفصلة للنظريات العرقـية السائدة في ألمانيا في تلك الحقبة، غير أنه انضم إلى ناقدها فريدريش هـرتس، بالحجة القائلة إن ما يستحق أن نرغب فيه ليس المحافظة على نقاء العرق، بل اختلاطه داخل إقليم جغرافي موحد.

أما ميل الفاشيات الأوربية إلى صياغة قاسم إيديولوجي مشترك، وتوجيه اندفاعـه الثورية إلى أمور ليس آخرها مؤسسات الدولة القومية ذاتها، فذلك أمـر غـير مفهوم عند أنطون سعادة آخر الأمر. وقبل خلفية تجربته اللبنانية تمامـًا أشار إلى الأخطار التي تتهدد الأمة السورية في رأيه. بالنظر إلى مثال تحـالف «غـير مقدس» يتألف من سياسة طائفية وتدخلات استعمارية من الـدول الغربـية. وبهذا الروح كان يرى في الصهيونية نتاجـًا لعقائد دينية جـامدة وغريبة شاذة تتناقض تناقضـًا تامـًا مع تصورها الخاص للقومية السورية والعلمية، وقال إن التحدي السياسي للسوريين يزداد جدية، إذ إن المسألة تتعلق بسلامة التراب الوطني وبالتالي بسلامة الأمة ذاتها. وكان سعادة يحذر من الانضباط الذي تتسم به الحركة الصهيونية ومجهوداتها الدبلوماسية عـلى الصـعيد الولي، ويربط هذا التحذير بمطلب التصرف حيال الصهاينة بطـريقة مماثلة واستخدام الوسائل ذاتها. وكان يرى في تأسيس حزب منظم تنظيمـًا صارمـًا، في هذا السياق خطوة حاسمة، أولى.

وكـان في بـنى الحزب السوري القومي الاجتماعي ورمزيته التي دونها بنفسه بالتفصيل أشد ما يكون اقترابـًا من النماذج التي يحتذى بها في أوربة. وكـان من الواجب على الحزب، فيما يرى، أن يكون صورة طبق الأصل ونواة لأمة المستقبل التي انبعثت من جديد، وكان يعرف كيف يجعل الآمال

في ظهور المسيح أو المهدي المنتظر المرتبطة بهذا الانبعاث لدى اتباعه تتمحور حول شخصه. وخلافـًا لما كان في حالة الفاشيات الأوربية ولاسيما النازية الألمانية وكان آخر أهدافه في النهاية إنشاء دولة قومية، وليس التغلب عليها لصالح تخطيط تنظيمي، أعلى، واسع النطاق، مهما كانت نوعيته.

تأليف: إدريس المغراوي

7] بيع الحرب للمغاربة: الدعاية الفرنسية المضادة للنازية في أثناء الحرب العالمية الثانية

كانت الإسهامات الهامة للمحاربين الذين كان يتم تجنيدهم من الإمبراطوريات الأوروبية، بوجه عام، تلقى التجاهل على نطاق واسع في كتابة التاريخ الرسمي للحرب العالمية الثانية، وفي ذكرياتنا، وفي عمليات السرد الدرامي لها. ومثل معظم الموضوعات الاستعمارية الأخرى، كانت قوات المغاربة في المستعمرات تخوض حرباً لم تكن حربا بالضرورة. وبالنسبة للجند المغاربة لم تكن الحرب العالمية الثانية القالب الثقافي المناسب التي تعكس مرجعيتها الرمزية. وهذا المقال ينظر إلى الكيفية التي كان يتم بها إدماج الحرب في الحياة اليومية للجندي لتكون جزءاً من حقيقة واقعة عادية. ولكي أقوم بذا، أتوجه إلى تحليل الخطاب الدعائي الذي استخدمته السلطة الفرنسية.

سنبين في هذا المقال، كيف تقنع السلطة الفرنسية جنود مستعمراتنا بالعمل من أجل قضية عالمية ضد ألمانيا النازية، وكيف كانت هذه السلطة تقلل من شأن النزعة العنصرية، والتفرعات الثنائية بين «الذات» و«الآخر» التي كانت سمة الإيديولوجية الاستعمارية الفرنسية. وسنظهر كيف كان يتم بين الرعايا من أبناء المستعمرات، تقريباً، بأنهم مواطنون ينتمون إلى العرق ذاته.

اتخذت هذه الدعاية في التركيبة الحديثة «للقومية الفرنسية» شكل خطابين متميزين: أحدهما يتوجه نحو الجندي الذي يقرأ ويكتب (وهو ما تضرب به فرنسا مثلاً في نشرة جيوش ما وراء البحار)، والآخر ممثل بصحيفة مكتوبة باللغة العربية (النصر)، والتي تتوجه على الأرجح إلى الأطفال بدلاً من أن تتوجه إلى الراشدين من السكان. وأود أن أقرر منذ البداية أن هذا التحليل يدور في المقام الأول حول شروط تبعية الجند المغاربة، باعتبارهم رعايا من أبناء المستعمرات تم اجتذابهم في سياق الحرب. ويتمثل هدفي في فحص الآليات التي استخدمت بها السلطات الاستعمارية الدعاية كخدعة تخدم الأغراض البراغماتية الفرنسية. وهذا لا يعني بالطبع أن قضية الفرنسيين والحلفاء لم تكن عادية، فأنا اعتزم هنا ببساطة، إلقاء بعض الضوء على الطرق التي كان يتم بها إدماج القوات المغاربة في المجهود الحربي. وسوف أقدم في البداية مراجعة عامة للسياق التاريخي للمغرب أثناء الحرب العالمية الثانية قبل أن أنتقل إلى تحليل لهذه الخدعة الاستعمارية كما كانت تتجلى في إطار الخطاب الدعائي الفرنسي المعادي للنازية.

7/ 1] الحرب العالمية الثانية وقضية المغرب

كثيراً ما كانت السلطات العسكرية الاستعمارية الفرنسية تفخر بنفسها على أساس أنها تحفظ الأمن والنظام في المقام الأول في شماليّ إفريقية. فقد

وصلت أعداد قوات من أهل البلد الأصليين إلى نحو (245000) وقت الهدنة في عام (1940 م)، غير أن الهزيمة الفرنسية في أوربة أثارت مشكلات جديدة في وجه السيطرة الاستعمارية بسبب ظهور الا عة القومية في المغرب. وكان الجيش متنبهاً على وجه الخصوص إلى أخطار الثورات الشعبية في شمالي إفريقية في حالة حدوث هزيمة عسكرية فرنسية في أوربة. وكانت قد حدثت ثورات سابقة على إثر الهزائم الفرنسية، كما كان الحال في منطقة القبائل عام (1871 م)، وفي جنوبي تونس في عام (1916 م)، وفي المغرب في عام (1912 م) أثناء التمرد الذي حدث في فاس[1]. وبينما كانت المقاومة قد سحقت في المناطق الريفية في معظم شمالي إفريقية في أواخر الثلاثينات، كانت أخطار الثورة القومية ماتزال قائمة كما جاء في تقرير لحكومة فيشي في عام (1940 م) الذي يقول فيه:

> **هـناك أشكال جديدة من التخمر خطيرة لا نهاية لخطرها، من القومية والشيوعية، أو معاداة السامية. ما يمكن أن يسفر عن اجتياح خطير في المـدن خـلال فترة قصيرة، ويمكن للمرء أن يكون على يقين من أن الأرجح في أعمال الشغب أن تبدأ منذ الآن فصاعداً، داخل المدن[2].**

وفي تشـرين الأول (1940 م)، وعلى الرغم من هزيمة الجيوش الفرنسية، كانـت السلطات الفرنسية قادرة على تامين النظام في أرجاء شمالي إفريقية، وقد تم احتواء الاضطرابات بسرعة.

أمـا في المغرب فلم يؤد انشغال فرنسا في الحرب إلى الكثير من الثورات الوطنـية. وقد منح السلطان محمد الخامس كل دعمه للسلطات الفرنسية، كما حدث في الحرب العالمية الأولى. لقد كان دعم السلطان لفرنسا يعلن في المساجد وينشر في صحيفة ‹صدى المغرب/ L'echao du Maroc» (انظر العدد الـذي طبع في الخامس من أيلول (1939 م)). لقد دعا محمد الخامس رعاياه إلى الانضمام إلى الفرنسيين في الدفاع عن بلادهم، وقرر أن:

> **بعد معاهدة الحماية، بات السلام مضموناً في ديارنا، وفي مدننا، وفي ريفـنا، وحظي شرفنا، كما حظي ديننا المقدس بالحماية. والآن، إذ تحمـل فرنسـا السـلاح لتدافع عن بلادها، وشرفها، وكرامتها، ومسـتقبلها، ومستقبلنا، ونحن، أنفسنا أوفياء للمبادئ التي تشرف جنسـنا، وتاريخـنا، وديننا، فإن من واجبنا المطلق أن نظهر دعمنا، وتقديـرنا لـلحكومة الفرنسية لما فعلته من أجلنا، وكل انتهاك لما يفرضـه هذا الواجب سيكون غير لائق بتاريخنا، ومخالفاً لأوامر الله الذي يفرض علينا واجب عرفان الجميل. ومن اليوم فصاعداً لابد أن نبيء تأييدنا الكامل، وأن نكون مستعدين لأي تضحية[3].**

وبعـد أيام قلائل من هذا الإعلان شهد السلطان مهرجاناً دينياً في مدينة مولاي إدريس. وهناك ألقى خطبة أخرى كان موضوعها دعم فرنسا، ودعا المغاربـة والمسلمين للانضمام إلى فرنسا المسيحية في حملة صليبية موحدة من أجـل الهدف المشترك المتمثل في الحفاظ على الحضارة، وكان الرجوع إلى الرمزية الدينية، على الدوام يشكل الجزء الرئيس من خطاب السلطان. ولكن السياق التاريخي كان في تلك اللحظة اقل تعقيداً بكثير، مادام العدو محدوداً في ألمانيا النازية، من دون تأييد الأتراك المسلمين. وكما كان الحال في الحرب العالمـية الأولى، كـان التأيـيد للقضية الفرنسية يأتي أيضاً من قبل النخب المغربـية، بمن في ذلك القواد والعلماء وجمعيات الأخوة الإسلامية. وأخذت سلطات الطوارئ التي صارت فور انتهاء الحرب تكبح جماح أية ردود أفعال قومية في الجزائر، وتونس والمغرب[4].

أمـا المغرب فلم يكن يسمح لأحد بان يعرب عن بواعث قلقه باستثناء القـادة القوميين المعتدلين. وفي المغرب تم اعتقال قيادة اللجنة الوطنية للعمل المغـربي، وكانت حالة الحصار التي استحدثت في عام (1939 م) تستخدم لكبح جماح النشاط الوطني الراديكالي. ولذلك كان الأمر متروكاً للسلطان ليضـطلع بدوره بصفته المدافع عن المصالح الوطنية. كما كان في وسع المقيم

العام فيلا المغرب، الجنرال نوغ، أن يتفاوض بسهولة أكبر مع الـ عة القومية المحافظة عند السلطان سيدي محمد بن يوسف.

وبعـد مؤتمر الدار البيضاء، في كانون الثاني (1943 م) وإعلان روزفلت تأييد الولايات المتحدة لاستقلال المغرب، انعكس شكل العلاقة بين السلطان والجـنرال. وفي الوقت الذي كانت فيه مظاهرات وطنية على نطاق واسع تحـدث في مـدن المغرب الرئيسية، كان الريف مازال يمد الجيش الفرنسي بالـ ـندين من المستمرة، ولم يكن للـ عة القومية كبير نفوذ على المغاربة من أهل الريف الذين كانوا قد سجلوا أنفسهم في صفوف الكوميين.

ومع الدعم المتضعضع للقومية المغربية، كان السلطان والنخبة المحلية قادرين عـلى تقديم تسهيل لتجنيد عدد كبير من المغاربة بعد نشوب الحرب، ولكن الفرنسيين كانوا قد أصبحوا مستعدين لحرب محتملة مع ألمانيا. وفي الفترة التي أفضـت إلى الهدنة كانت القوات القادمة من المستعمرات تستخدم على نطاق واسع في فرنسا. وفي أيار (1940 م) كان هناك اثنتا عشر كتيبة في فرنسا بلغ مجموعها أكثر من تسعين ألف رجل، منهم (83000) من المغاربة[5].

وبسبب التهديد الكامن المحتمل، من قبل قوة عسكرية إسبانية تقدر بمائة ألـف رجـل، كـان هناك مزيد من القوات القادمة من المستعمرات على اسـتعداد للدفاع عن المغرب، وعلى كل حال ظلت الأولوية الرئيسية هي الدفاع عن فرنسا.

وعندما أقدم الألمان على الغزو في أيلول (1940 م)، كانت الكتائب المغربية منهمكة في المعارك على طول الحدود الفرانكو ـ بلجيكية، وتم سحق الفرقة المغربية من قبل الطوابير الألمانية المدرعة وبفعل الغارات الجوية الثقيلة.وجعلت القـوات المغربية عاجزة على الانتقال من دنكرك إلى إنكلترا، وقتل أكثر من (2100) وأسر أكثر من (18000) جندي في الاشتباكات المتبادلة[6].

7/ 2] الدعاية الاستعمارية وإضفاء الصفة الشمولية على الحرب

وبالخطـاب الدعائي الفرنسي أصبحت القوات القادمة من المستعمرات تدخـل في الإطار الذهني الفرنسي ذاته. وكان هذا الإطار السيكولوجي في المقـام الأول، يتألف من الخوف من الألمان وكراهيتهم من جهة والرغبة في الانـتقام مـن جهـة أخرى، وهذا هو الأهم. فبعد هزيمة عام (1870 م) واحـتلال الألزاس في عام (1914 م)، كانت هزيمة (1940 م) مدمرة للروح الفرنسـية ولمكانتها العسكرية. ذلك أن الهدنة قدحت زناد نوبة من الـ وع الوطني إلى الدفاع عن الفرنسيين وكانت بمثابة الحفاز لإرادة مقاومة تستحوذ على النفوس.

ولذلك يعد تحليل ما كان يتم بـ «تغذية» جنود المستعمرات، مما يكشف عن الحالة الذهنية عند الضباط القادمين من المستعمرات الفرنسية. وذلك أن ماكان يجري تقديمه إلى جنود المستعمرات في هذا الخطاب الدعائي بين عامي (1930 م) و(1945 م) إنمـا كان يقصد به إدماجهم سيكولوجياً في الصراع الفرنسي/ الأوروبي.

ولكـن هـذا الخطاب الدعائي كا يسعى إلى توريط القوات المعادية من المسـتعمرات في الحـرب ضد ألمانيا النازية. ولعل هذا الخطاب كان يدعم الفطـرة القائلـة إن ألمانيا النازية تدد الحضارة البشرية ككل ما يجعل التزام الرعايا القادمين من المستعمرات شيئا مقدسا تنقد به البشرية جمعاء.

إن الـنظر عن كثب في الرعايا القادمين من المستعمرات وفي الكيفية التي كانـت تتم با الصياغة البارعة والمحكمة، لهذا الخطاب الدعائي، والآليات الثقافـية في العقلـيات الاستعمارية، كما أعادت صياغة نفسها، من أجل الأسباب البراغماتية المتصلة بالحرب، هو أيضاً محاولة لاستيعاب بعد آخر من أبعاد الآليات الإيديولوجية والثقافية فاللغة والرموز وتصاميم الدعاية الحربية،

كمـا تظهر في القالب المطبوع، يظهر كيف كان ذلك مقلقاً لهؤلاء الجنود، بحكـم كونهم من رعيا المستعمرات، وكيف كان يقصد بهذا إلى إدماجهم وصهرهم في أتون الصراع بأكبر قدر ممكن من التركيز.



الشكل رقم (1)

7/ 3] نصر الدين دينيه: صديق الإسلام

وقـبل كـل شيء كانت الدعاية الفرنسية تقدّم الحرب على أنا حرب مخـاض مـن أجل الحضارة البشرية. وفي هذا المستوى، لم تكن حرب أمة بذاتـا، على وجه الخصوص، على الرغم من أن الرجوع إلى المثل الفرنسية لم يكـن يـبدو أنـه جـزء من الخطاب المتسم بالسمة الحضارية فبصرف الـنظر عـن أشكال الصدام بين الأمم، كان هناك صدام بين الحضارات، وكانـت المسـألة مسألة حفاظ على حضارة حقيقية كانت فرنسا هي التي تجسدها. ومن الناحية الأخرى كانت الحضارة الألمانية تمثل في صورة تجسيد الانحـلال والظلام، والوحشية، وعلى هذا فقد كانت الحرب تقدم إلى الجند المغاربـة عـلى أنـا حرب من أجل المفهومالعالمي للبشرية، وممثلة بفرنسا وإمبراطوريتها الاستعمارية:

> **إن إمـبراطوريتنا الاسـتعمارية هي نتاج دولة الفكر، ونتاج موقف سياسـي كان جزءاً من فرنسا، على الرغم من كونه خارج تاريخها. ففرنسـا تقـع عـلى مفـترق الطرق بين البحر المتوسط وأوربة. والفرنسيون ليبسوا عرقاً ولكنهم أمة، ولذلك فهم لا يتحدثون باسم عـرق، الذي يعد معيارا ألمانيا وقاسيا، بل يتحدثون باسم الحضارة البشرية ذات السمة العالمية»[7].**

وقـد ظهر هذا الشاهد على الصفحة الأولى من (نشرة ماوراء البحار/ Bulletin des Armées d'Outre-mer)، وهـي الجـريدة الرسمـية لمركز دعم القـوات القادمة من المستعمرات من إمبراطورية فرنسا فيما وراء البحار في نيسان (1940 م).

ومنذ البداية الأولى للحرب كانت المؤسسة العسكرية الفرنسية تبدو أنا اجـتازت عـن قصـد ورويـة، أن تقلل من شأن دور العرق في خطابا

الدعـائي. ومـن الواضح أن هذا كان يتناقض تناقضاً جاداً مع الطريقة التي كانـت القـوات القادمة من المستعمرات تصور بها في الروايات العسكرية السابقة على الحرب العالمية الثانية[8].

فعلى الصفحة الأولى من العدد نفسه من النشرة، توضع في مقابل الكلام (شـكل رقـم 1)، صـورة بريشة إتيلين دينيه. وتصور صورة دينيه الزيتية فارسـين منهمكين في العمل الحربي، في المقدمة، بينما توجد في الخلفية امرأة ترمـز إلى الأمـة الفرنسية، وتحت هذه الصورة الزيتية نجد الشواهد التالية: «هـذه صـورة لـد الجند الأفارقة، بريشة إتيلين دينيه، الذي كان صديقاً عظـيماً للإسـلام»، ويلي ذلك شاهدٌ ثان، وكان يفترض أن يكون خطيباً جزائـرياً إذ قـال: بين يدي ضريح دينيه: «لقد مضى دينيه إلى الفردوس، حيـث يرفـرف هناك بجناحين من العلم الفرنسي المثلث الألوان، لقد علم العرب كيف تكون المحبة»[9].

لقـد كـان الالتباس والضبابية في اسم دينيه وارتباطه بالإسلام ولوحة الفارس الزيتية، والانتقاص الفرنسي من قيمة مفهوم العرق، كل هذه الأمور كانت جزءاً من نوبة العالمية والأخوة الملفقة التي من الواضح أننا تكشف في شاهد أخير: «إن هذه النشرة مثال عظيم على الإحساس العظيم بالأخوة التي تجمـع بـين شعب فرنسا وشعوب إمبراطوريتها في ماوراء البحار». ويقدم التقديم بالطريقة التالية: «إلى جند لفرنسا العظمى المتحدين اتحاد الأخوة في سبيل الدفاع عن الأمة».

7/ 4] جاك دوبوا: إلى عزيزي المناوش

لقـد افتتحت (نشرة جيوش ماوراء البحار) إصدارها مع بداية الحرب. أما محررها فكان إدوارد وارن، رئيس بعثة المفوضية العامة للمعلومات لدى

الجيوش والعمال في ماوراء البحار. وكانت هذه النشرة متميزة عن الجريدة الأخـرى، النصر (التي ستناقش فيما بعد، في هذا القسم) وبمعنى أنا كانت موجهـة إلى جـنود أبعـد عن الأمية وأقرب إلى المتعلمين. وبحكم كونا معارضـة لجـريدة «النصر»، كانت صفحات النشرة مكتوبة بالفرنسية في المقام الأول.

وكما يبلغنا المحرر فقد كانت موجهة إلى ثلاث مجموعات إثنية رئيسية، مـن أقالـيم مخـتلفة: «شمالي إفريقية، وإفريقية السوداء، ومدغشقر والهند الصـينية، ولكـن النشـرة كان لها طبعات مختلفة مناوئة، تبعاً لكل بكل فئة إثنية.

ومـن هـنا كان استخدام الرمزية الدينية لأغراض الدعاية يتغير تبعاً لمن وجهـت إلـيهم النشـرة، ولكن الفكرة ذات الـ عة العالمية التي تتسم با التضحية كانت ملائمة لهن جميعاً، في طبعتها عن شباط (1940 م)، كان دي وارن يدمـج شواهد من رسائل واردة من جند المستعمرات، وقد كان من الممكن أن يشير نقص الإشارة إلى أسماء الكتاب، على كل حال، إلى أن هذه الرسائل ليست ذات حجّية. وقد كتب المحرر يقول:

> **لقد عادت عليّ كل الرسائل التي حملت إلي، بالسرور العظيم، سرور ملاحظـة مقـدار محبتكم المخلصة لفرنسا، ونحن نفهم ما فعلته من أجلكم، وأنتم على استعداد للتضحية بأنفسكم في سبيلها حتى آخر قطرة من دمكم البشري (SANG HUMAIN).**

ويؤكد دي وارن تأكيداً لا يخلو من النية والقصد، فكرة الدعم البشري بحكم كونا جزءاً من لغة تضحية عالمية، من أجل مثل الأمة الفرنسية، لأننا سوف نبين لكل امرئ إلى أي حد نشكل جزءاً من الأسرة الفرنسية الكبيرة ذاتا»[10].



Mon cher tirailleur,

Tu vois, je tiens ma promesse et comme je n'ai pas encore la joie de te voir arriver, fièrement coiffé de ta chéchia neuve, faisant sonner tes beaux souliers luisants, je vais te parler, pour te faire prendre patience, d'un autre monument de Paris.

Je vais te décrire, si tu le veux bien, l'Arc de Triomphe. Je suis sûr que tu as déjà, depuis longtemps, entendu parler de cet arc grandiose, sous lequel dort, à l'ombre de la Victoire, un soldat dont on ne sait pas le nom, un soldat de la dernière guerre, que tous les peuples viennent saluer, le soldat inconnu. On ne sait pas qui est ce soldat, puisqu'il est inconnu : c'est peut-être un Blanc, c'est peut-être un Jaune, c'est peut-être un Noir. Dieu seul le sait, mais ce qui est certain, c'est qu'il est un soldat de France. Sur cette tombe, le gouvernement a ordonné d'allumer une flamme que, chaque soir, un groupe d'anciens combattants vient ranimer, pour que cette flamme demeure l'éternel signe de la reconnaissance de la France, notre mère, envers ceux qui sont morts pour elle.

Mais, d'abord, il faut que je t'explique, comme mon maître l'a fait à l'école, à quoi sert un arc de triomphe. Il y avait autrefois, en Europe, un peuple très puissant qui dominait toute la terre : le peuple romain. Quand les généraux romains avaient vaincu l'ennemi, le peuple de Rome, pour les récompenser, élevait en leur honneur un monument offrant la même courbe qu'un arc tendu, sous lequel ils passaient en triomphe, suivis de leurs armées, de leurs prisonniers enchaînés et du butin. L'Empereur Napoléon, qui fut un des plus grands chefs de tous les temps et qui était l'Empereur des Français, il y a cent trente-cinq fois douze lunes, se souvenant de cette grande civilisation romaine, eut l'idée de construire l'Arc de Triomphe qui commande aujourd'hui la place de l'Etoile à Paris.

Il voulait, avec cet Arc de Triomphe, honorer ses généraux et ses soldats. Après l'éclatante victoire d'Austerlitz qu'il remporta, le 2 décembre 1805, sur les Autrichiens et sur les Russes, il fit venir les meilleurs architectes français et leur demanda de dessiner un Arc de Triomphe qui serait le plus grand et le plus beau qui ait jamais existé. Ce fut le projet de l'architecte Chalgrin qui mérita de plaire à l'Empereur. Chalgrin se mit aussitôt à l'œuvre, pour réaliser cet édifice colossal. Hélas! Napoléon ne put le voir achevé.

Le peuple français n'oublie jamais ses grands chefs, ni ses grands hommes. Sous cet arc de gloire, un jour de 1840, le cercueil de l'Empereur fut exposé. Le même honneur devait être réservé à l'illustre poète Victor Hugo et au généralissime des armées alliées, le vainqueur des Allemands en 1918 : le Maréchal Foch.

Mon père, qui s'est couvert de gloire en 1914-1918, en combattant les Allemands, m'a parlé de cet inoubliable matin de juillet 1919, où les armées françaises et alliées défilèrent sous l'Arc de Triomphe. Il s'agissait d'honorer les grands chefs qui les avaient menées à la victoire : le Président de la République Raymond Poincaré; le chef du gouvernement, Georges Clemenceau, dont le collaborateur de tous les instants était l'actuel grand chef Georges Mandel, notre ministre des Colonies; le maréchal Joffre, vainqueur à la bataille de la Marne; le maréchal Foch; tous les généraux, leurs glorieux officiers et leurs admirables sous-officiers et soldats. Depuis quelques années, c'est de l'Arc de Triomphe que part le défilé des troupes passées en revue par le Président de la République, le 14 juillet, jour de la Fête Nationale.

L'Arc de Triomphe se dresse sur une ancienne colline. De ce monument partent, comme les rayons du soleil, douze avenues qui portent pour la plupart le nom d'une victoire ou d'un grand Français. De splendides sculptures ornent chacun des quatre piliers. La plus belle est l'œuvre du grand sculpteur Rude. Elle représente une gigantesque guerrière française, brandissant une épée, et hurlant aux armées qu'elle entraîne l'hymne sacré, le chant de la Patrie, de votre Patrie : la « Marseillaise ». Sous les arcades latérales sont gravés les noms des 386 généraux de Napoléon Ier.

On peut pénétrer à l'intérieur de l'Arc de Triomphe. Et si tu as le courage de monter les 272 marches qui conduisent à la terrasse qui est à son sommet, tu en seras récompensé par la vue que te donne d'un Paris étalé à tes pieds comme une immense étoile. C'est pour cela que la place dominée par l'arc colossal s'appelle la Place de l'Etoile.

Songe bien, ami, à ce monument. Le jour de la Victoire, si tu t'es bien battu pour la France, peut-être tes chefs, pour te récompenser à ton tour, te permettront-ils de défiler sous la voûte glorieuse, tandis que les fifres et les cymbales entraîneront les soldats vainqueurs et que les escadrilles empliront le ciel de leur vol héroïque.

F. P. C. Pauline de l'ESTOCQ. *Lettre du jeune écolier Jacques Dubois à son grand ami le Tirailleur*

4

الشكل رقم (2)

وفي الطبعة ذاتها من النشرة نواجه بنشر رسالة مكتوبة على ما يبدو بقلم طالب شاب، من طلاب معهد عال، هو جاك دوبوا، إلى صديقه.

المحارب في كتائب المناوشة، لا يذكر أصله العرقي على وجه التخصيص، ثم إنه لا تتضح في أي سياق يتصل في إطاره مع شاب شباب المدارس يدعى جاك دوبوا، مما يجعل الرسالة أقرب إلى أن تكون من تلفيق الخيال، وليست حقيقـية. ولما كانت النشرة موجهة إلى طائفة من القراء شديدة التباين، من خلفيات إثنية مختلفة، فإن الرسالة تتخذ لغة عامة غير مخصصة وهي تسعى إلى الوصـول إلى أي جندي من جند المناوشة، سواء أكان من شمالي إفريقية، أم مـن السـنغال، أم من الهند الصينية. وتلميذنا، جاك دوبوا، يريد أن يصف لصديقه المناوش قوس النصر:

> **وأنـا عـلى يقين أنك قد سمعت عن القوس العظيم الذي دفن تحته جـندي لا اسم له، إنه جندي من الحرب العالمية يقبل الناس ليؤدوا إلـيه التحية من كل أنحاء العالم، إنه الجندي المجهول. ونحن لا نعرف مـن يكون هذا الجندي: فقد يكون أبيض، وقد يكون أصفر، وقد يكـون أسود، ولايعلم ذلك إلا الله، غير أنه جندي من جند فرنسا، وهـو الـذي أمرت الحكومة الفرنسية أن تشعل لهبا من النار، تبث فـوق ضريحه الروح كل ليلة. ولكي يبقى اللهب خالداً، يحيي هذا اللهـب طائفة من المحاربين القدامى في إشارة إلى عرفان الجميل، إلى جميع أولئك الذين ماتوا من أجل فرنسا.**

وتنتهي رسالة التلميذ بالطريقة التالية:

> **ألا فلـتفكر ملـياً، يا صديقي، في هذا المعلم. ففي يوم النصر، وإذا أبليت البلاء الحسن في القتال من اجل فرنسا، قد يكافئك ضابطك بأن يدعوك تسير تحت هذا القوس المجيد.**

على أن ما يهمنا هو أن هذا الخطاب الدعائي هو ربطه بالقوات القادمة من المستعمرات، بطريقة تعتمد على الأسطورة واقتران ذلك بالأيقونة الأكثر رمزية في الجيش الفرنسي، ألا وهي «العلم».

وكـان إدماج الجند القادمين من المستعمرات في سيكولوجية حرب لم تكـن حربهم، يتطلب أيضاً إيصالهم بما هو متوقع ألا هو السلام. ومن اجل ذلك كانت لغة الحرب مركبة بحيث تب الشعور بالأمل في مستقبل يسوده السلام للناس جميعاً «عليكم بالصبر والشجاعة! وينبغي أن تكون لديكم ثقة مطلقـة بضـباطكم. وسوف يعود النصر بسلام مجد يثمر لنا جميعاً إذا ما تحررت أراضينا من التهديد الألماني»[11].

وكانـت الخدعة الأيديولوجية الكامنة في هذا الخطاب يقصد با إلى ان تغرس فكرة التضحية العالمية من أجل سلام عالمي تشارك فيه القوات القادمة مـن المستعمرات في النهاية، حتى على الرغم من أن وجودها ذاته في مسرح الحـرب إنما كان نتيجة لظروفها من حيث انتمائها إلى شعب هو من الرعايا المسـتعبدين. أما الغرض من هذا الشكل من أشكال الدعاية فقد كان إنشاء فكـرة أسطورية عن العدالة، ومستقبل جديد يكون جديراً بأن تضحي في سبيله القوات القادمة من المستعمرات:

> **وجـود إخواننا القادمين من وراء البحار، سوف يسود السلام. إن لحظة العدالة القصوى هي الاقتراب من انتصار الحرية على الطغيان. ولسوف يأتي يوم تدخلون إلى دياركم وقراكم، فخورين بما أنجزتم من أجـل بلدانكـم الصـغيرة، ولوطننا المشترك العظيم الإمبراطورية الفرنسـية، ومـن أجـل كل أمم العالم، ولسوف تسهم شجاعتكم ومآثركم في البطولة في الحفاظ على الحضارة والحرية لكل الشعوب، بما في ذلك شعوبكم لكي تعيشوا أحراراً في هذه الأرض الحرة.**

وهذا التقارب بين البشر في عصر جديد للأخوة، كان من الواضح أنه جزء مـن أسـطورة المسـاواة التي أنشئت حديثاً بين الفرنسيين وبين رعاياهم في المسـتعمرات. وكـان مـن الواضح أنه خطاب قوي بليغ الأثر عن الأخوة والمساواة على الصعيد العالمي، كان بعيداً كل البعد عن أن يسمع به في السياق

الاستعماري. ونحن نكتشف في هذا النص، على نحو ماثل، تركي بفكرة جديدة عن القومية الفرنسية من حيث كونها تشمل أفراد أسرة فرنسية موسعة، يتضافر فيها قدر فرنسا ورعاياها القادمين من المستعمرات مع الكفاح العالمي ضد ألمانيا النازية، وكانت هذه اللغة تتناقض تناقضاً صارخاً مع الخطاب الذي أضيفت عليه الصبغة العنصرية، وهو خطاب الضباط الفرنسيين في المستعمرات في العشرينات والثلاثينات . وكان الاختمار الذي يهدد بالثورة، في العشرينات، في المغرب، وتونس، ومصر، يفسر من قبل ضباط الجيش في المستعمرات على أنه ليس إلا «ثورة الفوضى الشرقية على العمل الأخلاقي، والصناعي، والعلمي في الحضارة الأوروبية»[12]. وفي هذه الأثناء كانت المعارضة الفرنسية لأي شكل من أشكال الهجرة أثناء فترة السلام، كثيراً ما تفسر بلغة الخطاب العرقي الصريح، التي كانت تناقض تناقضاً كبيراً للغاية مع هذا الخطاب الذي يتحدث عن الأخوة والعالمية.

ونستطيع أن نقابل النهج المستخدم آنفاً بتحليل لجريدة «النصر» وهي صحيفة كانت تصدر في الجزائر وتوزع في شمالي إفريقية خلال الحرب. وكانت هذه الصحيفة تخاطب قطاعاً مختلفاً من القوات في الشمال الإفريقي، ويمكن النظر إليها على أنها جزء من تعبئة أخلاقية سيكولوجية لجنود المستعمرات الأميين. وفي الوقت الذي كانت فيه القوات القادمة من المستعمرات تلقى الاحترام لشجاعتها وتضحيتها، كانت كثيراً ما تعد، من قبل الفرنسيين قوات ذات صفات مشابهة للأطفال. وكذلك كان الخطأ الدعائي لجريدة النصر يرى في جندي المستعمرات «طفلاً كبيراً» ساذجاً.

وكانت جريدة النصر قد أسست في عام (1940 م) من قبل السلطات العسكرية الفرنسية، لتمون طريقة لإلهاء الجنود المسلمين القادمين من شمالي إفريقية، و«تربيتهم وتعليمهم»، وكما هو مبّين في عدد أيلول (1943 م) من هذه الصحيفة:

إن هـذه الصـحيفة تفهـم على أنها شكل من أشكال تسلية الجند المسـلمين الذيـن يقـاتلون مع الجيش الفرنسي وقوات الحلفاء. وإلهـائهم. وهذه الصحيفة سوف تسهم إسهاماً متواضعاً في جهدنا، وفي هدفنا الوحيد، وهو النصر[13].

ولم تكـن جريدة النصر، في الحقيقة الجريدة الأولى التي يفترض توجيهها إلى الجـند المسـلمين. ففـي كانون الأول من عام (1939 م)، أصدرت السـلطات الفرنسية صحيفة لم يدم نشرها طويلا، عرفت باسم «يللاّ» (أي يا ألله، أو: هيا بنا).

ولكـنها توقفت عن الصدور بعد سقوط فرنسا، في حزيران (1940 م). وكانـت الهـزيمة الفرنسية ضربة كبرى للشرف والـد العسكريين لفرنسا وخصوصا في المستعمرات. ولهذا يمكن أن ينظر إلى إنشاء صحيفة أخرى مثل «النصـر» عل أنه جزء من مجهود لإعادة بناء الثقة في الجيش الفرنسي عن طـريق قواتـه القادمة من المستعمرات. ومثال ذلك أن عدد كانون الأول (1943 م)، قرر بالعربية:

إن فرنسا عادت إلى ميدان مجدها في شمالي إفريقية، وعاد جندها إلى مـيدان المعـركة، ففي الخط الأول من الجبهة تجد أبناء الإسلام في فرنسـا، الذيـن ضربوا افضل الأمثلة على الولاءة التي سيسجلها الـتاريخ في يـوم من الأيام. ومن المأمول أن تعود جريدة «النصر» بـبعض السـعادة على الجند المسلمين بتزويدهم بأنباء عن أسرتم وقبائلهم[14].

7/ 5] «أخبار» من الوطن: الوضع الزراعي

وبالطبع فقد كانت «النصر» بعيدة عن أن تشتمل على أبناء من الوطن، من أجل «أبناء فرنسا المسلمين» إذ كان هدفها الرئيسي تسلية الجند وصرف

انتباههم عن وقائع الحرب، عن طريق طبع القصص والحكايات والنوادر التي يمكن أن تجمع بينهم. وكانت صحيفة «الأخبار» من الوطن، واسعة النطاق دائماً، ذات سمة مشرقة متفائلة، وإدارة حسنة. وتحت العنوان العريض «الوضع الزراعي» في شمالي إفريقية، كانت ثلاثة سطور تلخص الأحوال في المغرب عام (1943 م) (رسم رقم 3):

> **. . حسّنت الأمطار الأحوال الزراعية** في **إقليم عويضة، وغير سيف، وسيفرو، وتفيلالت وهي** المناطق التي **عانت من القحط والجفاف،** وفي **الوقت ذاته ماعاد** ثمة **جفاف** في **هوز مراكش وحوالي أغادير** وفي **كل المغرب، يؤمل ف هذا العام أن يكون المحصول الجيد كافياً للفلاحين[15].**

ولما كان معظم الجند الأميين القادمين من المستعمرات ينتمون إلى خلفيات فلاحية، فقد كانت أخبار حول المطر والمحصول تبدو هامة. وكان يقصد بذلك إلى تطمين الجنود إلى الوضع الطبيعي والرخاء في الوطن. وكانت الصور المرسومة باليد في الزوايا الأربعة من هذا اركن في الصحيفة، وعنوانه «حول الوضع الزراعي» تظهر الفلاحين ذاهبين إلى أعمالهم في وسط محصول وفير.

7/ 6] المجيء بالتهديد بالحرب إلى الوطن: حكاية بلا كلام

والحديث عن الطبيعة الملفقة في هذه الحياة، إلى جندي ربما كان يواجه الموت في جبهة لمعارك يمكن أن يفسر بأنه مضاد للإنتاج أو الجدوى مادام هذا النوع من الصور يمكن أن يقدح زناد الشعور بالحنين إلى الحياة السلمية الوادعة في الريف، وفي الوطن. غير أننا نجد بالموازاة مع هذه الصور المعبرة عن السلام والرخاء، صوراً أخرى رسمها الفنان الفرنسي ذاته باليد. ومقابلة لتلك الصور، بهدف إفساد طبيعة الحياة الفلاحية وأوجه النشاط اليومي.



La Situation Agricole

TUNISIE

Région Nord. — Les emblavures ont été diminuées par les opérations de guerre, malgré la ténacité des colons qui ont effectué leurs travaux parfois très près de la ligne de feu.

En général, la récolte de blé s'annonce bonne, mais il y aura des difficultés pour la moisson et les battages (transports, carburants, sacherie, pièces de rechange).

Les pluies de printemps ont été satisfaisantes. Des vents très froids ont causé quelques dégâts dans la région de Teboursouk, Le Krib.

Région Centre. — Ensemencements en orge assez réduits, mais récolte de bonne venue.

Région Sud. — Ensemencements en orge normaux ; bonne pluie d'automne et de printemps. Récolte de belle venue, mais la moisson sera gênée par les champs de mines extrêmement nombreux.

La floraison dans la forêt d'oliviers de Sfax est plutôt médiocre. On ne peut espérer une récolte abondante, pour la prochaine campagne, d'autant plus que la récolte précédente a été belle.

L'état du troupeau est satisfaisant sur les Hauts Plateaux et dans les régions Nord, mais le cheptel a souffert des pillages en zone occupée et du fait de la guerre dans toute la zone de combat.

ALGÉRIE

Dans la Mitidja et en Kabylie les céréales s'annoncent fort belles. Sur les Hauts Plateaux, le cheptel qui avait beaucoup souffert à l'automne reprend partout ; les pâturages sont en bon état.

De Sétif, Batna, Guelma, Bône, Aïn-Témouchent, Bel-Abbès, Mostaganem et Tlemcen, on apprend que les céréales, un moment compromises, sont suffisamment avancées pour l'époque et qu'on peut prévoir une soudure facile.

MAROC

Dans les régions d'Oujda, Guercif, Haut-Ouerrha, Sefrou et Tafilalet, les pluies abondantes sont venues améliorer l'état des cultures qui avaient souffert de la sécheresse au début de l'hiver.

Dans le Haouz de Marrakech et autour d'Agadir, la sécheresse persistante a pris fin.

Dans tout le Maroc, l'espoir d'une bonne récolte pour cette année récompense les fellahs.

A nos Lecteurs

Nous ne pourrons rien sans vous.

Si vous nous aidez « AN-NAṢR » sera le trait d'union entre le combattant et les siens restés au pays.

Faites-nous part de vos critiques (langue, illustration, etc...), exprimez vos désirs ou suggestions, envoyez-nous dessins, contes ou poésies susceptibles d'intéresser les camarades.

Nous répondrons à tout envoi ou demande de renseignements adressés à :

Journal « AN-NAṢR », 2, rue de Normandie, Alger, et portant votre adresse exacte.

Les auteurs des meilleurs envois recevront une récompense.

الشكل رقم (3)

ففـي ركـن «حكاية بدون كلام» تظهر الصورة الأولى مشهد امرأة مشـغولة بعملها اليومي وهي سعيدة بحصاد حقلها، ووراء هذه المرأة ابنتها التي تساعدها في هذه المهمة. إن ظهور المرأة وابنتها في الصورة يتميز بدلالة عمـيقة لأنـه يعطـي بعداً يتصل بالجنس الآخر، للتهديد الذي يرمز إليه

بالصـليب المعقوف، النازي، في شكل حيات سامة. وفي هذه التصاوير التي تمـثل فيها النازية تهديداً ليس فقط لفرنسا وحدها بل للحياة في الوطن الأم ولحياة الجند المغاربة القادمين من المستعمرات.



الشكل رقم (4)

ويضـاف إلى ذلـك أن هناك تهديداً لزوجات الجنود وأطفالهم، ثم إن رؤوس الأفاعي في الصورة رقم (1) ليست مرسومة بطريقة الصدف، فأنيابا

الـتي تعض وجـه المرأة، تشوهه ليصبح وجهها مروّعا وغير سعيد كما في الصورة الأولى.

أمـا الفتاة الصغيرة في الخلفية، فما عادت تحمل حزمة من سنابل القمح، بل ترفع يديها لتنذر أمها وتحذرها من التهديد الذي يصيب الجند في الجبهة. وهـنا دلالة رمزية كبير بالنسبة للنساء الأمازيغيات اللواتي كن أكثر احتمالاً أن يكـن غير واعيات للارتباط بين الصليب المعقوف وألمانيا النازية. ولذلك كان هذا رسالة مباشرة إلى الجندي، ليدافع عن أسرته بالدفاع عن فرنسا، في مواجهة عدو مشترك.

وكـان من أوجه التناقض أن الصورة الثالثة تظهر أن الجيش الفرنسي، الـذي يرمز إليه الجنود الفرنسيين في زيهم الرسمي يأتي لإنقاذ كل من المرأة وطفلـتها. أما على المستوى الرمزي فتقدم فرنسا وجنودها في صورة حماة لـرعايا المسـتعمرات. وفي الصورة الرابعة تعود الحياة إلى وضعها الطبيعي بفضـل الـتدخل الفرنسي. وبالنسبة للسلطات الفرنسية في المستعمرات يعد التعـبير عن هذا الخطاب الدعائي بالصور والإخلاد إلى الصمت (وفي أعلى الرسـم، يرد نص العنوان العربي): «قصة من دون كلام» ويقصد به الجمع بين الجنود حول القضية المشتركة، قضية الحرب.

وقـد كانت الحرب على ألمانيا النازية أساسية بالنسبة للشرف القومي، والدفـاع عـن فرنسـا، وكانت جزءاً من نزعة وطنية دفاعية ضد إحدى التهديدات الرئيسية للأمة. ولكن بصرف النظر عن الأمة، كانت ألمانيا النازية تطـرح على أنا تديد للحضارة البشرية، وبالتالي رعاياها في المستعمرات. وكـان المغاربـة في هذه الصور يصورون على أن لديهم ما يظفرون به من جـراء الالـتحاق بالجيش الاستعماري، ويظهرون تضامنهم مع الفرنسيين و(الحربـية الفرنسية) وكان على الدعاية الحربية الفرنسية الموجهة نحو قوات

الأمـيين القادمين من المستعمرات أن تقدم الفكرة القائلة إن ألمانيا لم تكن، ببسـاطة، تديـداً للأمة الفرنسية، بل للمغاربة (بما في ذلك نسائهم) أيضاً. وكـان على جندي المستعمرات المغربي أن يضحي بحياته. لا من أجل فرنسا وحدها، بل من أجل أسرته، ومن أجل الإنسانية بوجه عام.

7/ 7] جحا في خدمة فرنسا

وننتقل من «قصة من دون كلام» إلى الفكاهة في مسألة «جحا ليس من المـتعاونين»[16]، وهـي عـنوان قصـة مصورة تتناول شخصية شعبية في الفولكلور المغربي والشمال إفريقي. وذلك أن جحا الشخصية الفكاهية كثيراً مـا يرتبط بالشطارة والمخاتلة في التخيلات الشعبية عند أهل شمالي إفريقية. وفي هذه القصة، التي نشرت في صحيفة النصر، في حزيران (1943 م)، كان جحا قد سجل نفسه في الجيش الفرنسي المتشكل من أبناء المستعمرات، لأن الصورة تظهره في حلة عسكرية.

أمـا الـنقطة الأساس في القصة فهي التالية: جحا في إجازة قصيرة من الجبهة، وهو يقوم بزيارة لبلاد. ولما كانت هذه الطبعة من «النصر» موجهة إلى أهـالي الشمال الإفريقي بوجه عام، فليس هناك إشارة محدودة إلى البلد الذي نشأ فيه. فجحا ببساطة بعد أن تناول الغداء في يوم من الأيام، اقتربت منه مدام جوزيف التي تسأله أن يسدي إليها معروفاً.

أجاب جحا قائلاً: «بور بليزير»، وهذه العبارة هي لفظ خاطئ يصدر من الأمـي في شمـالي إفريقـية، لعبارة «pour plaisir». وتطلب مدام جوزيف مـن جحا أن يأتيها بزيت من سليمان، وهو صاحب دكان، وأضافت قائلة: « لا تتوفر لي قنينة زجاجة، فأرجو أن تطلب من سليمان أن يعيرني واحدة». وحـين يصـل إلى المحـل يجيـبه سـليمان: «بالطبع سوف أعيرك القنينة، فالسيدة جوزيف جديرة بالثقة». وبعد أن ناول جحا الزجاجة الملآى بالزيت،



الشكل رقم (5)

انتابت سليمان صدمة وفوجئ برد فعل جحا، إذ أنه بعد أن أتلف كل شيء في المخزن اندفع خارجاً منه وهو يصيح: «أنت متعاون، لماذا تقدم لزيت في زجاجـة مـن واردات حكومة ذي فيشي». وكلمة ذي فيشي هي بالطبع تحـريف لكـلمة de vichy. وقد استعمل سليمان زجاجة فارغة لماء فيشي

ليملأها بالزيت، ويكمن وراء الطبيعة الهزلية العابثة لمثل هذه القصة، صدمة الـتعاون الخطـيرة (مع العدو المحتل)، التي كان على الضباط الفرنسيين في المسـتعمرات أن يغرسوها في نفوس جنودهم. وفي الصفحة (19) من العدد ذاتـه، من «النصر»، حيث توجد قصة جحا، نجد لغة أكثر جدية ومباشرة، وهي لغة الجنرال جيرو:

> **أنـا أعـرف أنني أستطيع في المستقبل أن أعتمد عليكم لكي أتابع القتال في سبيل فرنسا الخالدة. ومثلما حدث في الماضي، أظهرتم أن أبناء الإسلام هم مع قضيتنا العادلة والمقدسة[17].**

7/ 8] الأبطال في «الشواهد الجميلة»

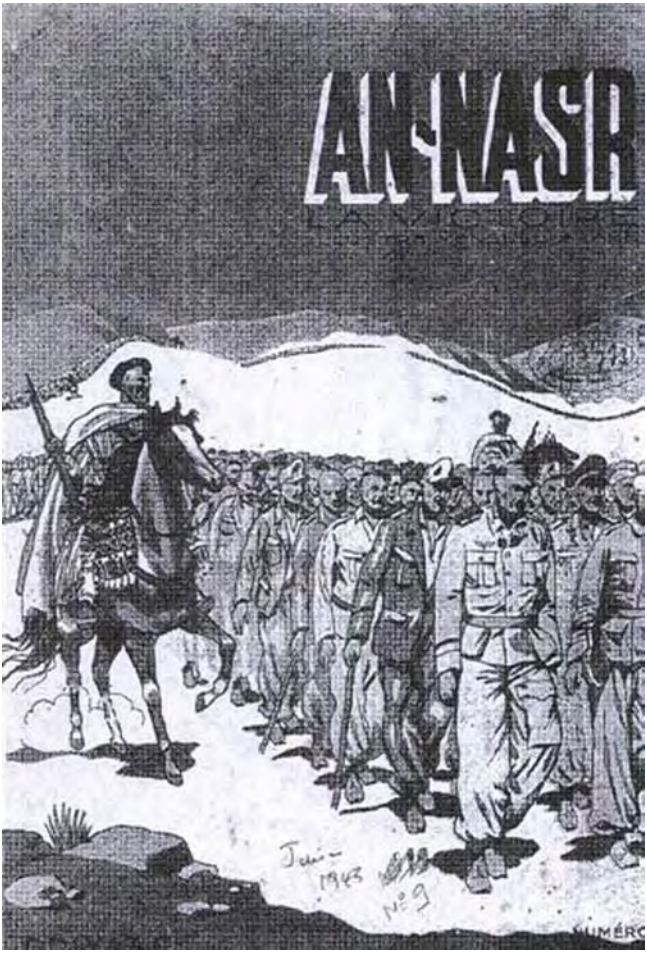
لم يكـن اسـتدعاء البطولة إلى الأذهان، في الدعاية الفرنسية، من أجل القوات التي تتشكل من أبناء المستعمرات، يمت بصلة إلى الصور التي كانت تتضـمن اصـطناع إيقونـات للعنف. كان تمثيل البطولة يركز على فكرة التضـحية بمعناها الأكثر تجريداً، وكانت مشاهد «البطولة» تجعل العنف في الحـرب أقرب إلى أن يكون جزءاً من حقيقة واقعة متبدلة، ومن خلال نزعة وطنـية أخلاقية كانت تتفوق على عنف الحرب. كان جندي المستعمرات يجري إدماجه في الإطار السيكولوجي للحرب، غير أنه لم يكن يجري إدماجه أبـداً في حقائقها الواقعة الفظة. وتتمثل الصورة الأنموذجية لجندي الشمال الإفريقي في صورة مرسومة، وفي صور ضوئية، حقيقية من النادر أن تظهر في صـفحات «النصـر» وهو يرتدي في العادة «الجلابيات» التي كانت تمثل الغومـيين تمثـيلاً أنموذجياً. وكثيراً ما كان الكوميون يمتطون ظهور الخيل محـاطين بأسرى الحرب الألمان. وعلى الرغم من تلك التمثيلات، فقد كان الغومـيون، أو المناوشون، على الدوام، في موقع القوة، والصور تظهر رموز القـوة الألمانية مدمرة عندما كانت تواجهها شجاعة القوات الفرنسية المؤلفة

مـن أبناء المستعمرات وجرأتهم والصور الدقيقة مكررة في أعداد مختلفة من «النصر».

والحديث عن الحرب إلى القوات المؤلفة من أبناء المستعمرات هو إعلامهم بها، غير أنه كان إعلاماً جزئياً بالطبع. إن خطاب «النصر» كان في كثير من الأحيان مسبوقاً بلغة بطولية، وطنية. وكان الجند المغاربة يتلقون الأخبار عن الحرب من خلال نوع من الإعلام التوثيقي. وكانت الأنباء تنزع إلى التركيز عـلى الأحـداث «العظـيمة الجلـيلة» في اللحظة الراهنة، كالمعارك التي تم كسبها، وتضحيات هذا الجندي أو ذاك، أو تستغل هذه الكتيبة أو تلك. وكانت بطولة القوات القادمة من المستعمرات، على الدوام، تشكل الموضوع المحوري في كل حدث. ومثال ذلك أننا نقرأ، تحت العنوان العريض (شواهد جميلة):

> **موخـا أو لاخن، ملازم من كتيبة المناوشين التاسعة،كتيبة المناوشين الموكان، وهو ضابط مغربي، أظهر شجاعة عظيمة وهمة وعزيمة خلال هجـوم معاد على جبل بارغو في تونس في الثالث من كانون الثاني [1943 م]، إذ تـولى القيادة تلقائيا في وحدته وواجه العدو في قتال وحشـي، بـالأيدي، بحربته. وتكبد العدو خسائر فادحة. ونتيجة لتصـرفه، بات قادراً على أن يعيد ترتيب الوضع، وتمكنت قوته من وقف تقدم العدو[18].**

وجـاء عـلى رأس هذا الشاهد تقرير أن موخا أو لاخن تلقى الوسام الشـرفي للجوقة. وثمة جندي آخر هو علي أو حدو، وهو غومي من كتيبة الغـوم التاسعة، تلقى إشادة ببطولته، وسام الجيش، وكان علي يمثل شجاعة اسـتثنائية. وكـان متطوعاً من أجل بضعة من الخفراء وسبق أن أنجز بعض المهمات الشاقة للغاية.



الشكل رقم (6)

وفي الرابع والعشرين من آذار شارك في الاستيلاء على موقعين إيطاليين، وكان قادراً بمفرده على القبض على بضعة من جنود العدو. وفي (28) آذار تميز بشجاعته ومضاء عزيمته في هجوم «كف الخير»[19]. وفي حالة كل من

موخـا ولاخن. فإن كل ما كان يحفل به ببساطة استعدادهما للأخذ بزمام المـبادرة وتطوعهما للمهام الخطيرة، وليس الاحتفال بشجاعتهما. في حين كانت التضحية الأخيرة تقتضي الموت. وقد كان بوريش بلقاسم، وبي نوس أحمد هما اللذان أضفيا سمة الرمز على الواجب العسكري لأبناء المستعمرات. وكـان بوريش بلقاسم مهندساً وعسكرياً في سلاح الهندسة بالغ الشجاعة، مفعمـاً بالطاقة. إذ في (26 كانون الأول 1942 م) تقدم تحت نيران العدو، ليكشـف عن الألغام، وفي 23 كانون الثاني قُـتل. أما بي نوس أحمد فكان مناوشـاً وأظهر قدرا من الشجاعة. إذ في (11 كانون الثاني 1943 م) مات بالقرب من فوندوك، بينما يكلف رفاقه في عمليات شاقة[20].

وتظهـر أسمـاء كـل من بلقاسم وأحمد قريباً من نهاية ركن «الشواهد الجمـيلة» كأنمـا لتلهم أولئك الذين يقاتلون من أجل موت نهائي ومشرّف. ويمكـن أن تظهـر أسماء هؤلاء الجند القادمين من المستعمرات في صفحات «النصـر» على أنه اعتراف حقيقي «بأعمالهم البطولية». وقد كان هذا أيضاً، إلى حد بعيد للغاية، جزءاً من الخطاب الدعائي الذي يقصد به الاستهلاك من قبل جنود الشمال الإفريقي في الجبهة. وسواء أكان ذلك حقيقياً أم كان خيالاً فقد كانت صحيفة «النصر» تعمل جاهدة على إنشاء أبطال يمكن أن يلهموا الآخرين أن يعملوا. على أن المقاصد الحقيقية للشواهد الجميلة تغدو أقل ظهوراً عـندما تواجهنا حقيقة أن الأبطال أنفسهم، أي أبطال جريدة «النصر» الذين ظهروا في كانون الأول (1943 م)، يعودون إلى الظهور مرة أخرى، بعد سنة واحدة، في عدد تشرين الأول (1943 م)، ومرة أخرى في عام (1944 م).

7/ 9] خاتمة

في هـذا المقال كنت أنظر في الطرق التي كان يتم فيها تركيب الخطاب الدعـائي الفرنسـي بلغة عالمية كانت تناقض في كثير من الأحيان، العقلية

العنصـرية غالباً، والتي كانت تتميز بها الحقبة الاستعمارية. ومن الواضح أن فكرة التماثل كانت تطرح على أنها طريقة لتحريض رعايا المستعمرات على الالتحاق بالجيش، بحكم كون ذلك تجلياً للقيم العالمية، ولم يكن يجري تقديم الحـرب على أنه إلزام المواطنين الفرنسيين، بل على أنه من الواجبات الدينية العالمـية لرعايا المستعمرات الفرنسية مقاتلة النازية في ألمانيا. ومثلما قدمت ذلـك آنفاً، فقد اتخذت هذه الدعاية شكلين من أشكال الخطاب مختلفين. يتمثل الخطاب الأول في نشرة جيوش ما وراء البحار التي كانت تتوجه نحو الجـندي الأكثر تعلما. أما الخطاب الثاني فيتمثل في جريدة «النصر» المحررة باللغة العربية. وكانت كلتا الصحيفتين تريدان إنشاء مقاولة جديدة في إطار هذه القومية، تكمن في أن يصبح رعايا المستعمرات وأبناء الإسلام، في لحظة جد نوعية من التاريخ، أعضاءً في الأسرة الفرنسية الكبيرة والموسعة.

تأليف: غِرهرد هب

[8] الخطاب المكبوت: ضحايا النازية من العرب[1]*

قبل نحو عشر سنين كتبت إينا فْريدْمن، في التمهيد لكتابا المخصص لضحايا النازية من غير اليهود، بعنوان ‹الضحايا الآخرون/ The Other Victims›، تقول: «يعتقد كثير من الناس، بعد المحرقة، أن ضحايا النازية لم يكونوا إلا يهودًا فحسب، وليس هذا بالصحيح. ففي الوقت الذي كان النازيون يقتلون عمدًا ستة ملايين من اليهود في المحرقة، كانوا يقتلون، أيضًا، خمسة ملايين من المسيحيين، وبطرق مدّبرة»[2]، أما المسلمون، أو الهندوس أو البوذيون أو الشنِتيون، وحتى الملاحدة، إذا شئنا أن نظل في إطار الاستعمال اللغوي للكاتبة، فلا يوجدون إلا خارج دائرة نظر الكاتبة.

وهذا الظرف يُفترض هنا أن يستثير من النقد أقل مما يثيره من لفت الانتباه إلى الظرف الخاص بمدى ضآلة ما لا يزال يجري الإحساس به من

قبلـنا، بأناس خارج نطاق حضارتنا المسيحية-اليهودية، على أنهم معنيون، تمسهم المسألة، ولاسيما من حيث كونهم ضحايا الحكم النازي. وهذا يمس العرب، الذين يتناولهم البحث هنا، مثلما يمس أتباع شعوب أخرى، إفريقية[3]، وآسـيوية، كـانوا يوجدون بين عامي (1933 و1945 م)، في مجال سلطان الـنظام النازي ونفوذه. على أن لقاءاتهم معه لم تجد حتى اليوم، مكانـًا في الذاكرة الجماعية للشعوب، بما في ذلك شعوبهم هم، مادامت المسألة لا تتعلق بشعوب المتعاونين، مثل التابعين للمفتي. أما آلامهم في ظله، وحتى كفاحهم ضد النظام، فمازالا يوجدان في (زاوية ميتة) من الذاكرة.

ولهـذا أسباب، عامة وخاصة. فإلى جانب أفق الأجيال التالية الذي يبدو للعين شديد المحدودية من الوجهة الثقافية والتاريخية والسياسية، مازال يدخل في هـذا الكـتاب أيضـًا طاقة تصورهم التي ما زالت غير كافية بلا ريب لشمولية القبضة، وتعدد طرائق الملاحقة والقمع، في النظام النازي. ويأتي في مقـابل هذا أن ذكريات الضحايا غير اليهود، وغير المسيحيين، وبالتالي، غير الأوربـيين، للقمع النازي، لم تدون إلا فيما ندر، وتعد في حكم ما لم يجر نشره على الإطلاق، خلافـًا للظاهرات التي تُذكر بالمتعاونين، والتي نشرت في مرات جد كثيرة نسبيـًا، وأن هذه لا تجد في مذكرات رفاقها الأوربيين في المعاناة إلا قليل من الإشارات إليها وإلى مصائرها.

على أن هذه الأشكال العامة من (تعريض الذاكرة للخطر) أضيف إليها بعـد نهايـة الحكم النازي، في سياق الصراع العربي الإسرائيلي، شكل آخر خصوصي: ألا وهو سياسة في التاريخ، وسياسة في التذكر يحاول أبطالها أن «يحـتكروا وضعهم بصفتهم ضحايا»[6]، وأن يجنحوا، في هذا الصدد، وفي الوقـت ذاته، إلى تقدير آلام أولئك الذي ينتمون إلى الجانب الآخر، في كل حالة على حدة، في أيام النازية، دون قدرها، أو تجاهُلِها، أو حتى إنكارها[7]. وقـد أسـهمت هـذه السياسة إسهامـًا جوهريـًا في عدم التحدث، أو

الكتابة، في أي مكان، عن ضحايا للنازية، من العرب، وعن خصوم للنازية، والحـق أن هناك حديثـًا أن كتابة عن المذنبين من العرب، ولكن لا يوجد حديث أو كتابة عن الضحايا العرب.

وإذًا فـالمطلوب منا أول الأمر، إذا ما أردنا أن نغير هذه الحال، أو نصل إلى شيء من قبيل العدالة التاريخية، أن نعيد تركيب ذكرى الضحايا، ويوجد تحـت تصـرفنا، مـن أجـل ذلـك مصادر، هي على الأغلب سجلات ومحفوظـات، تـرجع في الشـطر الأكـبر فيها، لا إليهم أنفسهم، بل إلى مضـطهديهم ومُعَذبـيهم. وعند النظر في هذه المادة وتقويمها تصادف المرء أشـكال أخـرى من «تعريض الذكرى للخطر» ينجم أكبرها عن الظرف المتمـثل في أن فـيها عربـًا على نحو مماثل بدقة لوجود منتمين إلى شعوب إفريقـية وآسـيوية أخرى، كانوا ُيسجلون في العادة بصفتهم رعايا الدولة الاستعمارية الأوربية، المعنية بهم في كل حالة على حدة، ومن ذلك أن قائد مـنظمة (وحدات الدفاع) في الرايخ ورئيس الشرطة الألمانية، هاينرِش هملر، أصدر تعليماته، في (1939/09/11 م)، في رسالة عاجلة إلى قيادات سجلات البطاقات، بأن تستعمل الدوائر، في حالة المنتمين إلى مستعمرات، أول دول واقعـة تحـت الانتداب، أو محميات للدول الاستعمارية» بطاقة السجلات «بـاللون الخـاص بالوطن الأم»[8]. وحين يتم الترميز بهذه الطريقة، تبعـًا للانتماء إلى الدولة المستعمِرة، يبدو العرب، وليسو وحدهم فحسب، وليس في الأضـابير الـنازية فحسب، على الأغلب، فرنسيين. وفي بعض الأحيان يبدون «إسبانـًا» أو «إيطاليين» أو «بريطانيين»، وبذلك يتم حجبُ تميزهم القومي، ولايكاد يكون من الممكن الكشف عنه إلا عن طريق الاسم.

وَبَحَثْتُ، وأنا بين يديْ هذه الخلفية، على وجه الخصوص، في المحفوظات البلجيكية والألمانية والنمساوية، عن ضحايا النازية من العرب[9]. وأنا أقصد بذلـك أناسـًا كانت لهم، على وجه الخصوص، في ألمانيا وفي أوربة المحتلة،

لقـاءات مباشرة، تشكل خطرًا على الحياة في الغالب، وهي على أي حال لقاءات تصل إلى الحد الأقصى، مع جهاز القمع النازي. على أن المراجع تتيح لـنا أن نمـيّز، عـلى الأقل، ثمانية من المواقف القمعية العنيفة، وبالتالي ثماني مجموعات من الضحايا لا يكاد يجري التحقيق فيها حتى الآن أو لم يجرِ فيها تحقـيق أبدًا، وأنا أشرحها بالاستناد إلى أمثلة، وأسميها في تسلسلٍ يحاول أن يراعي ما يشبه التسلسل الزمني للمواقف ووطأة المعاناة المتصاعدة المرتبط بها، على المعنيين.

8/ 1] معاناة ومضايقات وإيذاء واضطهاد المهاجرين العرب إلى ألمانيا والنمسا قبل الحرب العالمية الثانية

لم يجـرِ التحقيق حتى الآن، في أي مكان، بأسلوب منهجي، في تجاريب العـرب وألـوان معاناتهم مع النازيين قبل السنوات الأولى من حكمهم وفي أثـناءها. وما يُعرض هنا في خطوطه العريضة إنما هو حالات متفرقة، ولكن لابد من النظر إليها على أنها أعراض ذات دلالة، وما من شك في أنها ليست ماثلة وحدها هنا.

في كـانون الـثاني، من عام (1932 م) أبلغ (رابطة الطلبة المصريين) في غراتس قنصلية بلاده في فيينا، أن النازيين استفزوا بعض أعضائه بالإهانات، وضايقوهم بألوان الإيذاء، وقذفوهم «بأباريق البيرة والكراسي»، وأصابوهم بجـروح، وأن «مـا يلفـت النظر» أن الذين اعتقلتهم الشرطة لم يكونوا الفاعلين، بل كانوا ضحايا الاعتداء فحسب. ووضع القنصل وزارة الخارجية النمسـاوية في فيـنا، في الصورة فيما يتصل بهذا، من دون إرجاء، وانتظر الإجـراءات الملائمـة. وأوعزت المديرية العامة للأمن العام، المكلفة بتجلية الحَـدَث، عـلى أثـر ذلـك، بإجراء تحقيق قضائي انتهى بتبرئة الفاعلين

النمساويين. ومع ذلك فقد تجنب الحكم إطلاع القنصلية المصرية على المخرج الذي انتهت إليه القضية، «مادام هذا لا يعود على القضية من تلقاء ذاته». وبالمناسبة فقد كان أحد موظفيهم قد كتب وراء أسماء المصريين الثلاثة الذين تعرضوا للاعتداء، بقلم الرصاص، كلمة «يهودي»[10].

وفي شباط من عام (1934 م)، اشتكت المفوضية المصرية في برلين لدى وزارة داخلية الرايخ من أن الطالب فؤاد حسنين هوجم في صالة للرقص في توبنجن، وأهين، لأنه «أسود» ينتمي إلى «عِرق سافل»، ولا يجوز له أن يُراقص "ألمانية"، كما قال الفاعل، وصفق الباب. وظل بلا عقوبة[11].

ومنذ تموز (1933 م)، تساءل الدبلوماسيون قائلين: هل يطبق الحظر الموجود في المدينة ذاتها، الذي يمنع «المنتمين إلى عِرق أجنبي» من استخدام الحمّامات العمومية الموجودة في العراء، على المصريين أيضًا؟. وفي أيار من عام (1934 م) فحسب، رأت وزارة الخارجية نفسها على استعداد للإبلاغ بأن الحظر يعود على «اليهود» حصرًا[12].

وكانت للمصريين، مصطفى الشربيني وأحمد مصطفى، اللذين راق لهما أن يديرا في الثلاثينيات في برلين، محلين للجاز والسوينغ، تجاريب مع النظام النازي. والحق أن هذا النظام لم يكن له بد، باسم انفتاح مزعوم على العالم، قبل الألعاب الأولمبية وبعدها، في عام (1936 م)، أن يتسامح، وهو يقرض أسنانه من الغيظ، في مسألة موسيقى «الزنوج»، التي تعزف هناك، غير أنها سيئة السمعة من الوجهة الرسمية. ومع ذلك فقد حُسِم الأمر خلافًا لمفسريها اليهود. وفي هذه الأثناء مارس محرر صحيفة ‹دويتشه بودُيم/ Deutsche Podium›، هانز بروكنر، دورًا ينطوي على الخيانة والغدر بوجه خاص: وذلك أنه لم يكد يعثر على موسيقيين يهود حتى شهر بهم وشنع عليهم وعلى المؤسسات التي ظهروا فيها، علانية، وأدرجهم في اللائحة السوداء في

مجلـته. وفي خـريف (1935 م) هـدد هذا الحكم حانة الشربيني، التي كان صـاحبها، وهـو ذاته من الدَقّية، يشغل إلى جانب عازف البوق «الملون» في موسيقى الجاز، هِرْب فلمنغ[13]، عازف الكمان اليهودي، بول فايَنبل. وحين تم التعبير عن هذا في صحيفة ‹دويتشه بوديوم›، سحب منافس الشربيني اعترافه بـذا «الـلاآري» على عجل، في حانته المدعوة (سيروبار/ Cirobar). وحين لاحـظ بركـنر هذا، وأشار إلى المحل في صحيفته الآن أيضـًا، تحول فايَنبل في ربيع عام (1936 م) إلى الشربيني من جديد بصمت[14].

أمـا المدة التي استغرقتها لعبة القط والفأر هذه المنطوية على المازفة مع أهل الثقافة الأصيلة النازيين، وهل كانت سببـًا لإغلاق بار الشربيني الذي تم ُبعيد ذلك، فذلك ما لا ُيعرف.

وعلى حين كان مصطفى ينجو بنفسه، على ما يبدو، من بعد زوال نظام الـنازي، لقيه مثل مآيرينك، على كل حال، أيضـًا، في نيسان (1945 م)، في برلين[15]، يظل مصير الشربيني غير يقيني، وآخرُ أثرٍ له هو تسجيله اسمه في (السجل الألماني للملاحقة) في (1 آذار 1941 م).

8/ 2] تعقيم من يسمون [الهجناء المغاربة]

ثم إن العـرب، وشريكاتم الألمانيات، وذريتهم، كانت تمسهم (قوانين نورنبرغ) الصادرة في عام (1935 م) والناجمة عن السياسة العرقية المتصاعدة لدى النظام. وفي ربيع عام (1937 م)، أصدرت لجنة خاصة تكونت في مقر الشـرطة السرية (الغستابو) تعليماتا بوجوب «التعقيم الذي لا يلفت النظر لأنغال إقليم الراين»[16]، وكان يشار بذلك إلى الأطفال والشباب الذين تم إنجابم أثناء احتلال الحلفاء لإقليم الراين في العشرينيات، من جنود "ملونين" ونسـاء ألمانـيات، وكـان واردًا لدى مجلس الخبراء في السياسة السكانية

والسياسـة العنصـرية، في وزارة الشؤون الداخلية في الرايخ، نتيجة لعملية تجميع، أن هؤلاء يُفترض أن يبلغ عددهم (385) نفرًا[17]، ومع ذلك تتحدث الـتقديرات عن (500-800)[18]. وقد تم تعقيم عدد غير معروف منهم في صيف عام (1937 م) بناء على توصية لجان التعقيم على أنم يحملون «دمـًا من نوع غريب »، وكان بين أولئك أيضـًا من يُسمون بالهُجناء المغاربة[19]، وهم أبناء الأفارقة الشماليين، من جيش الاحتلال الفرنسي.

وكـان بين التعساء جوزيف ف، ابن السابعة عشرة، من مدينة ماينتس، وقد أشار إليه قرار التعقيم المؤرخ في (12 حزيران 1937 م)، بأنه سليل رجل ينتمي إلى قوات الاحتلال الملونة السالفة (شمالي إفريقية)، تبدو عليه، بصورة واضحة لا لَبس فيها، سمات أنتروبولوجية تتلاءم مع هذا، وقال: إنه «يتعين تعقيمه من أجل ذلك»[20]. أما مسألة هل كانت لوسي ابنة الرابعة عشرة، مـن ضـحايا التعقـيم أيضـًا، فذلك أمر غير معروف، وقد عُدت «غير اجتماعية» ومن «الهجناء المغاربة»، وتم تسليمها في شباط عام (1943 م) إلى معسكر الاعتقال في رافنسبرك.

8/ 3] اعتقال المدنيين العرب عند نشوب الحرب العالمية الثانية

وبعـد بدايـة الحرب مباشرة، أي في (1939/09/05 م)، ورد في «الأمر الإداري المـتعلق بمعاملـة الأجانـب»، الإبـلاغ، والتسجيل[21]، وكذلك اعـتقال[22] رعايا الدول التي يتم تحديدها بأنا معادية؛ وكان ممن يشار إليهم بذه الصفة في لوائح التنفيذ ضمن أناس آخرين، سكان المستعمرات البريطانية والفرنسـية، والمحميات ومناطق الانتداب مثل مصر، والسودان والعراق[23]. ومـنذ تشرين الأول فصاعدًا كان يعتقل على أثر ذلك، في ألمانيا، وفي النمسا الـتي ضُـمت، وفي بولندة المحتلة، العرب، ويقضي الجزء الأكبر منهم أيامهم

في معســكر الاعــتقال (Ilag XIII) في فولتسبورغ باي نورنبرغ، وعلى وجه الخصوص العرب الفلسطينيون والمصريون، وبينما كان القوم يستبدلون، خلال أجــل قريب، الأولين، «بيهود فلسطين»، كان الآخرون يُرصدون للمقايضة بالمدنيين الألمان[24]، الذين كانوا قد اعتقلوا في مصر. وكان من هؤلاء المعتقلين الــرهائن تســعة من المصريين، بينهم رئيس (غرفة التجارة المصرية الألمانية)، عزيز كُته[25]، وقد اعتقلوا في (3) تشرين الأول، في برلين، ثم أطلق سراحهم في إطــار عملــية دعائــية ديماغوجية، بعد سبعة أسابيع مقابل ثلاثين يومــًا لإظهــار «حســن النية» لدى النظام، كما قالوا، وبهدف اختبار نية الحكومة المصــرية فــيما يتعلق بالاهتمام «بمصالح المصريين» في ألمانيا، وإطلاق سراح الألمان، من جانبها. وحين لم تستجب حكومتهم رُدوا إلى فولتسبورغ[26].

وحتى في أثناء هذه المناورة أصدر وزير الدولة يواخِم فُن ربنترُب تعليماته باعتقال المزيد من المصريين، وذلك في الحقيقة «بمقدار يكون فيها مقابل كل ألمــاني معــتقل في مصر، اثنان من المصريين لدينا»، وحيث لا يترك حرًا إلا أمــثال أولئك الذين لا يمكن إثبات أن نشاطهم ينطوي على فائدة لنا»[27]. ولم تكد تنقضي المهلة حتى أمر هِملَر، في (1940/01/03 م)، باعتقال «كل ذوي التبعــية المصرية من الذكور من الذين أكملوا الثامنة عشرة وحتى سن الســتين»[28]. ومــن جراء الاعتقالات التي بُدئ بها من جديد، ارتفع عدد المصريين المستقرين في فولتسبورغ إلى أكثر من (20%). وفي ربيع عام (1940 م) اعــتُقل في لايبتســغ وحدها أربعة كما اعتقل أيضــًا جزائري ولبناني من التابعية المصرية[29]. واستثني العراقيون رسميــًا من الاعتقال[30].

ولم يكــن بُد لمعظم المصريين المعتقلين في (Ilag XIII)، أن يظلوا ماكثين هــناك حتى التاسع من حزيران (1941 م)، ولم يستطع مغادرة الرايخ سوى اثنان من الدبلوماسيين، في (1940/07/27 م). وبعد شد وجذب طويلين بين وزارة الخارجــية والفرع الخارجي لمنظمة الحزب [النازي]، أمر فُن ربنترُب

أخـيرًا بـإطلاق سراح المعتقلين، ولم يفعلوا ذلك من دون الإعلان بصريح العبارة عن «مصلحة سياسية كبيرة» كامنة في هذا، كانت هي التي أدت إلى الموافقة على إطلاق سراحهم الآن. ولكي يُصار إلى الاستفادة من ذلك على الـنحو الملائـم، من الوجهة السياسية أيضـًا، ينبغي لنا أن نتشاور مع من أطلقـنا سراحهم بأقصى قدر من المودّة، ونستغل طاقة اليد العاملة عندهم. وأن يأمل أن يحصل رهط ممن أطلق سراحهم، على ما يُظن، «على عمل في الإذاعـة وفي الخدمة في المجال اللغوي وربما منحتهم الأوساط العسكرية على عمـل». عـلى أن قليلاً منهم استجاب للتوصية وعمل بعد ذلك في خدمة الـرايخ. أمـا الآخرون فكانوا قد زلزلت أجسامهم في أثناء ذلك من جراء الاعتقال، وتضعضعت على نحو كامل، مثل (جورج خ)، وأصبح منهم من هو مصاب بداء عضال في رئتيه، كالشيخ (عبد الحميد أ)[31]. وحتى (لطفي م) الـذي تم تحويلـه إلى معسـكر الاعتقال (توست باي غلايفتس/ Tost bei Gleiwitz, Ilag VIII)، و(توفـيق م) الـذي تم تحويله إلى (معسكر الاعتقال الحـربي الفـرعي، فلكـيه)[32]، لم يستطيعا أن يُقرّا عينـًا بما استعاداه من الحرية، مثل كُتا)، الذي ظل في نهاية الحرب في إقليم التيرول رهن الاعتقال في مـ لـه، وغـادر آخـر المعتقلين المصريين، (رضا أ)، معسكر الاعتقال فولتسبورغ في (1941/07/22 م)[33].

ويدخـل في عداد هذه الفئة أيضـًا من الضحايا التي ظلت حتى الآن لا يُلتفـت إليها البتة، من المعتقلين المدنيين، بحارة عرب، كان يتم إنزالهم، منذ صـيف (1941 م)، أول الأمر، في (معسكر أسرى الحرب زندبستِل)، ثم في (معسـكر الإيقاف التابع للقوات البحرية، فسترتيمكِه ميلاغ نورد). وكان معظمهم، أي: (112) رجلاً، ينتمون إلى الباخرة المصرية (زمزم) التي نسفتها السـفينة الحربية الاستطلاعية الألمانية، المساعدة (أطلانطيس)، بالطوربيد في السـابع عشر من نيسان، جنوبي الأطلسي، قبالة الساحل الإفريقي، وكانت

تـريد، فـيما يقال، «نقل بضائع ذات أهمية في الحرب إلى بلد هو في حالة حرب مع ألمانيا»[34]. وفي الواقع كانت السفينة قد استقبلت على متنها، في نـيويورك نحو (140) مبشرًا أمريكيـًا كنديـًا مع أفراد أسرهم وذويهم، وكـانوا يـريدون ممارسة نشاطهم في إفريقية[35]. أما سائر معتقلي البحرية العـرب فكـانوا يرجعون إلى سفن أخرى، منها سفينة الشحن الهولندية، (بـارنفلد)، الـتي كانت السفينة المدرعة الألمانية (الأميرال غراف شير) قد أغرقتها في (20 كانون الثاني 1941 م)، شمالي جزيرة القديسة هيلانة. وكان يوجـد، أخـيرًا، نحو عشرة من العرب الذين لم تتضح أصولهم أو تبعيتهم، أيضـًا، ونحو (60) من «الفرنسيين الملونين» في المعسكر[36].

وفي الـبداية كـان مـن المُرجح بعد، حقـًا، إطلاق سراح «المعتقلين الملونـين»، وبالتالي تحويلهم إلى إيطاليا «الأكثر ملاءمة مناخيـًا». وهذا ما أقـنع العـامل في قسم الإذاعة السياسية في وزارة الخارجية، كورت مُنتسِل، الذي زارهم في بداية آب، المعنيين بالأمر بالعدول عنه، وبث تحيات البحارة، المسـجلة على أسطوانات، إلى ذويهم، لأنهم لن يكونوا في حالة انسجام «في حالـة نقـل هذه التحيات، الدعائي، في إذاعاتنا الناطقة بالعربية الفصحى»، وتمت التوصية، للأسباب الدعائية ذاتها، بإطلاق سراحهم قريبـًا. وفي تشرين الأول التمسـت الوزارة من السفارة الألمانية في روما، الاستفسار عن إمكانية استقبال إيطاليا المعتقلين، وتلقت في نهاية كانون الأول، جوابـًا بالرفض[37].

وحتى قبل ذلك، أي: في (29) أيلول، كان آمر المعسكر، شْبيس قد أصدر توصـية بمقايضـة معتقلي البحرية المصريين بالمدنيين الألمان في مصر الذين لم يعودوا بعد. وبعد أسابيع قلائل انضمت القيادة العليا للبحرية إلى هذا الاقتراح، وساندت فكرة المقايضة «بعدد مماثل، أو عدد أعلى» من الألمان، وبذلك حل الـبحارة المصـريون، هكذا، فجأة، محل مواطنيهم الذين أطلق سراحهم من فولتسبورغ، وتحولوا، من جانبهم، إلى معتقلين في صورة رهائن[38].

كان مصيرهم أصعب نسبيـًا، إذ لم يكن لهم بد من أن ينتظروا واحدًا، هـو طبيب السفينة الذي تمت مقايضته في صيف عام (1943 م) بعد تحويله إلى معسـكر اعتقال (لاوْفن باي تراونشتاين)، لا فترة أطول من تلك الفترة فحسـب، ليتم إطلاق سراحهم، بل عانوا بعد معاناة أكبر مما عانى أولئك، البرد والأمراض، ومات ثلاثة منهم على الأقل في الاعتقال[39]. ودخل واحد مـنهم في خدمـة المفتي الحاج أمين الحسيني، وحاول بعض الآخرين تحسين حظهم في صورة عمال أجانب في برلين، وبرمن وفيينا.

وفي نهاية عام (1944 م) فحسب أطلق أخيرًا سراح (98) من أفراد طاقم السـفينة (زمـزم) ومعهـم نحو اثني عشرة من مواطنيهم الذين كان سبق اختـيارهم من عدد أكبر بمدى شاسع، من المصريين «الراغبين في التبادل»، مـن الـرايخ (أي: ألمانـيا)، ومن النمسا، ومن محمية (بومن وميرن 'أي: بوهيميا' [حاليـًا جمهورية تشيكيا. ز م])، ومن أوربة الغربية المحتلة، وجيء بـهم في آب، إلى الموقع الحدودي البلغاري (سفلنغراد)، لُيدفع بهم إلى تركية في عملية مقايضة مع الألمان المعتقلين في مصر. ومع أن إعلان بلغاريا الحرب عـلى ألمانيا أخر هذا الإجراء، فقد أتيحت للمصريين، في تشرين الأول عام (1944 م)، على أبعد تقدير، إمكانية العودة إلى وطنهم. أما ما صار إليه أمر سـائر الرفاق الراغبين في العودة فغير معروف. والحق أنهم حاولوا، في تموز، الوصـول إلى المقايضة أيضـًا عن طريق مساندة المفتي، وكذلك عن طريق مسـاندة الدبلوماسـي الألماني فِرنر أُتو فون هِنتِش، ولكن الملفات لا تقدم معلومات عن حدوث هذا.

ولا ُيعـرف على الإطلاق كم بلغ عدد المعتقلين من المدنيين العرب في أثناء الحرب العالمية الثانية، في ألمانيا، وفي المناطق المحتلة، كما أن البحث عن ضحايا النازية هؤلاء تجعله صعبـًا حقيقة أن كثيرًا من هؤلاء يمكن أن ُيشار إليهم في الوثائق، كما لاحظنا ذلك في البداية، بأنهم فرنسيون (وبريطانيون).

8/ 4] وقوع الجنود العرب، ولاسيما جنود الشمال الإفريقي، أسرى حرب

وأمـثال هذه الصعوبات في التعرف والتمييز تنطبق، بالقدر ذاته على فئة الضـحايا التي يُظن أنها الأكبر حجمـًا، ألا وهي فئة ضحايا أسرى الحرب من العرب. وذلك أنهم يُشار إليهم في المصادر غير المنشورة (واليوم) أيضـًا، في المصادر المنشورة، من دون استثناء تقريبـًا، بأنهم أتباع الدول التي خدموا في جيوشها؛ أي: إنه يُشار إلى الجزائريين، والمغاربة، والتونسيين، المنتمين إلى الجـيش الفرنسي، بأنهم فرنسيون. وتم تدعيم هذه الممارسة أيضـًا بأمر من القـيادة العليا للقوات المسلحة (OKW) مؤرخ في (16 حزيران 1941 م)، جلّـى «الشـكوك التي تثور مرارًا بصدد تبعته أتباع القوميات الأجنبية»، بقوله: «إن الزي الرسمي العسكري من حيث كونه إشارة خارجية إلى التبعية للقوات المسلحة المعنية، هو الذي يفصل في الأسرى[41]. ويضاف إلى ذلك أن أسرى الحرب العرب، الذين ينتمون إلى الشمال الإفريقي على الأغلب، كـانوا يعدون في الإحصاءات الألمانية مقرونين مع أهل السنغال ومدغشقر وسـائر الأفارقـة، وكذلـك الفيتناميين، في كثير من الأحيان، إجمالاً، من «السود والملونين»، ما يزيد في صعوبة تمييزهم.

وفي أثـناء الحملة العسكرية الفرنسية، وبعد الفراغ منها، كان يتم إيواء «الملونين»، وفيهم أسرى أفارقة الشمال، من الجيش الفرنسي، في معسكرات خاصـة بالجـبهة مخصصـة لكـل جنس على حدة (Fronstammlagern, Frontstalags) كانـت أقيمت على الأرض الفرنسية المحتلة، وكانت المسألة تـتعلق، في هذا الصدد، قبل كل شيء بالمعسكر (121) (إبينال)، و(122) شـومون، و(124) جوانيي، و(132) لفال، و(133) رن، و(135) كيمبر، و(141) فيسول، و(153) شارتر، و(161) نانسي، و(181) سومور، و(184)

أنغولـيم، و(190) شـارلفيل، و(194) شالون-سر-مارن، و(195) أنس-لاهـاري، و(200) فـرني، و(221) سان-مدارد، و(222) وبيون-أنغليه، و(230) بواتييه، و(232) سافيني-لوسُن[42].

ومـع أن الحديث يدور في المصادر، عن أن أسرى الحرب «الملونين» قد تم إبعادهم عن حدود الرايخ[43]، فإنه كان يتم إيواء كثير منهم، أول الأمر، في معسـكرات أسرى الحرب الذين هم دون مرتبة الضباط (Stalage)، وفي الرايخ القديم، وفي النمسا التي ضُمت، وفي المعسكرات المخصصة لكل جنس عـلى حـدة المقامـة في بولندا. وبصرف النظر عن معسكرات ستابلاك، وهونشتاين، ونويبرندنبورغ، وهمرشتاين، وستارغارد، ولكنفلده، وفرستنبرغ/أودر، وملـبورغ، وإلسترهرسـت، وموزبـورغ، وزغـان، وتسيغنهاين، وألِتـْنغرابوف، وفلنغزبستل، ونورنبرغ، وكيزرشتاينبرُخ، وغنيكسِندورف-كرمس، وتُرن، وشيلدبرغ، وفلشتاين[44]، كان أسرى الحرب العرب، كما ثبـت، أيضـًا، يعودون إلى المعسكرات المخصصة لكل جنس على حدة، وهـي بـرلين، وهونشـتاين، وهِمـر، ونوي-فرزن، وباتُرن، ودورتمند، وزندبسـِتل، وملـبورغ، وفرنكنتال، وبليزمينِغن-بلشِن، وماركت بونغاوْ، وكذلك معسكرات الضباط المصنفة تبعـًا للأصل (Offiziersstammlager, Oflags)، وإلسترهُرسـت، وسست، وإدِلْباخ. أما أفارقة الشمال، وكذلك المصريون والفلسطينيون والسوريون الذين أُسروا، على وجه الخصوص، عند زحف الحلفاء على أيطاليا، في عام (1944 م)، فقد جيء بم إلى المعسكرات المخصصة (Stalags) ألتنبورغ، وأفنبورغ، ولمزدرف، وسغان. وأما المعسكر (Stalag 194) في غتنهايم، في المنطقة الدفاعية الخامسة، فكان يستوعب حوالي نماية الحرب، فوق ذلك، "الملونين" من المعسكرات التي تم إخلاؤها في فرنسة وبولندا والنمسا[45].

وباستثناء نزلاء المعسكرات المذكورة أخيرًا، كان يجري تحويل الأسرى «الملونين»، بما في ذلك الأسرى العرب الموجودين في معسكرات العقاب (Stalags)، بدءًا من شتاء عام (1940 م)، خطوة فخطوة، وحتى نهاية عام (1942 م)، إلى معسكرات العقاب على الجبهة، ويجري تجميعهم في النهاية في المعسكرات الملائم من الوجهة المناخية (184، 195، 221، 222) بما في ذلك الواقعة في جنوبي فرنسة. ودخل في هذا الباب أيضًا الأسرى الحربيون البالغ عددهم (115)، من الشمال الإفريقي، (61) جزائريًا، و(52) مغربيًا، وتونسيان، والذين تم تحويلهم بين تشرين الثاني عام (1943 م) وحزيران (1944 م) من المعسكرات العقاب على الجبهة، في شمالي فرنسة، في شارتر، ورن، وكذلك من ألديرنيّ، إلى جزيرة جِرزي الواقعة في بحر الشمال[46].

ولا يتوافر الوضوح في صدد أسرى الحرب العرب، من قبل ومن بعد، وعلى وجه الخصوص، أسرى شمالي إفريقية. أما السبب الرئيس في ذلك فهو الإجمال الذي سبق الحديث عنه، والذي كثيرًا ما يمارس في الإحصائيات الألمانية، عند الحديث عن «السود الملونين» في معسكرات العقاب، على الجبهة، وفي معسكرات العقاب في الداخل، والاستعمال الخالي من أي عوائق أو اعتبارات، لأرقامها، في المراجع. ولم يجتهد سوى بلقاسم رحام في مراجعة المعطيات المتباينة وتدقيقها، حيث لم يُراعِ في أثناء ذلك معسكرات العقاب، بالطبع[47].

وعلى أساس أبحاثه، وحساباتي الخاصة، يمكن إعادة تركيب الصورة التالية، مثلاً: كان يوجد، من بداية الحرب إلى الاستسلام الفرنسي، في حزيران عام (1940 م)، في معسكرات العقاب في الجبهة، نحو (67400) من أسرى الشمال الإفريقي[48]. وفي معسكرات العقاب في شهر ماي المذكورة آنفًا (ولم أستطع أن أجد الأرقام من أجل المعسكرات التي توصّلتُ إليها، حتى الآن بصورة إضافية)، سُجل، في الوقت ذاته (28722) «ملون». فإذا أدخل المرء

في حسبانه، أن نحو (65%) من المذكورين في الإحصائيات «سودٌ وملونون»، كما تدل على ذلك الخبرة والتجربة، أضف إلى ذلك حوالي (1875) أيضًا، ويأتي الرقم الناتج عن هذا، وهو (86100) أسير، قريبًا من الرقم الذي يذكره إيف شاتيل (Yves Chatel) في كانون الثاني (1941 م)، ويشكك فيه بلقاسم بغير وجه حق، كما هو ظاهر للعيان، وهو (90000)[49].

وإذا أدخل المرء في حسبانه أنه قد تم، فيما بين آب (1940 م) وشباط (1941 م)، إطلاق سراح (38145) «ملون»، يُقَدر أن بينهم (24800) أسير حرب من شمالي إفريقية[50]، أطلق في تموز (1941 م) سراح نحو (12000) آخرين[51]، نجم عن ذلك عدد يصل إلى نحو (49300) نسمة. وهو رقم يأتي قريبًا من الرقم الذي ينقله بلقاسم، عن تشرين الأول، وهو (44000)[52]. وقد تضاءل حتى نهاية عام (1941 م)، ولاسيما من جراء تسريح المرضى وأرباب الأسر، حتى وصل إلى (39000)[53]. وحتى خريف عام (1943 م) كان يتراجع عدد الأسرى، على وجه الخصوص، عن طريق التبادل (Releve) وتبدل الوضع[55]، وكذلك من جراء الهرب[56]، إلى أن وصل إلى ما لا يكاد يبلغ (22000) أسير، مرتدًا إلى الوراء ارتدادًا أبعد[57]، ليتصاعد في صيف (1944 م)، مرة أخرى، فيبلغ (25000) وحتى (35000)[58]. وكان السبب في ذلك أسرُ أفارقة الشمال والجند العرب الآخرين من جيش (فرنسة الحرة)، ومن الجيش البريطاني، ولاسيما عند زحف الحلفاء في إيطاليا.

أما معاملة أسرى الحرب من العرب في المعسكرات فلا يتوافر عنها حتى الآن إلا القليل من المعلومات المؤكدة. فلا المخطوطات التي يتم تناقلها بقدر غير كاف، ولا التجاريب المنشورة لشركاء في الاعتقال من «البيض»، ولا مراجع البحث، يُقدمْن حول هذا ما يكفي من المعلومات، فضلاً على مسألة كون هذه المعلومات محصلة بأسلوب منهجي، ولا تكاد تُعرَف ذكريات العرب عن الأسر.

لقــد كان يتم إنزال أسرى الحرب من العرب، مثل غيرهم من «السود والملونــين»، في المعسكرات المتخصص (Stalage) في الجبهة[59]، ويُظن أنه كــان يــتم إنــزالهم أيضــًا في معسكرات العقاب في الداخل، في الأقسام الخصوصــية. وكــان هذا الإيواء يحدث على نحو متوافق مع اتفاقية جنيف الخاصة بمعاملة أسرى الحرب، والمبرمة في عام (1929 م)، التي يترتب بموجبها العمــل قــدر الإمكان على تجنب وضع الأسرى الذين ينتمون إلى أعراق وجنســيات مخــتلفة في معسكر واحد»[60]. كما كان تحويل الأسرى من معسكرات العقاب (Staglage)، وأخيرًا تركيز وجودهم في جنوبي فرنسة، ما دام ذلك يتماشى «لأسباب مناخية»، مع اتفاقية جنيف[61]. وبالطبع فإنه لا يمكــن أن يغيــب عن بالنا أن تحويل الموقع إلى «مناخ أكثر دفئــًا» كان يرتــبط، عــلى وجه الإطلاق بمتطلبات تمس الاقتصاد الحربي، لقد كان من الممكن، كما قررت ذلك (القيادة العليا للقوات المسلحة*/ OKW) في أيلول (1942 م)، أن يــتم إرجــاع أفراد معينين، مع مراعاة جهد العمل المبذول، ولاسيما في الزراعة[62].

ثم إن إطلاق سراح أسرى الحرب من الشمال الإفريقي لم يكن، كذلك، مجــرد تصرف إنساني بموجب اتفاقية جنيف[63]، بل كان يُدخل في الحسبان وجهات النظر المتعلقة بالاقتصاد الحربي مثلما كان يُدخل فيه وجهات النظر الدعائية أيضــًا: وكما أكدت السفارة الألمانية في باريس لوزارة الخارجية، في تشــرين الأول، «مــا كان هذا التحرير الأسرى ليعني إثقالاً على سوق العمــل» وفي الوقت ذاته، كان «في نطاق ضيق من أجل الإسهام في تحسين الحالة النفسية في شمالي إفريقية»[64]. وسرعان ما أضيف إلى ذلك شيء آخر. فحــين أوصت الوزارة، بعد نزول الحلفاء في شمالي إفريقية، في تشرين الثاني عــام (1942 م)، بإطلاق سراح أسرى حرب آخرين من الجزائر والمغرب، حدث هذا مقترنــًا بالتوقع الصريح لأن يتطلّعون بحرارة وحماسة، إلى العودة

إلى موطنهم، بعد حدوث تعديل سياسي» وأن يحدث احتكاك غير مستحب مـع (سلطات جيرو)، وأن لا يكونوا مستعدين للخدمة العسكرية بحال من الأحوال، وأن يثيروا لدى الفرنسيين أشكالاً من التبرم، وتكدير الصفو»[65]. وإذًا فقـد كان ُيفترض أن يؤدي قُدوم من أُطلق سراحهم «إلى نقل عنصر مُـنغص مزعج إلى منطقة العدو»[66]. وما هو جدير بالذكر في هذا السياق أن مديـر المقـر الرئيس لمنظمة (وحدات الدفاع) غُتلُب ِبرغر، اقترح على الضـابط (Reichsführer) في صيف عام (1944 م)، أن يخطب وُد متطوعين مـن أسرى الحرب المنتمين إلى شمالي إفريقية، ومن أجل مكافحة العصابات واللصوص، في فرنسة، ما دام هؤلاء الملونون جنودًا في المقام الأول، ويريدون أن ُيسـتخدموا بـهذه الصفة. وكانت تعبئة هذه القوات في حركة المقاومة الفرنسية ذات أهمية قصوى، وكانت خليقة بأن تكون ذات فعالية أكبر من تعبئة العسكر الذين لن يتوجهوا إلا على مضض ضد مُواطني بلدهم»[67].

وكـان مـن الأمـور التي يمكن الاستفادة منها على الصعيد الدعائي، أيضـًا، الإمكانات الممنوحة لأسرى الحرب من العرب المسلمين لممارسة ديـنهم في المعسكر[68]. فبموجب (اتفاقية جنيف)[69]، وعلى أساس توجيه القـيادة العليا للقوات المسلحة، المؤرخ في (1941/05/12 م)[70]، كان من الممكـن، في كـثير من معسكرات الجبهة المتخصصة، إقامة صلاة الجمعة، والاحتفال بالأعياد الإسلامية الكبرى. وقد حدث هذا على نحو يمكن إثباته في المعسكرات ذوات الأرقام: (132، 153، 161، 181، 184، 190، 195، 222، 230، 232)، وعـلى نحو جزئي في قيادات عملهم. أما في معسكرات الجـبهة المتخصصـة ذوات الأرقـام (132) لفال، (181) سامور، (184) أنغولـيم، (230) بواتييه، فكانت توجد مساجد[71]. ومن الجائز أن يكون المسجد الوحيد المُقام في معسكر فرعي في غرُسِين تابع للمعسكر المتخصص (Stalag III D)[72]. وكانت العبادات والطقوس التي كان يترتب، بالمناسبة،

أن يشـارك فيها ضباط دفاع ألمان مع تراجمة، يديرها أئمة، وبالتالي، شيوخ (Marabut) تابعين لأسرى الحرب من نُزلاء المعسكر. أما اقتراح إمام مسجد بـاريس، قدور بن غبريت، إرسال رجال دين مدنيين من الشمال الإفريقي للإشراف على الأسرى العرب المسلمين في الرايخ، ومنهم أولئك الموجودون في المعسـكر التخصصي لُكنفلده، فقد رفضته القيادة العليا للقوات المسلحة لأسباب متعددة، منها الهواجس الأمنية الكبيرة[73].

وكـان يفترض، في صدد رعاية أسرى الحرب من العرب المسلمين، أن تؤخـذ في الحُسبان، أيضـًا، من حيث المبدأ، التعاليم الدينية، ومن ذلك أن مديـر المبيت لدى قيادة شمال غربي فرنسة، أصدر تعليماته، في (1943/09/18 م)، بـتقديم لحم البقر، أو الضأن بدلاً من لحم الخـنـزير، وعدم تقديم المقدار المعـين مـن الدسم في صورة شحم أو دُهن خـنـزير، بل يستعاض عن هذين بدهـن الضـأن أو البقر، أو السمن النباتي. أما الجريش (أو البرغل) اللازم لتحضـير الكسكسي (أو المغربية) (وهي الطبخة القومية عند المسلمين[؟!]) فيجب أن تكون حباته خشنة قدر الإمكان. ويجب توزيعه في إطار «المقدار المحـدد للمواد النشوية والمتلائم مع وحدة الطاقة الثانية المقدرة بالمتر/ كيلو غرام» مع جعله مرتبطـًا بسائر الظروف الخارجية الأخرى[74].

ولم يكـن دفن الموتى من أسرى الحرب العرب المسلمين وفقـًا للتعاليم الإسـلامية، بالطبع. وعلى كل حال فهناك خط توجيهي «لدفن الموتى من أسرى الحرب الفرنسيين» صادر عن القيادة العليا للقوات المسلحة في (30/ 1942/01 م)، قـرر أن مـن الواجـب دفن الموتى الذين يتبعون ديانة غير مسـيحية، على نحو دنيوي لائق»[75]. وما من شك في أنه تم إقرار وجوب تـزويد القـبر برمز يتماشى مع الطقوس الدينية، وهو «الطربوش» في حالة المسـلمين[76]. وكان من الواجب تدوين الكتابة بالنقش على الحجر، على شـاهدتي القـبر بالألمانـية[78]. وكان المسلمون بين أسرى الحرب العرب

يُدفنون، مثل أتباع الديانات الأخرى، وبالتالي، المذاهب الأخرى، في العادة، في مقابر منفصلة.

وكانـت الأشـكال التي تعبر عن الحياة الدينية عند أسرى الحرب من العرب، تدخل ضمن موضوعات الدعاية الحربية الألمانية. وتثبت هذا رسائل القـراء، مـثل رسالة الجزائري محمد الحسن الورتيلاني، عن عيد الفطر في المعسـكر[79]. أو الرواية المتعلقة بدفن الضحايا من المسلمين لقصف الحلفاء (معسـكر عقـاب) في الجـبهة[80]. وكانـت تظهر في صحف تنتشر في المعسكرات كما تنتشر بين السكان المدنيين في شمالي إفريقية والشرق الأدنى، وكان يدخل في الفئة الأولى صحيفة الأسرى العربية التي كان يجري تحريرها منذ (1941/05/15 م)، ويجري توزيعها على وجه الخصوص في معسكرات الجبهة، وهي ‹لسان العصر›[81] والصحيفة العربية التي كانت تصدر منذ عام (1940 م) في معسكر لُكنفلده (III A Luckenwalde)، وهي ‹(الهلال)›[82]، وصحيفة ‹تريه دنُيون [إشارة الوصل]/ Trait d’Union› المعدة لأسرى الحرب الناطقين بالفرنسية. وكان يدخل في الفئة الأخيرة على وجه الخصوص، المجلة الـتي تصـدر بالعربـية، وهـي ‹بريد الشرق›[83]، والتي كانت تُقدم إلى معسكرات الجبهة[84].

ومـع أن أمثال هذه التقديرات والاعتبارات، وغيرها، المرتبطة بالتكتيك الحربي والدعاية الحربية لا يمكن أن يرد الحديث عن معاملة "تفضيلية" لأسرى الحـرب من العرب (المسلمين)، كتلك المعاملة التي حدثت، مثلاً، في الحرب العالمـية الأولى[85]، وباتـت يُطالب بها الآن، من حين إلى آخر[86]. وكان الأسـرى يشـكون، ولاسيما في سنوات الحرب الأولى، مثلما كان يفعل المفتشـون الفرنسيون التابعون لبعثة سكابيني، من الإيواء «الكارثي في كثير من الأحيان»، في معسكرات الجبهة والمعسكرات العادية، التي كانت لايكاد يتوافر فيها تحضير للتغطية[87]. كانت الكسوة الرديئة والرعاية غير الكافية[88]

تسـهمان في ارتفاع نسبة الوفيات على وجه الخصوص في معسكرات شمالي فرنسة، وفي الرايخ وكان الأسرى يموتون على وجه الخصوص، بداء السل، كما كان آخرون يموتون من أمراض الرئتين والزحار[89].

وكانت تسود ظروف سيئة على وجه الخصوص في قيادات العمل، الجمة العدد في معسكرات الجبهة. ففي عام (1943 م) ساند هناك نحو عشرة آلاف أسير حرب عربي الـهودات الحربية الألمانية، على وجه الخصوص، في إنشاء التحصـينات، كمـا ساند نحو (1400) في صناعة التسليح[90]، وتم توجيه أكثر من خمسة آلاف للعمل في الزراعة والحراج، ولاسيما في جنوبي فرنسة. وكان الأجر الضئيل، الذي يبلغ في العادة (10) فرنكات، أو (0,70) مارك إمبراطوري (Reichsmark, RM)، مقابل يوم عمل مدته ثماني ساعات، وحتى اثـنتي عشرة ساعة، يـ ل بم على أية حال إلى الدرك الذين يكابدون عنده الجهد والمشقة في تأمين مواد غذائية وتبغ[91].

ولم يتحقق تحسين أحوال المعيشة السيئة في المعسكرات إلا عن طريق ما سبق ذكره من إجلاء «الأسرى الملونين» لنقلهم إلى معسكرات جبهة ذات موقع أكثر ملاءمة من الوجهة المناخية، وكذلك عن طريق إمكانية أن تتاح لهـم فرصة تلقي رُزم الهدايا الودية من اللجنة الدولية للصليب الأحمر ومن مـنظمات العون الأخرى. وكان ممن أسهم في هذا إلى درجة معينة (دائرة الخدمـات الدبلوماسية لأسرى الحرب) التي أنشأتا حكومة فيشي» بإدارة جـورج سـكابيني. وهذه المؤسسة التي يطلق عليها، باختصار، اسم (بعثة سـكابيني)، ومقـرها في باريس، كانت تنهض بمهمة الإشراف على أسرى الحـرب الفرنسـيين في معسكرات الاعتقال في دول المحور. وبعد الزيارات الـتفقدية، وعمليات الاستفسار عن مواقف الأسرى، لفت ضباط مدنيون وعسـكريون أُرسـلوا مـن قِبلها أنظار الجهات المعنية في الرايخ، في بعض الأحيان إلى النواقص، وتمكنوا في بعض الحالات من التوصل إلى تحسينات.

أمـا حـالات الاعـتداء العنصـري، بل المذابح، كما تم تصويرها في الأدبيات[92]، ضد أسرى الحرب من العرب السود، فلم تُعرف حتى الآن، ضـد العرب. وهذا لا يعني، بحال من الأحوال أن هؤلاء لم يضطروا إلى أن ينـالوا أيضـًا من المعاملة المنطوية على ألوان من العَنَتِ وإلحاق الأذى، والتي تجرد الإنسان من كرامته، في المعسكرات، ومن ذلك أن أسير الحرب البولوني، ميكولاج كابان، الذي دخل المعسكر الخاص (Stalag XVII A)، يـتذكر «كـان من النادر أن يحدُث ضربٌ بولوني أو فرنسي، وفي مقابل ذلك كان المغاربة يلقون معاملة أسوأ، وكان اليهود يلقون أسوأ المعاملات قاطـبة»[93]. وفي معسـكر كايزرشتينبرُخ، أجريت، في تموز، وفي تشرين الـثاني عـام (1940 م)، فـيما أجري من تجارب على أسرى الحرب من الشمال الإفريقي، أبحاث «فيزيولوجية، عنصرية» و«أنثربولوجية» تمت فيها عملـيات سحب دمٍ، وإجراء قياسات على الرأس، واصطناع أقنعة للوجه من الجص[94].

والحق أن عزل وتركيز أسرى الحرب من العرب، والآخرين من الملونين، المحرمين بموجب اتفاقية جنيف، أتاحا وسهّلا، على السواء، استعمال الألمان الصـحائف الطباعـية المسبوكة النمطية في المعاملة الإدارية والعملية لـ لاء المعسـكر. ففـي منشور يُظن أنه تم توجيهه بُعيد بداية الحرب إلى السكان الألمـان، حـول الـتعامل مع أسرى الحرب البولونيين والأوربيين الغربيين و«الملونين»، ورد في هذا الصدد قولهم: «ولكن تُضاف إلى ذلك الآن لحظة جديـدة: الفرنسيون الملونون!. وإذا لم يكن هؤلاء، بصورة مؤقتة، معبئين للعمل، فإن احتكاكهم، مع مرور الزمن، بالسكان المدنيين ممكن، وفي حالة التعبئة النهائية، اللاحقة يكون ذلك من المستيقن. ولا يكاد يظهر الملونون في صـورة ناقلين للأخبار بسبب افتقارهم إلى الذكاء، ولكن غرائزهم البهيمية المعـروفة لا يجوز أن تنتهي إلى الانطلاق بأي صورة كانت. وسوف ترفض

الغريزة السليمة التي ينطوي عليها الشعب الألماني كل تعامل مع ناقلي النظافة الملونين، وينأى بم عن نفسه، غير أن الاستثناءات تؤكد القاعدة في كثير من الأحيان!. فمَن يسترسل في التعامل مع الملونين بأي كيفية كانت من دون أن يكـون ملـزمـًا بالإشراف عليهم بحكم عمله الرسمي، يُستدعى للمساءلة بموجـب (قـانون حماية الطاقة الدفاعية للشعب الألماني)، هذا فضلاً على الاستدعاء للمساءلة بموجب القوانين العنصرية، ويترتب على ذلك، لا محالة، ومـن دون حق الاستئناف، السجن، بل عقوبة الإعدام، في بعض الظروف، لكـلا الطـرفين»[95]. وفي كانون الأول عام (1942 م) صاغ آمر معسكر الجبهة ِبرُن، فون شيربرندت، في (مذكرة لحراسة أسرى الحرب من الملونين الفرنسـيين)، يقول فيها: «إن أسير الحرب الفرنسي الملون رجل من شمالي إفريقـية . . محمـدي، ويجـب احترام تقاليده الدينية، ولا يجوز منعه من ممارسـتها، ولاسيما في أيام رمضان. وهو لا ُيعد عاملاً جيدًا، فهو كسول، خـامل، شـرقي حقـًا، غير أنه يغدو راغبـًا في العمل في حالة التوجيه الكـافي، ثم إنـه ليس بالغبي، بل يظهر في المناسبات الخاصة، مكرًا، ولباقة ومـرونة عـلى نحو مفاجئ. ثم إنه ليس بالخطر، ولا بالذي لا يمكن فهمه، كالبلشـفي، غـير أن مـن الصعب سبر غوره. إنه لا يفهم سوى السيادة المطلقـة، التي تعامله بإنصاف، ولكن باختصار وبحدة»[96]. وما يتلاءم مع هذا الأمر الإداري الصادر عن مدير المبيت والإيواء في القيادة العليا للجيش، والمـؤرخ في (1940/6/22 م)، ومـؤداه أن «الملونين» يمكن أن يستخدموا خدمـًـا للضباط المأسورين[97]. ولا يجوز أن تكون موضوع الشك حقيقة أن أمـثال هـذه البلاغات العنصرية كانت تحدث آثارها في سلوك طواقم الحرس وفي سلوك السكان تجاه أسرى الحرب العرب، وفي المعسكرات، كما في قيادات العمل، على السواء.

8/ 5] استخدام العمال العرب وإلزامهم بالخدمة في فرنسة وشمالي إفريقية

لم يُتخذ العمال العرب، ولاسيما العمال الأجانب والعاملون في السخرة، من شمالي إفريقية، في ألمانيا النازية، في أي مكان، حتى الآن، موضوعاً للمناقشة. غير أن الأدبيات التي باتت في هذه الأثناء واسعة النطاق للغاية، والتي تتناول تعبئة العمال الأجانب في خدمة الاقتصاد الحربي للرايخ الثالث لا تذكر هذه الفئة من الناس، بل لا تذكرها حتى بصفتها مادة مرغوبة من أجل البحث[98]. وبصورة أساس لهذا لا يمكن أن تفترض، بطريقة منصفة، سوى الصعوبات التي سبق ذكرها، أي: صعوبات التمييز بين العمال الأجانب والعمال الفرنسيين، الذين يجري التعداد بحقهم، هم أيضاً، في المراجع، من التزامهم الصمت حيال تلك الصعوبات. أما تجاه التقديرات الأخرى، كالتقديرات الكمية، فقد أمكن استبعادها بالنظر إلى عددها الكبير.

لقد كان استخدام العمال الأجانب العرب، وعمال السخرة، وإلزامهم، يتمان، من حيث المبدأ، في الإطار الزمني والتنظيمي ذاته، وبالإيقاع ذاته الذي يكون في حال العمال الفرنسيين: فحتى خريف عام (1942 م) يتحدث إيف دوران عن الإلزام الفردي بالعمل للرايخ، أي: العمل الطوعي إلى أبعد الحدود، منذ (عملية التبادل/ Releve) وحتى شباط (1943 م)، أي: عن (الطوعية القائمة على القسر)، والعمل بالسخرة بموجب المفهوم الذي نادت به حكومة فيشي، وهو (خدمة العمل الإلزامي/ STO). وبعد الهدنة مباشرة، كان قد تم وقف الهجرة الإجبارية للعمال الزائرين لمساندة مجهودات الدفاع الفرنسية. وحتى عام (1941 م)، أعيد نحو (14000) من المهاجرين الجزائريين من أجل العمل، الذي جاءوا مجيئاً طوعياً بدرجة تقل أو تكثر، إلى وطنهم، ويُظن أن ذلك حدث بسبب الهواجس الألمانية

بصـدد الأمن. ولكن بعد غزو الألمان الاتحاد السوفييتي، وعلى أبعد تقدير، في مسـتهل عام (1942 م)، بدأ مجددًا استخدام المهاجرين من أجل العمل مـن الشمال الإفريقي. وبينما ظل هؤلاء في المغرب وتونس دون مستوى التوقعات»[100]، لقي هذا صدىً وتجاوبـًا بين صفوف الجزائريين على نحو واضـح جلي، وكانوا يلتزمون، مقابل أجرة ساعية قدرها سبعة إلى ثمانية فرنكات، بالعمل لصالح المؤسسات الفرنسية في الجزء غير المحتل من فرنسة. ومع ذلك وبعد أن لم يحافظ أرباب المشروعات على اتفاقاتهم بصدد التعاقد عـلى العمل أو حافظوا عليها جزئيـًا فحسب، انقلبت أعداد جمة منهم، كمـا يكتب جان-جاك راجيه، قائلاً، ولا سيما القبائل، إلى ألمانيا، وهناك عُرِضَـت عليهم شروط أكثر ملاءمة، وفيها إجازة مع دفع تكاليف العودة، كل ستة أشهر، أو اثني عشر شهرًا[101]. وفي أيار عام (1942 م)، أرسلته، عـلى سـبيل المـثال مصـانع الكيماويات لوينا الألمانية، من جهتها هي خصوصـًا، وكيل دعاية ليجند يدًا عاملة بين المهاجرين من شمالي إفريقية، وروى هذا قائلاً: «لقد تحدثت بشخصي إلى بعض الجزائريين الذين خلفوا لـدي انطباعـًا يوحي بتمتعهم بالصحة، والصلابة، وكانت المسألة تتعلق بمسـلمين لا يشربون المشروبات الكحولية لأسباب دينية، ويحرصون على الاقتصـاد في الإنفاق، وتلقى أولئك الذين استجابوا لدعوتنا مبلغ (1000) فرنك لكل نفر[102].

وبعـد إعلان التبادل في حزيران عام (1942 م) أعلن عن قدومهم لدى القنصـلية الألمانـية في الجزائر بضعة آلاف من الراغبين في التعبئة العمل في الـرايخ، فأحـيلوا إلى دوائـر العمل الإقليمية في ولاية الجزائر، وقسنطينة ووهران، التي سجلت بضعة آلاف من المرشحين، واجتمعوا للنقل. ويقال إن كثيرًا من الراغبين لم يروا ألمانيا بالطبع أبدًا، إذا استخدمتهم (منظمة تودْت/ OT)، ولاسيما في فرنسة المحتلة[103].

على أن نزول الحلفاء في شمالي إفريقية وضع نهاية لتجنيد القوى العاملة في الجزائر والمغرب منذ تشرين الثاني عام (1942 م)، كما فعل ذلك في وقت لاحق أيضًا، في تونس. ومن أجل لم يستطع الالتزام القسري الذي بدأ بُعيد ذلك، في سياق (خدمة العمل الإلزامي) من قبل اليد العاملة الأجنبية أن يصل بعدُ إلا إلى المهاجرين من الشمال الإفريقي من أجل العمل، الذين يعيشون في فرنسة.

أما عدد العمال العرب، الأجانب والعاملين في السخرة، الذين ثبت وجودهم في كل أرجاء الرايخ وفي المناطق المحتلة تقريبًا فتحديده أصعب بما لا يقبل المقارنة من تحديد أسرى الحرب والمعتقلين، ويكاد يبدو مستحيلاً. وإذا صرفنا النظر ذات مرة عن إشكالية التعرف والتمييز، فإن ما يزيد في صعوبة البحث عنهم، على وجه الخصوص، العدد الضخم، وعدم إمكانية الإحاطة، بنظرة شاملة، بأماكن تشغيلهم، وكذلك ضياع الأوراق الثبوتية ذات الصلة بالموضوع والتي تعود على الأشخاص. أما بنوك المعطيات التي كان من الممكن أن تُسهل تمييزهم وتحديد أعدادهم فلا وجود لها حتى الآن. وأما عمليات الجرد الخصوصية التي تستطيع أن تساند البحث عنهم في المحفوظات، فلا تتوافر إلا متفرقة، فرادى[104]. أما المعطيات الرقمية الضئيلة، وغير الكافية البتة، في المراجع، فلا ترجع، في العادة، إلى عمليات بحث وتمحيص قائمين على الأسلوب التجريبي عند الباحث ذاته، بل تعود، في كثير من الأحيان، من دون نقد، إلى معطيات متناقضة فيما بينها، مأخوذة من إحصائيات قديمة، كما أنها تكاد تقتصر، في حالتنا، على الجزائريين حصرًا.

ويفترض أن يكون جاء، على مر طور الاستخدام الأول بعد الهدنة، أقل من ألفي مغربي، وما بين (550 و8000) جزائري إلى فرنسة الخاضعة لحكومة فيشي، «الموصلة منهم، في إقليم مرسيليا وحدها نحو (400) ذهبوا إلى

ألمانيا»[105]. وبعد التبادل يجوز أن يكون غادر نحو (14000) جزائري آخر موطنهم ليعملوا لصالح ألمانيا[106]. وقد كان كثير منهم، ولاسيما بعد إدخال منظمة تودْت (خدمة العمل الإلزامي)، يُطلب بإلحاح شديد. ففي عام (1944 م) يقال إن (19000) فحسب عملوا لصالح هذه المنظمة، وهو الأمر الذي يبدو مبالغاً فيه بالطبع[107].

أما أفارقة الشمال فكان من الممكن استخدامهم، مثل الأجانب الآخرين، من قبل المؤسسات الفرنسية والألمانية، الفرعية، وكذلك مباشرة من قبل مكاتب الاستخدام العائدة لمنظمة تودْت، أو إلزامهم بالخدمة من قبل مكاتب العمل المحلية، لصالح هذه المؤسسات[108]. وكانوا يستخدمون على وجه الخصوص ضمن (مجموعات التدخل الغربية)، هنا على وجه الخصوص، في حالة (قيادة البناء العليا/ OBL)، في شربورغ وسين[109]، وفي جزر بحر المانش[110]، وفي (مجموعة التدخل بسكايا)[111]، كما استُخدم بعضهم أيضًا ضمن مجموعة التدخل في ألمانيا. أما في الغرب فقد أسهموا قبل كل شيء في بناء تحصينات الأطلسي ومنشآت التحصين العسكري الأخرى، وفي استكمال إنشاء المطارات وتحضيرها، وفي إنشاء مخابئ الغواصات.

وفي مضمار التراُتب الهرمي للعاملين في منظمة تودْت كان من الجائز أن يدخل أهل شمالي إفريقية إما في عِداد «العاملين في الجبهة» و«المنتمين إلى عِرق غير جرماني»، وإما في باب «العاملين في التعبئة»، وأن يكون بذلك ارتدوا الحلة الرسمية[112]. وكانت الظروف الاجتماعية، في مستهل الأربعينيات لدى منظمة تودْت ماتزال جذابة نسبيًا: وكانت تُدفع للأجانب «أجور مغرية» ومكافآت وعلاوات خصوصية[113]. وكان هذا، ومعه المساكن النظيفة، والرعاية الكافية والإشراف الصحي الجيد هو الذي ربما حَمل كثير من المهاجرين العرب على العمل، في فرنسة، على أن يَدعوا منظمة تودْت تطلبهم، على الرغم من النظام شبه العسكري السائد هناك.

ولم يتغير هذا إلا مع التسوية الجديدة لنظام الأجور لعمال منظمة تودْت الأجانب العاملين في المناطق المحتلة، في شباط من عام (1943 م)، على أبعد تقديـر. فقد بات يتضح الآن التمييز (العنصري) والسياسي في مجال تقدير الإنجـازات الاجتماعـية، حيث كان عمال منظمة تودْت الأجانب يتلقون أجورًا أقل بصورة جوهرية مما كان يحصل عليه العمال الألمان، مع التماثل في شـروط العمـل، (بـين 0,65 و0,96 مارك إمبراطوري). وكان العمال الفرنسـيون، غـير الجرمان، الذين كان يدخل في عِدادهم، في العادة، أهل الشـمال الإفـريقي، يحصـلون على أجور أقل (بين 0,38 و0,50 مارك إمـبراطوري) مما كان يحصل عليه، مثلاً، العمال الفلاميين (الجرمان)[114]. وحتى العلاوات والتعويضات المرتبطة بالقروض الجانبية من أجل البناء لعمال منظمة تودْت الأجانب، تم تنظيمها تنظيمـًا جديدًا بما يتلاءم مع هذا: فقد كـان الفرنسيون والبلجيكيون والهولنديون يحصلون على (28% و36%) من القـرض الأساس، أما «الإسبان الحمر والمغاربة»، فلم يكونوا يحصلون، في مقابل ذلك، إلا على (23%) منه[115]. وكانت فروض مشابهة لهذه تنشأ عند مـنح الإجازات: فعلى حين كان عمال منظمة تودْت الألمان يحصلون على إجـازة سنوية قدرها (18) يومـًا، وإجازة خصوصية تصل إلى سبعة أيام، كـان العمال الأجانب لا يُعترف لهم، بعد ثلاثة أشهر، إلا بيوم واحد، عن كل شهر يتم تشغيلهم فيه، ومع ذلك «لم يكن من الضروري أن يُمنح هذا الـيوم إلا عـندما تسـمح بذلك متطلبات العمل». وأخيرًا كان الأجانب يضطرون، خلافـًا للألمان، إلى دفع إيجار عن الإيواء[116].

وفي مقابل ذلك كان في وسع المسلمين الموجودين بين العاملين في منظمة تـودْت مـن الشمال الإفريقي أن يحسبوا حسابهم على أساس انهم يحصلون على إجازة في أيام الأعياد الإسلامية، وعلى مواد غذائية إضافية. ومن ذلك أن (قـيادة البـناء العليا) في شِربورغ أوعز إلى الوحدات التابعة له بإعطاء

العمال من شمالي إفريقية، بمناسبة عيد الفطر، إجازة يوم مدفوع الأجر في الأول من تشرين الأول، وإتاحة الفرصة لهم للمشاركة في الاحتفال المركزي في كِركفي[117]. أما منظمة (الخدمة الاجتماعية في مواقع الأعمال/SSCT)[118] فقد كان يُعطى من قِبلها مقابل ذلك «لحم ضأن، وسميد»[119].

ولم تكن ظروف العمل والمعيشة عند العاملين الأجانب والعاملين بالسخرة، من العرب، تختلف اختلافًا جوهريًا عن مثيلاتها لدى عمال منظمة تودْت. والأمثلة التالية ترجع إلى أبحاث أُجريت، على وجه الخصوص في أقاليم برلين-برندنبورغ، وسكسونيا، وسكسونيا-أنالت وثورنجيا، وحدث هذا بسبب توافر عمليات جرد خصوصية، وبنوك للمعلومات، تحت التصرف، مثلما حدث هذا أيضًا بسبب وجود مراكز اقتصادية هامة للدولة هناك. على أن المعطيات التي تم الخروج بها لا تعد ذات تمثيل صحيح إلا بشروط، لأنها كانت بعيدة عن أن تكون مفصلة مستوفية لكل عناصرها.

وكان بين العمال الذين شملهم التحقيق، بأسمائهم البالغة (150) عاملاً من العمال الأجانب وعمال السخرة، من العرب (67) جزائريًا، و(22) مغربيًا، وتونسيان، ومصريان، وعراقي، منهم (61) يعملون في الأقاليم المذكورة، و(45) آخرون، في شركة الصناعات الكيماوية فارِبن في آوشفتس. وكان من الباقين من يعمل في مصانع الدولة التي تحمل اسم هِرمن غورنغ في غبهاردزهاغن، وهلندرف، وفاتنشتدت، وكان منهم من يعمل في شركة الأسلحة دورنييه، في فريدركسهافن.

وفيما يخص الطور الأول من تعبئة العمل بين عام (1940 م) وصيف (1942 م)، في برلين برندنبورغ وسكسونيا، وثورنجيا، وجود ما لا يقل عن (20) عامل جزائري، ومغربي وتونسي، وقد خُصص معظمهم للعمل لدى شركة توريد الأسلحة التي تُدعى (لايبتسغر متالغُس المحدودة). وكانت لهم، في العادة اتفاقيات على مدى نصف عام أو عام كامل. وراوحت أجورهم

الساعية بين (0,40 و0,70) مارك إمبراطوري. وهكذا كان العامل في صهر المعـادن محمد أحمد بن مبارك، وهو أب لأربعة أطفال، يكسب (0,70) من مـارك إمـبراطوري، ويحصل في كل شهر، على (700) مارك إمبراطوري، مقـابل ابتعاده عن أسرته. وكان السباك العَزَب، علي شقرون، يحصل على (0,64) مـارك إمبراطوري، ومعها (600) مارك إمبراطوري، علاوة مقابل الابتعاد عن منطقته. وكان يتم إيواء كل العمال في مساكن خاصة بالمؤسسة أو في معسكرات عائدة لجبهة العمل الألماني (DAF)**[120]**.

ولم يُعرف من الطور الثاني، بين صيف عام (1942 م) وربيع عام (1943 م)، سوى اثني عشر جزائريـًا ومغربيـًا، إذ كان معظم هؤلاء يعملون في محيط برلين-براندنبورغ، وفي أماكن أخرى، منها (الشركة العامة للكهرباء/ AEG) في بـرلين وهنغزدُرف، ومصانع سيمـ -شُكِّرْت في مصانع (برلين سيمـ - شـتدت)، وفي مصـانع دايملـر-بـ [أي: مرسيدس. ز م] في غـ هاغن، وراوحت مدة اتفاقياتم بين عام**[121]**، وعامين ونصف العام.

وقـد تم تجنيد معظم العمال العرب الذين تم الكشف عن أحوالهم، أي: (34) عـاملاً على الأقل، بعد إدخال (خدمة العمل الإلزامي)**[122]**، وكان مـنهم (16) في بـرلين-براندنبورغ وحدها، وثمانية في سكسونيا، وستة في ثورنجيا.، وعلى قدر ما هو معروف، ما عادت عقود العمل تنتهي بأقل من عام. وكانت الأجور المدفوعة الآن شديدة التفاوت تبعـًا للإقليم والمؤسسة، وكانت تشير، على وجه العموم إلى جنوح إلى الهبوط. فبينما كان خرّاط ما في القـوات المسـلحة يكسِب، في آب عام (1943 م)، في (مصانع كتبوس لـلآلات)، بَعـدُ (0,70) مـارك إمبراطوري**[123]**، كانت (شركة المصانع السكسونية المساهمة/ ASW) في إسبنهاين تدفع للعامل العَزَب في مصنع فحم الكوك، محمد ريميشي، في حزيران من السنة ذاتا، (0,68) مارك إمبراطوري**[124]**.
وبلـغ الأجر السنوي لعامل الآلات حسين ك، في الشركة العامة للكهرباء

(AEG)، في هـنغزدُرف (2564,01)[125] مارك إمبراطوري، وكان المصري رالـف س، في مصنع المنسوجات في غوبن، في كانون الأول، لا يحصل بعد إلا على (79,56) مارك إمبراطوري[126]. وكان يضاف إلى ذلك، في معظم الحـالات، أشكال من الخفض أو الحسم من أجل أمور متعددة، منها الإيواء في مخـيمات مـن الـبراكات. ومنذ صيف عان (1942 م)، كانت هناك نُـذُر واضـحة تشـير إلى أن وضع العمال الجزائريين والمغاربة في شركة الصـناعات الكـيماوية فارِبن في آوشفتس الذين يجري تشغيلهم عن طريق المؤسسـة الفرعـية الفرنسية، سوترابيه[127]، ستيدهور بسرعة، وسرعان ما يضاهي ذلك الوضع الذي يتسم به المعتقلون في معسكرات الاعتقال، الذين يُحتجزون هناك[128].

عـلى أن ظروف العمل المعيشة التي تزداد سوءًا، وتنامي نسبة الوفيات نتيجة للأمراض، ولاسيما السل، والحوادث وكذلك عمليات قصف الحلفاء بالقنابل المنشآت والمصانع التي يعملون فيها، والمخيمات التي يسكون فيها[129] أدت أيضـًا إلى تـنامي الاسـتياء بين صفوف العمال، وهبوط مستوى الانضباط عندهم.

وكانـت المؤسسـات والمنظمات ذات الـ وع إلى التعاون، مثل منظمة (الخدمـة الاجتماعـية في مواقع الأعمال) و(مهمة برونتن)[130]، و(الجبهة الاجتماعية للعمل) والفرع الناشئ عنها وهو (اتحاد عمال شمالي إفريقية)[131] مـن أجـل العمال الآخرين، العرب والأجانب والعاملين بالسخرة، تحاول، مثـلما فعلت منظمة (جبهة العمل الألماني/ DAF) والجهات الأخرى الألمانية المكلفـة بالإشـراف، على العمال الأجانب، أن تقف في وجه هذا التطور. وكانت الدعاية النازية تساند جهدها، ومثال ذلك ما حدث في كانون الثاني (1943 م)، باستطلاع إذاعيّ تناول العمال العرب المرتبطين بمنظمة تودْت في محـيط مدينة بوردو، ونجم عنه شعور هذه «بشيء من الحرج» أول الأمر في

الحقيقة، غير أنا سرعان ما قدرت أنا «سعيدة، لتمكنها من العمل من أجل ألمانـيا»[132]. ومـا حدث عن طريق تحرير الصحيفة الأسبوعية التي تصدر بالعربـية والألمانية، وهي صحيفة ‹الغرب العربي› في شباط عام (1945 م)، وكـان يفـترض في هذه الصحيفة أن تكون «حلقة وصل بين أبناء شمالي إفريقـية الموجودين في ألمانيا، والعاملين في الرايخ، من خليج سرت الكبرى، وحتى المحيط الأطلسي، حلقة وصل بينهم وبين وطنهم، وبينهم وبين ألمانيا»، ومع ذلك فلم تشهد سوى إصدار عددين منها[133].

ولا يُعـرف أكـان للدعاية أثر في أخلاقية العمل لدى العمال الأجانب والعمـال بالسخرة من العرب، كما لا تعرفُ ماهية هذا النفوذ. ومن الجائز أن تكـون الأمـثلة التالـية على الاستعداد للعمل من أجل الرايخ، بدوافع سياسية وإيديولوجية، فقط استثناءات، أو حالات شاذة: فمنذ كانون الثاني (1937 م)، كـان عراقي يدرس في بون، يدعى عبد الكريم كنونة، قد عمل جـاهدًا، مع الاستعانة بسفارة بلاده، من أجل التمكن من دخول (مكتب العمل في الرايخ/ RAD)، وهو الأمر الذي تركته وزارة الداخلية آخر الأمر لتقديره هو[134]. ولا يُعرف هل حدث ذلك بالفعل؟، وما النتيجة التي انتهى إلـيها بعد ذلك؟. وعلى كل حال ففي سنة بداية الحرب كان موجودًا في سويسـرا على أي حال[135]. وفي حزيران من عام (1942 م) توجه المغربي العربي بن إبراهيم بن حسين برسالة إلى أدولف هتلر والتمس منه أن يتاح له «أن يكون عاملاً بكل طاقاته من أجل ألمانيا». وبعد شهرين، وبعد أن طلب اسـتخدامه في بـاريس بصفة عامل أجنبي، جدد الالتماس ذاته، من مدينة العمـل (غروس هله)، في برلين-شبنداو. وتفيد حاشية على ملفه في وزارة الخارجـية مؤرخة في كانون الثاني (1943 م)، «أنه لم يتلق جوابـًا أبدًا، إذ تقول إن العربي أقرب إلى أن يُحدث انطباعـًا بعيدًا كل البعد عن أن يكون مواتيـًا له. فهو، منذ سبعة أشهر بلا عمل، وليس في جيبه نقود»، «وعسى

أن تعمـل الإدارة المركـزية لأمن الرايخ على أن تنظر الشرطة في أمره عن كثـب»[136]. وقد توفي في (1943/06/12 م) بالتهاب في الصدر، ودُفن في منطقة برلين-هيلغنزيه ببرلين[137]. وفي تشرين الأول عام (1943 م) توجه أخـيرًا الجزائري مارشال س، ذو النزعة الحربية، الآنف الذكر، والذي كان الـتزم بـالعمل سنة، وكان يعمل في (مصانع كتبوس للآلات)، إلى سلطة الشـرطة المحلـية، برجاء إتاحة الفرصة له ليكون ذا عون في مجال «إجراء الاتصـالات مـع جـبهة العمل الألمانية الموجودة هنا، وكذلك مع الجبهة المختصـة في الشرطة السرية 'الغستابو'» قائلاً: إنه عضو في الحزب الشعبي الفرنسـي (PPF) الـذي يتطلع إلى إقامة علاقة وثيقة مع ألمانيا، ويرى في البلشفية، وفي طموح الدول الأنغلوسكسونية إلى السيطرة على العالم، عدُوي قارتـنا، وإنه مكلف بتخصيص جهوده «من أجل الحركة في ألمانيا، مع أبناء بلده»[138]. ولا يتبين من الملفات ما أسفر عنه هذا.

ومـن الجائز أن تكون الأغلبية الساحقة من العمال الأجانب والعاملين بالسـخرة من العرب، ما داموا قد أبلغوا عن أنفسهم، بمحض إرادتهم، قد رأوا في تعبـئة أنفسـهم للعمل من أجل الرايخ، أول الأمر، مصدرًا للدخل كانوا في حاجة ماسة إليه. وكانوا، في العادة، يحسّون أنه ينطوي على جورٍ واستغلال، ولاسيما بعد إدخال (مصلحة العمل الإلزامي)، وتدهور ظروف المعيشة، وهذا ما تشهد عليه الانتهاكات المتعددة الجوانب للتعليمات الخاصة بـالعمل، حتى في منظمة تودْت، والنزوع إلى التخلف عن العمل، على نحو مطـرد الـزيادة، وكـثرة محاولات الهرب، وسجلات المطلوبين للشرطة، ولاسيما سجلات المطلوبين في المناطق الغربية المحتلة، التي تفيد أن «الهرب»، و«الإفـلات» أو «الـزوغان»، و«الابتعاد بغير إذن»، أمور بات من أكثر الجـرائم تواترًا، مع فارق كبير بينها، وما عداها، عند الملاحَقين في السنتين الأخيرتين، من سنوات الحرب[139]. وقد هجر ثمانية على الأقل، من العمال

الأجانب، وعمال السخرة، من العرب، الذين تعرفت على أسمائهم، أماكن عملهم هجرًا يمكن إقامة الدليل عليه. وكان منهم ستة منذ عام (1943 م): فمـنهم عمـور ب، من شركة المصانع السكسونية المساهمة إسبنهايم[140]، وحامي بن هـ ، من مصانع شرطة الصناعات الكيماوية فاربن في برمنتس[141]، وكذلك: جورج بن أ، وثلاثة من الجزائريين، كانت مراكز الفستابو تبحث عـنهم في مديـنة فايمار[142]، وفي نوردهاوزن[143]، وفي آب، وبالتالي في كانون الثاني من عام (1945 م).

8/ 6] الملاحقة البوليسية والقانونية للعرب، في الرايخ وفي أوربة المحتلة

ولعـل مـن الأعراض المميزة لهذا التطور، على المستوى الرفيع، رسالة عاجلـة لهـلمر تعود إلى نهاية عام (1942 م) إلى مراكز الخدمة في (شرطة الأمن/ Sipo) ودوائر (استخبارات التجسس المعاكس/ SD)، وإلى أصحاب المناصـب الرفـيعة في منظمة (وحدات الدفاع) وقادة الشرطة، وإلى آمري شـرطة الـنظام ومفتشـيها وإلى الشرطة المحلية، بصدد (التحريات الخاصة بالحرب)، (عملية التحري عن أسرى الحرب الهاربين، واليد العاملة الأجنبية) و«تشـديد الحراسـة المفروضة على الأشخاص». وورد في الرسالة قوله إن «أعـداد العمال الأجانب الذين انتهكوا بنود العقود، والذين يتسكعون هنا وهناك، أو يتطلعون إلى العودة إلى وطنهم، وأعداد أسرى الحرب الذين أفلتوا مـن القبضة» . . التي «ارتفعت ارتفاعـًا كبيرًا» في الآونة الأخيرة، والتي يتـنامى، نتـيجة لها، أيضـًا، عدد التصرفات السياسية والإجرامية، «التي يمارسـها هؤلاء الهاربون، حيث بات من الواجب أن يُحسب حساب آخر، لتعريضـهم الأمن العام للخطر». ووقعت على عاتق الشرطة الجنائية عملية

البحـث والتحري، وإحالة الملاحظات الهامة من أجل البحث عن الخصوم ومكافحتهم، إلى الغستابو[144].

عـلى أن العينة العشوائية، مع الفيض الذي لا يمكن أن يغيب عن النظر، مـن المراجع، ومنها ما يوجد في (السجل الألماني للملاحقة)، وفي (صحيفة الشرطة الجنائية الألمانية)، وكذلك في ملفات محفوظات المعتقلات والسجون، تؤكـد أن الملاحقة البوليسية والقانونية، حتى للعرب في الرايخ، وفي المناطق المحتلة، ازدادت ازديادًا واضحـًا في المناطق المحتلة منذ عام (1943 م)، على أبعـد تقديـر. وكان أولئك الذين مَسهم الملاحقة على وجه الخصوص هم العمال الأجانب وعمال السخرة، وكذلك أسرى الحرب.

وكان القسم الأكبر إلى حد بعيد، من الحالات الفردية التي أشرتُ إليها، وعددهـا ثمـانون، يمثل أشكالاً شتى من الجِنح المرتكبة بحق الملكية، بأيدي عمـال أجانب وعمال سخرة جزائريين على الأغلب. وكانت تسود بينهم «السـرقة» و«التهريب» اللذين كانت توجد بينهما حوادث غير ذات شأن كانت تُرتكب في كثير من الأحيان بدافع الجوع والفاقة، كما كانت تستكن بيـنهما، بين الحين والآخر، جرائم عصابات[145]. وكانت تليهما في المرتبة «عمليات إخفاء المسروقات أو التستر على الـرمين» و«الاختلاس». وكان يقصد بذلك، في كثير من الأحيان، اصطناع البطاقات التموينية والاتجار بها. وقـد حكمـت المحكمة الاستثنائية الخامسة، لدى محكمة الدرجة الثانية في بـرلين، على المغربي عبد الله بن أحمد، في آب عام (1943 م)، مقابل ذلك، بالسجن عامين، وزُج به في السجن في براندنبورغ، حيث خرج في (03/28/ 1944 م) ميتـًا بالسل[146]. وفي بعض الحالات كانت أمثال هذه الجنح، أو الجرائم يعاقب عليها بحكم كونها جريمة تمس اقتصاد الحرب، ويتم الاقتصاص لها بأقصى العقوبات. وبينما عاقبت المحكمة الاستثنائية في مدينة براونشفايغ، في أيلـول عـام (1942 م) الجزائري العربي ج، على ذلك بأربعة أشهر من

السجن، على أنا عقوبة خفيفة نسبيًا[147]. فرضت المحكمة الاستثنائية الرابعة في برلين على مواطنه، سالم عماموش، في نيسان (1945 م)، حكمًا إرهابيًا: إذ حكمت عليه، بسبب تدبير بطاقات تموينية مزورة وتسويقها، بالقتل، ونفذ الحكم في (1945/04/18 م) في سجن برلين-بلتسيه[148]. أما الجزائري محمد راشي فقد أقيمت ضده دعوة في أيار (1943 م)، بصفته «مُفسدًا للشعب»[149]، وسُلِم إلى معتقل برغن-بلزن، حيث توفي في السابع من آذار عام (1945 م).

وكان الانحراف الذي يلي ذلك في تواتره، لدى العمال الأجانب وعمال السخرة، الذين كانوا يُلاحقون، يتمثل في أنواع متباينة من «انتهاك بنود عقد العمل». وكان يدخل في هذا الباب «التكاسل عن العمل والتقاعس فيه» و«تكدير صفو سلام العمل» و«مغادرة مكان العمل» وأخيرًا «رفض العمل». وكان سُلم العقوبات المفروضة على هذه الأنواع يراوح بين عمليات الخَصم من الأجور والاعتقال، ليصل إلى إحالة المذنب إلى (معسكر إعادة التربية/ AEL)[151]، وإلى معسكر اعتقال. وبينما خرج الجزائري محمد ر، في شركة المصانع السكسونية المساهمة إسبنهايم، في أيار (1944 م)، من نوبة تسكع بخسارة من أجر عمله وصلت إلى نصف أجر يوم عمل، مع الحرمان من البطاقة الإضافية (Zusatzkarte) مدة أسبوع[152]. حُول أحمد، وهو بحار سابق في الباخرة المصرية (زمزم)، في آذار عام (1943 م)، بسبب انتهاك عقد العمل، و«رفض العمل»، إلى معسكر إعادة التربية في برمن-فارغه[153]. وبسبب «نوبة تسكع في أثناء العمل» و«رفض العمل»، انتهى المغربي إبراهيم م، والجزائري بوقفة م، إلى معسكر إعادة التربية في أبرلنتسندُرف[154]، وانتهى الجزائري علاوة ج، ومحمد أ، في عام (1942 م)، إلى معسكر إعادة التربية في مالتهُيرن[155]. أما الأولان فجيء بما إلى معسكر الاعتقال في ماوتوزن، وأما علاوة ج، فجيء به إلى معسكر

الاعتقال في بوخنفلد، ولقي المغربي محمد بشير حتفه في معسكر إعادة التربية ليبـناو[156]، أما الجزائري أحمد سميلي فقد أُردي قتيلاً بإطلاق النار عليه في الـرابع من تشرين الأول عام (1944 م) لدى هربه من معسكر إعادة التربية في هلندُرف[157].

وكـان أسرى الحرب العرب يعاقبون، على وجه الخصوص، على «عدم الطاعـة والامتثال» و«إصابة الجسد أو إيذائه» و«الاغتصاب»، أي: على جـنح كانـت تُؤثر، على وجه الخصوص، تمامـًا بعزل الفاعلين عن العالم الخـارجي، وكذلـك بأشكال من التوتر في مجتمع المعسكر. كما يمكن أن يدخل «التمرد أو العصيان»، في هذا الباب، وقد حكم بذلك على الجزائري أحمـد غ، في عام (1943 م) بالسجن خمس سنوات[158]. وفي وجهة نظر معيـنة تدخل أيضـًا معاشرة النساء الألمانيات، في باب أمثال هذه الجِنح: ولكـن في الوقـت ذاته يجسد المأخذ على هذه الفعلة، أيضـًا، الأسلوب العنصري في التعامل، الذي كان النظام النازي يراعيه مبدئيـًا في تعامله مع "الشـعبي الأجـنبي" في مجال سلطانه. أما سليمان ك، المولود في لبنان، فقد حكم عليه، بذه الجريرة، بالسجن عامـًا ونصف العام[159]. وانتهى هو، و غ، إلى التكفير عن ذنبه بالاعتقال في سجون براندنبورغ وأُنترماسفِلد[160].

أمـا في المضمار المدني فقد حدثت، أيضـًا، ملاحقة بوليسية، وقانونية للعرب، وهذا ما يُفترض من أن توضحه الحالات المتباينة التالية:

1) **في أيلـول من عام (1942 م)، تم إبلاغ المالك الفلسطيني لبار الكارلتون في شارع رانكِ ببرلين وهو محمد ال(ك)، بالاستناد إلى إفـادة مركز مراقبة الأسعار وفرض الغرامات على انتهاك القـانون والنظام، وبوجوب الكّف عن مزاولة كل نشاط في مهـنة الحانـات والمطـاعم والفنادق، و«فُرض عليه أن يبيع مؤسسته إلى شخصية يترتب على الشرطة أن تسميها». وقيل إن الرجل أوعز ببيع الشمبانيا بأسعار مرتفعة كثيرًا، ومع ذلك**

فسرعان ما تبينت خلفية سياسية صارخة لهذه القضية: وذلك أن المشتري الذي أوصت به الشرطة وجهاز الأمن (SD) لشراء الحانة، كان قائد زمرة صغيرة من منظمة (وحدات الدفاع)، من معوقي الحرب، ظفر بالحانة التي كانت أحوالها في ازدهار بثمن بخس للغاية، بلغ نحو (6000) مارك إمبراطوري، وكان هذا أقل من عشرة بالمائة من سعر الشراء الذي كان في وسع المالك المهدد بإقامة الدعوى عليه، أن يصل إليه بطريقة طبيعية. وعلى الرغم من قلق وزارة الخارجية والمفتي أيضًا، حيال تصرف الشرطة، و(جهاز الأمن) إذ قالا إن «مراقبة الشرقيين عن طريق الشرطة» في محل من محال اللهو يملكه عربي، لابد أن تكون «أهون وأيسر» فقد تم التنازل لصالح الألماني. ولم يكد يحدث هذا حتى قررت المحكمة المختصة، في كانون الثاني (1943 م)، تأجيل النظر في الدعوى إلى أجل غير مسمى، لأسباب متعددة، كان منها أن الاتام «لم يجر الإعداد له بالقدر الكافي من الناحية القانونية» وأنه لا ينبغي النظر إلى هذه الحالة على أنا «ذات شأن كبير إلى هذا الحد»، ما دامت الشمبانيا ليست سلعة ذات أهمية حيوية»[161].

2) ثم إن المفتي الحاج أمين الحسيني، مارس أيضًا، في الحالتين الأخريين دورًا، وكان دوره في تلك الحالة، أي: حالة مواطنه، بطرس ش، غير مُشرف أبدًا. فقد اعتقل الغستابو هذا الفلسطيني في كانون الأول عام (1943 م) بسبب «تصريحات سياسية» لم يجر تفصيل القول فيها. وفي كانون الثاني من السنة التالية، كما تفيد ذلك مذكرة خطية لوزارة الخارجية، تم تسليمه إلى معسكر للعمل بالسخرة في برلين، «بإيعاز من المفتي». وكانت المسألة تتعلق، في هذا الصدد، بمعسكر إعادة التربية في برلين-فولهايده[162]. وحين التمس الرجل التعيس تخفيف إجراءات الاعتقال، وتأمين المواد الغذائية، أفهمه أمين سر المفتي، فرحان الجندلي، أنه ليس هناك اهتمام بالسيد ش «من جانب المفتي». وعلى أثر ذلك تركت وزارة الخارجية

لـتقدير الغستابو، مسألة الفصل في ما يُفترض أن يحدث بعد ذلك للفلسطيني[163].

3) وفي كـانون عـام (1943 م) اعُتقل، في شفاينفورت، الطالب العـراقي، سـيد داود ي، بسبب الاشتباه في مساعدته حَماهُ المستقبلي، رامي الرمانات في القوات المسلحة، على الهرب من الخدمة العسكرية. وكان سيد داود ي، قد عقد خطوبته على أخـت الجـندي، وكان له منها ولد. ومع ذلك فلم يكن من الجائـز له أن يتزوجها «لاعتبارات عنصرية». وحاول أخوه، الـذي كـان من العاملين مع رئيس الوزراء العراقي السابق، الموجـود في مـنفاه الألماني، رشيد عالي الكيلاني، أن يساعده بالـتوجه إلى هـذا وإلى المفتي طلبـًا للشفاعة والتوسط. ولا يُعرف هل تم هذا في أي يوم من الأيام حيث يبدو أقرب إلى أن يكون موضع الشك والتساؤل. وعلى كل حال، وبتاريخ أيار عـام (1944 م) حكمت المحكمة الاستثنائية في فُرتسبورغ على سـيد داود ي، الذي زوّد الهارب من الخدمة العسكرية بالمال وعناوين الاتصال في البلدان العربية، بالسجن ثلاث سنوات: وذلـك أن طيب قلبه الذي هو مخفف للعقوبة، عُد من الأمور الباعـثة لتشديد العقوبة، لكونه «أساء إلى حق الضيافة أفدح الإساءة» وشجع تصرفـًا ينطوي على «مساس مباشر بالقوة الدفاعية للرايخ الألماني»[164]، وفي نيسان عام (1945 م) جيء بالمدعو سيد داود ي، إلى معسكر الاعتقال في دخاو.

8/ 7] ملاحقة خصوم النظام النازي من العرب في الرايخ وفي المناطق المحتلة

لقد لوحق العرب أيضـًا، كما تشير إلى هذا الملاحظات الأخيرة، بسبب مناوأتم النازية، وكذلك بسبب مقاومتهم الفاعلة لنظامها.

فمنذ (13) أيار عام (1939 م)، حكمت محكمة الاستئناف العليا في فينا على علي بن م، المولود في طنجة، بسبب التحضير للخيانة العظمى، بالسجن عامين. وأُخذ على المغربي، الذي كان هرب من الجيش الفرنسي في مستهل العشـرينيات، بأنه كان يمهد، في محيط شتاير، من دائرة لاينتس «عن طريق الدعايـة الشفهية الشيوعية، لمشروع تغيير دستور الرايخ بطريق التهديد أو بطريق العنف». وأُدخل في الحُسبان على أنه من بواعث تشديد العقوبة، أن المـتهم الذي سبق أن عُوقب ذات مرة، في آب عام (1938 م)، «لخطابات مهيـنة داعية لازدراء سلطات الدولة»، وطُرد من البلاد[165]، وأنه صدرت من لسانه شتائم ضد القائد [الفورر. ز م][166].

أمـا ابـن بلده، أثمار بن م، الذي كان هاربـًا من الجيش [الفرنسي] أيضـًا، والـذي عُمد في عام (1929 م) وَبَدّل اسمه وتزوّج نمساوية، فقد حكمـت المحكمـة ذاتها عليه، في (1940/01/09 م)، وبسبب الجريمة ذاتها، بالسـجن عـامين ونصف العام. وكان عامل الطرق في كرنتنر لفنتال قد اسـتمع إلى برامج بث إذاعي من راديو موسكو، وتحدث عنها مع زملائه. ورأت المحكمـة في هذا الرغبة في التأثير فيهم بعقليته الشيوعية، والتحضير، بذلـك، لتغيير بالعنف موجه نحو أهداف انقلابية للشيوعية، وقدّرت أن من البواعث الذي تزيد في شدة العقوبة، إلى جانب ما تنطوي عليه تصريحاته من «الكراهية الخصوصية»، ذلك الظرف المتمثل في أنه «كان خليقـًا أن يكون ملتزمـًا بامتنانٍ أكبر من هذا تجاه البلد المضيف»[167].

وبعـد بداية الحرب كانت للعرب أيضـًا مشاركة في المقاومة المسلحة لحكـم النازي، ومن أجل ذلك كانوا عُرضة للملاحقة الخاصة.، ومن هذا القبيل ما حدث في تشرين الثاني عام (1943 م)، للمطلوب عن طريق البرقية الخاطفـة مـن رئيس الغستابو، هاينرش ملر، وهو المظلي البريطاني المشهور بجاذبيـته الكـبيرة، والـذي قفز بمظلته عند دسلدورف، علي محمد، وهو

«عـربي» أنموذجي[168]، إذ شارك بعضهم في عمليات تعبئة أعضاء منظمة (تنفـيذ العمليات الخاصة/ SOE)[169] وعمليات فدائية أخرى للحلفاء، غير أنـهم انضموا قبل كل شيء إلى المقاومة الفرنسية. وكان الطالب عثمان بن علـية ينتمي إلى (كتائب الشباب) في باريس[170]، وكذلك انتمى الجندي التونسي حسن بن محمد إلى شبكة المقاومة فليت (Vélite)، وكان محمد مولد عـبد الله ينتمي إلى مجموعة جورج أوبير[172]، وكان المقاتلون السابقون في إسـبانيا، كالجزائـري بوزيـد خلوفي[173]، ومحمد تيروش[174]، يستأنفون نضالهم ضد الفاشية، أيضـًا، في إطار المقاومة.

وفي الكفـاح قدمـوا تضـحيات أيضـًا، ففي العشرين من أيلول عام (1941 م)، أُعـدِم في فـورت مون فِلرَين، في سرسن، بالقرب من باريس، أنطـوان الحاج، اللبناني المولد. أما المحامي الشيوعي الذي اكتسب شهرة في دفاعه عن كثيرين، ومنهم القوميون الجزائريون[175]، فقد اعُتقل في حزيران، ثم أعـدم رميـًا بالرصاص وهو رهينة تقصد مبادلته بجندي ألماني قُتل على يد المقاومـة[176]، ولقـي المصـير ذاته في كانون الثاني عام (1942 م)، السيد حـداد[177]. وفي أول آب عام (1942 م)، أُردي الممرض الجزائري، محمد سـليمان، قتيلاً في السجن الباريسي (لا سانتيه)، وكان هذا، الأب لخمسة أطفال ينتمي إلى مجموعة (ديوت) التابعة ل(المنظمة الخاصة)، وقد شارك في عـدد من الاغتيالات[178]. وكان ابن بلده، محمد تامي الأخضر، قد وزع، قـبل أن ينضم إلى منظمة (قناصة وأنصار)، منشورات ضد المحتلين النازيين، في بـاريس، وقـد ألقي القبض عليه في (31) كانون الثاني عام (1943 م)، وأُعدم في العام ذاته[179].

أمـا في الجزائـر فقد توجهت المقاومة، قبل كل شيء، ضد نظام حكم فيشـي المـتعاون مـع النازيين. واستخدم الشيوعيين، محمد كاتب إلياس، وكاتـب ياسـين، وأحمد إسماعيلي، وهو محارب سابق في إسبانيا، من أجل

ذلـك، الـناطقة باسـم حزبم التي تظهر بصفة غير قانونية، وهي صحيفة ‹[الكفـاح الاجتماعي]/ La Lutte Sociale›. وحكم على أحمد إسماعيلي، بسبب ذلك، في عام (1942 م)، غيابيـًا بالقتل[180]. ولم يكن بد لكثير من رجـال المقاومـة أن يقضوا مدة عقوبتهم في «معسكرات الاعتقال» ذات السمعة السيئة، في جنوبي الجزائر[181]، وكان بينهم (22) عضواً من الحزب الشعبي الجزائري كانت حكمت عليهم المحكمة العسكرية في الجزائر، في (17) آذار عام (1941 م)، ولم يتحرر معظمهم إلا بعد شهور من نزول الحلفاء في شمـالي إفريقية. وفي إحدى المرات، في دينين بورزق، عند عين صفرة، كان يقعد، بين القاعدين، أعضاء الحزب الشعبي الجزائري، معمر بن برنو، ومحمد أرزقـي بـركاني[182] ومهـند أموكرين خليفاني وأحمد ميزيرنا. وكذلك الشـيوعيون محمـد بدسي، والعربي بوعالي وعمار أوزيفان، وقدّور بلقايم، وعلي ربيعة، حيث لقي الأخيران حتفهما هناك[183]. وقضى الشيوعي علي ديبابيش مدة عقوبته في سجن لامبيز قرب بتنا، ومات عضو الحزب الشعبي الجزائري محمد دُوار هناك[184].

وكـان يشـكل هناك مجموعة خصوصية أولئك الذين كانوا يُسمون: (معـتقلوا معتقـلي الليل والضباب/ NN)، وكانت تسمية هؤلاء السجناء ووضـعهم يـرجعان إلى التوجيهات الصادرة في السابع من كانون الأول (1941 م) «عن رئيس (القيادة العليا للقوات المسلحة الألمانية) فلهلم كايتل، في المـناطق المحتلة» لملاحقة الأفعال التي تستوجب العقوبة، و«المُرتكبة بحق الدولـة أو ضد قوات الاحتلال في المناطق المحتلة»[185]، وإلى رسالة مرفقة، مؤرخـة في (18) كـانون الأول، ورد فيها، ضمن أمور أخرى، قوله: «لا يمكن الوصول إلى ردع فعال مستديم إلا بعقوبة القتل أو بإجراءات تجعل من يهمهـم الأمـر والسكان، على غير يقين من مصير الفاعل، ومما يخدم هذا الغـرض النقل إلى ألمانيا»[186]، وهو الأمر الذي يتعين أن يتم بسرية كاملة،

وفي جنح الليل ومن وراء الضباب، كما يقولون في (معتقلي الليل والضباب). وكان المعتقلون الذين كانوا في العادة مقاتلي المقاومة، وأتباعها والمتعاطفين معها، تحكم عليهم المحاكم الخاصة التابعة للقوات المسلحة، ثم محاكم مدنية خاصة، وكذلك (المحكمة الشعبية)، مع استبعاد الجمهور. وإذا لم يكن الحكم بالقتل، كانت الشرطة الحربية تأتي بهم، وبالتالي، الغستابو، إلى منشآت الاعتقال وإلى معسكرات الاعتقال، حيث كان القوم يعرفونهم ويميزونهم بأنهم معتقلو (NN)، ويُعزَلون عزلاً صارمًا.

أما أسرى ال(NN) المعتقلين في فرنسة، وفيهم العرب، فكانت المحاكم الاستثنائية في كولونيا وإسن هي المختصة بهم. ونتيجة لازدياد هجمات الحلفاء بالقنابل، تم تحويلهم في عام (1943 م) إلى برسلاو وأُبلن، كما كان يتم إخلاء السجناء في المعتقلات إلى مواقع أقرب إلى الشرق[187]. ولقد وجدت نحو أربعين عربيًا من المعتقلين في سجون بوتن، وبوخوم، وبرندنبورغ، وبُرخزال، وديتس، ودرتموند، وإسترفِغن، وغراودنتس، وغرُس-شترلتس، وهاملن، وكاسِل، وكولونيا ورواينباخ، وساربرُكِن، وزيغبورغ، وزُننبورغ، وتربيه، وفرصوفيا، وفتلش، وكان يوجد بينهم سيد أ، وسيد بن د، وبليد برقان. أما الجزائري سيد أ، فكان قد جيء به في (29/07/1942 م)، من سجن (لوز-ليه-ليل)، إلى بروكسل، وبعد فترات إقامة في سجون بوخوم وكولونيا، بين (04/05) (14/06/1943 م)، سُلم إلى سجن زنْنبورغ[188]. وهناك يتلاشى أثره. وأما العامل الريفي سعيد بن د، فقد اعتقلوه بسبب مشاركته في أعمال العصابات، ويُظن أنه قد تم تحويله، من دون أن يصدر فيه حكم، من شالون-سر-مارن، مرورًا بمعتقلات كسِل، ورواينباخ، في (27) أيلول عام (1944 م)، إلى سجن برندنبورغ[189]، ولا يُعرف شيء عن مصيره. وأما برقان فقد كان حُكم عليه في (7) نيسان عام (1941 م)، بسبب حيازته الأسلحة، بالسجن عشرة أعوام وتم نقله من

أرلـيانز، مرورًا براتيناخ وزيغبورغ، في (20) كانون الأول عام (1944 م)، أيضـًا، إلى برندنبورغ، وهناك مات في (24) شباط (1945 م)، بالسل[190].

أما أن العرب أيضـًا كان يُشتَبه فيهم اشتباه تعسفيـًا على نحو كامل، ويُعـتقلون، فذلك ما توضحه رواية فرنسي تم ترحيله وإبعاده. وقد لَقيه في سـجن فورت دي مونتلوك، في مدينة ليون، بين مقاتلي المقاومة والمهاجرين الإسـبان، والـيهود، تونسِـي، كان لا يفتأ يقول وقد روعه كل الترويع، وجودُه هناك: كل شيء إلا أن تُمعنَ النظر في هذا، يا صديقي[191].

8/ 8] المعتقلون العرب في معسكرات الاعتقال

كانت هذه الفئة من الضحايا التي ظلت مجهولة زمنـًا طويلاً، في الواقع، تتـبوأ مركز الصدارة في أبحاثي[192]. ولما كانت قد نُشرت في هذه الأثناء تقديـرات مؤقتة لهذه الدراسة[193]. فسوف تقتصر التفصيلات التالية على الملاحظات التلخيصية، وبعض الاستدراكات والتصحيحات.

لقد تناولت بالبحث حتى الآن حوالي (450) معتقلاً عربيـًا، بأسمائهم، ومـع ذلـك فمـن الجائز أن يكون عددهم الحقيقي أعلى من ذلك بقدر لا يسـتهان بـه، وكانوا يوجدون، بكل معنى الكلمة، في كل معسكرات الاعتقال: في آوشفتس (34 شخص)، برغن-بلزن (21)، بوخنفلد (148)، دخاو (84)، فلُسنبرغ (39) غروس-روزِن (112)، ماوتوزن (62)، متلباو-دورا (39)، نتستفايلر (37)، نوينغَمه (110، منهم 73 في المعسكر الخارجي أوريني)، رافن برك (25)، ريغا-كايزَرفالد (1)، زكسنهاوزن (42)، شُتُتهُف (3)، فرصوفيا (2)، فِفلِزبورغ (2)، وكذلك في معسكر (وحدات الدفاع/ SS) الاسـتثنائي، هِنتسـرت (3)، وفي معسكرات شيرمك-فربروك (7)، وفي معسـكر الإبادة لُبلين-مَيدَنِك (4). وكانت أغلبية المعتقلين ترجع إلى

شمـالي إفريقـية، إلى الجزائر (248)، والمغرب (27)، وتونس (22)، وكان بعضـهم مـن مصر (5) ومن العراق (4) ومن لبنان (1) ومن فلسطين (4) ومن سورية (1)[194].

ولا تقـدم المحفوظات المتوارثة إلا قليل من الإشارات إلى أسباب تحويل هؤلاء البشر إلى معسكرات الاعتقال، ومع ذلك فمن الممكن أن نميز خمسة أسباب:

1) **المشاركة في كفاح المقاومة ضد النازيين، ولاسيما في فرنسة، أو مساندتا، وقد سبق ذكر بعض هؤلاء من العرب المعتقلين لهذا السبب، بصفة معتقلي (NN). وقد عثرتُ على (17) من هؤلاء على الأقل، في معسكرات الاعتقال، وكانوا، على الأرجح، في بوخـنفلد، وغـروس-روزن، ومـاوْتوزن، وناتسـفايلر، وزكسـنهوزن، وكذلك في معسكر منظمة (وحدات الدفاع) الخاص هِنْتسَرت. وكان منهم علي بن ز، ومحمد أ[195]. وكان المغـربي عـلي بـن م، قـد حكمت عليه المحكمة الاستثنائية إسـترفغن/ إسِن بالسجن خمس سنوات، وفي أيلول (1943 م) حُول إلى سجن زِنْنبورغ. وفي تشرين الثاني عام (1944 م) جيء بـه إلى معسكر اعتقال زكسنهوزن، وفي شباط (1945 م)، إلى مـاوتوزن، حيـث تم تحريـره في (5) أيار على يد القوات الأمريكية. أما محمد أ، فقد جيء به في كانون الثاني (1944 م)، من لوس-ليه-ليل مرورًا بِاغِن، إلى إسترفغن، وفي أيار أُخْليَ منه وأُدخِل إلى غروس-شترلتس، قبل أن يأتي، من دون قضية ولا حكـم، في شباط عام (1945 م)، إلى معسكر الاعتقال في بوخنفلد، الذي خرج منه سالمـًا على الأرجح.**

وفي مقابل ذلك لا يُعدّ من معتقلي (NN)، بل يعد من معتقلي 'السياسـيين' الذين يحملون شارة الزوايا الحمر، وبالتالي، من «معتقـلي الحمايـة»، أي: من معتقلي الأغلبية الكبرى لـ لاء معسكرات الاعتقال من العرب، الجزائري، عقلي بنّون، وكان

يعيش منذ عام (1916 م) في فرنسة، وكان من القياديين في حركة (نجمة الشمال الإفريقي/ ENA)، وعضواً في المنظمة القومية التي خلفتها، حزب الشعب الجزائري (PPA)، وهي التي خرج على قيادتنا هو وقسم لا يستهان به وجنحوا إلى التعاون مع الألمان، بلا ريب. وفي عام (1942 م) ألقت القبض عليه سلطات حكومة فيشي[196]. وفي (1944/05/24 م)، نُقل، على ما يُظن، بناءًا على مرسوم شِيرله، من معسكر الاعتقال المركزي البوليسي للغستابو في كُمبيين، إلى معسكر اعتقال نوينغمه، وشهد تحريره في المعسكر الخارجي برمن - فارغه[197].

ولم يلقَ هذا الحظ مواطنُه صلاح بوشافا، وكان، مثله، مشاركاً في تأسيس حركة (نجمة الشمال الإفريقي)، ثم صاحب منصب قيادي في قسم شمالي إفريقية داخل اتحاد نقابات العمال الشيوعية (CETU) وخريج جامعة الكومنترن بموسكو[198]. جيء به، في (1944/07/25 م) إلى دخاو، وفي (1945/04/06 م) مات في أثناء نقله إلى معسكر الاعتقال في فْلُسنبرغ، على ما يُظن.

2) المشاركة في الحرب الإسبانية إلى جانب الجمهوريين، وذلك أن المقاتلين السابقين في الحرب الإسبانية، من إسبان ودوليين، والمتعاطفين مع الجمهورية الإسبانية، كانوا يُسلمون، بحكم كونهم ممن يُسمَّوْن (الإسبان الحمر) ذوي الزوايا الزُرق، على وجه الخصوص، إلى معسكر الاعتقال في ماوتوزن، ولقي هذا المصير أيضاً بعض العرب الذين كانوا شاركوا في الدفاع عن الجمهورية[199]، وكان منهم المغربي، طهّار بن مقدم، والجزائري كِرميش أرسكي. وجيء ببنْ مقدم في (1941/04/07 م) من المعسكر المخصص كيزرشتاينبرُخ إلى معسكر ماوتوزن الذي هرب منه في (1941/08/28 م)، إلى مصير غير معروف[200]. أما أرسكي، فقد جيء به، في (1941/01/19 م)، من كُمبيين إلى «المعسكر الصغير» السيئ السمعة[201] في معسكر اعتقال بوخنفلد، الذي خرج منه سالماً.

3) كـان كثير من المعتقلين من العمال الأجانب وعمال السخرة السـابقين، أو من أتباع منظمة تودْت وأسرى الحرب، الذين اعـتُقلوا لأسـباب سـبق ذكرها، ومنها كونهم «مجرمين بحق اقتصـاد الحرب» و«منتهكي بنود عقود العمل»، أو معتقلين، أول الأمر، في سياق «عمليات تمشيط وتطهير»، ثم سُلموا إلى معسـكرات الاعـتقال. وهذا ما حدث، كما ذكرنا آنفـًا، لمُفسـد الشـعب، رعشـي، الذي دخل معسكر الاعتقال في بـرغِن-بلـزن، ولمعتقلي (معسكر إعادة التربية)، علاوة ج، وإبراهـيم م، وبوقُفة م، الذين حُولوا إلى بوخنفلد، وبالتالي إلى مـاوتوزن. وفي صورة معتقلي الأشغال الشاقة، جيء، مباشرة إلى دخاو، فيما بين شباط عام (1943 م)، وكانون الثاني عام (1944 م)، ضـمن أناس آخرين، بمحمد أ، ومحمد ب، ومحمد ت، وعمـار غوجام، إلى معسكر اعتقال فلسنبورغ حيث لقي حتفه هناك في (1944/09/22 م)، حيث كان منذ الحادي عشر من أيلول (1943 م). وبسبب «التقصير والتقاعس عن العمل» ألقـى الغستابو القبض على محمد س، في (1944/07/04 م) في دنتسـغ، وسُـلم إلى معسـكر الاعـتقال شتتهف. وبسبب (الـتقاعس عـن العمل/ ASR) أحضر الهاشم م، إلى معسكر الاعتقال العائد للشرطة في مِتس إلى السجن في هدرنايم، وفي (1943/04/30 م)، إلى بوخنفلد، وعلى نحو مماثل، اكتسب صفة معتقل (التقاعس عن العمل/ ASR)، المصري عبد الرحمن ب، إذ اعتقل الغستابو في (1943/01/07 م) في فرانكفورت ماين، في هخسـت، ونُقـل، أيضـًا، إلى بوخنفلد، وفي آذار حُول إلى معسـكر الاعـتقال في ريغا-كيزرفالد، التي لم يكد يخرج منه سـالمـًا. وكـان الغستابو قد اعتقل أيضـًا محمد مربوش في فرانكفورت ماين بتاريخ (1943/02/28 م)، وجيء به، في نيسان بصـفة معـتقل (التقاعس عن العمل) مع الزاوية السوداء إلى المعسكر الخارجي لايبتسغ-تكلا في معسكر اعتقال بوخنفلد،

وبعد عام دخل معسكر الاعتقال الخارجي ملْزن، من معسكر اعتقال فْلُسنبرغ، حيث قضى في (1945/03/28 م).

4) كـان بعـض المعتقلين يوجدون بسبب التصرف الذي ينطوي على انتهاك القانون فيما يتعلق بتوجيهات الدولة في المعسكر، ومنذ السادس والعشرين من أيار عام (1937 م)، كان هملر قد أمـر بتنفـيذ الاعـتقال بقصد النفي والإبعاد، في معسكرات الاعتقال، ونتيجة لذلك استطاع الأجانب الذين ليس لهم دولة ينتمون إليها، والذين كان حُكم عليهم، بموجب القانون المتعلق بتوجـيهات الدولـة[202]، بالإبعاد، أو، بسبب خطورتم أو إزعـاجهم الخصوصي، فحسب، أو يحظوا بالتحفظ عليهم في معسـكر اعـتقال. وقـد حدث هذا، على الأقل لأربعة من الجزائـريين عُدوا ممن ليس لهم دولة ينتمون إليها. وأما صلاح ب، الـذي كـان قد حُكم عليه، بعد أن كان ارتكب، منذ العشـرينيات، جـنحـًا تتعلق بالملكية، في أماكن عديدة منها فـرانكفورت مـاين ولايبتسـغ، في أبريل عام (1936 م)، في برندنـبورغ - هـافل، بسبب مخالفاته القانون الخاص بحالات حـرمانه مـن حماية القانون، وجيء به أول الأمر إلى السجن الموجـود هناك، ثم جيء به إلى معسكر اعتقال زكسنهاوزن، وفي شـباط عـام (1945 م) جاء إلى ماوتوزن، حيث «أطلق سـراحه» بعد شهرين. وحدث شيء مماثل لهذا، لبلقاسم ك، الـذي لبـث، منذ أيار عام (1939 م) وحتى كانون الثاني عام (1940 م)، في سـجن برلين- بلتسِـيه، ثم جاء، بصفة «معتقل محكوم عليه بالإبعاد»، إلى زكسنهاوزن وفي تشرين الأول عام (1942 م)، إلى دخاو. وفي كانون الأول «أطلق سراحه» هناك. وقُبض على جزائريين آخرين، عام (1939 م) في «محمية بوهِمن- ومِيْرن»، حيث كان من الواضح أنهما يعيشان بصفة مهاجرين مـن أجل العمل: وكان محمد ر، أول الأمر يحمل صفة معتقل (الـتقاعس عـن العمل) في بوخنفلد ثم في تروباو (أوبافا)، في حِبْس وقائي (احتياطي)، قبل أن يعود إلى بوخنفلد بصفة معتقل

محكوم عليه بالإبعاد. وفي تشرين الأول عام (1940 م) «أطلق سـراحه» في سجن الشرطة. أما "التشيكي" محمد مالك فجاء آخـر الأمر بصفة معتقل محكوم عليه بالإبعاد إلى زكسنهاوزن أول الأمر، وفي آب عام (1940 م)، إلى دخاو، وهناك مات في (1941/02/27 م).

5) الانـتماء إلى الـيهودية. كـان يوجد، بين نزلاء معسكرات الاعـتقال من العرب، أناس كثيرون يشار إلى سبب اعتقالهم بكونـم "يهـودًا"»، ومـا من شك في أنه قد جيء بم إلى معسـكرات الاعـتقال لأسباب 'عنصرية'. وكان يوجد، إلى جانـب من يسمون (يهود التبادل)، القادمين من اليمن ومن ليبـيا، الذين كان يُحتَفظ عليهم في معسكر اعتقال برغِن-بلـزن، وفي معسكرات الاعتقال الأخرى[204]، من بين هؤلاء أمـثاله مـن الجزائـر، وآخرون أقبلوا من المغرب، وتونس والعراق، وكان منهم داود س، من مواليد بغداد، الذي جيء به، في (1944/01/20 م) مما يسمى (معسكر اليهود درانسي) إلى آوشفتس، وجاء في نهاية كانون الثاني (1945 م) إلى ماوتوزن، حيـث تم تحريره. وما من شك في أنه كان بين العرب اليهود أعـداد جمـة ما عادت توسم بتصنيفها في فئة 'اليهود' وهو والتصنيف الذي يشكل خطرًا على الحياة، ومن قبل الغستابو، وبالـتالي، من قبل منظمة (وحدات الدفاع): بل كان بعضهم، كالمغـربي محمد ز، والجزائري ألفريد بن هامون اللذين جاءا، كذلك، من آوشفتس إلى ماوتوزن يُزور ببطاقة، ضمن أوراقه، تشير إلى انتمائه إلى ديانتين، هما م(وُسَوي)، وم(حَمدي)، وهنا يغلـب عـلى الظـن التكهن بأنه، بصرف النظر عن احتمال حصـول خطـأ في القراءة، أو 'خطأ كتابي' كانت لهما نتائج مصـيرية، كـان هـناك معـتقلون يهود يُعدون مسلمين أو مسـيحيين، أو ربما كانوا ينتحلون هذه الصفة لأنفسهم، وهو الأمر الذي كان خليقـًا أن يحفظهم من مصير أسوأ[205].

وكـان يوجـد، بـين المعـتقلين في معسكر اعتقال بوخنفلد، وفلُسنبرغ، ولُبلين-ميدِنِك ورافِ برك، أيضـًا، نساء عربيات، ونسـاء أوربيات متزوجات من عرب، وأسباب مجيئهن إلى هنا شـديدة التـباين، على قدر ما يمكن أن يتبين لنا. أما الجزائرية طـاووس م، فقـد أحضرها الغستابو في زاربركن في تموز عام (1944 م) ، عـلى أنها «امرأة سياسية»، إلى معسكر الاعتقال في رافِ بـرك، ثم جـيء بـها، عن طريق لايبتسغ إلى المعسكرات الخارجـية، شليبن، وألتنبورغ التابعة لمعسكر اعتقال بوخنفالد، وشهدت تحريرها في أثناء زحف قوات الحلفاء في نيسان (1945 م) عـند ميران. وأما أرزُلا ب، وهي ألمانية متزوجة من المصري المقـيم في القاهرة، لطفي ب، فقد جاءت في أيار عام (1944 م)، بصـفتها «سياسية مصرية» إلى رافِ برك، وقد كانت اقترحت مبادلـتها وابـنها محمود رياض المولود في عام (1939 م) بامرأة ألمانـية معتقلة في مصر. ومع ذلك فقد قبض الغستابو عليها في نيسـان (1943 م)، وهـو الأمر الذي ثارت من جرائه هواجس وشكوك بصدد المبادلة بها، «لأسباب عسكرية أمنية»[206]. وفي آذار عـام (1944 م) حكمت عليها محكمة هامبورغ الإقليمية، بسـبب «الـبوح بأسرار الدولة» بالسجن عشرة أشهر. ومع أن العقوبـة انقضـت مدتـها، كما تبين من الاعتقال من أجل التحقيق[207]، أمرت منظمة الغستابو بحبسها طوال مدة الحرب مـن بـاب الاحتراز، «إذ كان يُخشى أن تلحق أرزُلا الضرر بمصـالح الدولـة الألمانية»[208]. وتم تحويلها، في كانون الأول (1944 م) من رافِ برك إلى المعسكر الخارجي في درسدن-ترخاو الـتابع لمعسكر اعتقال فْلُسنبرغ، حيث يظن أنها تحررت. وأما لوسي م، ابنة العشرين حولاً، فقد تم تحويلها في (1943/02/17 م)، «بصفتها من هُجناء المغرب مع أربعة من الهجناء اليهود وواحد مـن هجـناء الغجـر»، مـن معتقل (معسكر حماية الشباب أوكـرمارك)[209] إلى معسـكر اعتقال رافِ برك[210]. وكان

سبب الاعتقال المبين كونها «مُفسدة للمجتمع» وكانت المدعوة لوسـي م. تنتمي، على ما يبدو واضحـًا للعيان، لأبناء النساء الألمانـيات وجـنود الاحتلال الفرنسيين «الملونين» من إقليم الراين، اللواتي سبق ذكرهن، واللواتي كن مهددات، ضمن أمور أخرى، بالتعقيم. أما ما تبقى من مصير لوسي م، فغير معروف.

أمـا ظـروف معيشـة المعتقلين العرب في معسكرات الاعتقال ومعاملـتهم فـبالكاد تتوافر عنهما معلومات نوعية حتى الآن. وقد تحدث المعتقل السابق زكسنهوزن جوزيف ر، في إفادته التي أدلى بـها إلى الإدعـاء العام في كولونيا، في عام (1966 م)، عن «عـربي، لم يكـن يتكـلم الألمانية على الإطلاق»، في المعسكر الخـارجي برلين-لشترفلده-زود[211]. وقال إن هذا الذي كان يسميه المعتقلون معه «علي»، وكان يستطيع التفاهم بالفرنسية، كـان رجل من رجال منظمة (وحدات الدفاع) يسيء معاملته إسـاءة بالغـة، وكان شتاءًا باردًا [(1944-1945 م)/ غ هـ]. وكان علي يُرغم على الوقوف ساعات في الخارج، وكان يُصب علـيه الماء البارد، ويضرب ويداس بالأقدام. وكان المدعو علي، في تلـك الأيـام يبلغ نحو الخامسة والأربعين من العمر، وما من شـك في أنه لم يُطق هذا، غير أني لا أعرف أي رجل من رجال منظمة (وحدات الدفاع) فعل هذا مع المدعو علي»[212].

وهـذا الأسـلوب في الإساءة، الذي هو معروف أيضـًا من خـلال كـثير مـن الروايات عن التجاريب الأخرى لمعتقلين سالفين، ما من شك في أنه لم يكن أنموذجيـًا، من أجل التعامل مـع نزلاء معسكرات الاعتقال من العرب، غير أنه يدع تجربة إرنست غلا تظهر في ضوء خصوصي عندما يلاحظ قائلاً: «لم يكن لدى العرب الناطقين بالفرنسية سوى المزايا التي يشيرون إلى وجودها لدى المعتقلين معهم، بصفتهم فرنسيين»[213].

ومـن خـلال إفـادة المدعو ر، نعلم أيضـًا أن المسلمين بين المعـتقلين العـرب، وكانوا يشكلون الأغلبية الساحقة، كانوا

يمارسـون ديانتهم في المعسكر. وهو يتذكر قائلاً: «وما زلت أعـرف على وجه الدقة أننا كنا نضحك منه (أي من علي/ غ هـ ـ) بعض الضحك كلما جعل صلاته إلى الشرق، وذلك، ببساطة لأنه كان يبدو لنا مضحكاً»[214].

كما إنه عُرف شيء آخر من ذكرى المشاركين في المعتقل، وهو مشاركة العرب في التحرر الذاتي لمعسكر الاعتقال في بوخنفلد. فبالاستناد إلى رواية بيير دوران، رئيس (لجنة بوخنفلد الدولية)، كان الجزائريون يتبعون كِرميش أرسكي، ومسعود بن حاميش، من (لواء العمل الفرنسي التحرري)، الذي كان تم تشكيله في حزيران عام (1944 م) في المعسكر[215]. وكان المحارب السابق في إسبانيا، أرسكي، قد أقبل في (19) كانون الثاني، وأقبل من حاميش في (14) أيار من كُمبيين إلى بوخنفلد، وشارك اللواء في (1945/04/11 م) في ثورة المعتقلين المسلحة، التي مكنت من تسليم المعسكر إلى القوات الأمريكية[216].

ومن حين إلى آخر يطرح السؤال عن الأسباب العنصرية لملاحقة جهاز القمع النازي العرب أو المسلمين، والزج بم في السجون ومعسكرات الاعتقال، ثم ُينفى، ومن ذلك أن هِرْمن ل غرملتسا يقول: «إن معاداة السامية لم ُتفضِ بعدُ بعربي إلى غرفة غاز ألمانية»[217]. وما من شك أنه لا يكاد يكون من الممكن أن نفترض أن المغربي محمد بوعّياد قُضي عليه في [24/ 1945/04 م) في غرفة الغاز في معسكر اعتقال ماوتوزن بدوافع تتصل بمعاداة السامية، أو لأنه عربي، بل الأحرى أنه سقط ضحية إرهاب النازي 'العادي' تمامـًا، مثل الملايين من البشر الآخرين غير اليهود. إذا ما ضرب المرء صفحـًا عن أن من الواضح أن غرملتسا يقدر الضحية غير اليهودية، للنازية دون قدر الضحية اليهودية لها، فإنه يبدو أنه يتجاهل أن الإرهاب النازي مركب من أساسه تركيبـًا عنصريـًا.

وهذا ما انتهى العرب أيضـًا إلى الإحساس به. فقد كان الطلبة العرب يُهـاجمون بسبب انتمائهم إلى ’عرق أدنى‘، وكان يُفترض في أسرى الحرب من العرب، بحكم كونهم "ملونين"، من الناحية المبدئية، أن يُحال بينهم وبين عـبور حـدود الدولة، مثلما يكونون منفصلين عن "البيض" في معسكرات الاعـتقال. ولقـد أثبـت "كونهم ملونين"، على وجه الإطلاق، في سياق الملاحقة القانونية للأعمال التي تستوجب العقوبة، أنه باعث لتشديد العقوبة. ثم إن روسـي م، المُفسدة للمجتمع، صُنفت ضمن فئة «الهجناء المغاربة»، ومـن الواضح الذي لا لبس فيه أننا أُدخلت، لأسباب عنصرية، في معسكر اعتقال رافنسبرك.

تأليف: غتسْ نوردُبرخ

9] التاريخ في حمأة الصراع: الحركة النازية موضوعــًا للمناقشات العلنية الراهنة في مصر

مــاذا يعني عنوان «العرب والمحرقة»؟. ينبغي لنا في البداية أن نوضح أنــه لــيس هناك من وجه شبه بين العنوان المذكور والعنوان التالي: «اليهود والمحرقة». وكذلك العنوان «الفرنسيون والمحرقة»، أو حتى «الألمان والمحرقة» الذي لا يقبل المساواة بسائر العناوين. إنه شيء من قبيل قولنا: «الهنادرة والمحرقة» فهو عنوان للاشيء![1].

وفي الــنص ذاتــه، الذي يرجع إليه هذا الشاهد، يرد بعد ذلك: يرتبط العــرب ارتباطــًا غير مباشر بتاريخ المحرقة، أو بعبارة أفضل، ارتباطــًا غير مباشــر بــتاريخ مابعد المحرقة. ويعد الفلسطينيون ضحاياه غير المباشرين ما داموا قد سلبوا موطنهم من ضحاياه المباشرين. ولذلك تعد كل محاولة للربط بينهم وبين المحرقة محاولة مشبوهة»[2].

لقد كان السياسي العربي-الإسرائيلي وأستاذ الفلسفة عزمي بشارة الذي ترجع إليه هذه المقولة، حتى التسعينيات القرن الماضي، واحدًا من المثقفين العرب القلائل الذين ناقشوا الحركة النازية والجرائم الألمانية بحق يهود أوربة. ففي محاضرة أُلْقِيَت في إطار الحلقة الدراسية التي أجريت بعنوان ([التعامل مع المحرقة]/ Der Umgang mit dem Holocaust) في جامعة إنسبروك في الفصل الدراسي الشتوي (1993-1994 م)، انتقد بشارة الرفض الواسع النطاق لمناقشة مسألة الحركة النازية بين صفوف المثقفين العرب. ومع كل النقد الموجه إلى كل ألوان التصوير التي تدور فيها المسألة حول روابط بين ممثلي الحركات القومية العربية والحركة النازية، أكد بشارة ضرورة الاعتراف بالمحرقة على أنها جريمة فريدة ارتبكت بحق اليهود، وقال إن إنكار هذه الجريمة والأخذ بأطروحات مثل أطروحات المراجع للتاريخ، دافيد إِرْفِنغ (David Irving)، أمر خطير، وهو يعوق تسوية الصراع العربي الإسرائيلي. ويمضي بشارة قائلاً إنه لا بدّ، في نهاية المطاف، أن يحسب كل حل وسط تاريخي . . حسابًا «لذاكرتين جماعتين»[3].

وفي هذه الأثناء نشرت كلمة بشارة مرارًا بالألمانية، كما ظهرت فوق ذلك بالعبرية وأثارت، في مجلة إسرائيلية مناقشة حامية الوطيس. وعلى الرغم من أن بشارة يتوجه بأطروحاته، بصريح العبارة إلى جمهور عربي، لم يظهر النص حتى الآن بالعربية، أو في مجلة تتوجه إلى جمهور عربي.

ويُعَد هذا الظرف مَثَلاً من الأمثلة على الإشكالية المستمرة في هذا الموضوع. فبينما كانت المناقشة للحركة النازية، ولاسيما للمحرقة، يتم تجنبها في الأوساط العربية في الحقبة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية، وبصورة كاملة، تطورت في السنين الأخيرة مناقشات متفرقة فردية، تحولت إلى موضوع من موضوعات الاهتمام العلنيّ الواسع النطاق. وقد كان الرفض المتواصل من قبل من البداية إلى النهاية، تقريبًا، لاتخاذ المحرقة موضوعًا

للأحاديـث يجد مسوغـًا له على وجه الخصوص في النظرة القائلة إن العالم العربي ليس له أي علاقة بالجرائم الألمانية التي حدثت في ظل الحكم النازي. ثم إن الدراسات المختلفة، التي تم فيها البحث في اتصالات مفتي القدس الحاج أمين الحسيني أو رئيس الوزراء العراقي رشيد عالي الكيلاني، بألمانيا النازية، لم تظهـر إلاّ في صورة محاولات تشويه سمعة المواقف العربية عن طريق إثبات وجود التعاون التاريخي بين الحركات العربية والحركة النازية.

ولم يبلغ الاستعداد، بين صفوف العلماء والسياسيين الفلسطينيين، لمراعاة أهمية النازية في أثناء البحث عن أصول الصراع العربي الإسرائيلي ومن أجل معـرفة الـذات اليهودية الإسرائيلية، أشُده إلاّ في إطار الذكرى الخمسين للنكبة، أي ذكرى هرب جزء كبير من السكان الفلسطينيين في أثناء الحرب العربـية الإسـرائيلية، عـام (1948 م). وعلى غرار ما حدث في إسرائيل ازدادت، بـين الفلسـطينيين أيضـًا، وفي البلدان العربية الأخرى كثافة الاشتغال بتاريخهم، هم، وبتاريخ الخصم الإسرائيلي المقابل.

أمّـا إدوارد سعيد، الباحث الأمريكي في علم الأدبيات الذي توفي منذ عهـد قريب، والمنحدر من أصل فلسطيني، فيقف إلى جانب مثقفين فُرادى، فـرضَ مـثل هذه المناقشة على أوساط الجماهير العربية. ومثل سعيد، وَجه الصـحفي اللبـناني، حـازم صياغة مطالبته باتخاذ الجرائم الألمانية، بصريح العـبارة، أيضـًا موضوعـًا للحديث إلى الجمهور العربي[4]. «فالشعبان شـريكان، بغض النظر عن الدرجات المتضاربة للمعاناة الموروثة بينهم، في اسـتعادة ذكرى المحرقة»، كما كتب صاغيّة في مقالة وضعها بالاشتراك مع زميله التونسيّ صالح بشير[5]. وقد كان صرّح، في كتب تجميعيّ، من قبلُ، قـائلاً: إن مهمـة المثقفين العرب أن يتحدثوا عن المحرقة، وأن يطلعوا على [حقيقتها وواقعيتها][6]، وهو يوجّه مطالبته بإضفاء الصفة العالمية على المحرقة في هذه الأثناء إلى كل من السكان اليهود والسكان العرب على السواء: إن

تجـاوز اليهود لهذا الحدث الهائل [أي: المحرقة] يظل شرطـًا لتبدد المخاوف الأمنـّية الكـبيرة، ولتحقيق السلام، وللسبب ذاته، لن يحدث هذا من دون استيعاب العرب هذه الذكرى وإدخالها في تراثهم القصصيّ[7].

وقـد تجلـت المناقشات حول هذه الحملات من قبل المثقفين العرب في إسرائيل، وفي الولايات المتحدة وأوربة آخر الآمر، في وسائل الإعلام العربية. وكانـت زيارة ياسر عرفات المخطط لها، للمتحف التذكاري للمحرقة، في واشـنطن عام (1998 م)، أحد البواعث لحدوث مناقشةٍ في البلدان العربية المختلفة للخلفيات التاريخّية للحركة النازية، وآثارها في الصراعات السياسية في الشـرق الأدنى. فإلى جانب المدى الذي وصلت إليه عمليات الاضطهاد العنصـرية ومعـاداة السامية كان التساؤل عن دلالة ذكرى الجرائم يتقدم أيضـًا في هذه الأثناء تقدمـًا مطرِدَ الزيادة، ليتبوأ مركز الصدارة فيما يثير الاهتمام من الأمور.

ومع ذلك فقد كانت هذه المناقشات ما تفتأ تنطبع بطابع المآخذ التي تفيد أن إسرائيل ستُزَور التاريخ النازيّ، وتستخدمه أداة لأغراضها[8]. أما الحجج الـتي يوردهـا منكرو المحرقة مثل دافيد إرْفِنِغ وروبرت فوريسون (Robert Faurisson)، فما تزال موجودة حتى اليوم في أعداد جَمّة من المنشورات[9]. أما ترجمات ما يسمى (تقارير لويشترن/ Leuchter-Reports) أو كتاب ‹هل مـات ستة ملايين بالفعل؟/ Did Six Million Really Die?› التي توضع فيها واقعـة الاضـطهادات النازية لليهود موضوع الشك، فتظهر في دور النشر المصرية ذات السمعة المرموقة. وكان من الممكن الحصول على الترجمة العربية للكتاب المثير للجدل ‹صناعة المحرقة› لنورمن فنكلشتاين، في مكتبات القاهرة وبيروت حتى قبل أن تظهر ترجمة ألمانية له[10].

عـلى أن الأهمـية المطـردة الـزيادة للحركة النازية، من حيث كونها موضوعـًا في وسائل الإعلام العربية، لا يمكن تفسيرها إلاّ بَقْدرٍ ضئيل عن

طريق الاهتمام التاريخيّ بخلفيات الحركة النازية وسياستها. وعلى الرغم من وجود علاقة للحركة النازية بإقليم الشرق الأدنى تجلى من خلال أمور ليس آخرها أن الكتاب المعاصرين في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضي، يناقشونا بالتفصيل، تقتصر أشكال التصوير للإيديولوجيا والنازية والسياسة النازية، بعد عام (1945 م) على القليل من المؤلفات[11].

والحركة النازية تتحول إلى موضوع من الموضوعات التي تحظى بالاهتمام، في المقام الأول، في الإسهامات التي تتناول الصراع العربي-الإسرائيلي المستديم، بأوسـع معانـيه، ومـن ذلـك أن الحركة النازية والمحرقة تقدما، على وجه الخصـوص، عند مستهل الانتفاضة الثانية، في خريف عام (2000 م)، لتحتلاّ مكـان الصـدارة في أعـداد جمـة من المنشورات التي ترتبط فيها المواقف المعاديـة للصـهيونية بالإشارات إلى النازية[12]. لقد أقنعت أهمية المحرقة من حيث كونا أساسَ تسويغ مركزيّ لتأسيس دولة إسرائيل، بعدم رفض مناقشة أخـرى بعـد هـذا. وقد وُجِدَت في صورة إحالة تاريخية إلى تسويغ المطالبة بالمسـاندة وأشـكال التدخل على الصعيد الدوليّ، إشاراتٌ إلى المحرقة، آخر الأمـر، عـلى نحوٍ مطرد الزيادة في الأحاديث العربية أيضـًا[13]. وأود فيما يـلي، أن أعـيد تركيـب ثلاثٍ من المناقشات يُعْرِب فيها كُتّاب ومعلقون مصـريون أولي توجهات دينّية وسياسية متباينة، عن آرائهم في جوانب مختلفة مـن الـتاريخ النازيّ. فإلى جانب ردود الأفعال على نشر أساطير التأسيس في السياسـة الإسرائيلية، للجاحد الفرنسي بالمحرقة روجيه غارودي، في ربيع عام (1996 م)، تتعلق المسألة في هذا الصدد بمناقشة دارت بمناسبة المؤتمر العالمي للمراجعة وإعادة النظر في صدد الحركة الصهيونية، الذي كان مخططـًا له في الأصـل أن يـنعقد في آذار (2001 م)، بإشراف المعهد الأمريكي للمراجعة التاريخـية في بـيروت. ثم إن الاسـتفادة اللاحقة من الإسهامات التالية، التي أكـدت عشية مؤتمر الأمم المتحدة المناهض للعنصرية، في دوربان، في آب عام

(2001 م)، أطـروحة السـمة النازية للصهيونية، تستكمل آخر الأمر النظرة الشاملة بطُرُق للرؤية وحجج يكثر ورودها على الألسنة.

وفي إطـار هذه الاستفادة لا تتعلق المسألة بتعبير شامل عن كل المواقف، بـل سـوف اقتصـر على الإسهامات التي تحتل، داخل المناقشات، مركزًا مكشوفـًا، معرضـًا للأخطار، وتعكس مضامين محوّريةً للمناقشة. على أن إعادة إنشاء هذه المناقشات التي َتلقى في كل البلدان العربية، صدى استجابة عـلى النطاق الواسع، تستند إلى نصوص ظهرت في وسائل الإعلام المصرية. كما أن التعددية النسبية في الصحافة المصرية، التي يتم فيها التعبير عن مواقف صادرة عن بيئات اجتماعية متباينة، ُتمَكننا من نظرة يمكن الاعتماد عليها في أحاديـث الجمهـور المصـريّ. وعلى أساس الأهمية الثابتة الدائمة لوسائل الإعـلام المصرية، وأهمية وظيفة المثقفين المصريين المتمثلة في تكوين الرأي في الـبلدان العربية، يمكن أن نستخرج من النتائج أخيرًا نقاط استناد من أجل أمور مثيرة للجدل في البلدان العربية الأخرى.

9/ 1] «حوار المحرقة»: النازية موضوعـاً لأحاديث الساعة المصرية

9/ 1/ 1] «أساطير التأسيس في السياسة الإسرائيلية»: التاريخ مؤامرةً

ُبعَـْيدَ أشـهر قلائـل مـن ظهور كتاب ‹الأساطير المؤسسة للسياسة الإسـرائيلية›، في فرنسـا، في كانون الأول عام (1995 م)، تحدثت صحف عربـية جمّة العدد عن أطروحات روجيه غارودي العضو السابق في الحزب الشـيوعي الفرنسي. ومنذ ربيع عام (1996 م)، ظهرت المقالات الأولى التي تـتحدث عـن خلفيّات القضية المرفوعة ضد روجيه غارودي بسبب إنكار المحرقة. وكان هناك بيانات جَمّة العدد في أثناء مداولات المحكمة، في كانون

الـثاني وشـباط عام (1998 م) أسهم فيها الآلوف من المساندين في المدن العربية المختلفة، شكلت ذروة الـجادلات المتعلقة بأساطير التأسيس، وانتهت آخر الأمر إلى الحكم على غارودي من قبل محكمة باريسية. وَوُجد في أثناء ذلك، على الأقل، ستة من الترجمات باللغة العربية من العاملين في محلات بيع الكتـب، كانت من بينها تلك المساندة الصادرة عن دار النشر المصرية ذات السمعة المرموقة، دار الشروق، وقد باتت من المطبوعات التي يمكن الحصول عليها في طبعة رابعة.

ويـناقش غـارودي في كـتابه الأساطير المفترَضة التي اختلقتها الحركة الصـهيونية حول المحرقة، وبالإنطلاق من الشكوك التي تحيط بوجود غرف الغـاز، كما تحيط بعدد الضحايا اليهود، يُنحي باللائمة على أن الأسلوب القصصي يُزَور التاريخ النازيّ ليتخذ من المحرقة أداة لتسويغ الجرائم المُرتكَبة بحـق السكان الفلسطينيين. ويفيد العرض الذي تقدمه أن اضطهاد اليهود في ألمانيا النازية كان يرجع إلى مصلحة الحركة الصهيونية، لفرض هجرة اليهود الأوربـيين إلى فلسـطين، وأنه قد أتيح، بمعونة النفوذ اليهودي على وسائل الإعـلام، في عـام (1948 م)، بعـد تأسيس دولة إسرائيل، إخفاء التعاون الصـهيونيّ-الـنازيّ، واستغلال الجرائم المرتبكة بحق اليهود عن طريق نشر الأساطير لتكون أساسـًا تسويغيـًا للسياسة الإسرائيلية تجاه البلدان العربية.

وبعد أسابيع قلائل من ظهر الكتاب والإعلان عن محاكمة جنائية بسبب إلهاب مشاعر العداء للسامية، ظهرت المقابلات الصحفية الأولى مع غارودي في الصـحف العربـية. ومـنذ السبعينيات باتت أعداد جمّة من منشورات غارودي، الذي توجه بعد خروجه من الحزب الشيوعي الفرنسيّ، أول الأمر إلى المسـيحية، وأخـيرًا، أي: في مسـتهل الثمانينيات نحو الإسلام، يمكن الحصـول عليها في البلاد العربية، في موضوعات شتّى سياسية وذات صلة بعلم الأديان. وتجلت شعبية كتبه في أمور ليس آخرها الاهتمام الكبير الذي

لقيته محاضراته خلال الأشهر الأربعة والعشرين الواقعة بين التقارير الأولى عن ‹أساطير التأسيس› ونهاية جلسات المحكمة، في بلدان جمّة العدد، منها مصر، وسورية، والأردن ولبنان[14]. وقبل أسابيع قلائل من النطق بالحكم وصلت بيانات التضامن، بإلقاء محاضرة في إطار المعرض الدولي للكتاب بالقاهرة، في شباط عام (1998 م) إلى ذروةٍ من الذرى، وأرسلت بيانات مختلفة ورسائل احـتجاج إلى الحكومـة الفرنسـية، كـان منها ما أرسله اتحاد الكتاب الفلسـطينيين، كما كانت هناك تبرعات لتغطية تكاليف المحكمة من جراء الاهتمام الواسع النطاق والذي لقيه غارودي بأطروحاته.

كمـا جرى، في أعداد جمّة من المقالات، تفسير المحاكمة التي تم التمهيد لهـا، على أنها إثبات لصحة أطروحة غارودي، وقيل إن (95%) من وسائل الإعلام تهيمن عليها الصهيونية. وعلى غرار ما جرى في الدعوى المقامة ضد دافـيد إرْفـِنغ، الذي انتقد غارودي ملاحقته الجنائية مرارًا، بدت محاكمة الأخـير في نظر كثيرين، في صورة التعبير الأحدث عن حملة صهيونية على نـاقد «الأسـاطير حول المحرقة». وفي صورة الجانب المُكمل للأطروحات المحوريـة حول أساطير التأسيس، أي وضع سياسة الإبادة في موضع الشبهة، وكذلـك المأخذ الخاص بالتعاون الصهيوني النازي، تقدم بذلك نقد الحملة الصهيونية المفترضة ليتّبوأ مركز الصدارة في مضمار الاهتمام.

وكانـت الأغلبية الراجحة للكّتاب الذين كشفوا عن وجهة نظرهم في إطـار هذه المناقشة، تعبر عن مساندتها لغارودي وأطروحاته[15]. واحتفظ للقلائـل مـن الكـتاب بمسألة وضع «عمليات كشف اللثام» عن العدد الحقـيقي، الفعليّ للضحايا اليهود، وعن نطاق عمليات الاضطهاد وكذلك عن التعاون الصهيوني مع النازية، موضوع الشك. وأعلن مؤرخون ذوو سمعة مـرموقة، مـثل محمد حسنين هيكل، كما أعربت السلطات الدينية، ومنها شيخ الأزهر، محمد سيد طنطاوي، عن مساندتهم، على الملأ.

وعَبر هيكل، في مقدمته لطبعة ‹أساطير التأسيس› التي صدرت عن دار الشروق، عن هذه الأحاسيس والملاحظات، وقال إن الكتاب يسلك من حيث هو مجادلة تاريخية، مع الصهيونية. نج دوغلاس ريد (Douglas Reed) وداڤيد إرْفِنغ، وبينما يتساءل كتاب ‹Far and Wide› الذي حرره ريد في نهاية الأربعينيات، تساؤلاً نقديًا عن الأسباب الكامنة وراء عدد الضحايا اليهود، تتناول دراسات إرْفِنغ سؤال: إلى أي مدى يمكن أن توصف معاداة السامية بأنها جزء من الأيديولوجيا النازية. وعلى أساس النتائج التي توصل إليها يتشكك إرْفِنغ آخر الأمر في أسلوب العرض الذي يفيد أن اليهود أبيدوا في غرف الغاز في المعسكرات النازية. وفي الختام يفصل هيكل القول في المآخذ التي أُخِذَت على غارودي، ويقول، مع ريد وإرْفِنغ اللذين رأيا نفسيهما في مواجهة حملتين مماثلتين، إن غارودي يستحق الثناء على استعداده «لمهاجمة السلطان الصهيوني»، وهو على علم بالمخاطرات التي يتعرض لها بذلك[16].

وعلى الرغم من الأهمية التي يَتم إيلاؤها لغارودي من خلال هذا التقدير المستفيض من قِبَل المؤرخ هيكل، يتيح إسهام لمحمد سلماوي نظرة ثاقبة صائبة في المناقشة التي نشأت في إطار نشر كتاب ‹أساطير التأسيس›، بين صفوف الجمهور المصري. وذلك أن سلماوي الذي يعمل محررًا لصحيفة الأهرام الأسبوعية، التي تصدر باللغة الفرنسية كما كان يعمل، أيضًا، معلّقًا، نظاميًا ثابتًا في صحيفة الأهرام اليومية المقربة من الحكومة، نشر في مستهل شباط (1998 م)، مقالة تمت فيها إعادة نشر أنموذج للجدل والاحتجاج، ذي أهمية مركزية، استُخْرِج من الجدل الخِلافيّ حول غارودي. وفي إسهامه الذي ورد تحت عنوان: «فَتش عن اليهود!» الذي ظهر في الأهرام الأسبوعية التي تصدر بالفرنسية كما صدر في الأهرام ذات اللغة العربية، يتخذ سلماوي موضوعًا لحديثه ثلاثة من الأحداث كانت تحظى

باهـتمام خصوصي في وسائل الإعلام العربّية أيام هذا النشر: وهي المناقشة التي كانت تدور حول غارودي، والملاحقات الجنائية لدافيد إرْفِنغ في أوربة، وقضية مونيكا ليفينسكي، في الولايات المتحدة[17].

ويسـتهل سـلماوي مقالـته بتقرير ما يلي: تجري في الولايات المتحدة تحقـيقات جنائية ضد الرئيس الأمريكي بِلْ كلينتون بسبب علاقته بالنساء، وفي بـاريس تخطو القضية المرفوعة ضد المثقف الفرنسي، روجيه غارودي، خطـوات إلى الأمام، والمؤرخ البريطاني، دافيد إرْفِنغ، يُطرَد من النمسا ومن إيطاليا، وألمانيا وكندا، كما يُطرَد من بلدان الكومنولث. هذه أحداث ثلاثة يـبدو أن بينهن خيط دقيق، ولكن يمكن تفسير بالقول المأثور المنسوب إلى نابليون «فتش عن المرأة!» وما من شك في أنه لا بُد لنا، في هذه المرة، إذا ما أردنا أن نفهم ما يحدث حوالينا، أن نطرح شعار: «فتش عن اليهود!».

وفي العـرض التالي الذي يقدمه عن الأحداث الثلاثة، يتحدث سلماوي عن الخلفيات المفترضة التي ينجم عنها هذا الحدث، ويقول إنه بناءً على هذا تُعَد القضايا المرفوعة ضد كلينتون والقضية المتعلقة بالموظفة المتدربة، مونيكا ليفينسـكي، ذات علاقة مباشرة بالزيارة الوشيكة لرئيس الوزراء الإسرائيلي بنـيامين نتنـياهو لواشنطن: فقد «بدأت القضية في وقت بدا فيه أن البيت الأبـيض مستعد لممارسة الضغوط على الضيف الإسرائيلي لكي يخفف هذا محاصرته للمناطق العربية المختلفة بين فَكيْ كماشة، بعض التخفيف ليتجنب انفجـار الوضـع». أما الإشارة إلى مؤامرة للقوى الموالية لإسرائيل تدف تشـويه سمعـة كلينتون، وإضعاف مقدرته على فرض ما يريد، في مواجهة نتنـياهو، عـن طـريق الفضـيحة، فيتم تدعيمها بمقالة أخرى: وهي أن ليفينسـكي، فيما يقول سلماوي، تسوغ تأييدها لكلينتون بسياسته الموالية لإسـرائيل. وفي الوقـت ذاته، أي في شتاء (1997-1998 م)، كما يمضي سـلماوي قـائلاً: تُعَـرّي القضـية المرفوعة ضد غارودي في فرنسا (بلد

الحريات). وذلك أن قانون غيسّو (Loi Gayssot) الذي أقرته الجمعية الوطنية الفرنسية عام (1990 م)، في مواجهة عدد من المنشورات التي تحد من مصداقية المحرقة، يُعَرف إنكار الجريمة ضد البشرية تعريفًا غير ذي طائل. وذلك أن البشرية لا يتم تحديدها في القانون «على أنها مجموع الجنس البشري، بل على أنها الملايين الستة من اليهود الذين يقال عنهم إنهم أبيدوا في أثناء حكم هتلر أوربة خلال الحرب العالمية الثانية». أمّا الجريمة الوحيدة التي يُدان بها غارودي، فتتمثل في إعرابه عن شكوكه في عدد الضحايا اليهود. فمع اقتصار عدد اليهود على مجرّد الملايين الأربعة الذين يقال إنهم كانوا يعيشون في تلك الأيام في أوربة، لا يمكن الحفاظ على رقم الملايين الستة من اليهود الذين قُتِلوا على أيدي النازيين. ويلجأ سلماوي، فوق ذلك إلى أطروحة غارودي عن الاستحالة التقنية لإبادة البشر في غرف الغاز: إذ يقول غارودي إن الفكرة مستحيلة من وجهة نظر تقنية، ولم يعلن أحد حتى اليوم كيف عملت هذه الأفران المفترضة. وعلى الرغم من سمعته وإسهامه في المقاومة ضد الاحتلال الألماني لفرنسا، سقط غارودي ضحية للتأليب الموجه ضده وضِد مسانديه، من قِبَل المجموعات اليهودية.

ويقول إن الحملة على غارودي ليست جديدة بحال من الأحوال. فقد استُخْدِمَت طرائق مماثلة ضد دافيد إرْفِنغ الذي رُفِض آخر كتبه حول يوزيف غوبلز من قبل معظم دور النشر. على أن تقييدات السفر التي فرضتها البلدان المختلفة ضد إرْفِنغ بسبب ظهوره في المؤتمرات الدولية تجمعات اليمين المتطرف، كانت ترجع، فيما يرى سلماوي، إلى المؤامرات ذاتها، التي تحركها مجموعات اللوبي اليهودي. ويذكر سلماوي بصريح العبارة، ذلك الارتباط بين الحملات على غارودي وإرْفِنغ، وفضيحة كلنتون، وهو يختتم مقالته بسؤال: وإذًا فما هو العنصر الذي يربط بين ما وُوجِهَ به كلنتون في أمريكا، وما ووجِهَ به أناس مثل غارودي ودافيد إرْفِنغ في أوربة؟. أهو بالفعل المرأة

التي كان نابليون يفتش عنها؟، أم أنه شيء أقل جمالاً من المرأة، غير أنه، في مقابل ذلك، أحرى أن يكون أكثر تخريبـًا وتدميرًا؟.

وفي هـذا الإسـهام تترابط حجج محورية يتم الإعراب عنها في الجدل الخـاص بأساطير التأسيس وفي الأطروحات الممثلة فيها حول واقع النازية، وكذلـك حـول تعلقها المتواصل بالموضوع. ومثل معظم الكتاب، يجتهد سـلماوي في التعـبير عن أطروحات غارودي، من دون أن يضع نفسه في موقف معين. وفي رد لاحق على الناقدين الفرنسيين، يصر سلماوي على أنه لم يـَتبن غارودي بحالٍ من الأحوال. وبصرف النظر عن هذه اللفتة البلاغية الـتي يـبرر بها سلماوي السِمة الوصفية المفترضة لعِرضه، تعكس الملاحظةُ الكامـنة في أساس الواقع الاجتماعي أنموذجـًا للتفسير واسع الانتشار يتم التعـبير عـنه في إطار الماضي النازي. أمّا افتراض وجود "يدٍ خفّية" تؤمن، بمعونـة أشـكال التأثير التشريعي، والهيمنة الصهيونية على وسائل الإعلام، السيطرة على القضايا الاجتماعية، فيضمن المشاعر والأحاسيس التي تنطبع بها المناقشـة حول أساطير التأسيس. وعلى نحو مماثل لما يكون عليه الحال لدى الأعداد الجمّة من الكتاب الآخرين، لا يدع سلماوي أيضـًا مجالاً للشك في ذلـك، عـندما يتكهن بما يتكهّنه وراء «اليد الخفية». وبينما تشكل أغلبية الكـتاب مجموعـات ضـغط (لوبي) هي من الناحية الشكلية إسرائيلية أو صـهيونية، يتوجه سلماوي ضد «اليهود» بصريح العبارة، ويرى أن هناك روابـط بـين وسـائل الإعلام العالمية، وكذلك بين الأحداث المختلفة في السياسـة العالمـية، والمؤامرات اليهودية التي كانت تحاول فرض التأويلات الأسطورية الخاصة بالماضي النازي.

هـذا التصـوير يعكس وجهات نظر واسعة الانتشار عن الجرائم النازية، كمـا تم الإعـراب عـنها في المناقشة التي دارت حول أساطير التأسيس بين صـفوف الجمهور المصري. على أن التدقيق في أطروحات غارودي من حيث

الصـحة التاريخـية لم يكـن في هذه الأثناء يتبوّأ مركز الصدارة إلاّ في أقل الحـالات. وأخيرًا فإن الرواية غير المعلق عليها، على نطاق واسع، على ألوان التصـوير الجوهـرية عند غارودي، توثق المقصد المتمثل في كشف اللثام عن أسـلوب السرد الرسمي لتاريخ الحركة النازية، من حيث كونه نتيجة لإضفاء السمة الأسطورية على مجموعات الضغط (اللوبي) واتخاذها أداة من الأدوات.

9/ 1/ 2] مؤتمر «المراجعة التاريخية والحركة الصهيونية» في بيروت: فائدة المحرقة

لقـد أحدث الإعلان عن مؤتمر (معهد المراجعة التاريخية/ Institute for Historical Review) الأمـريكي، وكذلـك المـنظمة السويسرية (الحقيقة والعدالـة/ Vérité et Justice) في بيروت، جدلاً آخر اتخذ له موضوعًـا من «تواصُل التأثير المتصل بسياسة الذكريات. وبمطلب مراجعة الماضي النازي، ولا سـيما في المحـرقة، أداة الدعايـة الرئيسة التي تخدم المصالح الإسرائيلية الصـهيونية» كمـا جاء في الإعلان عن المؤتمر. توّجه المنظمون للمؤتمر إلى الجمهور العربي، لتوثيق «الاشتراك في المصالح»[18]. وتحدثت وسائل الإعلام الإقليمية والقومية، بالتفصيل عن الأحداث التي جرت عشية المؤتمر الذي تم الإعـلان عـنه في آذار عـام (2001 م)، بعـنوان «المراجعة والصهيونية/ Revisionism and Zionism». وبعـد الـتقارير الأولى عن خلفيات اليمين المـتطرف عند أولئك الذين نظّموا المؤتمر، والاحتجاجات الدبلوماسية ولا سـيما تلك الواردة من الولايات المتحدة، حدثت مناقشة واسعة النطاق في وسائل الإعلام العربية، نوقشت فيها أهداف المؤتمر ومشروعية سعية من أجل المساندة في صفوف الجمهور العربي. وعلى الرغم من الرفض القصير الأجل، لإقامـة المؤتمـر، من قبل مجلس الوزراء اللبناني، ظهرت في الأسابيع التالية تقارير وتعليقات جمّة العدد كانت المناقشة تُسْتأنف فيها.

ويمكـن تفسير المؤتمر بأنه التعبير الأوضح، حتى الآن عن جهود منظمات اليسـار المتطرف من أجل فرض الأحاديث الخاصة بإعادة النظر في التاريخ على الجمهور العربي، وهو يوثق عملية مناقشة متواصلة في الحقوق الأوربية والأمريكـية، للعلاقة بحركات المقاومة الإسلامية والعربية[19]. وقد أوضح واحـد مِمـن شاركوا في إقامة المؤتمر، وهو يورغِن غراف (Jürgen Graf)، الكفـاح، الـذي كـان يُعَد، من وجهة نظره مشتركـًا، بين يَدَيْ خلفّية الـترجمات المخـتلفة للكـتاب اليمين المتطرف إلى العربية، التي ظهرت في السـنوات الأخيرة[20]. ويقول غراف «إن أولئك الذين يكذبون على نحوٍ ثابـت فيما يتعلق 'بغرف الغاز' و'الملايين الستة' . . هم، أنفسهم، أولئك الذين يحطّون من شأن إيران والثورة الإسلامية ويشوهون سمعْتيهما بقسوة لا رحمـة فـيها. وهم، أنفسهم، بطريق المصادفة، أولئك القوم الذين ينشرون الإجهـاض، وحقـوق أهل ممارسة الجنس بين الذكور . .، والأدب والفن المفرطْين في التعهر والإباحية من وجهة نظر عقائدية، وما إلى ذلك من ألوان الفواحش الممقوتة»[21].

وفي كـتاب مفـتوح مقترح إلى الحكومة اللبنانية، وقع عليه أربعة عشر مثقفـًا عربيـًا، احتج المثقفون على الدعم الأوربي والأمريكي لإسرائيل في صراعها مع العرب[22].

وفي المناقشـة اللاحقة، التي كانت المسألة فيها تدور حول المؤتمر، كما كانت تدور أيضـًا حول الكتاب المفتوح، تم الإعراب، في وسائل الإعلام المصـرية، ومن جوانب مختلفة عن نقد شديد للموقعين على الكتاب. ففي نيسـان من عام (2001 م) نشرت الصحيفة الأدبية، (أخبار الأدب)، عددًا من الإسهامات التي أُعْلِن عنها أنها «حوار المحرقة»، وكانت تعبر عن المواقف المخـتلفة[23]. ويضـاف إلى ذلك أن التقارير الواردة عن رفض إقامة مؤتمر تفيتسـان تـودوروف (Tvetzan Todorov)، مدير (المركز القومي للبحث

العلمي/ Centre National de la Recherche Scuentifique, CNRS) في باريس، أثارت هذه الدلالات. وقد كان تودوروف دُعِيَ من قبل مجال الاختصاص بالأدب اللاتيني في جامعة عين شمس/القاهرة، في الشهر ذاته، لإلقاء محاضرة عن ثقافات الذكريات. وفي النهاية ألغى مجال الاختصاص إقامة هذه المحاضرة، بعد أن بات من المعروف أن تودوروف سوف يؤكد الأهمية الخصوصية للمحرقة.

وفي إسهام مفصل، في (أخبار الأدب) مهد للمناقشة، أنشأ عزت القمحاوي علاقة بين كلتا المحاضرتين، في القاهرة وبيروت. وفي مقاله الذي يحمل عنوان «المحرقة حدث وما زال يحدث» يتوجه القمحاوي ضد تلكم الأصوات التي تؤيد مؤتمر بيروت وتنتقد رفض عقده. وفي الوقت ذاته، يضع موضع الشك قرار إلغاء الدعوة إلى محاضرة تودوروف، وهو يُوَثق موقفه في مقابلة صحفية مع تودوروف الذي ظهر في الطبعة ذاتها[24]. ويرى القمحاوي «أنه ليس من مصلحة العرب أن يتطرقوا في حربهم مع إسرائيل إلى مسألة هل أحرق هتلر اليهود أم لم يفعل، ولاسيما في هذه الأيام التي يتعرض فيها الشعب الفلسطيني لحرب إبادة» ويقول إن السبب الوحيد لتناول هذا الموضوع يتمثل في «إثبات وجود المحرقة بدلاً من إنكاره لأن البَرْهَنة عليه خليقة بأن تثبت بربرية الصهيونية وتحيز الغرب». وبينما ينتقد عزت القمحاوي الارتباطات باليمين، وينتقد ألوان تصويرهم الاعتذاري للحركة النازية، يؤكد ضرورة التطرق إلى دلالة المحرقة في إطار «الضمير الأوربي». وعلى النقيض من تودوروف الذي يُصِر على تمييز بين المحرقة والسياسة الإسرائيلية تجاه السكان الفلسطينيين، يرى القمحاوي، بلا ريب، وجوب الاستفادة من الإمكانية التي تنطوي عليها أهمية المحرقة في أوربة لتسويغ المطالب الفلسطينية.

وفي عموده الأسبوعيّ صاغ الكاتب في صحيفة (أخبار الأدب)، ومحررها، جمال الغيطاني، نظرة مماثلة، وأعرب عن مساندته للكتاب المفتوح

إلى الحكومة اللبنانية[25]. وقال «إن من الخطأ أن يُكرّس بعض المثقفين أنفسهم، بدافع النية الحسنة، أو على أساس نقص المعلومات، لموضوع خاطئ، في سبيل خدمة قضيتنا العادلة». وقال إن المحرقة الذي سقط ضحية له «إلى جانب اليهود، والغجر والروس، العرب أيضًا»، جريمة أوربية لا يتحمل العالم العربي مسؤولية عنها، ومع ذلك يظل من الممكن الاستفادة من الأثر التسويقي للمحرقة، للوصول، على الصعيد الدولي، على مساندة للقضية الفلسطينية، «ما من عربي يمت بصلة إلى الجريمة المرتكبة بحق اليهود في ظل حكم النازيين الأوربيين». «فالفلسطينيون والعرب هم بالأحرى، «ضحايا المحرقة الصهيونية» الذي تتم فيه إبادة السكان العرب في فلسطين».

وفي الإصدارات التالية ظهرت مقالات مختلفة تنتقد هذه التقديرات. لقد وضع سيد البهراوي، وهو عضو لجنة الحرية في اتحاد الكتاب المصريين، في تعليق له، قرار الحكومة اللبنانية في موضع الشك، بينما رَحب بصريح العبارة بقرار دائرة الاختصاص بالأدب اللاتينيّ. وقال «إن المسألة كانت تدور، في كلتا الحالتين، حول المحرقة، وما من شك في أن ذلك إنما كان بالانطلاق من منظور مختلف، في كل مرة»، وبينما كان قرار الحكومة اللبنانية يرجع إلى الضغط الواضح من قِبَل إسرائيل وأمريكا، اتخذ الزملاء في جامعة عين شمس قرار «رفض إلقاء المحاضرة على أساس من ضميرهم، وأحاسيسهم الوطنية والإنسانية»[26]. وبطريقة مماثلة، توجّه الكاتب السوري، غازي أبو عقل، ضد «فرض المحرقة» (البهراوي). وهو يرى أن الصهيونية، وصلت، في عيْنيه، إلى حقيقة أن البشر باتوا يُقَسمون إلى «مؤمنين بالمحرقة» و«غير مؤمنين به»[27]. وأما المثقفون الليبراليون، مثل المُوَقعين على الرسالة فسيكونون بعد ذلك خليقين بأن يستسلموا، على نحوٍ مطرد الزيادة للإيمان المفروض عليهم، بالمحرقة.

وكان علاء عبد الوهاب أيضًا من الذين أبرزوا الدور المفترض للدعاية الصهيونية في تأسيس استحسان الحديث عن الحركة النازية. ومن دون أن

يضع الجرائم موضع الشك، بهذا الاعتبار، يُحَمل «التعاون الصهيوني-النازي» المسؤولية عن المحرقة. ويقول إنه بعد عام (1945 م) ما عاد الذي يشغل اهتمام الحركة الصهيونية، آخر الأمر، مجرد الكشف عن الجرائم ضد اليهود، بل كان هناك، بالأحرى، اهتمام خصوصي بإنشاء صِراع مفترض بين النازية والصهيونية. ويقول عبد الوهاب إن مثل هذا الصراع لم يكن له وجود بالطبع في مقابل التصوير في أسلوب السرد التاريخي السائد. بل الأحرى أن الحركة الصهيونية لم تساهم في مجرد عمليات اضطهاد اليهود فحسب، بل كانت تلتقي أيضًا مع الحركة النازية، في جوانب جزئية إيديولوجية محورية. وفي هذا الاحتجاج لا يمكن إذًا أن تتعلق المسألة بمجرد الكشف عن «المحرقة الصهيوني». ويضاف إلى ذلك أن مما يتمتع بالأهمية الخاصة. الكشف عن العلائق التاريخية بين الحركتين، النازية والصهيونية.

وفي النهاية استُؤنِفَت المناقشة برَد من عزت القمحاوي. وفي جوابه قام بتدعيم أشكال تصويره، وما من شك في أن رأى نفسه مضطرًا إلى أن يضع لنفسه حدّاً بشاهد تمهيديّ من الأغنية المصرية الشعبية «أنا بكره إسرائيل»، بأسلوب رمزيّ، في مواجهة المأخذ الذي يفيد أنه خليق بأن يخضع للمصالح الإسرائيليّة، وتمّ فتح باب المناقشة بمقالة لفرنسيّ من دعاة المراجعة التاريخية، هو روبرت فوريسون، بعد أسابيع في مرحلة ختامية، للكّتاب الذين كان مخططًا لهم أن يشاركوا في مؤتمر بيروت[28]. وبينما كان فوريسون يلخص المناقشات المبنّية على مراجعة التاريخ، في أوربة وفي الولايات المتحدة، كان أحمد الخميسي يتيح الفرصة، في عموده الأسبوعيّ، لمدير (معهد المراجعة التاريخية)، مارك فيبر (Mark Weber)، لتدعيم مصالح منظمي مؤتمر بيروت[29]. وفي رسالته التي تم توثيقها في الموضع ذاته، من قبل الخميسي، أنحى فيبر على الكاتب اللبناني، أدونيس، الذي يمثل الموقعين على الرسالة، إلى الحكومة اللبنانية، باللائمة لخيانته القضية العربية وإعراضه عن الحقيقة التاريخية.

وبتمهيده المنطوي على حسن المقصد، لفيبر وللمعهد الأمريكي المذكور يتبنى الخميسيّ هذا الموقف.

على أن الدلالات حول مضامين مؤتمر بيروت، ونواياه، التي تنعكس في هذه المقالات، توضح مواقف متباينة حيال أهمية المحرقة من حيث كونه موضوعًا يتصل بسياسة الذكريات في المناقشات المصرية. وبينما يعرب كُتّاب كعزت القمحاوي عن مواقفهم المؤيدة لوضع حدود تفصلهم عن اليمين الأوربي والأمريكي، يتبنّى الخميسيّ وأبو عقل احتجاجاتهم بصريح العبارة. وعلى الرغم من الأقوال المتناقضة بصدد جوانب متفرقة، بعينها، يلتقي الكتاب آخر الأمر في تمييزهم للسياسة الإسرائيلية حيال السكان الفلسطينيين، بأنها «محرقة صهيونية». وبهذه الإشارة الضمنية إلى جرائم بحق اليهود الأوربيين تتحول المحرقة في هذه الأثناء إلى نقطة استناد تسويغية للمطاليب الفلسطينية في المناقشات الدولية. وفي الوقت ذاته يتوجه هؤلاء الكتاب ضد ما يُفتَرَض من اتخاذ المحرقة أداة تفرضها الصهيونية. ثم إن القياس المفترض للنازية على الصهيونية تزداد حدته من أجل ذلك، من جرّاء بعض الكتاب، عن طريق إنكار الجوانب المحورية في إبادة اليهود. أما قول الغيطاني «ليس هناك فرق بين إبادة امرئ واحد وإبادة مليون»، فيظل أنموذجيًا لهذه الأشكال من التصوير. وبينما تظهر الحركة النازية في صورة سياسة احتلال عنصرية، تتحول الصهيونية هنا إلى رمز لحرب إبادة شاملة ضد السكان الفلسطينيين.

9/ 1/ 3] مؤتمر الأمم المتحدة ضد العنصرية في دوربان: «حاربوا النازيين الجدد»[30]

وعلى نحوٍ مماثل لما حدث في مؤتمر (معهد المراجعة التاريخية) في بيروت، تطـوّر مؤتمـر الأمم المتحدة ضد العنصرية في دوربان، أيضًا، إلى مناسبة

لمناقشات مستفيضة، تبوأ فيهن الواقع النازي وعلاقته بالحاضر مركز الصدارة من الاهتمام. ثم إن محاولة تحويل الصفة العنصرية للصهيونية، كما وردت في قـرار الجمعية العامة للأمم المتحدة عام (1975 م)، إلى موضوع يُطرَح على الصـعيد الدولي طبعت بطابعها اللقاءات التحضيرية المختلفة بين المنظمات العربـية اللاحكومية عشية المؤتمر. وكان تمييز إسرائيل بأنها الوريث التاريخيّ للـنازية وجـرائمها، في هذه الأثناء من الموضوعات التي تطرح بانتظام في الإسهامات الخاصة بالمناقشة في هذه اللقاءات وفي التقارير المفصلة في وسائل الإعلام العربية. وخلافـًا لما حدث في المناقشات التي تطورت في إطار المؤتمر في بـيروت، كـان يكمـن في هذه اللقاءات محور ثقل جاثم على القواسم المشـتركة الإيديولوجـية، وأشـكال التواصل والثبات، بالحوار التي يمكن الكشف عنها بين النازية والصهيونية[31].

وفي الأسـابيع الـتي سبقت المؤتمر في دوربان وصلت هذه الأشكال من التصـوير التي لبثت تظهر مكررة منذ بداية الانتفاضة الثانية، في خريف عام (2000 م)، في وسـائل الإعـلام المصرية، إلى ذروتها. وكان المأخذ الخاص بـ«عمليات التطهير العرقي» التي تخضع لدافع أيديولوجي، و«سياسة السمو المبنـية على العنصر أو العرق»، حيال السكان الفلسطينيين، يتم ربطها على نحـو مطرد الزيادة بالأقوال التي تتردد على الأيديولوجيا النازية. وبينما كان تمثيل اليهود والإسرائيليين بالصلبان المعقوفة، منذ السبعينيات، يدخل في باب الوسائل الأسلوبية المستخدمة في الرسوم الكاريكاتورية في الصحف العربية، كانت الإسهامات في إطار هذه المجادلة تعمل جاهدة على الوصول إلى إثبات أيديولوجـي لهذا المأخذ. وكانت حجج وسائل الإعلام المصرية التي كانت تنشـأ في محـيط المؤتمر، حول «السِمة النازية للصهيونية» تعكس المنازعات حول هذا المأخذ.

وكـان يلعب الدور البارز في هذا الصدد منشورات المثّقف المصري عبد الوهـاب المسيري الذي كان يتناول في إطار دراساته حول تاريخ اليهودية والصهيونية، بالتفصيل الأسس الأيديولوجية للحركة النازية وسياسة الإبادة الـتي تسلكها. على أن تسميته عضوًا في الوفد المصري لمؤتمر دوربان يؤكد الدور الذي قُسِم له في هذا السياق. وفي كتابه: الصهيونية، والنازية، ونهاية الـتاريخ، الـذي نشر عام (1997 م)، في طبعته الأولى، يجتهد المسيريّ في إثـبات نظائر وأنداد أيديولوجية أساس بين النازية والصهيونية. وفي مقالات ومقـابلات صحفية جمّة العدد، ولا سيما في وسائل الإعلام المصرية، كرر المسيري جوانب متفرقة من هذا البحث وطبع بذلك، بطابعه، المناقشات التي جرت في الأشهر التي سبقت المؤتمر في دوربان.

ويسوغ المسيري أطروحته التي تفيد تقاربـًا بين الأيديولوجيتين، النازية والصـهيونية، أول الأمـر بأصـولهما المشتركة في التفكير الغربي الحديث، وبأشـكال من إثارة المشاعر العديدة في تصور معين بما يمت بصلة إلى عصر التنوير والعَلْمَنة اللذين انطبعت كلتا الإيديولوجيتين بطابعهما[32]. أما جرائم الـنازية التي يعترف بها المسيري أيضـًا، في وضع للحدود الفاصلة بينه وبين غارودي، من حيث هي حقيقة تاريخية، فيمكن فهمها في هذا التصوير على أنهـا ميـول تطوريـة ملازمـة لـ«حضارة الإبادة» الغربية. وأما حوادث الاضطهاد والمعادية لليهود، والمحرقة، فليسا في النهاية سوى تعبير منطقي عن الفكـر الغربي الحديث. وفي صورة تعبير عن هذه الميول تقف الحركة النازية رائدًا تاريخيـًا للسياسة الإسرائيلية حيال السكان الفلسطينيين. وبإشارة إلى مفهـوم 'المسـلمين'، والذي كان يستعمل من قبل المعتقلين تمييزًا لمجموعة مـنهم، يعلن المسيريّ تقريره أن العداوة الحقيقية في العصر الحديث الغربي، وبالتالي، عداوة النازية والصهيونية، لا تتوجه ضد اليهود بل ضد المسلمين. ويقـول إن الصـهيونية تؤدي، من أجل ذلك، آخر الأمر، تلك المهمة التي

حاولت النازية أن تنفذها على الموضوع الخاطئ[34]. ويقول إن إبادة اليهود هي آخر الأمر، مجرد أنموذج عائدٍ، متكرر، في الحضارة الغربية الحديثة[35].

وكـان ثمـة حجـج مماثلة يتم إيرادها أيضـًا لتفسير تركيب الصور، صـورت، على صفحة غلاف الصحيفة الأسبوعية الناصرية (العربي)، وزير الخارجـية الإسرائيلية في حُلة الجيش النازي[36]. على أن التقارير الواردة في الصـحف العالمـية المخـتلفة حـول الصورة وما َتِبعها في العنوان الرئيس «النازي»، أثارت ردودًا جمة العدد في الصحافة المصرية، دَعمت المقولة التي تضـمنها تركيب الصورة. وبعد طبع تركيب صورة أخرى تم فيها تصوير رئـيس الـوزراء شارون، وبيريز في صورة خصمين لأدولف هتلر، نشرت الصـحيفة مقابلات صحفية مختلفة مع مثقفين أشاروا إلى المقارنات على أنها ملائمة من الوجهة التاريخية. ومِنْ ذلك أن محمد عودة لم َيزِدْ على أن انتقد التركيـب الـتاريخيّ. وفي النهاية بات من الممكن متابعة الأسس العنصرية للصـهيونية في الـيهودية متابعة واضحة من الوجهة التاريخية، في رجعة إلى الماضـي، وعلى نحو أبعد مما تمت به متابعة أسس الحركة النازية التي تم وضع أسُسِـها الأيديولوجية بتأسيس الحزب عام (1919 م)[37]. وبطريقة مماثلة، يـرى إبراهـيم عـبد الـيد أيضـًا، أن من الضروري إضفاء صفة الحِسيّ المـلموس على المقارنة. ففي تصويره يولي القيمة لتقرير أن أيديولوجية هتلر والنازية تم تطويرهما بين يَدَيْ خلفية الهزيمة في الحرب العالمية الأولى، وأنه لا بُـد أنها أدخلت في حُسبانها المطالبات العامة، بالانتقام وإعادة إقامة الحدود السالفة. أما إسرائيل فنشأت، في مقابل ذلك قبل نصف قرن، وهي تقترف الأفعـال ذاتـها الـتي يقترفها النازيون [بالطبع]، بحق شعب لم يسبق له أن حارب إسرائيل من قبل، ولم يطردها، ولم يقمعها، وإنما تمارس إسرائيل هذه السياسـة مـن دون أن تتعرض للصدمة التي كان هتلر يحملها معه والتي لم يتغلـب عليها أبدًا . . وبيريز لا يعاني صدمة يمكن أن تكون مشابهة لصدمة

هتلر، تلك، غير أنه يرتكب ومازال يرتكب أفعالاً بحق العرب، أسوأ وأدهى مما ارتكبه النازيون بحق اليهود. فهتلر، في هذا التصوير «مجرد تلميذ في مدرسة الإرهاب والعنصرية الإسرائيلية»[38]. وبالمأخذ القائل إن هناك خمسة ملايين من ضحايا «المحرقة الصهيونية»، ينتهي جمال فهمي آخر الآمر إلى النتيجة التي تفيد أنه إذا قدر لامرئ أن يكون الخاسر في المقارنة بين بيريز وهتلر فذاك هو «بلا ريب، النازي الذي يُعامَل معاملة جائرة»[39].

لقد لجأ اللقاء التحضيري بين المنظمات غير الحكومية العربية، من أجل المؤتمر في دوربان إلى هذه المناقشات وقام بتدعيم مضامينها، وشكلت المناقشات التفصيلية، مع الجذور العنصرية المفترضة للتصور اليهوديّ لـ«شعب مختار»، وكذلك «الأرض الموعودة» نواة هذه الدالات، التي كان يفترض أن يتم بها إثبات أوجه الشبه بين الحركة النازية والحركة الصهيونية. ومن ذلك أن أحمد بهاء الدين شعبان أعلن، في تقرير عن المؤتمر، أن الدولة اليهودية تستبعد كل الأديان الأخرى، إذ ينظر اليهود إلى أنفسهم على أنهم «شعب الله المختار»، وهو إدعاء يتماشى مع حديث النازيين عن «العرق الآري الصِّرف»[40]. وقال إن كلتا الحركتين تمثلان تعبيرًا عن مراحل متقدمة من البربرية في المشروع الاستعماري العالمي، في الحضارة الغربية، وأن كلتا الحركتين تقفان إلى جانب الميول الاستئصالية في العصر الحديث الغربي، كما يقول محمد الصاوي في تمهيد لمقابلة صحفية مع المسيري، ويقول إن الصهاينة، اكتسبوا في ظل الحكم النازيّ، مبدأ النازيين، إذ سلموا أولئك اليهود الذين كانوا «لا يُحْتاجُ إليهم»، إلى النازيين، على حين صانوا اليهود الموسِرين من الإبادة[41].

على أن الإشارة إلى الحركة النازية وجرائمها المعادية للسامية، في سياق نقد السياسة الإسرائيلية تجاه الفلسطينيين، تعتنق فوق ذلك أشكالاً من التصوير توصف فيها الصهيونية صراحة بأنها خصم إيديولوجيّ للحركة

الـنازية. وهكذا يكتب المسيري قائلاً: إن . . الفرق بين المثالين، الصهيوني والمعادي للسامية، ليس في مقدماتهما المنطقية، ولا في مصطلحاتهما، ولا في المنطق أو الحل، بل يكمن بالأحرى، في الآليات اللازمة لتحقيق ذلك الحل. وبعـبارة أخرى، فإن الفرق فرق ميكانيكي بحت، بدلاً من أن يكون فرقـًا في المفهومات[42]. وثمة كتيب يحوي رسوم كاريكاتورية مأخوذة من صحف مصـرية، كـان يتم اتحاد المحامين المصريين يوزعها في مؤتمر دوربان، يصور الانتشار الآخذ في الازدياد لهذه الـادلة مع الحركة النازية بحكم كونها رائدًا أيديولوجيـًا لإسرائيل[43].

وعـلى نحـو مماثل لما يحدث في المناقشة التي تدور حول مؤتمر المراجعة التاريخـية، في بـيروت، تبدو الحركة النازية في هذه الأشكال من التصوير، مجددًا، في صورة أرقام سرية داخل الـادلات المنطوية على الشجب والاتهام، مـع الحركة الصهيونية. وخلافـًا لما يحدث في سياق الـادلات مع (معهد المـراجعة التاريخـية) لا تتعلق المسألة هنا، بالطبع، في المقام الأول، بجانب ذكـرى المحـرقة، وما يفترَض من اتخاذها أداة، بل بمركزها في إطار تاريخ الأفكـار في العصر الحديث الغربي. وفي صدد اشتقاق كل من الأيديولوجية الـنازية، والأيديولوجـية الصـهيونية على السواء، من تفكير غربيّ موحد حديـث، تـتحول الحركة النازية إلى تعبير عن ميولٍ ملازمةٍ، ضرورية، إلى الإبـادة. أمّا المأخذ المتعلق بالمادية والعلمانية، وعلى وجه الخصوص فقدان القيم الدينية، فُيحكم عليه هنا من خلال مثال الأيديولوجية النازية، في مقابل تفكير مفترض، موحد، ثابت، غربي، حديث. وأما نقد النازية فلا يفيد هنا في مجرد كونه أساسـًا لشجب الصهيونية، بل يفيد بوجه خاص أيضـًا في وضـع الحـدود الفاصـلة في مقابل "الغرب". وفي إطار عملية انتقال هذه الخصائص إلى «إسرائيل النازية» يتم وصف إسرائيل التي هي الممثل الأحدث لـ «حضارة الإبادة» الغربية.

2/9] تلخيص

وحتى بعد بضع سنين من ذروة المناقشات حول أساطير التأسيس، مازال غارودي يعد، بين المثقفين العرب، مرجعـًا جديـًا في الـجدالات مع الحركة الـنازية. وفي هـذه الأثناء تتوافر ألوان وصف الماضي النازي، والإشارة إلى المحـرقة، لا في سـياق الـجدالات التي تعود مباشرة على جوانب من الصراع العربي الإسرائيلي فحسب. ثم إن المآخذ المتعلقة بالتعمية على المحرقة وتزييفها بدافـع مصـالح سياسية، تظهر بصورة منتظمة أيضـًا في الإسهامات التي تتناول ألمانيا أو السياسة الألمانية، تناولاً مستقلاً عن صراع الشرق الأدنى[44]. وعـلى الرغم من الأصوات العربية الكثيرة، التي تطالب بالاعتراف بالأهمية التاريخـية للمحرقة، ولاسيما في الصحف مثل صحيفة (الحياة) اليومية التي تصـدر في لندن، تواصل الصحف ذات السمعة الحسنة ذاتها، مثل الأهرام، والأخـبار، نشـر المقالات التي يثور فيها الجدل حول عمليات الاضطهاد النازي لليهود[45].

وبالـنظرة المحيطة الشاملة، إلى الـجدالات التي تتخذ من النازية موضوعـًا لهـا، يمكـن إعـادة تركيب حجج محورية لهذه الـجدالات. على أن المناقشة الـتي دارت حـول غـارودي وضعت في هذا السياق الأساس لاتخاذ النازية موضـوعـًا للنقاش في صفوف الجمهور المصري، ثم إن تحول الأحاديث من إنكـار المحـرقة إلى المآخذ على اتخاذ الجرائم أداة لتسويغ السياسة الإسرائيلية تشكل نقطة الانطلاق لجدل واسع النطاق في صدر الحركة النازية في السنوات الـتي انصرمت. على أن صورة المؤامرة اليهودية التي تتجلى على نحوٍ أنموذجي في تصريحات سلماوي يتم استكمالها هنا عن طريق ألوان من التصوير تم تمثيلها عـلى وجه الخصوص قبل المؤتمر الذي رُفِض آخر الأمر، وهو مؤتمر: «إعادة الـنظر في الـتاريخ، والصهيونية»، في بيروت بين صفوف الجمهور المصري،

وبإشـارة صريحة جزئيـًا، إلى مراجع يمينية متطرفة، حَذر كتاب مختلفون من اتخـاذ المحرقة أداة من أجل المواقف العربية. وفي نهاية الأمر شكلت الجهود من أجل إثبات أيديولوجي لاستمرارية النازية والصهيونية، جانبـًا جزئيـًا، آخر من هذا التقبل للحركة النازية في الأحاديث المصرية العامة.

والحـركة الـنازية هـنا، والمحرقة تكونان بذلك أقل اتساعـًا بكونهما موضـوعـًا لاهـتمام تـاريخي، بـل يتم التطرق إليهما في إطار علاقتهما بموضـوعات السـاعة، كما أن مآخذ اتخاذ الصهاينة للتاريخ أداةً، يلتقي في هـذه الأثناء مع نظريات المؤامرة التي تُطرَح في سياقات متباينة بهدف تفسير صـراعات اجتماعـية. وعلى الرغم من اختلاف الحجج التي تتجلى في ألوان التصوير التي أعيد تركيبها، تتشابه صور اليهود التي يتخذها الكتاب أساسـًا. ففـي مطلب سلماوي: «فتش عن اليهود!»، يتضح الاستعمال الذي يكون في كثير من الأحيان مرادفـًا للصهيونية واليهودية وإسرائيل. على أن الرجوع إلى الآراء المُقَوْلَـبة، للسـلبية، حول اليهود، في المجادلة مع الحركة النازية، ولا سـيما في مضـمار تواصل تأثيرها في سياسة الذكريات، يعد سِمة مميزة في المناقشـات الـتي تطرّق البحث إليها، وذلك أن تصوير اليهود على أنهم قوم أولـو حيلة واسعة، ومخادعون موضوع محوريّ على وجه الخصوص في النقد الموجه إلى الاتخاذ المفترض، للتاريخ النازي أداةً، بأسلوب تآمريّ.

وعـلى الـرغم من الأهمية التي يحظى بها، على سبيل المثال، الإسهامات المعروضة من باب التمهيد، بقلم إدوارد سعيد، يجري أيضـًا في هذه الألوان مـن التصوير الرجوع من جديد، مرة أخرى، إلى الحجج التي تدعم المطالبة باتخـاذ المحـرقة أداة لخدمة المواقف العربية وبالتالي، الفلسطينية[46]. وبصفة سـعيد واحداً من الكتاب القلائل الذين يطالبون بالاعتراف بالمحرقة حقيقة تاريخـية، يصر هو أيضـًا على مقارنة رمزية بين عمليات الاضطهاد النازية وظـروف المعيشة الكارثية السائدة في ظل الاحتلال الإسرائيلي. وعلى نحو

مماثل لما يفعل المسيري الذي يفيد اعترافه بالتاريخ النازي من حيث كونه أساسًا لنقد الحداثة الغربية، يستخدم سعيد المحرقة وسيلة بلاغية في احتجاجه. وذلك أن النازية بوجه عام، والمحرقة بوجه خاص، يفيدان هنا من حيث كونهما مرجعًا تاريخيًا لتسويغ المطالبات بتدخل دوليّ، أو تعويضات، أو إقامة محكمة دولية لمجرمي الحرب. وأخيرًا يتم توجيه المحرقة، والمأخذ الخاص "بمحرقة إسرائيل ُيقام ضد السكان الفلسطينيين بصفته مصدرًا تسويغيًا جوهريًا للسياسة الإسرائيلية، ضد إسرائيل نفسها". وإذا المطالب العربية، وبالتالي الفلسطينية، في هذا السياق، لا يتم تسويغها على الرغم من تجربة المحرقة، بل على أساس تجربة المحرقة بوجه خاص.

تأليف: كارن يوغرست

10] استحضار الماضي: تقبُّل الكارثة اليهودية[1] والنكبة[2] في الصراع الفلسطيني الإسرائيلي

لقـد وصلت عملية السلام التي تطورت في التسعينيات، بين الإسرائيليين والفلسـطينيين إلى نهايـتها. فمع إخفاق مجمل المفاوضات، وتصاعد العنف العسـكري، في الانتفاضـة الفلسطينية الثانية، منذ خريف عام (2000 م)، وكذلـك مكافحتها من قِبَل إسرائيل، يطرح نفسه التساؤل عن تحولٍ وحّلٍ سياسي للصراع الإسرائيلي الفلسطيني، بصفتهما من قضايا الساعة كما كانا في بدايـتهما وذلـك أن الصور والتقارير التي تصلنا في كل يوم عبر وسائل الإعـلام، وتوثّق قبل كل شيء انتهاكات حقوق الإنسان، والألم، وكذلك عـدد المصـابين والقتلى لدى الجانبين[3]. وبالنظر إلى إعادة احتلال مناطق الحكـم الـذاتي الفلسـطيني من قبل الجيش الإسرائيلي، وبناء الجدار الذي

يفترض أن يضع الحدود الفاصلة بين كلتا المجموعتين السكانيتين. وبالنظر إلى الضربات الإرهابية الموجهة إلى المدنيين الإسرائيليين يكاد يبدو أن من الغريب أن يكتب المرء عن ثقافة الذكريات، وعن بُنى الذاكرة الجماعية في الصراع الإسرائيليّ الفلسطينيّ، فلماذا إذًا؟.

لقد كُتِبَت، ومازلت تُكتَب، المئات من الكتب، عن الصراع الإسرائيلي الفلسطيني، وتستند «جاذبية» الصراع إلى جذور ترجع إلى مدى بعيد في التاريخ، وإلى أهميته الإقليمية، كما تستند إلى أهميته المستديمة في السياسة العالمية. وكثيرًا ما تقوم في مقدمة التحليلات موضوعات العنف وتصعيد العنف، على السواء، كما تجري المناقشات، فوق ذلك، حول مشكلات تقسيم المياه، وبناء المستوطنات، والوضع القانوني للقدس، ومشكلة اللاجئين. وليس آخر ذلك أن المسألة تتعلق بالمفهومات الخاصة بما يطرأ على الصراع من التحول، وبما يوضع له من الحلول.

وأود من باب استكمال طرائق النظر والتأمل الشائعة، أنّ أُوَجه النظر إلى بعد من أبعاد الصراع يمس، في سياق ثقافة الذكريات، أسئلة عن الارتباط بين الماضي والحاضر. فبالانطلاق من الافتراض القائل إن هناك إلى جانب مسائل السياسة الواقعية، أيضًا، عوامل ذات صلة بعلم النفس الاجتماعي، وتمت بصلة إلى سلام مستديم وطيد تُعَد دلالة الذاكرة الاجتماعية، وثقافة الذكريات، فيما أرى، جوهرية من أجل فهم دينامية الصراع، وقد عبر زميل فلسطيني عن ذلك ذات مرة، على النحو التالي: «لكي تفهم المسألة برمتها يترتب عليك أن تعرف أنه ليس هناك ماضٍ ولا حاضر في الصراع الإسرائيلي-الفلسطيني، بل هناك الحاضر التام (Present Perfect) فقط[4]».

وحتى عندما توجد في كل مجتمع ذَواكرُ جماعية مختلفة، لجماعات متباينة (أي ذواكر دونية/ Subgedächtnisse) تتمتع بدرجة تقل أو تكثر، بالوجود والمشروعية داخل مجتمع ما، يتوجه تركيزي بادئ ذي بدء، نحو موضوعات

مركزية من الذاكرة الجماعية تصب، سواء على الجانب الإسرائيلي، أم على الجانب الفلسطيني، في كتابة للتاريخ يقوم عليها بنيان الدولة. والمقصود هو تلك الصيغة من صيغ ثقافة الذكرى التي يمكن أن توصف بأوسع معانيها، بأنها سياسة التاريخ، وتقوم فعالياتها على استعداد مجتمع الأكثرية لأن يتقبلها بصفتها تاريخًا (قوميًا) وهُوية. ولكن ينبغي لنا أن نفسح المجال أيضًا لطرائق الرؤية وللأصوات، لكي يُتاحَ لها دورها في الكلام الذي شرعت فيه، لكي تناقش في كلا البلدين، مناقشة نقدية، وثيقة الذكرى الغربية والخاصة بها، في كل مرة. ويتقدم على هذه التفصيلات تأمل نظري في هذه الأشكال التجريدية للمفهومات التي تؤدي مفعولها معًا في سياق ثقافة الذكريات: من ذكريات جماعية، وتذكر، وهوية، وليس آخر ذلك إيديولوجية القومية. وهناك تأملاتٌ في نتائج إحساسٍ بالتاريخ والماضي يعود على نفسه ذاتها على سبيل الحصر، من أجل الصراع الإسرائيلي الفلسطينيّ، تَخْتِتم المقالة. وتاريخ الصراع إنما هو تاريخ مجموعتين من السكان تدعي كل منهما الحق القانوني والسياسيّ في القطعة الواحدة ذاتها من الأرض، وفي دولة خاصة بها على هذه الأرض. وتوجد، وراء هذا التاريخ كثير من الأقاصيص. فهل يعني العالمان المنفصلان، أيضًا، تاريخين منفصلين؟.

أما الجانب الإسرائيلي، "فيتذكر" تشتتًا طال ألفيْ عام، كما تشكو الكارثة الكبرى (shoa) التي ألمت بالشعب اليهودي وتأسيس الدولة والحرب الإسرائيلية العربية الأولى التي دَخلت الذاكرة الجماعية في صورة حرب استقلال، عام (1948 م)، التي تبعها تأسيس دولة إسرائيل. والذاكرة الجماعية للفلسطينيين، بدورها مطبوعة بذكرى فلسطين موطنًا لهم في وسط العالم العربي، وكارثة عام (1948 م) (المعروفة باسم «النكبة»)، والوجود المتواصل حتى اليوم، للاّجئين، وكذلك المقاومة للاحتلال الإسرائيلي. وبفعل الذاكرة الجماعية عند كل جانب على حدة، يتم تناقُل

صـور الـذات والصور الغيرية التي تعوق معالجة مدنية للصراع ذات حَسْمٍ نائيّ. وفي هذه الأثناء تصور ثقافة الذكرى المهيمنة على كلا المتْمعين، على وجـه الخصوص، مناقشة قومية بهدف التسويغ أو إضفاء المشروعية. ويكون النظر موجهًا على سبيل الحصر نحو الماضي الخاص، ومؤسسـًا على «تاريخ آلام» يستبعد ما عداه، ويتجاهل تاريخ الجانب الآخر أو ينكره إنكارًا. وفي هـذه الصـيغة تتقلد الذاكرة الجماعية مهمة لا يستهان بها في الصياغة وفي إعـادة إنشـاء هوية جماعية، وتطبع نتيجة لذلك أيضـًا، عملية الإحساس «بـالعدو» بطابعهـا، وتتولى ثقافة الذكرى المهيمنة، المحافظة على الوضع الـراهن، أي: عـلى أسطورة استحالة التوفيق بين كلا الأسلوبين في سرد أحداث التاريخ.

وإلى جانـب الذكـريات الجماعـية عن الألم والمعاناة، تلعب، في كلا الـمَتْمعين، الأسـاليب البلاغية الخاصة بالتحرير والكفاح دورًا له شأنه، ويتم تدعـيمها بالقصـص التاريخـية، مهما يكن من بُعْد مداها وإيغالها في القدم. والسيطرة على التاريخ، وبالتالي على الإحساس بتاريخ الأمة الخاص، جزء هام لا يـتجزأ مـن الكفاح في سبيل بقاء الأمة. فعلى الرغم من القوة العسكرية، يسـود في إسـرائيل إحسـاس جماعي بالذات، على أنها ضحية، بينما يدرك الفلسطينيين أنهم ضحايا الضحايا. وليس من النادر أن يشير الواحد من هذين الجانـبين إلى الجانـب الآخر بأنه نازيّ، ويتم استخدام التشبيهات بهتلر، أو بـأحداث مـن سـياق تاريخ الرايخ الثالث على نحو بالغ الإفراط، وبذلك يتعرضون لخطر أن لا تؤدي هذه وظيفتها فحسب، بل أن تُبتَذَل أيضـًا.

ومـن المهـم أيضـًا أن يُشار أن المسألة في حالة الصراع الإسرائيلي- العـربي، تـتعلق بصراع غير متناسق أو متساوق بدرجة عالية، وأن احتلال الضـفة الغربية وقطاع غزة من قبل الجيش الإسرائيلي، مع كل الإجراءات القائمـة عـلى التمييز العنصري، والإجراءات القمعية في اللحظة الحاضرة،

يتواصـل ويسـتمّر. وحتى عندما تتعلق المسألة، فيما يلي بتمييز بنىً مماثلة وانعكاسـات لدوافع داخل إطار بُنى الذاكرة الجماعية، لا يمكن أن نضرب صفحًا عن أنه يترتب علينا أن نعالج المسألة بالانطلاق من مواقف متباينة من الوجهة السياسية والتاريخية. فعلى حين يوجد على أحد الجانبين، دولة تتمتع بمؤسسـات (تذكاريـة) ملائمـة، وبجـيش، تتعلق المسألة، لدى الجانب الفلسطيني، في أحسن الأحوال، ببيان شبه ببنيان الدولة، يعاني سكانه سواءً أكـان ذلك في ظل الاحتلال الإسرائيلي، أم كان في ظل البنى الديموقراطية المفـتقَدة، داخـل المـجتمع الخاص، وبذلك يصارع ويناضل، بأكثر الطرق تباينـًا، في سبيل الظفر بصفة الدولة.

10/ 1] الذاكرة الجماعية-التاريخ-العصبية-الهوية القومية: محاولة تجلية مفهوم

10/ 1/ 1] عن العلاقة بين التاريخ والذاكرة

تمـس الأفكـار المتعلقة بأهمية الذاكرة الجماعية في الصراع الإسرائيلي-الفلسـطيني، تساؤلات عن الهوية الجماعية. وعن التاريخ مثلما تمس كتاب الـتاريخ والأيديولوجيا، والمكان، والزمان، وليس آخِرُ ذلك، التساؤل عن ظاهرة القومية، والهوية القومية، والقومية، على السواء، لا يُدْرَكان على أنهما ظاهـرتان طبيعيـتان، محددتان من الوجهة الثقافية، بل على أنهما تركيبان مشتقان من موقف سياسي-تاريخي محسوس، أو من ضرورة، وهذا يتضمن عدم وجود هوية سكونية إسرائيلية أو فلسطينية، كما يجري التعبير عنها، مع ذلـك، مـن جانـب الحكومة في كلا المـجتمعين، بل يعني وجود هوية (أو هويـات) جماعـية يـتم إنـتاجها بالاستعانة بثقافة الذكريات وبالقومية، وتخليدها. وقد كان كل طور من أطوار الصراع يغير الإطار اللازم من أجل الهويـة (القومـية) والقوميّات. فالذاكرة والهوية بناءً على ذلك، مفهومات

مائعة، متداخلة بعضها في بعض، ومع ذلك فإنه يُصارُ في الخطاب السياسيّ، حَصْرًا، وعلى نحو متواصل، إلى إيراد التاريخ لخاص وإلى إيراد هوية جماعية، في كل مرة لتسويغ حق طبيعيّ لا سبيل إلى التصرف فيه، على الأرض، على وجه الخصوص.

أمـا بني موريس (Benny Morris)[5]، الرجل الأكثر شهرة بين (المؤرخين الجدد) الإسرائيليين، فينظر إلى التاريخ بادئ ذي بدء، نظرة موضوعية، على أنـا جملـة من الحقائق التاريخية، وبناءً على ذلك ينظر إلى المؤرخ على أنه «باحث عن الحقيقة». وفي مقابلة صحفية مع المؤلفة، صرح قائلاً: . . عند كتابة التاريخ، ينبغي للمرء أن يُنَحّي السياسة خارجـًا، وأن يرى ما حدث حقـًـا، وأنـا أعـتقد أن هناك شيء كهذا من حيث هو حقيقة تاريخية، ومهمتنا أن نحاول العثور عليه[6]. وهذه النظرة إلى ما حدث يمكن أن يُشَارَ إلـيها في الحقيقة على أنا تنطوي على مفارقة تاريخية، ومع ذلك فهي، في المناقشـة الخاصة بتقبل الماضي، سواء أكان ذلك في المناقشة الخاصة بالداخل الإسـرائيلي وفي المناقشة الخاصة بالفلسطينيين، أم كان في المناقشة في سياق الصراع، ذات أهمية في ذاتا.

وعـلى النقيض من ذلك، هناك أحاديث مكرسة بالنسبة بين النقيضْين، الـتاريخ (بمعـنى الحقـائق التاريخـية)، والذاكرة (بمعنى التاريخ الذي يتم اسـتذكاره). هذان النقيضان يبدوان مهجورين، وبناءً على هذا الاتجاه، يعد التاريخ، على الدوام، في حكم النظرة التي يمكن تأويلها، إلى الماضي، «لست معنيـًا بما حدث، بل بالطريقة التي نظر با الناس إلى ما حدث بالفعل، وأنا أحاول أن ادخل إلى قصة واحدة من وجهات نظر مختلفة، من دون أن أقرر أنني أعلم ما حدث بالفعل على وجه الدقة»[7]. وكذلك ينتهي المؤرخ إيلان به (Ilan Pappe) بالمسألة إلى النقطة الجوهرية، وفي تأثير مشترك بين الماضي، وكـتابة التاريخ، والذاكرة الجماعية، لا يكون من النادر أن تُرَد الأخيرة إلى

حقـائق تاريخية. ومن ناحية أخرى، يجري في سياق اتخاذ التاريخ وسيلة من قِبَل الذاكرة الجماعية، تصوير تلك على أنا بعضٌ من تاريخ العالم، وحقيقة في ذاتـا، ونقلُهـا في هذه الصورة، بدف إنشاء رابطة توجد المغزى بين الماضـي والحاضـر. وبذلك لا يكون هناك كتابة للتاريخ لا تعد عملاً من أعمال الذاكرة أيضـًا.

10/ 1/ 2] الذاكرة الجماعية- حول المحدودية الاجتماعية للذاكرة

لقد تشكلت الذكرى بفعل الإطار الاجتماعي، وتم تقييدها في الإنسان، تلك هي الأطروحة الرئيسة للذاكرة الجماعية كما طورها موريس هلبفكس (Maurice Halbwachs) في العشرينيات من القرن الأخير[8]. وفي مفهومه عن الذاكـرة الجماعـية (mémoire collective) تكمن أطروحته المركزية، وهي أطروحة المحدودية الاجتماعية للذاكرة. ويفيد هلبفكس، أن الذاكرة الجماعية انبثقـت مـن الفـرد بموجب تواصله مع الآخرين وانتمائه إلى الموعات الاجتماعـية. وكـل ذاكرة فردية تحتاج، بناء على ذلك، إلى إطار للتعلق الاجتماعيّ، لتضرب بجذورها وتترسخ وتحافظ على ذاتا[10]. والجماعي لا يعتمد في أثناء ذلك، على ذاكرة ذات حدة متراصة وتناغم كليّ[11]. غير أنه يحـدد ذكريات أعضائه، كل على حِدة، ويتحدد هو نفسه من جرّاء ذلك. ومـع ذلـك فمـا يتخلف في الذاكرة لا يكون كيفما اتفق، أو على نحوٍ تعسـفي. والحـق أنه بينما يتذكّر الفرد تقرر الفئة الاجتماعية ما هو جدير بالـتذكار. أما الفرد فيستبين كل هذه الأطروحة عن طريق الأحداث العامة الـتي تـبدو في صورة الشيء المهم، وفي صورة الأحداث المنقولة. وفي هذه الأثـناء يسـتطيع الفـرد أن يـتذكر، وتكون له ذاكرة مطبوعة بالطابع الاجتماعي، إنه تركيب اجتماعي.

وهنا تتضح على وجه الخصوص السمة التواصلية في المفهوم الهلبفكسي، فلَـوْلا النقل التواصلي لما أمكن الحفاظُ على ما يمكن تذكره، وفي الذاكرة الاجتماعـية لا يبقى من الماضي إلاّ ما يستطيع المجتمع وفي كل حقبة، ويريد أن يركبه في إطار تعلقه، في كل مرة. وفي هذه الأثناء لا يتم الحفاظ، لا على الأحـداث، بما هي أحداث، ولا على بُعْدِ المدى التاريخي الخاص بالتجاريب والذكريات في مجتمع، في الذاكرة الجماعية، بل يتم الحفاظ، في المقام الأول، على المعنى الذي تحمله هذه عن مجتمع ما[12]. وبموجب ذلك تكون الذاكرة الاجتماعية، قبل كل شيء مؤسسة لإضفاء المعنى، وإنشاء الهوية.

ويوجـد، بصـورة مؤقتة، في الخطاب الأكاديمي، مناقشة واسعة النطاق تنطلق من منطلق هلبفكس، تدور حول مفهوم الذاكرة الاجتماعية وطريقة إحداثها لأثيرها، ولا سيما في سياق إنشاء الهوية القومية، التي كان يتم بمتابعة تطويرها في مجال الناطقين بالألمانية ولا سيما من قِبَل يان وأوليدا أسْمَن (Jan und Aleida Assmann). وقـد وَسـع يان أسْمَن ، بمفهوم الذاكرة الثقافية، مفهوم هلبفكس الخاص بالذاكرة التواصلية، وهو يميز كلا المفهومين، أحدهما مـن الآخر. وإذًا فبينما يقصد بالذاكرة التواصلية تلك الأنواع من الذاكرة الجماعـية الـتي ترتكز حصرًا على التواصل الموجود في الحياة اليومية، يرد أسْمَن جانب التناقل والمشافهة وفعالية «الرموز» الثقافية، إلى ما وراء الحَمَلةِ الأحـياء للذكـرى، وهـو يرى أنه يحافظ على بقائه الطابعُ الذي يكتسبه الإنسـان عـن طـريق تبعّيته لثقافة محددة، من جيل إلى جيل. وذلك، في الحقـيقة، أيضـًا، عن طريق إضفاء السمة الاجتماعية، ولكن على وجه الخصـوص عـن طريق النقل بالرواية والمشافهة. وتعد محاولة أسْمَن تحديد الوظـائف التي تقرر الهوية في الذاكرة الجماعية، متخطية مسألة وجود حملة الذاكرة، تكملة جوهرية للمفهوم الهلبفكسي، عن الذاكرة التواصلية، وهي تفضي إلى تعريف كلاسيكي بصفة مؤقتة: الذاكرةُ الثقافيةُ هي ذلك المخزون

الخصوصي من كل مجتمع، ومن كل حقبة من النصوص والصور والطقوس التي تستخدم المرة بعد المرة، يجدان في رعايتها صورة الذات مستقرة، منقولة، ومعـرفة جماعـية، يفضل أن تكون معرفة بالماضي التي تدعم فئة من الناس وبوعـيها لوحدتـها وتفردها[13]. ولا بد في هذا الصدد، أنّ يكون المتمع لنفسه صورة عن مجتمعه هو، وأن يعلق أهمية خاصة على ذاته. ويقول أسْمَن إن التجاريب التاريخية لا تنقل من جيل إلى جيل فحسب، بل لابد بالضرورة مـن أن يُصارَ في الذاكرة الجماعية، إلى صياغة كل جيل تالٍ وتشكيله من جديـد. ثم إن صـور إنشاء المعنى الثقافي التي تعود إلى استحضار الماضي، تشـكل، فـيما يرى أسْمَن، القالب الثقافي للمجتمع[14]. وبناءًا على ذلك يُفهَـم من كل كلمة ثقافة الذكرى، الإنجاز الجماعي لفئة اجتماعية. الذي يهـدف إلى استحضـار الأحـداث التاريخـية عن طريق تكرار الطقوس، والمُدَونات والرموز، المحددة نوعيـًا من الوجهة الثقافية والتي يسهم إخراجها المؤسسات والبشر الذين لا يحصيهم العدّ[15].

وإلى جانب وظيفة الـتأكد الذاتي، وإنشاء الهوية، بكل آليات الإدخال والإخـراج المعروفة لدينا، حتى النفي الشامل «للآخرين» ويتوافر للذاكرة الجماعية، والمقصود هنا كلتا طريقتي التصرف (madi)، أي الذاكرة الثقافية والذاكـرة التواصلية، أيضـًا، وقبل كل شيء وظيفة أيديولوجية: فالذاكرة الجماعية تكون على الدوام ذاكرة تتخذ أداة من الوجهة السياسية كما تقول ألـيدا أسْمَن [16] ويقول موشيه تسوكرمن (Moshe Zuckermann)، تدخل الذاكرة الجماعية الأيديولوجيا، في حالة من التآخي بهدف اتخاذ التاريخ أداة مـن الأدوات[17]: عـلى قدر ما تكون ذاكرة جماعة متشكلة بدرجة عالية بفعل كتابتها للتاريخ، وعلى قدر ما تحمل كتابتها للتاريخ، بموجب جوهرها وطبيعـتها، وبحكـم الضـرورة، سمة جزئية تتضح من جراء ذلك الطبيعة الأيديولوجية في جوهرها، لـ«كل تقبل للماضي».

كذلـك يكتـب في التمهيد لتفصيلات حول دلالة الكارثة الكبرى لثقافة إسرائيل السياسية[18]. وعلى الرغم من أنه لا يوجد سوى حقائق تاريخية فريدة، يظل الحاضر معرضـًا لتأويلات مختلفة على أساس الحاجات المتباينة، ويتحول بحكم الضرورة القاهرة إلى موضوع للتأويلات المعاصرة، وألوان سوء التفسير، وأشـكال التسـلق المتعمد في الخطاب الذي تتضمنه كتابة التاريخ. وفي إطار الرغـبة في البسـاطة تمحو الجماعة أجزاءًا محددة من الذكرى بينما تبرز أجزاءًا أخـرى[19]. ويـنجم عن الحاجة إلى القرارات البسيطة والتفسيرات البسيطة الظاهـرة التي مؤداها أن الحدث المدون في الذاكرة الجماعية لا يتم الحفاظ عليه في تعقـيده الكـامل، بـل يخوض عملية التجريد البسيط، إلى أن يكون تحول آخر الآمر إلى موضوعات في قالب الوعي. وهذا المنظور يشمل كلاً من أولئك الذيـن يلجـئون بمعونة وسائل الإعلام إلى الطقوس العامة للتذكار، والتدوين الـرسمي للتاريخ، ومثال ذلك في مجال السياسة، والتربية، والتعليم، إلى إخراج الذاكـرة الجماعـية وإعادة إخراجها (كما يتم إخراج الأفلام) مثلما يخرجون المـتذوقين أيضـًا. فمن ناحية أولى تتعلق المسألة بالنخب السياسية والنخب الإعلامـية، والنخـب ذوات الـثقافة السياسية ومن ناحية ثانية تتعلق المسألة بالمواطـنين والمواطـنات في بـلاد تتعلق بالخطاب القائم على الهيمنة أو تقبله وهي تلتزم الصمت. وفي هذه الأثناء تقرر الذاكرة الجماعية حدود ما هو جائز مـباح، وتحتوي تحديد المشاعر الابتدائية، كالزهو والاعتداد بالنفس، والخوف والعـزاء والكراهـية . . إلخ. وحين تفسر الماضي، على الدوام تفسيرًا جديدًا تكون الذكريات الجماعية . . مصفاة تنساب من خلالها المواقف منها تلك التي تظهـر بطـريق المصـادفة، أو تكـون على شكل بضع وشذرات، أو تكون ديماغوجـية، أو تكون تلك المترابطة فيما بينها، وهي تشكل جسرًا بين التاريخ والأيديولوجـيا يحول التاريخ إلى الأسطوري[20]. وعلى هذا يمكن أن نفترض أن الذاكرة الجماعية تلعب دورًا أساسـًا في الخطاب العام.

10/ 1/ 3] الذاكرة الجماعية – القومية والهوية

تعد النزعة القومية أيديولوجية يبلغ من عنفوان تأثيرها أن البشر في كل مكان من العالم على استعداد لأن يموتوا في سبيلها وأن يعرضوا أنفسهم للقتل، وأن يخوض بعضهم الحرب ضد بعض. وفي الصراع الإسرائيلي- الفلسطيني أيضًا تشكل أيديولوجية القومية، التي ليس من النادر أن يحافظ على تأثيرها الخطير بالاستعانة بثقافة الذكريات والذاكرة الجماعية، ويتم نقلها، نواة الصراع. ويفيد غيلنر (Gellner) وآخرون أن النزعة القومية يسبق وجودها وجود الأمة. وبالفعل يبدو أن الصراع الإسرائيلي الفلسطيني خليق بأن يتطور ويستفحل من جراء النزعة القومية لدى الجانب الآخر في كل مرة[21]. وفي هذا السياق يشير لندهولم (Lindholm) إلى القوميات الكامنة في أساس الصراع على أنها أيديولوجيات الصراع، على قدر ما يتم تصوير أو تركيب المرء أمته هو في وضع حدود فاصلة عن الآخر على أنه عدو في إطار فهم الصراع ومن دون أن يكون ممكن الفصل، أو يكون ثمة مندوحة عنه وأن يكون مرتبطًا بعضه إلى بعض[22]. على أن كلاً من النكبة (الفلسطينية) والكارثة الكبرى (عند اليهود)، على السواء، يشكل في الذاكرة الجماعية للمجتمع الفلسطيني، وبالتالي الإسرائيلي، ومن دون أن يرتبط ذلك بالتغييرات السياسية، نقاط هرب ثابتة للذاكرة الجماعية، كما يشكل هوية جماعية وقومية جماعية. ومع ذلك فسيترتب علينا أن نبين مدى رجوع هذا، قبل كل شيء إلى الخطاب القومي ينطوي على نزوع إلى الهيمنة داخل كل من المجتمعين، يتجاهل القصص المقابلة (السرد القصصي المقابل) والقصص التي هي «على هامش القومية» أو ينكرها إنكارًا.

ويقول سليم تماري إنه يوجد إضفاء لصفة المفهوم على المجتمع الفلسطيني تتميز بالتجانس، على أساس تجربة فريدة في نوعها، يشارك فيها

الناس جميعـًا على أنها «النكبة»[24]. وفي هذه الأثناء يتم تجاهل التجاريب التي من الممكن أن تكون متباينة، وتكون تابعة للحديث القومي عن النكبة، والشـتات، والعـودة. ويمكـن تقرير شيء يتماشى مع ذلك في الخطاب الصـهيوني الذي يـ ع إلى الهيمنة، لدى الجانب الإسرائيلي، تستحضر فيه، عـلى أسـاس الكارثة الكبرى، العودة إلى أرض إسرائيل، ويقرر فيه إنشاء كـيان قومي يهودي على أرض محددة، يجري تركيبها على نحو يتطابق مع دولـة إسـرائيل. ويجـري تـأويل كـل من التاريخ الفلسطيني والتاريخ الإسرائيلي، على السواء، على أنه على سبيل الحصر، تاريخ حركة قومية في صـراع «مـع الآخـرين» في سبيل الأرض وفي سبيل الحق في الوجود، ويفـترض تـأمين حق إضفاء المشروعية، وكذلك التسويغ النهائي للحق الحصـري في الأرض والدولة، عن طريق ذكرى النكبة والكارثة الكبرى. وفي هـذه الأثـناء تنقل كلمتا الذاكرتين الجماعيتين وجهة النظر القائلة إن كلاً من الهوية الفلسطينية والهوية الإسرائيلية، على السواء، إنما توجد نتيجة لهذه التجاريب.

ويصـوغ بورتوغالي (Potugali) وجهة النظر القائلة إن كل نزعة قومية تمثل الأداة الرئيسة للدولة من أجل تحقيق التجانس، ويمضي قائلاً: إن الـ عة القومية هي الأيديولوجية يفترض أن تحاول من ناحية أولى إضفاء المشروعية عـلى الـدول القائمة (إسرائيل). وتحاول، من ناحية أخرى، ضمان وجود النخب السياسية فوق (مركز الزلزال) في الدولة أو الأمة (فلسطين)، قذ تحدد هـذه شـكل الخطاب القومي الذي يـ ع إلى الهيمنة[25]. وحتى ليندهوم لم يعود أدراجه إلى الارتباط بين الأرض والزمن، والمكان، والأمة، ويقرر قائلاً: العناصر الرئيسة في القومية هي الأرض، والمكان والبيئة، بالقياس إلى الشعب وذاكرته الجماعية، وبذلك يكون المكن والزمان المكونين الأساسيين للقومية اللذين يجتذبان اجتذابـًا شديدًا إلى التاريخ وإلى الـ عة التاريخية . .[26].

ويمضي قائلاً: وبذلك تعد النزعة القومية أيديولوجية الارتباط الذي يوحي بالتماسك والترابط المنطقي بين حدود جغرافية معينة، أو أرض لسكان يتألفون من شعب، أو أمة، وحكومة هي الجهاز الإداري الوظيفي للدولة. والنزعة القومية هي أيديولوجية الهوية، وحول تركيب الهوية[27].

وإلى هذا المدى تعد الذاكرة الجماعية في تأثيرها المتناوب مع ثقافة الهوية الجماعية، جزءًا من المطامح القومية.

على أن إضفاء الصبغة القومية المرتكز على تركيب الذاكرة الجماعية ونشرها يمثل مشروعًا للمجانسة يحاول أن يجعل البشر متساوين، وأن يهب لهم هوية مشتركة، وأن ينكر التناقضات وألوان الشقاق والقطيعة، داخل المجتمعات. ثم إن النزعة القومية تعد على الدوام، أيضًا إضفاء للصفة الاجتماعية، بمقدار ما يفترض أن يجعل من الأفراد أجزاءً من أمة، هم على استعداد للتفاني في لون محدد من ألوان التطابق والانسجام وبالتالي لأن يجعلوا أنفسهم تابعين للخطاب النزّاع إلى الهيمنة.

ويحاول دانييل ليفي (Daniel Levy) وناتان جنايدر (Natan Sznaider)، في دراستهما عن الذكرى في العصر الكوني تحرير مفهوم الذاكرة الجماعية من سياقه الذي كان حتى الآن قومياً بحتًا، ويسألانه بحكم كونه جزءًا متممًا لا يتجزأ من فهم متماسك موحد، قومي وإثني، يكون لدى الناس، عن أنفسهم. ففي أطروحتهما الرئيسة عن «تجريد الذاكرة الجماعية، من المكان، يستكملان مفهوم الذاكرة الجماعية بإضافة مفهوم تسييس العالم. وتسييس العالم في هذا السياق عملية لاخطية، جدلية، يوجد فيها العالمي والمحلي، لافي صورة نقائض أو أضداد، بل في صورة مبادئ تترابط فيما بينها، ويفترض كل منها الآخر افتراضًا أوليًا، متبادلاً[28]. وبالنظر إلى الافتراضات التي كانت قائمة حتى الآن، وهي أن الحاضر والمستقبل، يقرران نفسيهما على نحو حاسم، بالاستناد إلى الماضي الخاص لأحدهما، بوضع

الحدود الفاصلة مقابل الآخر، يرجع تسييس العالم، بالأحرى، لا إلى الروابط التي تتخطى الحدود فحسب، بل يرجع أيضـًا إلى جودة الجانب الاجتماعي والسياسـي في مجـتمع مـا. ويقـول ليفي وجنايدر إن تجريد الذكريات الاجتماعية يؤثر، بناء على ذلك، في فهم النفس لدى فئات متباينة، ما عادت هويتها تهيمن عليها الدولة القومية، ويمثلوها حصرًا. وذلك أن بادرة السياسة العالمية في سياق بنى الذاكرة الجماعية تتغذى من تصور قائم على الحوار يمتد ليشـمل التغـيير ويراعي الفرق والاختلاف بدلاً من الوحدة. ويدخل في حسبانه مجال الخبرة والتجربة الذي يتخطى حدود القوميات، وبذلك تكون الدولـة والأمـة في هذه الحالة، في وضع يتسم بالفهم المتبادل مع الأشكال الأخـرى من التعبير الجماعي عن الذكرى وعلى التضامن[29]. ثم إن بادرة ليفي وجنايدر التي تمتد لتشمل المناقشة التي تدور حول العولمة تتضمن إذًا ما نقلت إلى ميدان الصراع ودلالة طرائق التأثير المتباينة، مبدأ يستند جوهره إلى المعـرفة . . وهـي أن الآخر الذي يواجهنا، أيضـًا، ويلامس حياتنا، لديه قصـة يسـردها. وهي قصة ليست أقل صدقـًا وواقعية، من قصتنا، مثلما صاغ ذلك فيلسوف الأديان اليهودي مارتن بوبر في سياق القضية الفلسطينية منذ القرن الأخير[30].

ولا يمكن استخدام الذاكرة الجماعية فيما أرى، أن ينفصل عن حامليها. فالذاكـرة الجماعـية لا تنشأ كيفما اتفق أو على نحو من الأنحاء، بل تمس الحاجة، فيما أرى، على الدوام، إلى أناس يهتمون بنشرها، ويروجوا لها. وفي الذاكـرة الجماعـية تنعكس على الدوام مصالح محسوسة ملموسة في سياق الصـراع الإسـرائيلي الفلسطيني: كيف تتكون الذاكرة الجماعية على كلا الجانـبين؟، ومـا الوظيفة؟، وما الأثر والمفعول اللذان يلازمان فيما يتعلق بالصراع، التاريخ الذي يجري تذكره عل الصعيد الجماعي؟ وما الصور التي ينتجها المرء عن نفسه وعن الآخر، عن هذا الطريق؟.

10/ 2] الذاكرة الجماعية والصراع

10/ 2/ 1] إسرائيل

وكـتابة التاريخ في إسرائيل ترتبط على الدوام ارتباطـًا وثيقـًا بمناقشة تدف إلى التسويغ، وبالتالي إلى إضفاء المشروعية على الدولة الإسرائيلية على أنا جماعة يهودية، وبالتالي فهي ذات أهمية لفهم الذات الإسرائيلية. وبالنسبة للخطاب التاريخي الإسرائيلي يتمثل ما له علاقة، إلى جانب مسألة التسويغ، أيضـًا، في مكانـة الصورة التاريخية المتجانسة التي تضفي الصفة القومية، والـتي تترسخ وتستقر في الذاكرة الجماعية[31]. وحتى اليوم يوجد خطاب تـاريخي يـ ع إلى الهيمـنة، في إسرائيل، والمقصود صيغة من صيغ السرد القصصي تلتزم بالافتراضات الأساس للصهيونية، تعد ملزمة وقد تحولت إلى أسـلوب سردي سائد معترف به، منذ عام (1948 م). واليوم تتخذ الهوية الجماعية، في المقام الأول، عن طريق تفسير الإبادة النازية لليهود الأوربيين، موضوعـًا للأحاديث. ويقول موشيه تسكرمن إن اتخاذ هذه الإبادة أداة في سياق ثقافة الذكريات التي تتناول الكارثة الكبرى، يحدث آثاره في اتجاهين: فالكارثـة الكـبرى يجـري تصـويرها على أنا توجيه يفهم من الوجهة لأيديولوجـية عـلى أن يساق نحو دولة إسرائيل ويسـتأنف طرح الفرضية الخاصـة بالدولـة عـلى أنا نوع من «الإناء» الذي تم فيما بعد، الكارثة الكـبرى أو الـتعويض عنها. وللمحافظة عن هذا الفهم للذات حيـًا في الذاكـرة الجماعية الإسرائيلية، تمس الحاجة إلى ثقافة ذكريات بارزة حادة، حكومية، وبالتالي، إلى سياسة خاصة بالذكريات. وفي هذه الأثناء تم تحويل التوظـيف الإيديولوجي الى التوظيف الواعي للتذكار، إلى عامل يرجع إليه القـول الفصـل في مسألة الذكرى[33]. ونتيجة لهذه الذكريات ترسخت ذكـرى الكارثـة الكبرى، بلا ريب، على نحو جلي، بحكم كونا عنصرًا مركـزيـًا من عناصر الهوية الجماعية اليهودية، وبحكم كونا الأساس الأهم

من بين أسس التسويغ لوجود إسرائيل. وذلك أن الكارثة، وبالتالي تذكرها العمومـي، لم يكن لهما على الدوام هذه الوظيفة. على أن المؤرخين الجدد يجمعون أيضـًا على أن الكارثة الكبرى كانت تزداد أهمية كلما قل ما تتمتع به الصهيونية من طاقة التعبئة. ويفترض في الذاكرة الجماعية الخاصة بالكارثة الكـبرى أن تضمن التماسك، وبالتالي، الهوية القومية، والوحدة القومية في مجتمع إسرائيلي يزداد انقسامـًا على نفسه على نحو مطرد.

وحـتى بداية قضية آيخمن في عام (1961 م)، كانت الكارثة الكبرى عند المجتمع الإسرائيلي من المحرمات. وقد وصف توم سغف (Tom Segev) ذلك في مقابلة صحفية، على النحو التالي: لم يكن أحد يريد أن يسمع شيئًا عن المحرقة، إذ لم يـتحدث بذلك الآباء إلى الأبناء. ولم يكن الأطفال يريدون أن يسمعوا عنها. ولم يكن هذا المجتمع يعرف على الإطلاق كيف ينبغي له أن يتعامل مع المحرقة، وكان القوم يشعرون بالعار من جراء المحرقة ومن جراء ضعفهم[34].

أمـا التعامل المبني على الجهل مع من بقي حيـًا، ومع الكارثة الكبرى ذاتـها، فذلك ما يتضح من أيديولوجيا الصهيونية العلمانية، وذلك أن صورة «اليهود الجدد» لم تكن تلائم الناجين من الكارثة الكبرى البالغ عددهم نحو (35000) نسمة، والذين كانوا قد وصلوا إلى إسرائيل حتى عام (1949 م)، وبـاتوا يشـكلون نحو ثلث السكان. وكانت الأيديولوجيا الصهيونية، في جوهرها، نفيـًا لتاريخ الشتات الذي دام ألفي عام، والذي شكلت الكارثة الكـبرى نقطة الذروة فيه. وكان الشتات والحياة في المنفى، يعدان مساويين للضعف والهزيمة، وكان الناجون من الكارثة الكبرى يدخلون في عداد الآباء المؤسسـين في حقبة الشتات، وكانوا يعدون مجلبة للعار على الدولة الجديدة الشديدة البأس. وضمت الكارثة الكبرى إلى أيديولوجية الصهيونية، في ملف واحد، وما عاد من الممكن أن ينظر إليها مادامت على هذه الصورة على أنها كارثة عالمية.

10/ 2/ 1/ 1] استطراد: الصهيونية وصورة «اليهود الجدد»

لقـد أدى الترويج للفكرة الأساس في الصهيونية السياسية، وهي إنشاء وطن قومي لليهود من كل أصقاع العالم، في فلسطين، إلى صراع بين الأمتين وغـير الوضـع الـراهن في مكان الحدث مباشرة تغييرًا عميقـًا. على أن التصـرف الصهيوني جر وراءه قسرًا على التسويغ توجه أيضـًا نحو تشكل التفسـيرات التاريخية، وبالتالي: نحو الاستعداد لصيغة السرد التاريخي وبنيته. ولكـي نسـتهل الاقتراب من بنية السرد الصهيونية النزاعة إلى الهيمنة، كما ترسخت في الذاكرة الجماعية، سوف أفسر فيما يلي، كلاً من الافتراضات الأساس في الصهيونية السياسية، وصورة «اليهودي الجديد على السواء».

لقد أسست الحركة الصهيونية في نهاية القرن التاسع عشر لتكون جوابـًا عـن الوضع السائد في تلك الأيام، الذي كان يعيش فيه اليهود الأوربيون، ولاسيما يهود أوربة الشرقية. والصهيونية مشروع غربي، بل هي في الحقيقة مشـروع لابد من أن يفهم على أنه نتيجة متأخرة من نتائج عمليات تكوين الـدول القومية الأوربية، وهي بالنتيجة مشروع من مشروعات الحداثة . . كذلك يقول موشيه تسكرمن في عرض للمشكلات الخاصة بالمفهومات في الأيديولوجيا الصهيونية[35].

ففـي منتصـف القرن التاسع عشر كانت طبقة من المثقفين اليهود قد توصـلت إلى معرفة مؤداها أن اليهود في الشتات لا تتاح لهم إمكانية العيش يهـودًا، إذا كان الاندماج يتعرض للمنع والإعاقة بفعل بنية ضخمة من بنى الاسـتعباد داخـل المجتمعات، ومن جراء ظهور معاداة السامية ذات التوجه العنصـري وعـلى نحو مطرد الزيادة. وقد كان خطر هذه المعاداة الحديثة للسـامية، الذي تعرض للتصعيد في أثناء عمليات الاضطهاد العرقي الدامية (الـبوغروم) في روسيا القيصرية في ثمانينيات القرن التاسع عشر، وفي قضية

الكابتن دريفوس في فرنسا عام (1894 م)، حافزًا هامـًا للحركة الصهيونية لسياسـية، العلمانية[36]. أما تأثير معاداة السامية الحديثة في الوعي اليهودي، فذلك ما فكر فيه مليـًا تيودور هرتسل حين أشار إلى اليهود على أنهم فئة تاريخية ينتمي بعضها إلى بعض على نحو يمكن تمييزه ومعرفته من البشر الذين يحملهم العدو على التماسك[37].

ومـع ذلـك فلم تكن الحركة الصهيونية تمثل فئة متجانسة. ويكتب تِم (Timm) أحلامه قائلاً: إذا كانت تصدر أجوبة متباينة في التهديد الموجه نحو الهويـة اليهودية نتيجة للتطورات الاجتماعية، جوابـًا عن تعريض الوجود الـيهودي للخطر من جراء معاداة السامية، فقد كانت الصهيونية السياسية العلمانـية الـتي نشأت أمام خلفية أوربة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكـرية، على سبيل المثال، في نزاع مع الحركات الاندماجية وفي تناقض صـارخ مـع تلك الحركات التي كانت تظهر في أوربة لشد عضد اليهود والـيهوديات في الشـتات. وكانت ترفض المنفى على انه انكفائي وقمعي وتؤمـن بـ «انبعاث» الأمة اليهودية من جديد مثلما سبق أن وجدت في العصر القديم[39]. وأشار هرتسل بصريح العبارة إلى المسألة اليهودية بأنها « . . مسألة قومية لا يمكن حلها إلا في أن ينشئ اليهود لنفسهم دولة خاصة بهم . .»[40]. وبذلـك باتت نقطة انطلاق الأيديولوجية الصهيونية هي مشكلة الشـتات الـيهودي، الوضع في أوربة، وليس الجدل والتنازع مع الوقائع في فلسطين. واستحوذت الفكرة القائلة إن الشعب الذي لا أرض له يحتاج إلى أرض من دون شعب، على عقول قادة الصهاينة إلى حد بلغ منه أنهم تجاهلوا السكان المحليين، ببساطة . .» كما كتبت حنه آرندت تقول في عام (1948 م). وفـيما بعد كتب ناحوم غولدم مؤسس (المؤتمر اليهودي العالمي)، الذي كـان بين عامي (1956 و1968 م) رئيس (المنظمة الصهيونية العالمية)، يقول بعد ذلك في نظرة إلى الوراء: لقد كان من أكبر الأخطاء التاريخية في التفكير

الصـهيوني أنـه لم يطلع الاطلاع الجدي الكافي على الجانب العربي في أثناء تأسيس الوطن اليهودي في فلسطين[42].

فلنرجع، مرة أخرى، خطوة إلى الوراء. فإلى جانب حقيقة أن الصهيونية قـد نشـأت مترابطة في وسط عملية تكوين أوربي للأمم، كانت مع ذلك أيضـًـا تمثل حالة من حالات الأسبقية والصدارة في التاريخ إذ تميزت من الـتطور الذي حدث في البلدان الأخرى في النقطة الحاسمة، وهي أنه لم يكن هـناك أمـة، ولا أرض لسكان موجودين كان من الممكن أن يتشكلوا في صـورة دولـة. وفي كل الحالات الأخرى، كانت المجموعات السكانية التي تحولت، متشكلة في أمم، هي بدرجة تقل أو تكثر المجموعات السكانية ذاتها، الـتي كانـت موجودة منذ عهد بعيد على الأرض التي تشكلت منها الأمة الدولة. ومع ذلك ففي الصهيونية كان هناك الفكرة الإضافية الخاصة بدولة، قـبل أن يوجد السكان من أجل هذه الأرض المستقبلية، بهذا الاعتبار. ومن هـذه الوجهـة تعـد الصهيونية السياسية، من حيث كونها حركة قومية، أيضـًا، حالة خاصة، استثنائية في التاريخ. ومنذ البداية فصاعدًا كان يعد من قبيل المبادرة الأساس في الحركة الصهيونية، العلاقة بالأرض. وفي هذا الصدد يطـرح نفسه سؤال: لماذا وقع الاختيار على فلسطين على وجه الخصوص، مادامـت الصهيونية السياسية نشأت بلا ريب حركة علمانية. هنا لابد من الإشـارة إلى تـناقض أساس في الحركة الصهيونية مازالت عواقب وخيمة تحـدث آثارها حتى اليوم في إسرائيل، وتحدد شكل المجتمع: لما لم يكن هناك في صـدد تشـكيل أمة يهودية، وقاسم مشترك بين اليهود الذين يعيشون متناثرين في المنفى باستثناء الدين، فإنه لم يكن هناك بد من العثور على حجة ذات تحديـد ديـني لـتكون قاسمـًا مشتركـًا. وكانت عبارتا «الأرض المقدسـة» و«أرض الأجداد» تفيد أن في هذا الصدد إذا كانتا كناية جامعة عـن مشـروع سياسي علماني. ولكي يركب المرء، في الذاكرة الجماعية،

الماضـي من أجل المستقبل، كان من الضروري للحركة الصهيونية أن ينشئ المـرء ارتباطـًا مصيريـًا بين الأرض والشعب اليهودي[43]. وقد كان من الممكـن أن يـتحقق تجمـيع الشعب اليهودي في فلسطين، مع ذلك، إلا بالاستناد إلى مصادرة أخرى، وهي نفي الشتات، وتطور تكملاً لهذا المطلب المتمثل في «اليهودي الجديد».

وكانت الحركة الصهيونية تتجاهل، في تلخيصها لتاريخ عتيد على مدى ألفـي عام وخفضها لهذا التاريخ إلى مستوى تاريخ نفي، التجاريب المتعددة الجوانب والمتباينة، وعلى مدى حقبة طويلة، بالنظر إلى الاختلافات وأشكال التـباين الـثقافة والاقتصادية، والاجتماعية والسياسية، في تطور الـتمعات والطوائـف المحلية اليهودية ذوات العدد الجم. وقد تطور هذا النفي للشتات إلى رؤية سلبية لأولئك البشر الذين كانوا يعيشون في المنفى، وكان يوضع في مقـابل اليهودي الحديث، القوي، يهودي الشتات. وبذه الخصائص العائدة إلى الشـتات كان يتم تمييز الناجين من الكارثة الكبرى أيضـًا، وهم الذين كان ضعفهم ينظر إليه على أنه عار على الدولة التي يراد تأسيسها، وبالتالي، على الدولة التي أنشئت حديثـًا، والتي كانت تحتاج، كما قال سغف « . . إلى اسـتحالة أن يمسـها السوء، وإلى الجرأة وإلى القوة»[44]. وكان مقدرًا للجـيل الأول مـن اليهود واليهوديات الذين ولدوا في إسرائيل، وهم من يسمون الرواد، بل كان من واجبهم، أن تبدو عليهم أمارات خصال كشدة الـبأس والجـرأة، والاسـتعداد للتضحية. ولتسويغ هذه الصورة الحديثة، والـتمكن، في الوقت ذاته، من الربط بين الشعب اليهودي وأرض إسرائيل وبـث الحـياة فيهما من جديد، رجع الآباء المؤسسون لإسرائيل إلى أبطال العصر القديم الذين كانوا يعتقدون أنم سيعثرون لديهم من جديد على تلك الخصـال. وبفعل قفزة فوق العصور، ارتبط اليهودي الجديد بيهودي العصر القديم، وفي مقابل ذلك تحول الشتات إلى لا زمن، بل إلى ثغرة[45].

وبذلك باتت الصهيونية حركة سياسية حديثة، وكانت تستخدم التقليد اليهودي على الرغم من ذلك. وبمعونة عناصر مستمدة من الماضي الذي خلفوه وراءهم منذ عهد بعيد، حاولوا أن يصوغوا هوية جماعية يهودية جديدة، وفي هذه الأثناء كانت القيادة الصهيونية لا تطمح إلى مجرد متابعة التقاليد فحسب، بل كانت تطمح أيضًا إلى قلب صياغتها قلبًا جذريًا. وتتضح صف قضية الساعة التي يتسم بها هذا التوتر في إسرائيل سواء في الصراع من أجل الهوية، بين الديموقراطية العلمانية والدولة الدينية، أو في الصراع الإسرائيلي-الفلسطيني أيضًا، وهو الصراع الذي يستمد فيه المواطنون إدعاءه الحق في الأرض من الكتاب المقدس أو من العهد القديم. ويتحدث إيلان ببه، هنا، عن تربيع دائرة السياسة الإسرائيلية، التي اتخذت بداية لها في سنوات التأسيس[47]. وعلى وجه الإجمال لا يستطيع المرء أن يشير إلى الحركة الصهيونية بأنها حركة سياسية استندت إلى لحظة دينية لتسويغ الاستيلاء على الأرض في فلسطين. وكان يترسخ في الذاكرة الجماعية تقبل ما زال فعالاً حتى اليوم، للتاريخ اليهودي على أنه تطور ضروري لا مندوحة عنه، يربط الماضي والحاضر، وبالتالي المستقبل، ربطًا لا مناص منه، بعضهن ببعض، ويعوق فرض طرائق بديلة في التفكير وفي سرد القصص، من الممكن أيضًا أن تفضي إلى صورة للذات جديدة عن المجتمع الإسرائيلي، وإلى رؤية بديلة للصراع الإسرائيلي-الفلسطيني.

فلنعد مع ذلك إلى عام (1961 م)، الذي افتتحت فيه القضية ضد أدولف آيخمن الذي كان قد اختطف في أيار عام (1960 م)، من الأرجنتين إلى إسرائيل. وكان آيخمن، المختص بنقل اليهود واليهوديات الأوربيين، واتهم بالمشاركة الحاسمة في «الحل النهائي» للمسألة اليهودية. وكانت الوثائق التي ينوء بعبئها خليقة بأن تكفي لإدانته، ومع ذلك فلم يشأ رئيس الإدعاء العام الإسرائيلي، جدعون هاوسنر أن يؤسس القضية على مجرد مادة الأرشيف:

كان من الواضح أنه يكفي، لضمان مجرد الإدانة، أن ندع المحفوظات تتكلم . . غير أننا كنا في حاجة إلى سجل حي لكارثة بشرية وقومية هائلة، على الرغم من أنه ما كان من الممكن أن تكون أبدًا أكثر من صدى واهن لأحداث حقيقية. لقد أردت لشعبنا في الداخل أن يطلع على أكبر قدر ممكن من الحقائق، وكان من الأمور ذات الضرورة الملحة، من أجل ثبات شبابنا، أن يطلع على الحقيقة الكاملة حول ما حدث[48].

وبموجب ذلك كان للقضية وظيفة سياسية أيضًا، إذ كان يفترض أن يتم بها التوصل إلى فهم للضحايا وتعيين لهويتهم، وفي هذا الصدد أفادت من حيث كونها «علاجًا جماعيًا قوميًا»[49]. ويفيد سِغف أن القضية كانت تجربة قومية شديدة إلى حد مهول. ومنذ هذه اللحظة تحولت ذكرى الكارثة الكبرى في التذكار العمومي بمكانة لا يمكن أن تحظى بها قضية أخرى في الحركة الصهيونية. غير أن سكرة النصر الباعثة للترنح بعد حرب الأيام الستة عام (1967 م) أزاحت عملية تحديد هولة الضحايا التي تحققت من جراء قضية آيخمن، أول الأمر مرة أخرى، إلى الخلفية. فباحتلال الضفة الغربية وقطاع غزة، وكذلك مع بداية المستوطنات «في أرض الأجداد المقدسة» تقدمت الرموز التي يترتب تذكرها، مثل شدة الدوافع القومية الدينية، في ارتباطها مع استعادة البلاد بالغزو لتحتل مكان الصدارة. ولم توقظ صدور الجنود الإسرائيليين الأسرى الذين كانوا يقعدون القرفصاء على الأرض، معصوبي الأعين، مرة أخرى، تداعيات تتصل بالحرب العالمية الثانية والكارثة الكبرى، إلا في حرب يوم كيبور (الغفران) عام (1973 م). وقد كان الانتصار الانتخابي لليكود عام (1977 م)، ووصول مناحيم بيغن إلى منصب رئيس الوزراء الجديد، حاسمًا لطور جديد من أطوار اتخاذ الكارثة الكبرى أداة من الأدوات. وبصفته من كبار أولئك الذين يكسبون أفكارهم الصفة الشعبية، أسهم بيغن إسهامًا أكبر من الآخرين الذين جاؤوا قبله في

تسييس الذكرى الجماعية للكارثة الكبرى. وكان ما أفاده أساسـًا لذلك، الوضع الاجتماعي والسياسي في البلاد ذاتها. وفي هذا السياق لعبت الفروق الاجتماعية بين اليهود الأشكنازي واليهود المزراحيم العربي، وغزو لبنان عام (1982 م)، وبدايـة الانتفاضة عام (1987 م)، دورًا ما[51]. وبالنسبة لبيغن كانت الكارثة لكبرى أداة كان يستعين بها ليجتذب الناخبين والناخبات إلى جانـب الليـكود. ونجـح بـيغن في أن يرد إلى يهود المزراحيم احترامهم لأنفسـهم، ذلك الاحترام الذي كان حزب العمل قد سلبهم إياه، وجعلهم يشـاركون في شيء كان حتى الآن امتيازًا من امتيازات اليهود الأشكنازي، أي: الـيهود الذين ترجع أصولهم إلى أوربة، وهو ميراث للكارثة الكبرى. وكـان هـذا ما أفاده في صورة حجة أو ذريعة للقرارات الخاصة بالسياسة الخارجـية أيضـًا، بصفته تسويغـًا للتكتيك السياسي في التصرف ضد الفلسـطينيين، وتحول العالم العربي ولاسيما الفلسطينيون، إلى أناس يقاسون على النازيين. وكثيرًا ما كان بيغن يشبه عرفات بهتلر، وكان يربط بين البيان التأسيسي لمنظمة التحرير الفلسطينية وكتاب هتلر ‹كفاحي›. وفي رسالة إلى رئيس الولايات المتحدة، ريغان، كتب بيغن عام (1982 م)، بعد تدمير المقر الرئيس لعرفات في بيروت، يقول إنه شعر كأنه أرسل الجيش الإسرائيلي إلى برلين ليقتل هتلر في حصنه وملاذه[52].

وكانـت الكارثـة الكبرى قد تحولت إلى جزء ثابت لا يتجزأ من ثقافة الحـياة اليومية وبلاغتها المنبرية. وبينما كانت المسافة الزمنية التي تفصل عن الكارثـة الكبرى تزداد بعدًا، كانت تطبع بطابعها وعي الإسرائيليين اليهود على نحو مطرد الزيادة. وكان يجري الإحساس بالكارثة الكبرى من قبل كل الذيـن سئلوا تقريبـًا، على أنها الحدث الحاسم في التاريخ اليهودي بأسره. وحتى الإحساس بأحداث التسعينيات وارتباطاتها بالكارثة الكبرى، يشير إلى مركـزية معيـنة: إذ كانـت الكارثة الكبرى حاضرة في صورتها الضخمة

والجماعـية سـواء في أثـناء حرب الخليج الثانية، حين كان يجري إطلاق الصـواريخ العراقـية عـلى إسرائيل، أو في المعركة الانتخابية لانتخابات الكنيسـت عام (1996 م)، حين كان رابين يعرض في الملصقات الانتخابية لليمين الإسرائيلي، في الحالة العسكرية لمنظمة (SS) النازية، وما زال يعرض على هذه الصورة حتى اليوم.

10/ 2/ 2] فلسطين

يعـد ماضـي الفلسطينيين الخاص، من المنظور الفلسطيني، قبل كل شيء تاريخـًـا للمعاناة، يجد أصله في النكبة، أي: في الطرد، في إطار الحرب العربية الإسـرائيلية الأولى عام (1940 م). فإلى جانب تأسيس الدولة الإسرائيلية، نجم عـن الحـرب انحـلال المتمع الفلسطيني في فلسطين، وتدمير مئات القرى، و"نشـوء" مشـكلة اللاجئين إذ هرب نحو (700000) فلسطيني إلى ما سمي بالضفة الغربية، وإلى قطاع غزة، وإلى شرقي الأردن، وسورية ولبنان، والعراق ومصـر[53]. ومن وجهة نظر اللاجئين كانت "حرب الاستقلال" الإسرائيلية تعـني فقدان أساس معيشتهم، وضياع أصلهم وعالم تجاريبهم وخبراتم الذي كـان حـتى ذلك الوقت. وفي هذه الأثناء يقدر عدد اللاجئين الفلسطينيين، بمافـيهم ذريتهم، بنحو (3,7) مليون نسمة. ومن الأمور التي لا جدال فيها أن المـراجع الخاصة بالنكبة يشار إليها على أنا علامة الوقف المركزية، التأسيسية في الـتاريخ الفلسـطيني في القرن العشرين، وهي مراجع يحتفظ با على أنا الـتجربة التي تنقش آثارها عميقة في الوعي الجماعي. فالطرد والهرب، والحياة في المـنفى، واجتـثاث الجذور، والتفرق في أصقاع الأرض يشكلن السمات المركـزية لـلهوية، عـلى الـنحو الـذي ترسخت به في الذاكرة الجماعية للفلسـطينيين. والـيوم تترسخ السمات التي تنشئ الهوية، والمذكورة آنفـًا، محفوظـة في الذاكرة الجماعية الفلسطينية بفعل واقع الاحتلال وغياب الدولة

الفلسطينية الخاصة. وقد كتب باومغارتن يقول: هذا الانقطاع، أو عدم الاستمرار يبدو سمة من السمات التي يكون لها القول الفصل في التجربة الفلسطينية . .[54]. والأمر المحوري في هذا الصدد يتمثل مع ذلك أيضًا في التساؤل عن هوية قومية متجانسة يمكن للمرء أن يشير إليها بأنا (الهوية الفلسطينية)، وبالتالي التساؤل عن الأيديولوجيات التي تغذي هذه، مادام المجتمع الفلسطيني أيضًا ينطبع بطابع وقائع الحياة المتباينة وتتجلى فيه تناقضات داخلية. وإنما تتعلق المسألة للمثقفين الفلسطينيين المشاركين في هذا الخطاب في هذه الأثناء بتطوير تدوين للتاريخ الفلسطيني، يوفي تعقيد الوضع السياسي-التاريخي حقه، من ناحية، غير أنه يسعى من ناحية أخرى أيضًا إلى أن يضع في مقابل الرواية التاريخية الإسرائيلية، رؤية فلسطينية مغايرة[55]. وعلى نحو مماثل لما يكون في خطاب المؤرخين الإسرائيليين الجدد، تجري معالجة الموضوعات المحورية في الصراع. وفي هذا الصدد توجد في موقع لصدارة أسباب الحرب الإسرائيلية العربية الأولى ونتائجها، وتطور الحركة الوطنية الفلسطينية. ولكن تدخل في الموضوع أيضًا نظرة نقدية إلى التدوين التاريخي الفلسطيني الخاص وإلى تقبل "الآخر".

وعلى نحو مماثل لما يوجد على الجانب الإسرائيلي، يعد التدوين التاريخي الفلسطيني الرسمي لنشوء مشكلة اللاجئين، من وجهة النظر الداخلية الفلسطينية، صريحًا لا لبس فيه. أما الجانب الإسرائيلي فيعزو المشكلة إلى الفلسطينيين أنفسهم، على سبيل الحصر، في إطار الحرب، إلى زعمائهم العرب الذين أهابوا بالسكان أن يغادروا البلاد طوعًا لكي يعودوا بعد انتصار الجيوش العربية، وهو ما تم كشف اللثام عنه في إسرائيل أيضًا بدراسات مفصلة بأقلام أعداد جمة من المؤرخين الجدد، على أنه أسطورة من أساطير التأسيس. وفي مقابل ذلك ينطلق التدوين التاريخي الفلسطيني من منطلق أنه كانت هناك «خطة بارعة» لطرد السكان الفلسطينيين، وكان الوضع القائم

على التنافس في الوصول إلى السلطان السياسي، بين الأسر الفلسطينية القيادية والهرب المبكر من قبل وجهاء المدن، وبالتالي النخب الإدارية والثقافية في فلسطين عام (1947 م)، من المدن الكبرى، وكذلك غياب الإرادة عند الدول العربية الشقيقة. أي أن إرادة القتال في سبيل القضية لفلسطينية، على النحو الملائم، كل هذه الأمور، لم تكن حتى الآن تتخذ موضوعًا للحديث إلا من قبل بعض الأصوات الفلسطينية القليلة. ويقول صنبر (Sanbar) أنه حتى إذا كانت الهوية الفلسطينية لم تولد عام (1948 م)، يظل التاريخ، بلا ريب حاسمًا لتمييز القومية على أساس النفي النهائي الحاسم لأهداف القومية الفلسطينية. وفي الذاكرة لجماعية كان الفلسطينيون يعيشون في المنفى منذ ذلك الوقت فصاعدًا، وكأنم كانوا كلا الأمرين: الشعب والأرض: . . وبينما كانوا ينتظرون أن يأتي الأخير عائدًا إلى دياره، ويعود فيتبوأ مكانه على الخريطة وبالرحيل عن المكان، رحل الفلسطينيون الذين اتفق العالم بأسره على أن يقول إنم (ليس لهم وجود) رحلوا عن الزمان أيضًا، وبات تاريخهم وماضيهم يتعرض للجحود والإنكار وباتت مطامحهم ومستقبلهم ممنوعين. ولما كان الحاضر ممنوعاً فيهم، فقد كانوا أحرياء بأن يشغلوا حيزًا زمنيًا مكونًا من كل ماض احتفظت به ذاكرة ابتليت بالجنون وكانت تحلم بالمستقبل الذي كانوا يأملون أن يرد الزمن[56].

كانت الأرض، والزمن، والاسم، فلسطين، يشكلن منذ ذلك الوقت المكونات اللازمة لأيديولوجيا العودة، وهذه، بدورها، تشكل أساس للأمة التي سوف تنهض منبعثة من المنفى[57].

وتحول الاحتلال الإسرائيلي للضفة الغربية ولقطاع غزة، في حرب حزيران عام (1967 م)، وحدوث طرد ثان للسكان الفلسطينيين، وكذلك التمييز المتواصل بين البشر في المناطق المحتلة، إلى نقطة هرب أخرى للذاكرة داخل ثقافة الذكرى الفلسطينية. وفي إطار محاولة نفض الاحتلال الإسرائيلي

عن كاهلهم، والوصول إلى سيادة الدولة، تتغذى الذاكرة الجماعية الفلسطينية، منذ منتصف الستينيات، وهذا ما يقرره على نحو حاسم برنامج التحرير الوطني في منظمة التحرير الفلسطينية، وذلك على وجه الخصوص عن طريق وضع حد فاصل في مواجهة التاريخ الإسرائيلي، وبالتالي وضع الحد الفاصل في وجه الصهيونية السياسية التي تفسر بأنها جذر دولة إسرائيل الاستعمارية.

واستطاعت منظمة التحرير الفلسطينية، وهي تساير الهزيمة العربية في حرب الأيام الستة، عام (1967 م)، والنهاية المتزامنة مع هذه، لفكرة الجامعة العربية في ظل قيادة الرئيس المصري جمال عبد الناصر ومسؤوليته، وفي أيام احتلال الضفة الغربية من قبل الجيش الإسرائيلي، ووضع الفلسطينيين الذين كانوا يعيشون هناك، وفي المنفى، والذي كان يبدو ميؤوسًا منه أن تطور فكرة وحدة مغلقة للشعب الفلسطيني، وباتت تعد منذ ذلك الوقت فصاعدًا ممثلته الوحيدة والشرعية. أما ظروف المعيشة المتباينة، للفلسطينيين في إسرائيل، وفي الضفة الغربية وفي قطاع غزة، وفي البلدان العربية المتاخمة لفلسطين، وفي أوربة وفي الولايات المتحدة، حيث كان الفلسطينيون يعيشون ويلتمسون المنفى، فقد كانت تجري تغطيتها وتمويهها بالبلاغة اللفظية التي تدعو إلى وحدة الشعب. وهذه الوحدة الراسخة في الذاكرة الجماعية، التي كانت تضع الجماعة الفلسطينية فوق تجاريب الأفراد والجماعات، لم تكن تدع من الخيارات أو البدائل ما هو مفتوح إلا اثنين. فإما العودة إلى فلسطين وإما إرادة الصمود والمقاومة المطبوعة بالطابع العسكري ضد المحتلين، داخل فلسطين. أما ألوان الشقاق والقطيعة، على طول الهويات المتباينة، والوقائع المختلفة، فما عاد لهن منذ الآن فصاعدًا مكان في الذاكرة الجماعية.

وكانت ذكريات الألم والقمع والاجتثاث، على وجه الخصوص، يلعبن حتى الآن دورًا محوريًا في فهم الذات القومية. ويكتب كل من تماري، وصنبر، على السواء، قائلين إن المثال الموصوف آنفًا والمتعلق بالمنفى

والشتات هو الذي كان له القول الفصل في المناقشة التي كانت تدور حول الهوية الفلسطينية قبل أوسلو[58]. وكان الموضوع المركزي في الخطاب ال اع إلى الهيمنة، أي خطاب "كون المرء ضحية"، يستعر أواره كلما هددت الهوية القومـية المكتسبة بالتداعي والانيار، أو كلما تكدست الكوارث السياسية والنكسـات. ومـع ذلك فقد ظل المنفى، على مدى العقود، من العناصر المكونة التي تدخل في تكوين الهوية القومية. وفي حديث مع سلمان رشدي أجـاب إدوارد سعيد عن سؤاله عن وجود أمة فلسطينية، على النحو التالي: إنم شعب، بمعنى أن قدراً كبيرًا من الشعب له ذكريات، أو يظهر اهتمامـًا كبيرًا بالنظر في الماضي، التماسـًا منه لعلامة تدل على مجتمع محلي منسجم متناسق. فالفلسطينيون شعب كثير التنقل والأسفار، يظل أبدًا يحمل الحقائب مـن مكـان إلى آخر، وهذا يتيح لنا مزيدًا من معنى الهوية من حيث كوننا شـعبـًا . . على أن مجمل فكرة العبور والانتقال من هوية إلى أخرى أمر فائق الأهمية لي، مع كوني ما أنا عليه، وكما هو حالنا، نحن جميعـًا، نوعـًا من الجنس المولّد الهجين[59].

ولكـن سـعيدًا يلاحظ أيضـًا: هناك أنواع جد كثيرة من التجاريب الفلسـطينية لا يمكن تجميعها في واحدة، ولذلك سوف يترتب على المرء أن يـدون تواريـخ مختلفة للمجتمعات المحلية المختلفة، في لبنان، وفي الأراضي المحتلة، وهكذا دواليك. وتلك هي المشكلة المركزية إذ يكاد يستحيل تصور أسلوب واحد في السرد . .[60].

ومـع ذلـك فإنه لما كان «الشعب» الفلسطيني، لا يعيش كله في بلدان الشـتات، فقد كان يتم تمجيد «الباقين» في أسلوب السرد الفلسطيني ال اع إلى الهيمـنة، بمـا يـتلاءم مـع ذلك. ويتم إدخال هؤلاء في إطار صورة «الصـمود» والـبطولة في النضال ضد الاحتلال الإسرائيلي. قبل الانتفاضة الأولى (1987-1993 م) لم يكـن الفلسـطينيون في المناطق المحتلة مهمشين

سياسيـًا في الذاكرة الجماعية فحسب، بل كان ينظر إليهم كما كانوا بقية شـعب قـد خصص لهم مكانم في الشتات طالما أنه لن تكون هناك دولة فلسطينية[61]. وقد أشار تماري إلى هذا أيضـًا على أنه نقطة الذروة في داء للفصام داخل الصورة التاريخية الفلسطينية الـ اعة إلى الهيمنة.

ويوجـد، مـع موضـوع النكبة والمنفى الرئيس، في الذاكرة الجماعية الفلسـطينية، إشـارة إيجابية إلى مفهومات كالوطن والبلاد، والأرض. أما «ذكـريات أشجار البرتقال، وشجرة الليمون» في صحن الدار القديمة، التي ما عاد لها وجود منذ بعيد، أو التي انتقلت إلى أملاك أسرة إسرائيلية يهودية، فتشهد على هذا الشكل من الذكرى المحفوقة في صورتنا الجماعية. وفي هذا السـياق يعـد ما يبعث على الشعور بالوحشة والغربة، كما يعد في الوقت ذاتـه مـا لا يبعث على كثير من الدهشة، أن يتحدث، على سبيل المثال، الأطفال الفلسطينيين في مخيمات اللاجئين، في لبنان، عن «وطنهم فلسطين» أن يعرضـوا المفاتيح التي يحفظونا موروثة عن أجدادهم، لمنازل غودرت في غابـر الأيام، ولم يقطنوها، هم أنفسهم أبدًا، ولن يقطنوها. وبذلك تحولت الديـار إلى مكان تذكروه، ومع ذلك فهي تعبر أيضـًا عن الحنين إلى زمن مفقـود يـتم وضـعه على قدم المساواة، مع الاستقلال والرخاء والصحة والعافية.

وإلى أن نصـل إلى كل خطب الساسة في التسعينيات، التي تستحضر في الأذهـان بدايـة جديـدة، كما تستحضر التغلب على التاريخ باسم سلام يـنطوي على اللامبالاة، تكون الموضوعات المذكورة من حيث كونا جزءًا مـن الذاكرة الجماعية حاضرة، وهي تفيد في الحفاظ على المطالبة بالأرض وعودة اللاجئين وبدولة خاصة بم في حدود عام (1967 م).

كمـا تعـد الذكرى الجماعية عن الوطن الفلسطيني، والإحساس الذاتي الحصـري بـأنم ضحايا، ذات أهمية مركزية، ومؤسسة للهوية، من أجل

الحفاظ على روح الشعب، وهي موجهة نحو تأسيس دولة فلسطينية مستقبلية بمعزل عن إسرائيل.

10/ 2/ 3] الذاكرة الجماعية ونتائجها في الصراع

يعـد تدمـير الذاكرة الجماعية للعدو عن طريق إنشاء ذاكرة المرء الخاصة، عنصرًا مركزيـًا في صياغة الهويات القومية. والعنف، سواء أكـان مباشرًا أم رمزيـًا، يؤدي في ذلك دوراً محوريـًا حين يجري إنـتاج الذاكرات الجماعية، وإعادة إنتاجها ونشرها واستهلاكها في إطـار علاقـات القـوة التاريخية المحسوسة، والمصالح والإمكانات والحـدود والقيود المتعلقة بالمفاهيم. فبدلاً من السيطرة الإسرائيلية- الفلسـطينية، عـلى الذاكـرة الجماعية: يستخدم جزء من العنف الداخـلي والخارجي لدى كل من الفئتين المتخاصمتين لضمان إعادة إنشـائها، وتلـك هـي الطـريقة التي يكون بها الجانبان في الـ اع هويتهما الجماعية في عملية جدلية حيث يكون فرض القوة هو النفي الكامل للآخر.

بـ ـذا يـ ـلخص المسألة غور زئيف (Gur Ze’ev) تلخيصًا محكمـًا[62]. وعـلى نحو موازٍ لعلاقات القوة الصريحة غير الملتبسة، على صعيد السياسية الواقعـية بدلاً من الصراع، يجري الحديث هنا عن شرطية متبادلة للذاكرتين الجماعيتين ولعمليتي الإحساس بالذات. والمهم في هذا السياق أول الأمر، أن تـتماثل الدوافـع، وأن ينعكس الجانب الفلسطيني، في بحثه عن الاستقلال والهويـة، والجانب الإسرائيلي، في بحثه عن الهوية والأمن في تقابل «معادٍ» مخـتلف في كـل مرة. في الخطاب الراهن، الـ اع إلى الهيمنة، في إسرائيل، ولـدى الجانب الفلسطيني أيضـًا، توجد صورة مجتمع متضامن من صلب، متجانس، متماسك. في كل جانب: إن مجتمع الأمة، فالقومية تعد، لدى كل من الجانبين، بمثابة المفهوم المنقذ، بمعزل عن الجانب الآخر. وحين يطور كلا

الجانبين صورًا ذهنية ثابتة لا تتغير، عن نفسه وعن الآخر، يتماثلان في التغطية على الفروق الداخلية عند كل فرد ولدى كل المجتمعين.

ويكتب أدا لوني (Ada Lonni)، في صدد الحديث عن أهمية صدمات التأسيس في إسرائيل وفلسطين، قائلاً إن المجموعة التي تريد أن تنشئ هوية جماعية تلتمس أصلها، لأغراض المشروعية، في الماضي، وفي حدث يمكن أن يتم الإعلان عنه قبل كل شيء على أنه البداية، ولابد أن يقضي، عاجلاً أو آجلاً، من الوجهة اللاهوتية إلى تأسيس الأمة، وبالتالي الدولة. ويمضي لوني قائلاً: إنه سوف يبنى على هذا ضمنيًا، ارتباط عاطفي شديد يربط بين إضفاء المشروع بالمأساة. وذلك أن صدمات التأسيس المتصلة بالكارثة الكبرى والنكبة خليقة بأن تتحول على كلا الجانبين، إلى ورقة رابحة، وفي الوقت ذاته، إلى أكبر طاقات إضفاء المشروعية على الوجود الخاص[63]. وبالانطلاق من صدمات التأسيس هذه، تعد موضوعات المنفى، والبلاد، والوطن 'الموروث' بحكم النسب والأصل، والعودة، في كلتا الذاكرتين الجماعيتين، موضوعات مركزية، وهي ترتبط بالشعار المميز: قانون العودة وحق العودة[64].

ويمثل الباحث في علم النفس، الذي يدرس في جامعة بئر السبع، دان بار أون (Dan Bar On)، الأطروحة القائلة إن إسرائيل قد ركبت ذاتًا تكشف عن وحدة متراصة متناغم كلي تحافظ على نفسها من خلال وضع الحدود التي تعزلها عن كل شيء آخر قبل كل شيء. أما الآخر فيقصد به بادئ ذي بدء الشتات، ولكن يقصد به أيضًا، كل الآخرين من أولي الإثنيات المختلفة، وأخيرًا يأتي العرب على أنهم الآخرون مطلقًا. وأشار إلى الخوف من الآخرين على أنه نتيجة من نتائج تركيب هذه الذات التي تكشف عن وحدة متراصة متناغم كلي. وقال إن هذه، بدورها تتصل بحقيقة أن إسرائيل تسيء الظن أعمق الإساءة بجدية الرغائب الفلسطينية. وقال إن تركيب الهوية الذي يكشف عن وحدة متراصة وتناغم كلي، على أنه جزء لا يتجزأ من

الذاكـرة الجماعية، يؤدي إلى شعور إسرائيل بأنا بالغة الضعف، وبأنا بالغة القوة، على السواء. وقال إن هذه الازدواجية تشد إزر الإحساس الإسرائيلي بـالذات، من حيث كون الإسرائيلي ضحية وبطلاً في الوقت ذاته. ويمضي دان بار أون قائلاً، حين نساير هذا كله، فإنه نفي الآخرين، وكذلك الخوف مـن ناية الصراع، الذي هو خليق بأن يفرض استهدافـًا جديدًا للمجتمع الإسـرائيلي[65]. ويتحدث عن الخوف على أنه نتيجة للبنى الخاصة بالذاكرة الجماعـية وبالهوية، أيضـًا، إيلان ببه، ويقول إن الخوف ونفي الآخرين قد أصـبحا أنموذجين من نماذج التمييز المركزية في إسرائيل وفي فلسطين. وهو يشير إلى كل من الكيانين في هذه الأثناء على أنما «بلاد الخوف» التي تمثل القومية أرضيتها التي يتعهدها بالرعاية الساسة والمسؤولين السياسيون في كلا الجانـبين، ويجعلونـا مثمرة مرارًا وتكرارًا. ومع ذلك فالخوف انفعال ناتج بطريقة مصطنعة تتم تعبئته من قبل النخب الوطنية لدى كلا الجانبين. وكل جانب يرى في نفسه على وجه الخصوص ضحية ويحجم عن الاعتراف بأن الجانب الآخر ضحية[66].

وحـتى إدوارد سعيد كتب، منذ عام (1994 م)، عن ثقافة الخوف: لقد تشـكلت، على مدى الجيل الأخير، آصرة قومية بين الإسرائيلي والفلسطيني عـلى أساس من الخوف. ففي مؤتمر للجمعية الدولية لعلم النفس السياسي، سـأل رئيس الجلسة الزملاء اليهود، ما الذي يرونه عقبة في طريق السلام، وكـاد أحدهـم يفحمني بجوابه إذ قال: نحن خائفون من الفلسطينيين. ولم اسـتطع أن افهم ذلك. هذا التركيز على الفلسطينيين وعلى منظمة التحرير الفلسـطينية على وجه الخصوص كان يتجلى معناه بلغة الرابطة الخصوصية الـتي نحن الآن بصدد الشروع في استيعابا وإدراكها. ولكن عندما قال إننا «خـائفون من منظمة التحرير الفلسطينية أكثر من خوفنا من كل الجيوش العربية» كان يقدم بيانـًا عن الكيفية التي يرى با المستقبل[67].

وفي هذا الموضوع أود التلخيص، مؤقتًا أو إلى حين: ففي أوقات الصراع يـتحول الألم، وكـون المرء ضحية، إلى عنصر هام من أجل تكوين الهوية الجماعـية. فكل جانب يرى في نفسه ضحية، بل يرى في نفسه في الحقيقة الضـحية الوحيدة التي لا ضحية غيرها. وهذه الرؤية ينجم عنها على نحو لا مـناص منه، لإنكار الذكريات الجماعية عند الآخرين. وكل جانب يأبى أن يقر للآخرين بمشروعية ذكرياته وتاريخها. فتجاريب الجانب الآخر، المختلف في كـل مـرة. والتعامل مع تجاريبه ينتفي، أو يتعرض للاستخفاف به، أو إفساده. ومن أجل ذلك كان العنف أو الخوف أيضـًا، على السواء، عوامل هامة في تركيب الذكريات الجماعية وتكاثرها وانتشارها، وإدخالها في إطار واقـع تـاريخي مفـترض. وفي حالة إسرائيل وفلسطين تبدو السيطرة على الذكـرى الجماعـية مسـألة وجود أو لا وجود، وهذه العملية على وجه الخصوص تقيم ارتباطـًا وثيقـًا بين كلا المتمعين.

أمـا في ذاكرة إسرائيل التي تـ ع إلى الهيمنة قد تعرضت ذكرى الكارثة الكـبرى لمـا يشبه الـتأميم، وتمت ملاءمتها مع الإطار الخاص بالخطاب التسويغي للدولة اليهودية الصهيونية[68]، على حين مازالت النكبة والمسؤولية السياسـية عن هرب السكان الفلسطينيين وطردهم تتعرضا حتى تاريخنا هذا للإنكـار عـلى الأغلب، كما سبق الحديث عن ذلك. وإذًا فبينما أدخلت الصهيونية ذكرى الكارثة الكبرى تحت سيطرة الدولة، كانت النكبة تتعرض للإنكار، كما يعرض دور إسرائيل في الكارثة الفلسطينية للنفي.

ثم إن رد الفعل الفلسطيني على التقبل الإسرائيلي للكارثة الكبرى تأرجح بدوره بين الرفض واللامبالاة، والاعتراف بالمضاعفات الأخلاقية والسياسية، إلى أن يصل الأمر إلى تفكير متباين متمايز في دلالتها. وفي كثير من الأحيان يجـد الـناس، في الجانـب الفلسطيني حالات من تشبيه النازيين وطرائقهم بالساسة الإسرائيليين وتعاملهم مع الفلسطينيين. وبالنسبة للجانب الفلسطيني

كـان الاعتراف بالكارثة الكبرى يعني، في حالات ليست بالنادرة الاعتراف بمشـروعية دولة إسرائيل، ومن أجل ذلك كان يرفض أما في الجانب الآخر فيفضل الساسة الإسرائيليون أن يشبهوا عرفات بهتلر، وأن يلقبوا الفلسطينيين بلقـب النازيين مطلقـًا. وبناءً على ذلك تعد المعارك التي تخاض للسيطرة على الأرض، والمعارك التي تخاض للسيطرة على الذاكرة الجماعية من لبنات البناء التي لا يمكن فصل بعضها عن بعض في المواجهة الإسرائيلية الفلسطينية.

ومنذ وقت طويل تتزايد سواء لدى الجانب الإسرائيلي، أو لدى الجانب الفلسـطيني، الأصـوات النقدية التي ما عادت على استعداد لمتابعة الخطاب الذي يـ ع إلى الهيمنة ويتجلى في الذاكرة الجماعية، بل تأخذ في التساؤل عن الخلفـيات والافتراضـات الأولية، وهنا لا يمكن إلا أن نعرض بإيجاز ماهية المواقف والفرص التي ينطوي عليها هذا الخطاب.

10/ 2/ 4] ماوراء تدمير الذاكرة الجماعية «للآخر»؟

يجـري في إسـرائيل اتخاذ موضوع للمناقشة من أهمية الذاكرة الجماعية ووظيفـتها، وكـتابة التاريخ بطريقة تـ ع إلى الهيمنة، منذ نحو خمسة عشر عامـًـا، بقـدر كبير للغاية من قبل الأكاديميين الذين باتوا يعرفون باسم «المؤرخين الجدد» الذين تشكل قاعدتهم بوادر سياسية وبوادر تنتمي إلى ما بعـد الحداثـة في المناقشـة النظرية العالمية. ويجري في الـ ادلة نقد الخطوط الأسـاس للأيديولوجـيا الصـهيونية، وتطرح أسئلة مركزية حول الموقف الإسرائيلي في الصراع مع الفلسطينيين.

ويقـدر المثقفون المشاركون في المناقشة أن الصراع الإسرائيلي الفلسطيني يتصـدر مـا يقرر هوية الدولة على نحو حاسم، ونتيجة لذلك يفيد موقف بعضـهم أنه لا مناص، في صدد انتهاء الصراع، من أن يتغير الخطاب الذي يـ ع إلى الهيمنة لكي يكون من الممكن أن تنشأ بدائل سياسية ملائمة للوضع

الـراهن. وبالنسبة للمؤرخين الجدد تعكس المناقشة . . أزمة هوية في مجتمع يقـف عـلى فترة سلام يفسح فيها الإجماع القومي، الذي كان فيما يلف مبنـيـًا على تهديدات تمس البقاء وعلى مشكلات الأمن، المجال لمناقشة عبر المجتمع وثقافته[69]. وبإدراك أن تكون الهوية الإسرائيلية والثقافة السياسية في البلاد يرتبطان ارتباطـًا وثيقـًا بالصراع الفلسطيني الإسرائيلي تتعلق المسألة بصـدد الخطاب الذي افتتح، أيضـًا بوضع علل الصراع في موضع الشك بأسـلوب نقدي. وعلى هذا فأهمية الخلافات تكمن في أن حدود المسؤولية التاريخية تتضح عن طريقها، ويتم إدراك ضرورة إدماج تاريخ الفلسطينيين في المناقشـة الدائـرة حـول تاريخ الصهيونية. وفي هذا الصدد يتولى مفهوم المسؤولية الربط على صعيد المناقشة التاريخية وصعيد المناقشة السياسية[70].

عـلى أن التغيير في النظرة الشاملة في مسار التدوين التاريخي، فيما أرى، شـامل وجوهـري، ثم إن التجريد الظاهر الجلي يوجد في مضمار أسلوب السـرد الـتاريخي، أي في المادة التي يترتب سردها وفي دلالة وقائع الماضي، كما تجلت في الذاكرة الجماعية. وكما سبق أن ذكرنا، فإن الوعي التاريخي يؤدي في ذلك مهمة اجتماعية من الدرجة الأولى، فهي تهب المجتمع الشعور بالتماسك الجماعي وبمغزى الحياة الوجودي. والوعي التاريخي يفعل فعله في الصـياغة وفي تكاثـر الهوية القومية التي تعبر عن ذاتها، بدورها، في علاقاتها بالعدو. وهكذا تتعلق المسألة، في المناقشة، بتغيير الوعي القائم على الإجماع، والـذي يكشف عن وحدة متراصة وتناغم كلي، من أجل وعي يستهدي بالصراع ويكون تعدديـًا، ويسمح بوجود ذاكرات جماعية متباينة، على أنها صحيحة موضوعـًا من الأقليات أو من الجماعات التي يعلن أنها أعداء[71].

ولا يعـرف حتى الآن إلا القليل، في أشكال الخطاب الغربي، عن تدوين تـاريخي فلسـطيني (جديد) كما يتم التعبير عنه في أعمال رشيد الخالدي، وبشـارة دومـاني وسـليم تماري، وعصام ناصر ونور مسالخة، وآخرين.

والمثقفون الفلسطينيون يتفقون على ضرورة تدوين للتاريخ خاص، جديد، يقف بصورة مطلقة قبالة البلاغة اللفظية التي تصدر عن منظمة التحرير الفلسطينية وفقًا لبرنامج مرسوم، ويكون أيضًا على استعداد لأن يتناول بالنقد الذكريات والروايات التاريخية المختلفة المترسخة في الذاكرة الفلسطينية التي تفرض نفسها. وهم متفقون على ذلك أيضًا لأسباب ليس آخرها أنهم يريدون أن لا يكتب التاريخ الفلسطيني، مرة أخرى من وجهة نظر إسرائيلية. ويصوغ الصحفي والكاتب اللبناني البارز إلياس خوري هذا، وعلى النحو التالي: كان وعي الفلسطينيين، حتى عهد قريب، يتمثل في أنهم لاجئون، ولم تكن كتابة التاريخ أبدًا تمثل أولوية إذ كان ينظر إلى طرد الشعب الفلسطيني، على نطاق واسع على أنه مؤقت. وبعد أوسلو يشعر الفلسطينيون بأن عليهم أن يميزوا أنفسهم، لا على أنهم لاجئون، بل على أنهم أهل شتات، لهم تاريخهم الخاص بهم[72].

وفي هذا الصدد يعد من الأمور الأكثر غموضًا، ماهية تلك الجوانب من التاريخ الإسرائيلي-الفلسطيني التي يمكن أن يتساءل المرء تساؤلاً نقديًا، عن خلفياتها وأسسها، يوجب عليه ذلك، وليس آخر ذلك أن الموقف السياسي والصراع ذاته يؤثر في تدوين التاريخ في كل مرة. وهكذا ينتهي إلياس خوري إلى النتيجة المؤقتة وهي أن الإسرائيليين والفلسطينيين ينطوون على حاجيات جد مختلفة إلى المؤرخين، وذلك أن تاريخ إسرائيل يتحدث عن تأسيس دولة توجد الآن، بينما يترتب على الفلسطينيين أن يكتبوا تاريخًا لطردهم مازالت مشكلته قائمة من دون حل[73].

على أن المثقفين الفلسطينيين شرعوا، مثل زملاءهم في مضمار التاريخ في إسرائيل، وفي تجاوز منهم لحدود النظرة النقدية إلى تاريخهم الخاص المدون، في الاشتغال أيضًا بتاريخ الآخر واستنباط نتائج من أجل «جماعتهم هم». وهنا يلعب الاعتراف بوجود تجاريب تاريخية متباينة وبتأثيراتها في الحاضر

السياسي دورًا هامًا. وحين اصطدموا بمقالة إدوارد سعيد في صحيفة (اللوموند دبلوماتيك/ le Monde Diplomatique) بعنوان: «الطريق الثالث يفضي إلى مدى أبعد . .»، يطالب فيها بالاعتراف بالكارثة الكبرى، من الجانب العربي، ويشن حملة شعواء على معاداة السامية عند العرب[74]، نشأت على الجانب الفلسطيني مناقشة حامية الوطيس حول التعامل مع الكارثة الكبرى وإسرائيل[75]، تستأنف ما انقطع منذ مقالة عزمي بشارة التي كتبها عام (1994 م) «العرب والمحرقة: صعوبات التوافُق»[76].

10/ 3] هل من آمال في المستقبل؟

إن قناعتي هي السلام، إذا ما فهم المرء من هذه الكلمة ما هو أكثر من اتفاقية هدنة، مع غياب العنف العسكري، الذين لابد لهما من ان يراعيا المواد التي عرضنا لها بإيجاز في هذه المقدمة. على أن المصالحة ذات الأثر المستديم تفرض بصورة أولية وبموجب ذلك الاعتراف المتبادل من كل جانب بتاريخ الجانب الآخر. وهذا لا يعني تفادي الصدام بين الحسين التاريخيين بأن يتجاهل المرء علاقات القوة الراهنة، أو يقسم التاريخ إلى فقرتين، عادلة، وأقل عدلاً مثلما تفعل ذلك أقسام من حركة السلام الإسرائيلية، إذ توطن مشكلة الصراع بين الإسرائيليين والفلسطينيين في عام (1967 م) وتفسح لطور تأسيس الدولة مكانًا في عملية جرد نقدية، بل تتعلق المسألة بالأحرى بمحاورة تتناول طبقات التاريخ التي لا تتجزأ ولا تنقسم.

وعلى هذا فلابد للسلام المستقبلي من أن يكون منصفًا لكلتا الذاكرتين الجماعيتين. والسلام، بهذا المعنى، خليق بأن يقتضي مبدأ الحوار، الذي لا يكون بدوره ممكنًا، إلا بين «أنداد متساويين»، غير أنه لا يكون ممكنًا بين حكام ومحكومين. والمسألة تتعلق بمسائل الذنب والعدالة، غير أنها تتعلق

أيضـ ـًا بالترويج لأمور جد واقعية/ملموسة. وبينما ينظر بعضهم إلى الحوار والأحاديـ ـث الشخصـ ـية، والمواجهـ ـة المباشرة في صورة مقاصة بين الفاعل والضـ ـحية، على أن هذا طريق معقول من أجل تحويل الصراع، يريد آخرون مثلاً، أن يستأنفوا ما انقطع من تجارب لجنة تقصي الحقائق في جنوب إفريقية، وثمة آخرون يطالبون مرة أخرى بحل سياسي صرف على أساس الاتفاقيات.

أما ما أراه فهو تغيير جوهري في الذكريات الجماعية، يرتبط على الدوام بصـ ـورة عـ ـن جانب من الجانبين بذاته، من دون تغيير في الموقف السياسي، وبالـ ـتالي مـ ـن دون الإحجام عن تحقيق التحسن في أحوال المعيشة الملموسة تمامـ ـًا للبشـ ـر. والحوار أو حتى المصالحة التي كثيرًا ما تتم المناداة بها، بين الإسرائيليين والفلسطينيين، لا يكونان ممكنين إلا بشرط التساوي في الحقوق، ولا يوجد فيما أرى حتى على صعيد الذكريات، بادئ ذي بدء، لا بديل عن إنهاء الاحتلال الإسرائيلي.

تأليف: موشيه غِرشفتش

11] النجمة المراكشية والصليب المعقوف
الجنود المغاربة في الحرب العالمية الثانية

كـان الجنود المغاربة حاضرين في الجبهة الأمامية لحرب فرنسا مع ألمانيا، بـين عامي (1939 و1945 م)، من المواقع الدفاعية على طول خط ماجينو والمعـارك اليائسـة لأجـل بلجيكا وفرنسا، وعبر إعادة التعبئة بعد عملية «المشـعل»، والصـدامات الدامية في تونس، وكورسيكا، وإلبا، وكاسينو، وروما، وحتى عملية الإنزال في مرسيليا، وتحرير الإلزاس واللورين، واحتلال جنوبي ألمانيا، والنمسا. وبدافع إعلان أمير المؤمنين، السلطان محمد الخامس، دعمه لقضية فرنسا في وجه النازية بتاريخ (3) أيلول عام (1939 م)، ضحى ألـوف المغاربة بأرواحهم من أجل فرنسا، وعانى كثير من الآخرين جراح بدنية ونفسية سوف تظل تلاحقهم خلال ما تبقى من حياتم. وكتب على

ألـوف آخرين أن يقضوا أفضل سنوات شبابهم أسرى حرب في المعسكرات الألمانية. وظفر المقاتلون المغاربة، بقتالهم وجلدهم، بإعجاب الصديق والعدو على السواء واحترامهم.

وفي هـذا المقـال نعـتزم التجاسر على تخطي الحدود التقليدية للسرد الـتذكاري للمشاركة المغاربية في الحرب العالمية الثانية[1]، وأن نقدم سردًا يجسـد الأبطـال الغائبين في الواقع، في هذه الملحمة، وهم الجند المغاربة[2]. وسنحاول أن نرسم لهم صورة جانبية جماعية وان نقدم عنهم صوتـًا أضفي علـيه الطـابع الفردي، بإعادة صياغة قصتهم بطريقة شاملة، تكشف عن احترامنا لهم وتعاطفنا معهم، ونرتب شهاداتهم، إحداها إلى جانب الأخرى، بالتوثيق الأرشيفي والثانوي، الذي يكشف أكثر ما يكشف عن القضية من منظور فرنسي.

11/ 1] العلاقات الألمانية المغربية قبل العهد النازي

لقـد أدى توحـيد ألمانـيا، وارتقاء الرايخ الثاني (1871-1918 م) إلى مصـاف الـدول الأوربـية العظمى، مع توافر شهية إمبريالية عالمية متميزة توافقـت مـع انتقال السلطة الملكية التي كانت قبل الاستعمار، وتعرضها للـتدخل الأجـنبي، الاقتصادي والسياسي، وفي النهاية العسكري. وحين أخـذت فرنسـا وإسبانيا تنقصان من سيادة المغرب ووحدة أراضيه، بينما كانـت بريطانيا الداعمة السابقة للمغرب في حلبة الصراع الدولي، تعترف لفرنسـا بمصالحها الخاصة في الإمبراطورية الشريفية، بحكم كون ذلك جزءًا مـن الاتفاق الودي المبرم عام (1904 م)، ظهرت ألمانيا، بين الدول الأوربية الكـبرى، في صورة الراعي الوحيد الباقي، لاستقلال المغرب[3]. وعلى كل حال، فقد كان للمحاولة الخرقاء، من جانب ألمانيا، لفرض الموضوع، بزيارة

الإمـبراطور فلهـلم الثاني، لطنجة في عام (1905 م) (وبعد ست سنوات بإرسـال الطـراد 'بانتر/ Panther' إلى أغادير) الدافع الواضح الخفي، وهو تعزيـز المصـالح التجارية الألمانية في المغرب التي رافقت إيماءاتا. ولذلك لم تخلـف إلا قلـيل من الانطباع الإيجابي بين المغاربة بصدد الرايخ. وكان من بواعـث السخرية أن الأزمتين المغربيتين التي تم إشعال شرارتيهما عن طريق هـاتين المـبادرتين، لم تسفرا إلا عن استفحال التدخل الفرنسي في المغرب، وفرض نظام المحمية الثنائي في عام (1912 م).

عـلى أن نشـوب الحرب في أوربة، في صيف عام (1914 م) أتاح لألمانيا فرصـة لتجديد اهتمامها بالمغرب، وهذه المرة بحكم كونا جزءًا من استراتيجية أوسـع نطاقـًـا، بدف تقويض الإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية في شمالي إفريقـية بـتحريض أهـل الـبلاد على مقاومة الاستعمار[4]. وكان عملاء الألمان الذين كانوا يستفيدون من الحياد الإسباني المواتي لهم، ومن نقص السيطرة الفعالـة على معظم منطقة محميتهم في شمالي المغرب، يعملون في إطار الارتباط بقـادة المقاومـة والفـئات القبلـية، ويمدونم بالأموال والأسلحة والمشورة التكتيكية[5]. وانطلاقـًا من حياد إسبانيا وعدم فاعلية تحكمها في القسم الأكبر مـن محميتها في شمالي المغرب، نشط العملاء الألمان، بالتنسيق مع قادة المقاومة والتجمعات القبلية، المتسلحين بالمال والسلاح والاستشارات التكتيكية[6].

وفي الجـنوب الغـربي مـن المغـرب، وعلى طول ساحلها المطل على الأطلسـي، وقـبالة الجيب الإسباني، سيدي إفني، كانت الغواصات الألمانية تـ ل عمـلاء كـانوا يحاولون التسلل إلى وادي سوس، والارتباط بقوات المقاومـة المحلـية التي يقودها الهيبا، الذي أعلن نفسه سلطانـًا، وكان بين هـؤلاء العملاء الذين كان يقبض عليهم في العادة من قبل القوات الفرنسية قـبل أن يصلوا إلى غايتهم، جندي مغربي سابق كان قد أسره الجيش الألماني في بلجيكا، وردت إليه حريته مقابل مشاركته في المغامرة[7].

وهذا الاستخدام لأسير حرب في مهمة تخريبية في بلاده، ينبغي أن يفهم في سياق جهد أوسع نطاقـًا من قبل القيادة الألمانية العليا، لتحويل المحاربين المسلمين الذين جندتهم فرنسا وبريطانيا للعمل ضد أسيادهم من المستعمرين الأصـليين. وقد أرسل نحو ثلاثة آلاف من أسرى الحرب من شمالي إفريقية وشبه القارة الهندية، على معسكر يقع عند فونسدورف (Wünsdorf)، بالقرب مـن زسن (Zossen) على بعد (4 كم) من برلين، حيث تم تقسيمهم تبعـًا لـبلادهم الأصلية، وإخضاعهم لعملية تلقين أفكارًا معينة، على نحو مكثف، عـلى يـد ضباط ألمان يتحدثون بالعربية، ومسلمين من أبناء جلدتهم، من المهاجـرين، حاولوا إقناعهم بتسجيل أسمائهم في لوائح المتطوعين «للجهاد» العثماني. وفي النهاية تم تنظيم نحو ألف مسلم من أسرى الحرب (منهم (105) مـن المغاربة) في كتيبة صغيرة، غادرت ألمانيا أول جماعة منها في شباط عام (1916 م)، وسافرت إلى إسطنبول، ومن هناك إلى بغداد، حيث شاركت في القـتال ضـد البريطانيين. وتم فيما بعد نقل عناصر الوحدة من العراق إلى الجـبهة الروسـية، وانـتهى بهم المطاف أخيرًا في سورية، حيث استسلموا للسلطات العسكرية الفرنسية في نهاية الحرب[8].

11/ 2] الجنود المغاربة في الحرب العالمية الأولى وفترة ما بين الحربين

كانـت قصـة أسرى الحرب المغاربة مجرد فصل من ملحمة أكبر، من ملاحـم الجند المغاربة في الحلل العسكرية الفرنسية في أثناء حرب (1914-1918 م)، إذ كـان قـد تم تعبئة أكثر من (34000) من المغاربة للخدمة في فرنسـا، وفي مسـاح العمليات الأخرى، كالقوة الفرنسية الخاصة بالحملة الموجهة إلى البلقان. وتمت تعبئة (45000) من المغاربة الإضافيين بصفة عمال في صناعات الوطن الأم، ولاسيما مصانع التسلح.

ومع إدخال كل الأمور في الحسبان، كان (1,2%) من السكان الأصليين في منطقة المحمية الفرنسية يشاركون في المجهود الحربي في الوطن الأم. وإذا قورن هذا بالإسهام الإجمالي من جانب كل الممتلكات الفرنسية فيما وراء البحار، خرج الإسهام المغربي في المجهود الحربي الفرنسي مقصرًا عن شأو الجزائر وتونس، ولكنه كان متماشيًا مع نظائره في الممتلكات الفرنسية الأخرى، فيما وراء البحار. وهذا رقم يلفت النظر، بالنظر إلى حقيقة أن الحماية الفرنسية على المغرب لم تكن قد سلخت من العمر سوى مجرد عامين، وكانت الكتلة السكانية ظلت تقاوم الحماية مقاومة نشيطة. ويضاف إلى ذلك، مادامت المغرب قد ظلت من الوجهة التقنية على الحياد في الحرب العظمى، وأن المغاربة المسجلة أسماؤهم في لوائح الجيش الفرنسي، كانوا يفعلون ذلك على أساس طوعي، من الناحية النظرية، على الأقل[9].

ولم تكن حملة الجند المغاربة على فرنسا قد استهلت من قبل وزارة الحربية في باريس، بل بالأحرى في الرباط، حيث تطوع الجنرال المقيم لويس هيوبرت ليوتي (Louis Hubert Lyautey)، ليضيف كتائب مشاته المراكشية الخمس والخمسة من كتائب الفرسان (السباهي)، على القوات التي كان قد تم استدعاؤها إلى الوطن الأم وقد كانت «شهامته» والموافقة المشروطة من جانب مؤسسته العسكرية، على السواء، انعكاسًا للهواجس والشكوك الفرنسية بصدد ولاء الجند المغاربة ومقدرتهم على حسن الأداء في صراع من الطراز الأوربي. على أن هذه التحفظات أثبتت أنها مضللة حين خسر المغاربة بعد أن وصلوا إلى الجبهة عشية المعركة الفاصلة، أي معركة المارن، (80%) (أي 3200 من أصل 4000) من عناصرهم البدئية، في معارك طاحنة خلال شهر أيلول (1914 م)[10]. غير انهم ظفروا بتقدير عالمي لشجاعتهم وجلدهم واحتمالهم. ثم إن الناخبين الذين زيد في عددهم بمجندين جدد من المغرب، أعيد تنظيم صفوفهم ليكونوا (كتيبة الزحف الأولى من جند المناوشة المغاربة).

وسـوف تشارك هذه الوحدة على مدى السنوات الأربع التالية، في عدد مـن المعارك الأخرى التي اقتضت ثمنـًا معادلاً لذلك، من حيث الإصابات، غـير أنـا وطدت أيضـًا مكانتها بحكم كونا وحدة من المرتبة الأولى، ثم أنشـئت كتيـبة ثانية من جنود المناوشة المغاربة في مطلع عام (1918 م). وتم تجهـيزها في منتصف نيسان. وفي نـاية الحرب كانت قد شاركت في أربع من المعارك، وخسرت (68) ضابطـًا و(2700) رجل بين قتيل وجريح. وحظت بالإشـادة ببطولتها مرتين وبالحق في تقديم رايتها في استعراض ذكرى الهجوم عـلى الباستيل عام (1919 م)، في باريس. وعلى الإجمال قتل نحو تسعة آلاف مـن الجـند المغاربـة أو أعلنوا مفقودين في العمليات أثناء الحرب، وأصيب بالجروح (17000) في المعارك، أو أصبحوا ضحايا للمرض في أثناء خدمتهم[11].

وفضـلاً عـلى الميدالـيات وشارات التقدير الشخصية التي لا تحصى، والأوسمـة الجماعية التي منحت لقوات المغاربة، كانت المكافأة الأكثر بقاءً على الزمن، على تضحياتـم وبطولتهم، ترقيتهم من وضع «قوة مساعدة» إلى وضع «قوة نظامية»، وإدخالهم في سلك المراتب الدائمة في الجيش الفرنسي[12]. وفي الوقـت الـذي كان المغاربة يتمتعون بحقوقهم وإعاناتـم المساوية لتلك القوات الأخرى من الشمال الإفريقي المشكلة من أبناء البلاد الأصليين (على الـرغم من بقائهم في مرتبة أدنى من مرتبة نظرائهم الفرنسيين). كان المغاربة يحافظون على وضعهم الفريد، أي الوضع «الطوعي» ويحظون بسمعة الجند المحـترفين، وكـان مـن شان آمريهم لفرنسيين أن يشيروا إليهم في بعض الأحيان، بلقب (المرتزقة الكاملين)[13].

ولمـا كـان المغاربة يتمتعون بسمعة التحمل البدني الممتاز، والشجاعة، والمـرونة، والخضوع للنظام الصارم (الذي كثيرًا ما يعزى إلى ما يفترض من الـ عـة «القدريـة» عـندهم)، ومـا الموثوقـية الكاملة، فقد كان يجري باستخدامهم على نطاق موسع في قمع ثورة الريف، وفي المراحل الأخيرة من

إخضــاع بلادهــم، هم، كما اصبحوا أيضــًا اختيارًا شعبيــًا للمهمات المحــددة خــلال فــترة ما بين الحربين فيما وراء البحار مثل فيلق احتلال القسطنطينية والشرق الأدنى.

وثمــة مكان آخر خلف فيه الجند المغاربة بصماتهم، ويتميز بعلاقة مباشرة بهذا المقال، ففي عام (1921 م)، التحقت الكتائب المغربية الثلاث الأولى بجيش الاحــتلال الفرنســي في إقليم الراين (Armée du Rhin) وكما بينا في موضع آخــر[14]، فقــد كان إدخال الرئة في ذلك الفيلق، نتيجة تفكير مترو، معين ومقاومــة مبدئــية داخل هيئة الأركان العامة الفرنسية. ذلك ان وجودهم في وســط الســكان المدنيين الألمان كان يستثير شيئًا من العداء الشعبي من جانب مجموعات الجناح اليميني، بما في ذلك الحركة النازية الناشئة، وكانت الدعاية الموجهــة نحو المغاربة تشبه (وإن لم تكن على المستوى ذاته من السمية) تلقيب الجنود السنغاليين المتمركزين على التراب الألماني بلقب «العار الأسود»[15].

وحتى في الوقت الذي كان فيه بعض الجند المغاربة، مازالوا حين نستخلص منهم المعلومات من قبل قادتهم الفرنسيين لدى عودتهم من ألمانيا، على المغرب، يشــكون من انهم عوملوا بعنجهية وغطرسة، واحتقار من قبل الأهالي الألمان، عــبر آخــرون عــن زهوهم واغتباطهم بما رأوه احترامــًا أبدي لهم، على أن بعــض الجــند ذكروا انهيار المارك الألماني ومعدل التضخم العالي، من حيث كونهــا تطورًا يشير إلى حسن حظهم، إذ أتاح لهم أن يشتروا الأشياء بثمن بخــس. ولاحظ أحد التقارير نقص الاهتمام الذي عبر عنه معظم الجند بصدد الجدل الفرنسي الألماني حول موضوع التعويضات، وهو الموضوع الذي كانوا يعرضون عن الخوض فيه على أنه «مسألة بين مسيحيين».

وكان الاختيار الأكثر أهمية عند الجند المغاربة خلال حقبة ما بين الحربين الاستعداد لصراع أوربي آخر سوف يكون متوقعــًا منهم، في حالة حدوثه وهــو لأن يســهموا في الدفاع عن الوطن الأم وفي غمرة توقعهم لمثل هذا

الاحـتمال، استهل الجيش الفرنسي عملية استكمال غزو المغرب في مطلع الثلاثينـيات. ومـع إنجاز «توطيد السلام» في مطلع عام (1934 م)، أمكن إرسال الجند المغاربة على فرنسا، وتمركزوا في المواقع العسكرية بالعاصمة وفي أيلـول (1939 م)، كان (90000) جندي من المغاربة يتأهبون لقيام بدورهم في الحرب ضد ألمانيا.

3/11] من قمم جبال الأطلس إلى ميادين المعارك في أوربة: صورة تخطيطية للمقاتلين المغاربة

وقـبل أن نحول انتباهنا إلى عالم الحرب العالمية الثانية التي كانت فصولها تتجـلى للعـيون شـيئًا فشيئًا وغلى مشاركة المغاربة فيها، نعتزم أن نقدم عرضـًا وجيزًا يحدد أطر الصورة التخطيطية الجماعية لهذه الفئة من الرجال، الذيـن يوشكون أن يشاركوا في مسألة أخرى لا تدور بين مسيحيين وهي مسألة يبدو انهم لا يستوعبونا إلا استيعابـًا محدودًا للغاية.

ومـن المهـم أن نلاحظ، في هذه المرحلة أن الحرب العالمية الثانية كان تشتمل بالقياس إلى المحاربين المغاربة، على طورين متميزين من أطوار الغرب. تفصل بينهما فترة هدمة ظلت فرنسا، وبالتالي المغرب، خلالها، خارج دائرة القتال النشيط. أما خلال الطور الأول، وهو الحرب الزائفة، حرب السقوط وشتاء (1939 م)، ومعركة بلجيكا التالية، وفرنسا في ربيع (1940 م)، فكان تمثـيل المغـرب فيها في الحرب محدودًا من الناحية الجوهرية، بكتيبة مناوشة نظامية، ووحدات من سلاح الفرسان متمركزة في أوربة، وفي المرحلة الثانية، التي أعقبت نزول الحلفاء وتحرير شمالي إفريقية «عملية المشعل» تشرين الثاني (1942 م)، لم يقتصر إسهام المغرب في فيلق الحملة الفرنسية التي قاتلت إلى جانب القوات الأمريكية والبريطانية في تونس، وفرنسا، وألمانيا، وفي أماكن

أخـرى، على هذه الوحدات النظامية، بل تضمن أيضـًا قوات كانت تعد حتى الآن «قوات مساعدة» أو «قوات مساندة» تعرف على نحو شائع بأنها (الغوم/ goums)[16].

وفي الواقع يمكن الاحتجاج بأن تحويل «الغوم» من رجال شرطة محلية في الـريف المراكشـي إلى قـوات هجوم وانقضاض، كان الجانب الواحد، الجوهـري إلى أقصى الحدود من جوانب مشاركة المغرب في الحرب العالمية الثانية[17]. أما الظروف التي أدت إلى هذا التحول فسوف يتم الكشف عنها فـيما بعد، في هذا المقال على ان ما هو جدير بالذكر عند هذه النقطة هو غياب أي معيار واضح لدور الجيش الفرنسي في اختياره للمرشحين المغاربة لـلخدمة، إمـا بصفة «قوات نظامية» وإما بصفة «قوات مساعدة» ومن الأمثلة الحسنة التي تضرب شاهدًا على التعسفية الظاهرة في عملية الاختيار، قصـة السـيد باز بناصر[18] الذي ولد في عام (1910 م)، وأدرج اسمه في الجـيش الفرنسي في عام (1935 م)، وكان هدفه الأصلي الالتحاق بالغوم، فسـافر إلى الجـنوب من إقليم ميدليت، حيث مسقط رأسه (على السفوح الجنوبية الشرقية من جبال الأطلس الوسطى) إلى مولاي علي شريف في إقليم الرشيدة، وأخفق لبعض الأسباب في العثور على الغوم هناك، فعكس مساره، وعاد إلى ميدليت، وأدرج اسمه مرشحـًا للعمل في قوات المناوشة.

ويعـد أصل بناصر العائد إلى مجتمع محلي في جبال الأطلس الأوسط، من السمات البارزة التي يشاطره إياها كثير من المقاتلين المغاربة في الحرب العالمية الثانية، ومع تقدم الغزو نحو ذلك الجزء من الريف الماركشي في العشرينيات من القرن الماضي، كان الجيش الفرنسي ينظر على نحو مطرد الزيادة إلى أبناء القبائل الناطقين بالبربرية في الأطلس الأوسط، نظرته على مرشحين يتمتعون بالأولوية للخدمة العسكرية في صفوفه، وكان البربر الذين يصبون في قالب (المحاربين بالفطرة/ guessiers par atavisme)[19] ويدربون منذ طفولتهم على

اسـتخدام البندقية، يفترض أن يكونوا بصورة نسبية متمتعين بالمناعة حيال آثـار الـتحريض القومي العربي، وكانوا قد اخذوا يسيطرون على المراكز المدينـية خلال الثلاثينيات من القرن الماضي، وعلى هذا فقد كان يبدو أنم صالحون مهنيـًا، وكانوا يبدو أكثر جدارة الثقة والركون إليهم من الهجمة السياسـية ومن مواطنيهم المتمرنين الناطقين بالعربية، بحيث يمكن أن يرتدوا الحلل العسكرية الفرنسية، ولهذا كان الناطقون بالبربرية يشكلون عند نشوب الحرب، وخلال مسيرتا، أغلبية الجنود المغاربة في صفوف الجيش الفرنسي.

ويبدو أن معظم المحاربين الذين أدرجت أسماؤهم في سجلات الجيش قبل نشـوب الحـرب أو أثـناء مسيرتا، إنما فعلوا ذلك طوعـًا واختيارًا[20]. ويـتحدث محمد زمري[21]، الذي التحق بصفوف الغوم في عام 1943، ثم خـدم محاربـًا في قوات المناوشة، في إيطاليا وألمانيا، باسم كثير من المحاربين الآخـرين، عندما يقرر قائلاً: «كان الالتحاق بالجيش الفرنسي قراري أنا» وعـلى كل حال، فعندما سئل لماذا فعل ذلك، أجاب «السبب الذي جعلني ألـتحق بالجيش الفرنسي هو أنن يلم يكن لدي عمل، ففعلت ذلك لأحصل على المال، ومن هنا يبدو أن دافعه الحقيقي (ودافع معظم المحاربين الذين تمت مقابلـتهم) كان اقتصاديـًا بطبيعته، يعكس واقع الحياة المقيت القائم على اقتصـاد كسب العيش، أو الإعالة، في الريف المغربي، في الثلاثينيات، الذي تعـرض للتخريـب والإتلاف جعل الأزمة الاقتصادية العالمية، والكوارث الطبيعية، كالقحط والجفاف في عام (1937 م).

وهذا التقرير البسيط يصور تصويرًا حسنـًا، تلك الهوة التي كانت قائمة بـين تصـور المحـاربين وتصور الضباط الفرنسيين الذين يتولون قياداتم، ورفـاقهم الجـنود الفرنسيين الذين كثيرًا ما كانوا يخطئون في فهم استعداد المغاربة للقتال من أجل قضية فرنسا، على أنا علامة على ولائهم وتفانيهم، أو على ميلهم على الولع بالحرب، وطلب الد[22].

أمـا ما يتعلق بالطريقة التي كان يتم بها إدخال المرء في الجيش الفرنسي، فإن النمط الأكثر شيوعـًا يبدو أنه كان يتضمن حملات فرنسية للتجنيد في مـيادين التجمـيع المركزية. في الريف، مثل سوق المزارعين الأسبوعي (أو الـبازار) ثم عن بعض المحاربين قرروا الالتحاق بالجيش فجأة، دونما تفكر أو ترو، أو نتيجة لضغط الأنداد، من جانب الأصدقاء الذين كانوا اتخذوا قرار الالـتحاق أيضـًا وكان آخرون متأثرين بنسيب أو قريب، أو عم أو خال، ممن سبق لهم أن قاتلوا في الحرب العظمى. ومن الناحية الأخرى، كان لعدد لا يسـتهان به من أولئك الذين قابلناهم، أقرباء لعبوا دورًا فعالاً في مقاومة عملية «توطيد السلام» الفرنسية، في وطنهم. وقل من المستجوبين من تحدث مجـرد حديـث، عن معارضة ومضايقات من قبل أسرهم، على ثر قرارهم، بتسـجيل أسمائهم في سجلات الجيش، ولم يبلغ أحد من أولئك الذين تمت مقابلـتهم عن أي اتصال فعلي له معنى، بالفرنسيين، سواء أكانوا رسميين أم مدنيين، قبل عملية التسجيل في الجيش.

وكـان مجند بربر الأطلس الأوسط، في الحالة الإنموذجية، فلاحـًا فقيرًا، بـل يتـيمـًا في كثير من الأحيان، ممن سبق أن قايض بالمحراث، أو عصا الـراعي، للحصول على بندقية[23]. وقل من تعرض من المحاربين لأي تعليم أساسـي قـبل تسـجيله في الجيش، إذ لم يكن يتاح الالتحاق بالمدرسة إلا للأغنياء، كما أفاد مرابط موها والا[24]، وكان معظمهم يظل أميـًا خلال مسـيرته المهنية العسكرية، وبعد نهايتها، وكان الجيش الفرنسي يتيح لجنود مسـتعمراته الفرص النادرة من أجل التنمية الفكرية[25]. وقلّ من الجنود ممن اكتسب تمكنـًا له معنى، من الفرنسية، يسمح له بالتواصل المباشر مع قادته الفرنسـيين، وعـلى كل حال فقد حصل الكثير من الناطقين بالبربرية على طلاقـة كافية في الحديث باللغة العربية المغربية الدارجة، تمكنهم من التعرف بصـورة افضـل على المغاربة الآخرين، ومن تعزيز هويتهم القديمة المغربية

بصـورة غير مباشرة. ومن هنا اسهم الفرنسيون إسهامـًا غير مقصود، عن طـريق تحقـيق الاختلاط والتمازج بين المتحدثين بالبربرية وبين المتحدثين بالعربية، في الوحدات ذاتها، في الوصول إلى الناتج الذي كانوا يخشون منه، إذ كانوا يجرون البربر إلى حظيرة القومية المغربية.

وكان التسجيل في الجيش يمثل، بالقياس إلى المحاربين من البربر رحيلاً من موطـنهم الأصـلي إلى أجل طويل (أو رحيلاً نهائيـًا بالنسبة للكثير منهم) وارتحـالاً، لأول مرة، إلى أجزاء أخرى من المغرب، أو إلى ما وراء البحار. وفي الحـالات الأنموذجية سيكونون أول أفراد في مجتمعاتهم المحلية يغادرون المحـيط المـألوف ليتعرضوا للتجاري بالخارجية. وفي إطار التكييف مع هذه الحقـائق الواقعية الجديدة، كان من شأن الوحدة التي تم إلحاق الواحد منهم بـها بصورة عشوائية قبل أن تصبح أسرته الجديدة، والكيان الذي يبعث في نفسه الطمأنينية، والذي ينتمي إليه، ويزامله ويصادقه.

11/ 4] الحراب في مواجهة الدبابات:
الجند المغاربة في معركة فرنسا

لقـد انتهى الهدوء المخادع الذي ساد الجبهة الفرانكو-ألمانية منذ نشوب الأعمـال العدائية في أيلول (1939 م) إلى نهاية مفاجئة في أيار (1940 م)، بالغـزو الألماني للأراضي المنخفضة، والتحق الآلاف من الجند المغاربة الذين كـانوا يـتمركزون في مواقـع دفاعية، ومعظمهم عل طول خط ماجينو، بـنظرائهم من جند المستعمرات ومن جند الوطن الأم، حين اندفعت الكتلة الرئيسة للجيش الفرنسي عبر الحدود، لتواجه الألمان على التراب البلجيكي. وحـين شن الألمان هجومـًا مفاجئًا، بالمدرعات عبر الآردين، وجدت هذه القـوات نفسـها مقطوعة عن مؤخرتها، مطوقة، قد تفوقت عليها القوات

المعادية تفوقـًا يبعث على اليأس. وبعد ستة أسابيع كانت المعركة قد انتهت وأصبحت هزيمة فرنسا كاملة.

ثم إن الفـرقة المغربية التي تضمنت (الوحدة) الأولى والثانية والسابعة من الوحـدة المغربية الملحقة (RTM)[26] عبرت الحدود في ليل العاشر من أيار ودخلـت مواقع على طول نهر الديل، جنوبي بروكسل، وفي الرابع عشر من الشـهر ذاتـه تعرضت لقصف جوي كثيف، وبعد ساعات قلائل واجهت طـابورًا من المدرعات الألمانية وبعد أن استهلكت أسلحتها النادرة المضادة للـدروع، هـاجم بعـض جند المناوشات من الوحدة الأولى والسابعة من الوحـدة المغربية الملحقة المدرعات الألمانية الزاحفة بالحراب، في لفتة بطولية، ولكنها عديمة الجدوى، كانت ترمز إلى حملة الحلفاء المحكوم عليها بالإخفاق، وعـلى أثـر هذه المعركة فقدت الفرقة تماسكها، ولم يبق منها سوى بقايا واصلت القتال، وهي تنسحب نحو الحدود الفرنسية. ونظمت بعض الكتائب دفاعـًـا، في صـمود أخير، عند ضواحي ليل، حيث استسلمت في النهاية للألمان، في (31) أيار، ونجحت مجموعات أخرى متفرقة مشتتة، في الوصول إلى دنكرك، والانتقال إلى إنغلترا.

وشـارك في مصـير الفرقة المغربية، مع بعض الاختلاف، كتائب مغربية أخـرى، وامتصت هذه كلها الهجمات الجوية والبرية، وحاول معظمها شن هجـوم مضـاد يائس عاد عليها بالهلاك النهائي، ونجحت بعض الوحدات الفرعـية، كما نجح عدد من الأفراد في الانسحاب إلى إنغلترا، ليعود هؤلاء على فرنسا، ليستأنفوا القتال إلى أن أرغموا على الاستسلام.

وعـندما يتصفح المرء الرواية لرسمية الخاصة بالفوج من أفواج الجند، في حملـة عـام (1940 م)، يكابد الكثير ليكشف عن أية هوية مغربية واحدة، فضلاً على أن يكشف عن صوت مفرد واضح، سوى الذكر العابر لصيحات المعركة (ومنها قولهم: يلا إلى المغرب!) وهي عبارة ينطق بها الجند المهاجمون

في بحثهم عن (بارود) مشرف (معركة). على أن المقابلات التي أجريناها مع محـاربين في هذه الحملة أعانت على تصحيح هذا الإغفال، إذ زودت بنظرة تلقى على تجربتهم وحالة الركود في ذلك الوقت، كما تتمثل في الاستذكار الـتالي المقـدم من قبل بوعبيدي بن أياد[27]: أقدم أحد ضباطنا، وهو رائد يدعى بواترو، على الانتحار عندما كنا في بلجيكا، وكان الألمان قد طوقونا، وكـانوا متـنكرين في صورة شجيرات عندما رآهم بواترو تناول مسدسه وأطلق النار على نفسه ثم حاو لكل منا أن يدافع عن نفسه ويقاتل، واختار بعضهم الهرب. وواصلنا السير في طريقنا عبر بلجيكا، ولست على يقين من المكـان الـذي كنا فيه عند هذه النقطة، وفي الليل كان هناك العاب نارية ودخـان، ثم شـرعت طائـرات كثيرة في القصف، وكان الألمان يقصفون ويدمرون الطرق والجسور والخطوط الحديدية والأنفاق، وكانوا يدمرون كل شيء، لكيلا يكون الفرنسيون قادرين على التحرك، وأخذ الجند الفرنسيون في خلـع حلـلهم العسكرية، وهربوا. ووصلنا إلى سانت-إيتين، على بعد (700) كـم من باريس، وكان الألمان قد دخلوا باريس وكان هناك جنرل واحـد، ه آمـر الفـرقة الثالثة والأربعين، الذي كان ذراعاه وساقاه وقد انكسرن. وأمر ضباطه بأن يسلبوا أذرعهم ويتوقفوا عن القتال، وكان هناك، معـه ثلاثـة مـن الضـباط المغاربة، وقالوا للجنرال إنم ليسوا مستعدين للاستسلام، وان هذا لن يوقفهم عن القتال حتى يموتوا.

وثمة محارب آخر، هو طاووسي حاج لكبير[28]، يستذكر بما يتمتع به من دقة بالغة، أحداث العشرين من أيار (1940 م)، وهو اليوم الذي وصلت فيه مقاومة وحدته البطولية، وغير الـدية مع ذلك إلى نايتها: ذهبت مع ضابط فرنسـي نلـتمس طعامـًا، ونبحث عن طريق نخرج منه، فتسلق الضابط شـجرة، ولـوح براية بيضاء، فسألته: لماذا تفعل ذلك؟ وأجاب قائلاً: لقد انقضت عشرة أيام ونحن سجناء. ثم ألقى الضابط بندقيته ورفع يديه.

ويسـتفاد من مجلد تذكاري حديث حول الرابطة العسكرية الفرانكو-مغربـية[29]، أن (2100) جندي مغربي قضوا نحبهم في معركة (1940 م)، على حين وقع (18000) في الأسر الحربي.

وكـان الأخيرون جزءًا من نحو (1,5) مليون من أسرى الحرب الفرنسيين والأسـرى القـادمين من المستعمرات، المحتجزين في المعسكرات على الأرض الألمانـية والفرنسية. وبالقياس على هؤلاء الأسرى كان الأسر يعني الاحتكاك المباشر بالألمان والتعرض لتأثير الأيديولوجية النازية، ولم تكن التجربة التي دامت بالنسـبة لكثير منهم أربع سنوات، بالتجربة السارة، على الرغم من أنها كانت، بـلا ريب، مفضلة على تجربة أسرى الحلفاء في المعسكرات اليابانية، وبدرجة أقل، على تجربة جنود المستعمرات السود (أولاً وقبل الجميع، السنغاليين)[30].

والطـريقة الخشنة التي عوملوا بها على أيدي الألمان تنعكس انعكاسـًا دقـيقـًا في مذكـرات معاصـرة للأسرى المغاربة السابقين، ومثلما قال طاووسـي حاج تكبير، يستعيد ذكرياته: «لقد كانوا يجمعوننا في كل مساء كمـا تجمع الأغنام. وكانوا إذا نهض أحد منا يطلقون النار، ولم نكن ،أكل شـيئًا سـوى الأعشاب». وذات مرة في ألمانيا، اخذ الأسرى بالقطار إلى بـرلين، حيث دعت السلطات الألمانية المدنيين ليأتوا فيبصقون علينا، وكانوا يسموننا (السود القذرون).

ويقـول بو عبيدي بن أيّاد، من ناحية أخرى «إن الألمان كانوا يولوننا من الرفق أكثر مما يولون الأسرى الفرنسيين» وبعد فترة استهلالية دامت نحو ثلاثة أشهر، وتميزت بالصعوبة وسوء التغذية، إذ كان الألمان يعطوننا كيلو غرامـًا مـن الخبز لأربعة أفراد في اليوم[31]، تحسنت الأحوال على نحو لا يستهان به، فوضـع الأسـرى في مزارع فرنسية، وباتوا يحصلون على نقود وعلى تغذية صـحيحة، كما اخذوا يتلقون أيضـًا طرودًا وعبوات من المغرب عن طريق اللجنة الدولية للصليب لأحمر، وكانت تتاح لهم الفرصة للتواصل مع أسرهم.

ومـن المهم أن نلاحظ أنه، خلافـًا لما سبقهم في الحرب العالمية الأولى، الذين كانوا يتعرضون للتلقين المكثف للإيديولوجيا المعادية، ويبدو أن أسرى الحـرب المغاربـة، في الحرب العالمية الثانية تركوا وشأنهم من قبل الألمان، نسـبيـًا، ولم تمسسهم الدعاية المعادية للفرنسيين، حتى على الرغم من أن بعـض الأسـرى المغاربـة، ولاسيما الضابطة أبلغوا عن تعرضهم للضحك والاستهزاء من قبل آسريهم[32].

أما غياب المشروعات النازية لاستخدام الأسرى المغاربة قوة مقاتلة محولة عـن عقيدتها، فيمكن تفسيره جزئيـًا بالنجاح المبكر لآلة الحرب الألمانية، كما يمكن تفسيره بغياب القوة الإسلامية التي تقف إلى جانب دول المحور.

وعلى كل حال فمع افتراض تعرض الأسرى الجزائريين والتونسيين[33]، عـلى نحـو موسع، للدعاية النازية، فنحن نذهب إلى القول إن المغاربة ربما أفـردوا في مكـان مستقل، وتركوا وحدهم لأسباب أخرى. وربما كانت سمعتهم، من حيث كونهم مرتزقة لا شأن لهم بالسياسة، هي التي جعلتهم أقل احتمالاً أن يحولوا ولاءهم، أو ربما كان تدني منزلتهم في التراتب العنصري، الـذي تم التعـبير عـنه خـلال الاحتلال الفرنسي لإقليم الراين في مطلع العشـرينيات، هـو الذي كتب على المغاربة أن يكون أقل «تقدمـًا» من السكان الأصليين الآخرين في الشمال الإفريقي، الذين كانوا معرّضين، فترة أطول، لتأثيرات عملية «التمدين» التي تأتيهم من الاستعمار الأوربي.

5/11] المغرب الفرنسية في ظل الهدنة: تمويه الغموض

كـان رد الفعل المبدئي الشائع بين صفوف الجند المغاربة الذين لم يلعبوا دورًا فعـالاً في معـركة فرنسا[34]، تجاه أحداث أيار حزيران (1940 م)، مـزيجـًا مـن عـدم التصديق بأن فرنسا يمكن أن تكون هزمت حقـًا، والرغـبة في مـتابعة خوض الحرب، ولم يكن الجند الذين يخدمون في كتيبة

الفرسان الثلاثة، والمتمركزين في مكناس يطلبون شيئًا سوى القتال ضد أعداء فرنسا والمغرب، كما أفاد تقرير شهري يرجع إلى حزيران (1940 م) وتظل ثقـتهم بالأمـة التي تتولى المسؤولية عن الحمية، والتي يجعلونا في مثل مـ لة رؤسـائهم، سليمة لم يمسسها سوء[35]. وفي البداية كان هذا الموقف سائدًا بين معظم العسكريين الفرنسيين فيما وراء البحار، ربما في ذلك القيادة العليا في شمالي إفريقية، التي كانت تفكر، إجمالاً، في مواصلة بذل الجهد الحربي بعد استسـلام حكومـة الوطن الأم. ولكن خلافـًا لكثير من الجند الفرنسيين الذيـن استسـلموا في النهاية لفكرة الهزيمة ورحبوا بإعفائهم من الخدمة في الجـيش، وجند الجند المغاربة المسرحون انتقالاً إلى الحياة المدنية أمرًا يصعب هضـمه، ولم يكـن لدى معظمهم إلا قد قليل من الاختيار ولاسيما مادام الألمان مصممين على خفض قوات فرنسا فيما وراء البحار، على مجرد الحد الأدنى اللازم للحفاظ على إمبراطوريتها.

وقـد فرضت شروط الهدنة التي دخلت حيز التنفيذ في منتصف تشرين الأول (1940 م)، خفض الفرقة المغربية في شمالي إفريقية إلى نصف حجمها الـذي كان في أيار (1940 م): أي من (83000) رجل إلى (46000) وعلى مدى صيف (1940 م)، كان أولى من الجند المغاربة الذين شاركوا في معركة فرنسا، وأولئك الذين كانوا فروا من الأسر، أو الذين اختار الألمان أن يطلقوا سـراحهم، يعودون إلى بلادهم الأصلية ليتم إعفاؤهم من الخدمة العسكرية. وفي إطـار سعي القيادة الفرنسية إلى الحفاظ على صلة هؤلاء المحاربين بنظام الدفاع عن المحمية ابتكرت وسائل شتى لتتجاوز القيود المفروضة من قبل نظام حكم الهدنة. وكانت تعبئ من أجل تلك الغاية الوكالات المتنوعة التابعة لما يسـمى الضـبط المحلي (Affaires Indigènes, AI). وكان يتم تطبيق سياسة الـمعاملة التفضـيلية، كانت قد تم سنها منذ منتصف الثلاثينيات، لإتاحة الوظائف للجند المسرحين ذوي العلاقة الحميمة.

وجـاء أكـبر إسهام تم تجميعه من أجل الاستخدام البديل، من صفوف جهاز الشرطة المحلي والإقليمي في المغرب، وكان أبرز هذه الإسهامات الفيلق المؤلف من (26000) رجل من الغوم، وكان قد تم تجميع هذا الفيلق وتنظيمه في ثمانية عشر تشكيلاً من حجم الكتيبة، يسمى بالطابور، وتقوده هيئة قيادة مؤلفـة مـن (268) ضابط فرنسي من الوكالة المسماة (AI)، ممن كان تم تسريحهم مؤخرًا من صفوف وحدات الجيش النظامي، وتضمنت هذه الفرقة المصـدر الوحـيد الواعد إلى أقصى الحدود، بتجديد شباب الجيش الموجود تحـت تصرف القيادة الفرنسية في الشمال الإفريقي، إذا ما استطاع الحفاظ على إطاره سليمـًا في ظل نظام الهدنة التقييدي.

وكانت الجهود الفرنسية الاستثنائية (الغوم) من نظام الكوتا الذي يفرض عـدد المـئة ألـف جندي تتركز حول إعادة تفسير وضعهم القانوني الذي يفـترض أنـم كانوا معرضين بموجبه، لرقابة المغربية عليهم، بدلاً من رقابة نظـام الحمايـة، ثم إن مرسومـًا صادرًا عن المندوب السامي في (19) آب (1940 م) وضـع (الغوم) وتشكيلات المساندة المغربية الأخرى تحت رئاسة (Mehallas Chérifiens)، وهـو مصـطلح سابق على الحقبة الاستعمارية تم إحـياؤه الآن. على أن هذا التفكير الخيالي أخفق في إقناع الممثلين الإيطاليين في لجـنة الهدنـة، الذين كانوا قد التقوا في حزيران (1940 م) ببعض رجال مـن الغـوم في تونس. وكان الألمان، من الناحية الأخرى أقل تأثرًا بالقيمة القتالـية لأفراد الغوم، الذين كانوا يرفضونم على أنم «عصابات من ريفيي البربر»[35].

وإذا ضـربنا صفحـًا عن أشكال تحيزهم المهني فقد كان المشرفون على الهدنـة يفتقرون إلى هيئة العاملين الكافية للرصد الفعال لريف المغربي، وقد تقبلوا الحجة الفرنسية التي تقول إن تسريح الغوميين بأعداد كبيرة ستكون له آثـار تـلحق الضرر باقتصاد القبائل البربرية في جبال الأطلس. ثم إن عدم

الاهـتمام الألماني بالأجزاء الريفية من المغرب أتاح للفرنسيين فرصة تكوين جـيش سـري يـتركز حول الغوم، وكانت مواقعهم النائية، المعزولة تفيد بصـلتها مسـتودعات خفية للذخائر والأسلحة، بما في ذلك أسلحة الثقيلة والمركبات ذوات المحركات التي كان يفترض أن تسلم على الألمان.

وفي هـذه الأثناء كان الغوم أنفسهم يمرون بعملية تحول لها دلالتها، في شخصـيتهم ناشـئة في جزء فيها عن تدفق أعداد من المحاربين السابقين في كتائب المناوشات، والمحاربين في حملة عام (1940 م). وهذا التطور مكن من الارتقاء بالفيلق إلى مستوى من المقدرة العملياتية أعلى مما كان. وفي الوقت الـذي كان يتم فيه الحفاظ على واجهة النشاط الروتيني للشرطة في أماكنها المخصصـة لها، كان يجري تدريب الغوم في الخفاء، على نماذج من الأسلحة المـتقدمة التي لم يكونوا قد اعتادوا عليها من قبل. وتصاعدت عملية تحويل الغـوم إلى قوة مقاتلة فعالة، في مناورة سرية، في أيار (1942 م)، شارم فيها طابوران مجموعهما (38) نفرًا من الغوم وخمسة آلاف من الغوميين، وشهد الحـدث مـئات الوجهاء المحليين الذين دعوا ليشهدوا هذه التظاهرة للقوة الفرنسية المتجددة ويتأثروا با.

وهـذه الحكاية توضح جيدًا العلاقة الرمزية التي كانت قد تطورت بين الدولـة الاستعمارية وقبائل البربر في جبال الأطلس. من أجل النجاح كان «تمويـه» الغوم يعتمد على التعاون غير المشروط من قبل الأهالي مادام أي تسـرب لـيس المشروع خليقـًا أن يكون عرّض المشروع برمته للانتقام الألمـاني. ولم يجـر الإبـلاغ عن هتك لغطاء السرية خلال الهدنة غلا مرة واحـدة، عندما انفصل عضو في الفيلق عن فيلقه وكشف عن أماكن وجود مسـتودع الأسـلحة، بالقرب من مراكش. وبذلك لم يكن مفتشو الهدنة غافلين كل الغفلة عما كان يحدث، غير أنم لم يعيروا المسألة الانتباه الكافي إذ كانوا يفتقرون إلى الدليل الملموس.

6/11] الغوميون المغاربة وتحرير أوربة

في تشـرين الثاني من عام (1942 م)، قوبل نزال الحلفاء لقواتم في شمالي إفريقـية، بقدر رمزي من المقاومة من جانب القوات الموالية لحكومة فيشي، الـتي كانت تشمل الجند المغاربة، وكان أحد المحاربين الذين قابلناهم وهو مربط موها كوالا[37] يميز التمييز الملتبس الذي يشير إلى أنه جرح مرتين أثناء سـيرته المهنية في الحلة العسكرية الفرنسية: أولاهما في الألزاس في ربيع عام (1940 م)، من رصاصة ألمانية، ثم جرح بعد عامين ونصفن بقنبلة أمريكية.

وحـين خفت حدة القتال وتقدمت قوات الحلفاء نحو الجزائر وتونس، لتواجه البقايا المنسحبة من فيلق إفريقية، أصبحت عملية إعادة دمج القوات ذات القـيادة الفرنسية مع الجهد الحربي للحلفاء ذات أهمية قصوى، وكانت الفـرق الثمانية التي يتألف منها فيلق الحملة الفرنسية تتضمن (64000) من المغاربـة أهـل البلد، وكانوا يخدمون في فرقتي مشاة، وفرقتين ميكانيكيتين ولواء فرسان، وفي أربع مجموعات من الغوم كل منهم بحجم الكتيبة. وتتألف من ثلاثة طوابير.

وبالقياس إلى المحاربين في كتائب المناوشات كانت العودة إلى الحرب تتيح لهم الفرصة لتخليص أنفسهم من الخطيئة ومحو ما لحق بم من الإذلال في عام (1940 م)، أمـا بالقـياس إلى زملائهم من الغوميين فقد كانت هذه العودة تتيح لهم فرصة استعراض مهاراتم على مسرح عالمي في حرب جبلية. وبينما كانت الجهود والتضحيات المبذولة من قبل كتائب المناوشات خلال العامين ونصـف العـام من الحرب، تضاهي بلا ريب، سجل أسلافهم في الحرب العالمـية الأولى، كـان يلقـي بظلاله عليها في إنجاز الغوم الذين استاثروا بالاهتمام والإعجاب والتقدير، من قبل العدو والصديق على السواء على أن تعرض الغوم المغاربة، خلال العامين السابقين لأشد البرامج التي يمكن تنفيذها

عمليًا في التدريب صرامة، في ظل قيود نظام الهدنة، مكنهم من الظهور، في كانون الأول (1942 م) في طليعة جبهة الجيش الفرنسي الذي تجدد شبابه، وراء البحار وكانوا من أولى الوحدات التي تقرر إرسالها إلى تونس، حيث أبلوا بلاءً حسنًا في القتال ضد القوات المسلحة الألمانية النظامية على الرغم من معداتهم ذات الطراز القديم. ولقي أداؤهم في أثناء معركة بيرزت (آذار، نيسان، 1943 م) ثناءً عظيمًا من قبل القيادة العليا للحلفاء التي باتت منذ الآن فصاعدًا، تنظر إلى الغوميين نظرتها إلى «قوات جبلية متمرسة بالقتال، وإلى مقاتلين كبار»[38].

وهكذا بدأ ما سبق أن سماه ضابط فرنسي سابق، من الغوم، «طريق الطوابير الطويل»[39]. واقتضت رحلة الأعوام الثلاثة هذه أرواح الألوف من الغوميين، على طول الطريق الدامي، من تونس، عبر صقلية [40] إلى كورسيكا، وإلبا، وإيطاليا، وفرنسا وألمانيا، وأخيرًا إلى النمسا[41]. وبعد أن خلف (الغوم) أثرهم الفريد في العديد من ميادين المعارك، ولاسيما إيطاليا، حيث واجهوا بنجاح بعض وحدات القوات المسلحة الألمانية الأكثر شهرة ولمعانًا، ودفعوا ثمنًا غاليًا لشهرتهم التي ارتبطت باسمهم، إذ قتل أو أصيب إصابة بالغة أكثر من (7500) من الغوميين المغاربة خلال حملات (1943-1945 م)[42]. ودمرت بعض الوحدات تدميرًا كاملاً وأرغمت على العودة إلى المغرب لإعادة بناء قوتها بمجندين جدد.

على أن الرقم الإحصائي الأكثر إذهالاً فيما يتعلق بالغوم، والذي يشهد شهادة حسنة على أسلوبهم الضاري في خوض الحرب، كان يتمثل في ضآلة عدد الغوميين الذين وقعوا أسرى في الحرب وهو (4). وعلى نحو مماثل ظفر الغوميون بسمعة اشتهروا بها أيما اشتهار من جراء إساءتهم معاملة الأسرى الألمان الذين اتفق سقوطهم في أيديهم. أو قتلهم بكل معنى الكلمة، وبتر آذان القتلى من أعدائهم لتكون قطعًا تذكارية. كما اشتهروا أيضًا أيما

اشتهار بقسوتم في معاملة المدنيين الذين بلغ من سوء حظهم أن يواجهوهم على طول مسيرتم في أرجاء الريف الإيطالي[43]. على أن القلق الذي ساور قيادة الحلفاء حيال الاتامات المتصاعدة بالتصرفات الوحشية من الاغتصاب والسـلب والنهب، والأعمال الأخرى المنطوية على سوء السلوك الفاحش، الـذي ارتبطـت باسم الغوميين، دفع فيها إلى النظر في تسريع الطوابير ثم تدبرت القيادة الفرنسية لغوم المسألة بتجاهل تلك المبادرة، وإعادة قدر مرض من النظام والانضباط في لحظة سابقة على شن الحملة الخاصة بتحرير فرنسا. وتظـل الصورة الشعبية للغوميين المغاربة، صورة الشموس والإباء والوحشية حـتى على الرغم من أن أشكال الانحراف عن قواعد السلوك المنسوبة إليهم ربما لم تكن تختلف اختلافـًا جوهريـًا عن أعمال مماثلة تم ارتكابا من قبل جنود الجيوش الأخرى المعاصرة.

وقد حل الغوميون المغاربة في الحرب العالمية الثانية، بمعنى ما، محل كتائب المناوشـة الإفريقـية (من السنغال أو المغرب) في الحرب العالمية الأولى، من حيث كونم هدف السخرية والنقد المرتبط بالقناعات ذات الجذور العميقة عـند الأوربيين (المتمركزين حول أناهم) في صدد البربرية المفترضة الملازمة للعراق المغربية (وبالتالي: الأدنى مرتبة).

[7/11] من حرب إلى حرب: تراث وتأملات

يمـيل كثير من المحاربين القدماء الذين تمت مقابلتهم إلى صرف النظر عما لقـوا وصـادفوا في أيام حروبم حين كانوا يعملون لصالح الفرنسيين. وتظل المشـاركة في تحريـر قلـب الإمبراطورية أي الوطن الأم، وهو الإمبراطورية الـتي اسـتعمرت بلادهم، وهي التي لابد أنا خلفت انطباعـًا عميقـًا في نفوسهم، فخلال معاركهم في جنوبي فرنسا (مرسيليا) وجبال الفوج والألزاس العلـيا (بـيلفور، كولمار)[44] وعبر نر الراين لدخول جنوبي ألمانيا والنمسا،

الـتقوا، وجهاً لوجه، بالدمار والإذلال الناجمين عن الهزيمة التي كانت أفزعت هـذه الأمم الأوربية. أما نوع ما يتبقى من الاستنتاجات التي خرج بها هؤلاء المحـاربون القدماء من التجربة، فيظل من العسير إيضاحه. ونحن نعرف بالفعل أن أشكال العواقب المرتبطة بتعرض الغوميين للحقائق الواقعة الماثلة في الضعف الفرنسـي أربكـت جهاز أمور السكان المحليين في الرباط، كما يتبين ذلك مـن سلسة من الدراسات التي تناولت آثار عودة الغوم إلى المغرب[45]. وقد سلطت هذه الدراسات الضوء على التحول العميق الذي مر به هؤلاء الرجال نتـيجة لتجاربهم في الخارج. وعلى هذا فلابد من بذل كل جهد، كما قيل، لتسـهيل إعـادة اندماج هؤلاء المحاربين القدماء في بيئتهم تفاديـًا لشعورهم بالغـربة. وفي الـنهاية اتخـذت توصية بصرفهم من الخدمة شيئًا فشيئًا، وأن يظـل معظمهم مرتبطـًا بنظام الغوم القائم الذي سوف يستأنف تعيينهم في أوقات السلام بصفتهم أداة للسياسة الوطنية.

على أن تقرير مصير الغوم في حقبة ما بعد الحرب لم يكن إلا جانبـًا من مشـكلة أكبر تواجه إدارة المحمية في عام (1945 م). ومع أن من الجائز أن يكـون أمـرًا فريدًا تطور الغوم، من قوات الشرطة المحلية المشكلة من إقليم الـبربر الجبلين إلى القوات المقاتلة من الدرجة الأولى، فإن القوم لم يبلغوا من حيث الكم، ما هو أكثر من ربع كل المغاربة الذين كانوا قد لعبوا دورًا فعالاً في الحـرب مع أوربة. ومع التخفيض الذي تم التخطيط له في حجم القوات المسـلحة في فرنسـا مـا بعد الحرب، كان نحو (70000) نسمة من الجند المغاربة أولي السيرة المهنية، الذين يشكلون نسبة (4,5%) من السكان الكبار المسلمين في البلاد على وشك مواجهة إنهاء التزامهم مع الجيش[46].

عـلى أن معضلة التسريح استبدلت جزئيـًا بنشوب الأعمال العدائية في فيتنام، حيث قوبلت رغبة سكان البلاد الأصليين في التحرر الوطني بالتصميم الفرنسـي على الاحتفاظ بالسيطرة الاستعمارية ولما كانت قيادة الجمهورية

الرابعة قد عقدت العزم على أن تجنب الأرض الفرنسية المسدسة المنكودة بالجراح تضحية دموية أخرى فقد أحجمت عن إرساء مجندين إلزاميين من الوطن الأم على الهند الصينية، وأصدرت تعليماتها إلى الجيش باستخدام جنود المسيرة الهندية المحترفين بدلاً منهم. وأصبحت المغرب من المسهمين الرئيسيين في فيلق الحملة على الشرق الأقصى التي خاضت حربًا خاسرة، هي حرب التحرر من الاستعمار بين عامي (1947-1954 م)، وتضمنت الفرقة التي تمثل المغرب في الهند الصينية، في ذروتها، ثلاثًا من كتائب الفرسان، وأربعًا من كتائب المناوشة وتسعة طوابير من الغوم[47]. وكانت قوة مغربية اصغر منهمكة في قمع ثورة وطنية في مدغشقر.

ويميل المحاربون القدماء الذين حاربوا في كل من أوربة وفيتنام (التي يشيرون إليها جميعًا بأنها والصين» إلى الموافقة على أن التجربة الأخيرة التي كانت، على الأقل، في مثل قسوة التجربة السابقة. وكان هذا صحيحًا على وجه الخصوص بالقياس إلى أولئك الذين عانوا من الأسر في كلتا الحربين. وحين يقارن أكريم مهاد بن حبيب[48] سجنه في المعسكرات الألمانية مع سجنه في المعسكرات الفيتنامية يقول أن السجن الأخير كان أقسى، «لأن كل ما كنا نحصل عليه كان وعاءً واحدًا صغيرًا من الرز عن اليوم كله، وكنا حفاة» ثم عن المعطيات الإحصائية التي يستشهد بها في دراسة حديثة تؤكد الفكرة التي تفيد أن وحشية الأسر في الهند الصينية كانت أفظع، إذ جاء فيها: بلغ معدل الوفيات في معسكرات فيت مينه ما يتراوح بين (65 و 72%) بالمائة، تبعًا لفترة الأسير وفئته. وفي مقابل ذلك لم يتجاوز معدل الوفيات بين أسرى الحرب الفرنسيين في معسكرات الاعتقال الألمانية بين عامي (1940 و1945 م) مجرد (2%)[49].

وبصرف النظر عن التحديات الجسدية المرتبطة بحرب العصابات في أدغال جنوب شرق آسيا كان الصراع في الهند الصينية يهدد سلامة الصحة

الذهنية لدى الجنود المغاربة، قد كان الفيتناميون يستخدمون وسائل موسعة، للـتأثير عـلى معـتقدات هؤلاء الجنود، ويتسببون في ارتدادهم عن هذه المعـتقدات، وثمـة مقاتل سابق، من الحرب العالمية الثانية، وعضو ملتزم في الحزب الشيوعي المغربي، هو محمد بن عومر لاهريش، لعب دورًا قياديـًا في هـذا المسعى، فارتقى إلى رتبة جنرال في الجيش الثوري لفيتنام الشمالية[50]. وكانت النتيجة المركبة من التعب من المعركة، الذي يتصاعد في الهزيمة الباعثة للمذلة والخزي في ديان بيان فو، ودعاية العدو المؤثرة، تتجلى في انهيار الروح المعوية داخل كتائب المغاربة، مؤثرة، في المقام الأول، في الضباط غير المقلدين (الذين تقل مراتبهم عن مرتبة الملازم الثاني)[51].

وكان على الجند المغاربة، الذين عادوا من جنوب شرقي آسيا في عام (1954 م)، أن يواجهـوا واقعـًا مختلفـًا عن ذلك الذي ينتظر نظراءهم في عـام (1945 م). وذلـك أن القتال في حرب فرنسا ضد النازية كان يمكن إضـفاء المشروعية عليه مع افتراض وجود إعلان السلطان الصادر في بداية الحرب، والذي حث شعبه على الوقوف إلى جانب فرنسا[52]. أما المشاركة في حرب تهدف إلى قمع التحرر الوطني لشعب آخر مستعمر فقد أثبتت أنها قضية هي أقل كثيرًا من أن تحظى بالإجماع. على أن نهاية حرب الهند الصينية تداخلت مع التوتر المتصاعد بين فرنسا والمغرب، وهو التوتر الذي بلغ ذروته مـع نفـي السلطان محمد الخامس، في آب (1953 م). وظل معظم الجند المغاربـة يمارسـون مهـامهم. وعلى كل حال فقد ترك العمل عدد منهم، والـتحقوا بصفوف جيش التحرير الذي رتب حملة حرب عصابات وجيزة ضـد أهـداف الفرنسية خلال السنة الأخيرة من أيام الحماية[53]. ولم تدع الالـتحاق بصـفوف حركة المقاومة إلا حفنة من عشرات المحاربين الذين قابلـتهم، عـلى الـرغم من أن عددًا أكبر من ذلك كثيرًا صرح (في أثناء

اسـتعراض ذكرياته) بتعاطفه مع قضيتها، وبالأسف للتصرفات القمعية التي أقدم عليها الفرنسيون ضدها[54].

وثمـة موضـوع واحد يبدو أن كثيرًا من المحاربين القدماء الذين خدموا خـلال الخمسـينيات يتلكأون في مناقشته بحرية، وهو يتعلق بالطريقة التي اندمجوا بها من جديد في المجتمع بعد انتهاء مسيرتهم المهنية في الجيش الفرنسي. عـلى أن المرحلة الانتقالية سهلها عند بعض المحاربين القدماء انتقالهم المباشر من وحداتهم الفرنسية، إلى القوات المسلحة الملكية (Forces Armées Royales) الـتي أنشـئت حديـثـًا، أو بقائهم في أحد أجهزة الشرطة الحكومية. أما المحـاربون الآخرون، الذين كانوا معوقين في المقام الأول، فكانوا يواجهون مشـكلات في العثور على أسباب ملائمة لكسب العيش. ويتذكر بعضهم أنهـم كانوا يرفضون من قبل مواطنيهم. ويقرر تافدوت إيلاربي أوهامو[55] قـائلاً: أنا لم اندمج بسهولة لأن الناس كانوا ضد فرنسا، وكانوا يرفضون كل من سبق أن خدم لديها. وكان الناس ينظرون إلى أولئك الذين عملوا في خدمـة فرنسا، وكانوا يرفضون كل من سبق أن خدم لديها. وكان الناس يـنظرون إلى أولـئك الذين عملوا في خدمة فرنسا على أنهم خونة. وحتى زوجتي اعتادت أن تفكر بهذه الطريقة.

وحـين واجهت المحاربين المغاربة أمثال هذه التصورات السلبية مالوا إلى الانفراد بنفسهم والتجمع في مقاه صغيرة ملحقة إلحاقـًا نموذجيـًا بمكتب المحـاربين القدمـاء في مكان إقامتهم، وكانت الأغلبية الساحقة من أولئك المحـاربين تعيش في ظروف باعثة للأسى، وكانوا يقضون ما تبقى من سني العمـر، في سن متقدمة، مرضى، قد أدركهم الوهن، في فقر، بلا هدف أو معنى، في اعتماد يائس على معونة ذريتهم من أجل البقاء ثم إن المعاش الهزيل الـبائس الذي يتلقونه كل ثلاثة أشهر من فرنسا، يقصر كثيرًا عن المستوى الذي خليقـًا أن يتيح لهم مستوى حياة يصل إلى الحد الأدنى من مستويات

المعيشة في المغرب اليوم، ولذلك وليس من المفاجئ أن يكون الرأي المشترك الوحيد الذي يبدو أن كل المحاربين القدماء يقرونه بالفعل هو أن فرنسا أساءت معاملتهم، وكان من الواجب عليها أن تعوضهم تعويضًا أفضل مقابل التضحيات التي قدموها من أجلها.

على أن الاحتفال بالذكرى الخمسين لانتهاء الحرب العالمية الثانية أثار انتباهاً قصير الأجل في المغرب بصدد المحاربين القدماء وقصتهم، وفي عام (1994 م) افتتح الملك الراحل الحسن الثاني معرضًا في الرباط نظمته السفارة الفرنسية، وكان مكرسًا لموضوع تحرير فرنسا على أيدي المغاربة ورفع حضوره هذا الحدث حظرًا واقعيًا للحديث العام عن هذا الفصل من التاريخ المغربي، وأثار اهتمامًا وجيزًا، شعبيًا وأكاديميًا، وأتاح لهؤلاء الشيوخ أن يعيشوا من جديد ماضيهم البطولي الذي أسهموا فيه في إلحاق الهزيمة بالرايخ الثالث.

تأليف: فِرنَر إنده

12] تعقيب، وفي الوقت ذاته نعي

بمناسبة المؤتمر الدولي التاسع والعشرين للمستشرقين المنعقد عام (1973 م) في بـاريس، أدلى باحـثون كـثيرون في شـؤون آسيا من جمهورية ألمانيا الديموقراطـية، بإسهامات مستمدة من مجال اختصاص كل منهم. وظهرت هـذه عـام (1974 م) في (= *Asien in Vergangenheit und Gegenwart, Studien über Asien, Afrika und Lateinamerika, Bd. 16*). ففي البداية (وبعد مقدمة وجيزة مبرمجة، تعد من المنظور الحالي، باعثة للضيق والإخراج، بقلم: ف غرونـر/ F. Gruner) يـرد مقال (Lothar Rathmann unter dem Titel *Ägypter im Exil (1914-1918) – Patrioten oder Kollaborateure des deutschen Imperialismus?*) ومـنذ تلـك الأيام ربما كان من الممكن أن يحسب المرء أن السؤال المطروح في هذا العنوان هو: إذا لم يكن هذا خطأ فلا ريب في أنه قد صيغ ببساطة مفرطة بعض الإفراط. ولكن ما من شك في أن راتمـن، في أيامـه، قـد أسدى بذا الإسهام خدمة جلى إلى مجمل التدوين

التاريخي باللغة الألمانية، والتدوين التاريخي العالمي الخاص بالشرق الأدنى. فقد حـدد مشـكلة، باسمها وحاول أن يعالجها، وهي مشكلة كانت تناقش في الحقـبة التالـية، مرة بعد أخرى (وذلك في الحقيقة، وعلى وجه الخصوص، بالرجوع إلى الحقبة الفايمارية، وأيام الرايخ الثالث) في الأدبيات المتخصصة. على أنه افتتح للمؤرخين المحدثين في مضمار آسيا وإفريقية، في جمهورية ألمانيا الديموقراطية، وهو الذي كان يحظى بثقة الحزب الحاكم، الباب إلى ميدان من ميادين البحث كان يعد حرجـًا.

ومـا مـن شك في أنه ما من أحد وقف نفسه على الالتزام بالبحث في العلاقة المعقدة بين الساسة في الشمال الإفريقي والساسة الآسيويين (ولاسيما العرب) والمثقفين هناك بألمانيا، والسياسة الألمانية من عام (1871 م) إلى عام (1945 م)، عـلى هذا النحو، وبأسلوب نقدي مع تحسس مشاعر الآخرين مثل غرهرد هب (1942) 2003 م) وهو تلميذ لوتر رتمان. على أنه ممثل في المجـلد التجميعي المذكور آنفـًا، بعدُ بإسهام كان يتوجه نحو مجال اهتمامه البحثي في تلك الأيام، وهو (ملاحظات على تقسيم تاريخ الفكر الاشتراكي إلى حقـب ومراحل في البلدان العربية، حتى منتصف الثلاثينيات من القرن العشـرين: أطروحات/ *Bemerkungen zur Periodisierung der Geschichte sozialistischen Denkens in den arabischen Ländern bis zur Mitte der dreißiger Jahre des 20. Jahrhunderts (Thesen)*). وسرعان ما توجه، وهو يتابع حافزًا من لوتر رتمان، غير أنه كان يستأنف أيضـًا ما انقطع من تجاربه الخاصـة مع المراجع التاريخية (العربية والغربية) نحو السؤال عن الكيفية التي ينبغي أن يفسر بها تعاون المناضلين العرب في سبيل الاستقلال مع ألمانيا بوجه عـام، ومـع نظام هتلر على وجه الخصوص، ويتم تقييمه وذلك أن المسألة كانـت تتعلق هنا بما هو أكثر من تأكيد آخر للمعرفة البسيطة، وهي «عدو عدوي صديقي».

وفي مقالة ظهرت عام (1994 م)، طرح في استناد ظاهر، إلى إسهام راتمن في مؤتمـر عـام (1974 م)، سـؤالاً هو (*Araber im Zweiten Weltkrieg – Kollaboration oder Patriotismus?* (in: W. Schwanitz (Hg.), Jenseits der Legenden. Araber, Juden, Deutsche, Berlin 1994, S. 86-92*)*). وهـو يقدم هـنا، فيما يقدم نظرة شاملة فرضتها الحاجة، وجيزة، وبالتالي (غير كاملة) إلى تطـور التدوين التاريخي باللغة الألمانية. وفي هذا الموضوع، وابتداء من هاينتس تيـلمن (Heinz Tillmann)، الذي يراه جديرًا بالتنويه من حيث كونه مدخلاً تمهيديـًا. غير أن كتاب يتحكم فيه كل التحكم منظور الحرب الباردة (بروح ألمانيا الديموقراطية هنا) التي يتأثر بها في اختيار الكلمات، وهو (*Deutschlands Araberpolitik im Zweiten Weltkrieg (*Berlin 1965*)*) وحـتى دراسات فرتس شـتبت وإدمند كاو فن هوا وستفان فِلد (Fritz Steppat, Edmond Cao-Van-Hoa und Stefan Wild). ومثـلما يكـون حاله، على وجه الإطلاق، في كل منشوراته في إطار هذه الدائرة من المشكلات ولاسيما في المشكلات المأخوذة من سنين حياته الأخيرة، يثبت هُب، في هذا الإسهام أيضـًا أنه مؤرخ مترو، واع لمسؤوليته، ومن ذلك أنه يوجد لديه (ص 86) أيضـًا الجملة التي تفيد ما يلي: ولا يخرج السؤال المطروح في المدخل عن العمالة، أو الوطنية، من منظور الخطأ الكامن في المصطلحات التي ينبثق منها البحث؟.

وبتليين لرفضه الخاص، ذي العنفوان، للنازية الألمانية، أو حتى مجرد الإقرار والتسلم بالظروف المخففة لإساءات أصدقاء معينين للمحور من العرب، لم يكن استعداده للتقييم المتباين لدوافعهم، أي صلة. وكل ما في الأمر أنه كان يصـر ببساطة على أن التفكير والسلوك الواقعي للفاعلين السياسيين، يتسم عمومـًـا بأنه كان حافل بالتناقضات وبالتالي، كان أكثر تعددًا، وأنه كان كذلـك، أو يمكن أن يكونه على أي حال، كما يعتقد مصارعو الثيران في الدعاية (من كل فئة) أو يتظاهرون بأنهم يعتقدون.

وقد كان هذا بالنسبة إليه أيضـًا وهو الذي كان فيما سلف، في عباءة الماركسيين اللينيين ذات الصوف الملون، معرفة تم اكتسابا بالجد والاجتهاد. ثم إن دراسـاته المصـادر كانت واجهته منذ وقت مبكر حقـًا، بحقيقة أن المسألة لم تكن تتعلق، حتى في حالة أبطال الكفاح ضد الاستعمار في إفريقية وآسيا، وهو الكفاح الذي لم يكن بد لجمهورية ألمانيا الديموقراطية وعلمائها، مـن أن يكونوا متضامنين في وجوده مع إرادة الحزب) على وجه الإطلاق، بأشـكال مضيئة بالغة النقاء. ولقد علمه قبل كل شيء، عمله في المحفوظات أن لا يقتصر في إساءة الظن على الأساطير المعادية للاستعمار، بل يجرد أحد قسميها من قوته، مثلما يجرد القسم الآخر، كلما كان ذلك ممكنـًا.

ثم تجرأ آخر الآمر على موضوعات وشخصيات يفضي التعامل معها على أي حال إلى حقل ألغام، وكان هذا معروفـًا لديه. ومع ذلك فقد فوجئ، بـل تذمر حين اصطدمت دراساته عن المفتي أمين الحسيني ودوره في الحرب العالمـية الثانية، لدى بعض القراء والمنقحين المدققين، ليس بعدم الفهم، بل حـتى بالـرفض الملون بلون الجدل المذهبي. ومن الأمثلة على ذلك المناقشة الوجيزة من قبل كاتب اسمه غوتفريد نيدهارت، حاول في مجلة (F.A.Z) في (2 تمـوز 2000 م) لكـتاب ‹أوراق المفـتي: رسائل ومذكرات، وخطب، ومناشـدات/ Gottfried Niedhart in der F.A.Z. vom 2. Juli 2002 zu dem von Höpp herausgegebenen Buch *Mufti-Papiere. Briefe, Memoranden, Reden und Aufrufe Amīn al-Ḥusainīs aus dem Exil, 1940-1945* (Berlin 2001)) أن يثبت له أنه إما أنه لم يقرأ مقدمة المحرر قراءة متعمقة، وإما أنه لم يفهمها الفهم الصحيح، وأنه لم يدرك المقصد بالفعل، وأنه لا يكاد يستطيع أن يقدر قيمة الوثائق التي أخرجت إلى النور، لخدمة البحث. وبالمناسبة فقد اتضـح أن المسـألة كانت تتعلق بتجميع المادة، ولم يكن يفترض أن تتعلق «بالكلمة الأخيرة» لغرهرد هُب في هذه القضية.

وعـلى غرار ذلك لم تلق محاولته لفت انتباه البحث التاريخي العالمي إلى الضـحايا العـرب للنازية موافقة غير متقسمة، إذ لعب الدور هنا أيضـًا الـتخوف (الظاهـري المصطنع أو الفعلي) عند بعض المراقبين، من صرف الأنظـار عن الجمهورية الإسبانية في وجه الفاشية. غير أن كل مطالعة متأنية لإسهام هُب (سالود وسلام: العرب في الحرب الأهلية الإسبانية/ *Salud wa Salam. Araber im Spanischen Bürgerkrieg* in INAMO 33 (Frühjahr 2003), S. 53-55) تسـتطيع أن تبين لكل امرئ الآن بالفعل أنه لا يمكن أن يكون هناك حديث عن هذا.

والشيء ذاته ينطبق على محاضرته (الخطاب المزاح جانبـًا: ضحايا النازية مـن العـرب/ *Der verdrängte Diskurs: Arabische Opfer des Nationalsozialismus*)*، التي ألقاها في أيلول (2002 م) بمناسبة المؤتمر الدولي لمركـز الشرق الحديث في برلين، وهي التي تكمن في أساس هذا الـبلد، وهنا أيضـًا ظهر، كما بات معروفـًا لدي فيما بعد، نقد) أود أن آمل أن يكون مبنـيـًا في المقام الأول، على سوء الفهم، وبالطبع فإن بعثة إلى بلد جديد من البلدان التي يدون فيها التاريخ تكاد تنطوي في ذاتها على مخاطرة وإنما لمخاطرة كـتلك الموجودة هنا في الحديث، وبالطبع فإن من الواضح أن اهتمام وسائل الإعلام العربية بأبحاث هُب، في صدد المدى الذي وصل إليه العرب أيضـًا في تحولهم إلى ضحايا للنازية الألمانية يمكن ان يتخطى ذلك إلى درجة استحواذ غير متكافـئ في أعلى نتائج أبحاثه واتخاذها وسيلة دعائية في إطار الصراع العربي) الإسرائيلي. وهذا أيضـًا يمكن أن يرد إلى درجة معينة بالفعل ومما لا ريب فيه أن شـيئًا كهـذا لم يكن داخلاً ضمن مقصد غرهرد هب، وقد جعل مرضه العضـال، في صيف عام (2003 م) من غير الممكن بالقياس إليه أن يتخذ مرة أخرى موقفـًا من هذه المسألة بصراحة لا لبس فيها، مرة أخرى، كما انه لم يوفـق مرة أخرى إلى إعداد مخطوط المحاضرة المذكورة للطبع والنشر المخطط

لـه، وقـد حدث هذا من جراء محاضرات أخرى (تستوجب الشكر الجزيل) والآن يسـتطيع كـل امرئ أن يقرأ في الكتاب الذي بين يديه، ما قاله هب والمـراجع الـتي اسـتند إليها. وبالمناسبة يجب أن نشير فيما يتعلق بالموضوع المذكـور إلى مقالـة (ذاكرة في لخطر: معتقلون عرب في معسكرات الإبادة النازية/ Band 30 der Zeitschrift „Asien Afrika Lateinamerika" (S. 373-86) erschienen ist: „*Gefährdungen der Erinnerung". Arabische Häftlinge in nationalsozialistischen Konzentrationslagern.*)*.

لقـد أفضى اشتغال هُب بمصائر العرب و"الشرقيين الآخرين" في ألمانيا إلى لفـت انتباهه، المرة بعد الأخرى، إلى دور المستشرقين الذين كانت لهم علاقة بذا المحيط الشخصي بطريقة أو أخرى. وكان من الممكن أن تتعلق المسألة، في حالـة أولـئك الأجانب، بشخصيات لامعة مثل شكيب أرسلان، كما كان يمكن أن تتعلق أيضـًا بمجهولين (إلى مدى بعيد) أو بصورة كاملة. وحتى في هـذا السياق كان من يصطدم مجددًا، وغن كان ذلك أيضـًا من زاوية نظر مخـتلفة بالسـؤال المذكور في مستهل اللكتاب، عن البديلين: «التعاون» (مع المحـتل) أو «الوطنية»، وكيف كان يترتب أن يكون الحكم على تعبئة بعض المستشـرقين في خدمـة السياسة) مثلاً: بصفة مستشار في وزارة الخارجية أو بصـفة مـترجم، أو ترجمان؟. أولم يكونوا جميعـًا، وبرمتهم، شيئًا أكثر من مطايا مسخرة في خدمة الإمبريالية الألمانية؟. وحين شرع هُب في دراساته كان من الممكن أن يكون هناك وجود، في محيطه على وجه الإطلاق، لهذه الطريقة في الـنظر. ولكن من ناحية أخرى كانت التوصية الصادرة عن الحزب الرسمي بـأن تحـترم علـوم الاستشراق في جمهورية ألمانيا الديموقراطية تقاليد الـ عة الإنسـانية الخاصـة بعلم الاستشراق الألماني، وتستفيد منها وتواصل تطويرها (انظـر، مـثلاً، البـند الختامي في المقدمة المذكورة آنفـًا، بقلم ف غرونر، هـناك)، وهكذا شرع القوم في البحث، بين علوم الشرق وإفريقية العائدة إلى

أجـيال أسـبق، عـن شخصـيات يمكن تمييزها بأننا من رواد الكفاح ضد الاستعمار والتضامن مع شعوب آسيا وإفريقية، يمكن تجنيدها على نحو مؤكد فيما بعد. وقد أصابت هذه الرعاية للتقاليد هنا، وهناك، نجاحًا بلا ريب. وفي أمـثال هـذه الحالات أيضـًا، لم يكن من الممكن أن تظل الصورة المكتسبة حديـثـًا، مع ذلك خالية من بعض الخدوش أو البقع الداكنة. ومن ذلك أن بيتر زبالد (Peter Sebald)، رفيق غرهرد هب في السلاح، وصديقه، اكتشف اكتشـافـًا مفاجـئًا، وذلك أن بطل أطروحته في لايبتسغ، عام (1963 م)، الباحث في شؤون إفريقية، غوتلوب أدولف كراوزة (Gottlob Adolf Krause)، قـد كان نشر نقده اللاذع والمتميز بإشراق الرؤية، للاستعمار الأوربي، لا في مجلـة (فورفرتس/ إلى الأمام/ Vorwärts) الديموقراطية الاجتماعية وفي صحيفة (تاغيـبلات/ Tageblatt)، فحسـب، بل ظل ينشر ذلك أيضـًا، وعلى وجه الخصوص، في الصحيفة الرجعية (Neuen Preußischen (Kreuz)- Zeitung“ (s. *Malam Musa – G.A. Krause, 1850-1938. Forscher – Wissenschaftler- Humanist,* Berlin 1972, dort bes. S. 70f.)).

وقـد اصطدم غرهرد هب، في دراساته للصادر، منذ وقت مبكر، بأمثال هـذه الألوان من العبث والهذر. ومثلما كان زيبالد في حالة صاحبه الطيب المهـذب، كـراوزة، خاض هو أيضـًا صراعـًا مع المشكلات الناجمة عن هـذا، وهـذا ينطـبق قبل كل شيء، كما ذكرنا في المدخل على تحالف المناهضـين للاستعمار الاستشراقيين مع السياسة الألمانية وممثليها. ومع مرور الـزمن تبين له أن هناك، إلى جانب الآخرين، أولئك الذين يرون في أوربة نقطـة مركزية في العالم، عن وعي أو بلا وعي، هناك أيضـًا، ماركسيون استسهلوا كثيرًا، وفي كثير من الأحيان، الحكم على أمثال هذه الشخصيات، إذ عمـدوا، وأنا أعد نفسي منهم، إلى تطبيق المقياس المختصر الاستجوابي، من، وعلى من؟، وهم يحملون جملة مبتورة للينين، فوق ما تحتمل، ولم يدعوا

للاختـيار سوى إيديولوجيتين. ونحن نعلم منذ عهد بعيد أن الحياة كانت، ومازالـت، أغـنى بالمضمون وأكثر تعقيدًا. وهذا ما يعل التعامل معه ليس بالأسـهل بحـال من الأحوال (العرب في الحرب العالمية الثانية/ *Araber im Zweiten Weltkrieg, s. oben, dort S. 86f.*).

ولم ينكر غرهرد هب، على الرغم من مثل هذا النقد، والنقد الذاتي، (الذي تضـمن، بطـريقة متعاطفة، الاعتراف بعدم اليقين والشكوك، أصله العلمي، وموقفه الأساس الفلسفي. والحديث الذي خاض فيه، في أيلول عام (1991 م) مع كاي حافظ، يشهد على هذا (انظر له: K. Hafez: *Orientwissenschaft in der DDR. Zwischen Dogma und Anpassung, 1969-1989*, Hamburg 1995, S. 436-454). وثمـة شـيء مشابه ينطبق على إسهام الموضوع بالاشتراك مع حـافظ (*Gegenwartsbezogene Orientwissenschaft in der DDR und in den neuen Bundesländern: Kontinuität oder Neubeginn?* (in W.-H. Krauth und R. Wolz (Hg.), *Wissenschaft und Wiedervereinigung*, Berlin 1998, S. 95-163). غـير أن الظـروف الـتي جاءت بعد (الانعطافة) [أي: انحلال ألمانيا الديمقراطـية وانضمامها إلى ألمانيا "ألغربية"] هيأت له، في عمله البحثي بحكم كونـه مؤرخـًـا، عـلى وجه الخصوص بالاستناد إلى حالات غير محلولة، وبالتالي غير شفافة، كثير من الحالات الخيالية، واستفاد منها. وهكذا بات الآن مـن الأسـهل علـيه، مثلاً، أن يوفي رائدًا من الرواد الألمان لعلم الاستشراق المتوجه نحو الحاضر، ألا وهو جورج كمبفمير (Georg Kampffmeyer)، حقه من العدالة. ولكن حين توفي هذا في عام (1936 م)، أشير إليه، في نعي له ظهر في (Mitteilungen des Seminars für Orientalische Sprachen). وكـان ذلك ينشـر في بعـض الأحـيان، بحكم كونه «متفانيـًا، من كل قلبه في حب الـنازية». وبعـد دراسـة مكثفة للمصادر ينتهي هُب إلى حكم مختلف كل الاختلاف: لم أجد لا في كتابات كمبفمير، ولا في ملفاته، أي شيء يمكن أن يسوغ هذا الحكم (*Orientalist mit Konsequenz: Georg Kampffmeyer und*

die Muslime. In: R. Flasche, F. Heinrich und C. Koch (Hg.), *Religionswissenschaft in Konsequenz. Beiträge im Anschluß an Impulse von Kurt Rudolph,* Hamburg 2000, S. 37-47, dort S. 47).

وفي هـذا النص الجديد بالقراءة (وكانت دار النشر تسيء رعايته، أو لا تـرعاه على الإطلاق) يثبت غرهرد هب، مرة أخرى، أنه عارف متعمق، لا يشق له غبار، سواء في الأدبيات الثانوية أم في مادة المحفوظات ذات العلاقة. أمـا مـا يتعلق بحماسته لدراسة الملفات الدبلوماسية والملفات الأخرى فقد كانـت هذه مسألة غير مألوفة حتى لمؤرخ. وكان استحواذ التفاصيل عليه وهوسـه با، واهتمامه الخاص أيضـًا بألوان الشخصيات ذات الإشكالية، مثل ليو نوسيمباوم، الملقب إلياس محمد أسد بك (Leo Noussimbaum alias Mohammed Essad Bey (1905-1942) يضفيان على كثير من أعماله سمة لا يمكـن أن تختلط بسمات غيرها. وباقتران ذلك بالمقدرة (التي مازالت ليست بالبدهية)، أيضـًا مادة من المصادر واسعة النطاق بالغة العربية، لإدخالها في دراسته وقد جعل منه اطلاعه الواسع وألوان براعته «في صناعاته» شريكـًا يرجى للسؤال عن الأمور لزملائه في الاختصاص من كل أنحاء العالم.

وفي السـابع مـن كانون الأول (2003 م)، توفي غرهارد هُب بعد داء عضـال، في بـرلين، ولسـوف تظـل مودته الدائمة، وشهادته، وانفتاحه للأحاديث في إطار من الذكرى الطيبة للذين عرفوه، ويحق لنا أن نأمل في أن تواصـل ثمار عمله العلمي التي لم تنضج كلها، بالطبع، أحداث آثارها. وثمة نظرة شاملة إلى منشوراته يقدمها النعي الآتي › Wolfgang G. Schwanitz in der Zeitschrift „Orient“, 44 (2003), S. 339-347, dort S. 342-347‹.

* صدرت الترجمة العربية في **كتاب ‹العرب** في **المحرقة النازية: ضحايا منسيون!؟›، عن دار قدمس (2006 م).**

الحواشي

1] المدخل (15-24)

* الكتاب الأصلي يستخدم مصطلح (*Nationalzozialismus*)، بمعنى (الاشتراكي القومي)، والمستمد من اسم الحزب النازي الأصلي (*Nationasozialistsche Arbeiterspartei Deutschalnds, NSDAP*).

1 *Erlebnis und Diskurs – Zeitgenössische arabische Begegnungen mit dem Nationalsozialismus. Ein Beitrag zur Erinnerungskultur." Das Projekt wurde aus Mitteln der Deutschen Forschungsgemeinschaft und der Heinrich-Böll-Stiftung finanziert.*

2 *Robert Fisk, Blind für die Geschichte. In: Die Zeit, 11.10.1996.*

3 *Vgl. zum Beispiel Edgar Wolfrum, Geschichte als Politikum – Geschichtspolitik. In: Neue Politische Literatur 41 (1996) 3; A. Assmann, Erinnerungsräume. Formen und Wandlungen des kulturellen Gedächtnisses, München 1999, S. 15; P. Steinbach, Die Vergegenwärtigung von Vergangenem: Zum Spannungsverhältnis zwischen individueller Erinnerung und öffentlichem Gedenken. In: Aus Politik und Zeitgeschichte 4 (1997) 5, S. 7; M. Zuckermann, Zweierlei Holocaust. Der Holocaust in den politischen Kulturen in Israel und Deutschland, Göttingen 1998.*

4 *Dan Diner, „Gedächtniszeiten". Über jüdische und andere Geschichten, München 2003.*

5 *Ebenda, S. 222.*

6 *Vgl. zum Beispiel Tom Segev, Die siebte Million: Der Holocaust und Israels Politik der Erinnerung, Reinbek 1995, S. 558f.*

7 *Vgl. generell zum Thema „arabischer Antisemitismus": Sylvia G. Haim, Arabic Antisemitic Literature: Some Preliminary Notes. In: Jewish Social Studies 17 (1955); M. Perlmann, Arabic Antisemitic Literature: Comment on Sylvia G. Haim's Article. In: Jewish Social Studies 17 (1955); Norman*

A. Stillman, Antisemitism in the Contemporary Arab World. In: M. Curtis (Hg.), Antisemitism in the Contemporary Arab World, Boulder/London 1986; R. Yadlin, Arab Antisemitism in Peacetime: The Egyptian Case. In: M. Curtis (Hg.), Antisemitism in the Contemporary World, Boulder/London 1986; Bernard Lewis, Semites and anti-Semites. An inquiry into conflict and prejudice, Neuausgabe, New York 1999 [In deutscher Übersetzung erschienen unter dem Titel: „Treibt sie ins Meer!“: Die Geschichte des Antisemitismus, Frankfurt a.M. 1987]; Michael Kiefer, Antisemitismus in den islamischen Gesellschaften. Der Palästina-Konflikt und der Transfer eines Feindbildes, Düsseldorf 2002.

8 Gerhard Höpp, Der Gefangene im Dreieck: Zum Bild Amin al-Husseinis in Wissenschaft und Publizistik seit 1941. Ein bio-bibliographischer Abriß. In: Rainer Zimmer-Winkel (Hg.), Eine umstrittene Figur: Hadj Amin al-Husseini. Mufti von Jerusalem, Trier 1999, S. 9ff.

9 Richard Chaim Schneider, Was machen wir Juden eigentlich falsch? Über das Wegsehen beim Leid des Anderen. In: Süddeutsche Zeitung, 27.-28.3.2004.

[10] المصطلح (نكبة) يعني طرد الفلسطينيين في عام (1948 م)، وللمصطلح العبري (شوا)، للإشارة إلى المحرقة، المعنى ذاته.

11 Peter Wien, Arab Nationalists, Nazi-Germany and the Holocaust: An Unlucky Contemporaneity. In: Hans Lukas Kieser/Dominik J. Schaller (Hg.), Der Völkermord an den Armeniern und die Shoah/The Armenian Genocide and the Shoah, Zürich 2002.

12 Siehe den Artikel von Götz Nordbruch in diesem Band.

13 J. Nevo, The Attitude of Arab Palestinian Historiography toward the Germans and the Holocaust. In: Remembering for the Future. Working Papers and Addenda, Oxford u.a. 1989.

14 Ebenda, S. 429.

[15] محمود عباس: الوجه الآخر: العلاقة السرية بين النازية والصهيونية، عمان، 1978؛ (F. Glubb, Zionist Relations with Nazi Germany, Beirut 1978.).

[16] درويش ناصر، الفاشية الإسرائيلية، عمان، 1990.

17 Zum Beispiel Garaudy, siehe ebenda; vgl. Bernard Lewis, Muslim Anti-Semitism. In: Middle East Quarterly 5 (1998), S. 47f.

18 Steinbach, Vergegenwärtigung von Vergangenem, a.a.O., S. 4f.

19 Moshe Zuckermann, Perspektiven der Holocaust-Rezeption in Israel und Deutschland. In: Aus Politik und Zeitgeschichte 14 (1998), S. 23.

20 T. Segev, Der Holocaust gehört in seinen konkreten historischen Kontext. In: Universitas 51 (1996), S. 90.

21 Fisk, Blind für die Geschichte, a.a.O.

22 Siehe dazu Nordbruch in diesem Band.

23 Vgl. u.a. Lukasz Hirszowicz, The Third Reich and the Arab East, London/Toronto 1966; Bernd Philipp Schröder, Deutschland und der Mittlere Osten im Zweiten Weltkrieg. Studien und Dokumente zur Geschichte des Zweiten Weltkriegs 16. Göttingen u.a. 1975; Heinz Tillmann, Deutschlands Araberpolitik im Zweiten Weltkrieg. Schriftenreihe des Instituts für allgemeine Geschichte an der Martin-Luther-Universität Halle-Wittenberg 2. Berlin (Ost) 1965.

24 *Reinhart Koselleck, Die Diskontinuität der Erinnerung. In: Deutsche Zeitschrift für Philosophie 47 (1999), S. 214.*

25 *Ebenda, S. 215.*

26 *Vgl. dazu Sonja Hegasy/René Wildangel, Des Führers Mufti. Der Begriff des Islamo-Faschismus ist historisch nicht korrekt. In: Süddeutsche Zeitung, 8./9.5. 2004.*

2] صورة الحركة النازية في صحافة المغرب (25-42)

1] من 19 أيار إلى 3 تموز؛ تم ترتيب أمر تحرير الجمارك والضرائب والشؤون القنصلية للدول المشاركة: النمسا-المجر، بلجيكا، الدانيمارك، ألمانيا، فرنسا، بريطانيا، إيطاليا، المغرب، هولندا، النروج، البرتغال، إسبانيا، السويد والولايات المتحدة (ملاحظة المشرف).

2 *Jamaâ Baida, „Le Commerce au Maroc“: journal tangérois d'obédience allemande (1886). In: Revue Maroc-Europe (1991) 1, S. 251-254.*

3] في 8 نيسان (1904 م). وتم تحديد مناطق النفوذ الاستعماري بين بريطانيا وفرنسا؛ وتم تحديد المغرب منطقة نفوذ فرنسية ومصر منطقة نفوذ بريطانية. إضافة إلى ذلك، تم الاتفاق، في بنود سرية، بين فرنسا وإسبانيا، على احتلال المغرب وتقسيمه (ملاحظة المشرف).

4] دعم استقلال المغرب عندما رسا في مدينة طنجة يوم 31 آذار خلال جولة كان يقوم با في البحر الأبيض المتوسط.

5] من 16 كانون الثاني إلى 7 نيسان؛ إضافة إلى الدول المذكورة في الملاحظة رقم [1] انضمت روسيا. حاولت ألمانيا إقناع فرنسا بالدخول في تحالف أوربي يضم روسيا، بدف نسف التعايش الذي كان قائماً (*Entente Cordiale*). وتم الاتفاق على الحرية والمساواة الاقتصادية للدول الموقعة. وسمح للأجانب بتملك الأراضي من دون إذن السلطان، كما قرر تأسيس مصرف الدولة المغربي. وكان على الحكومة المغربية والبعثات الدبلوماسية وضع برنامج للأعمال العمومية (ملاحظة المشرف).

6] من إجراءات السياسة الخارجية للولايات المتحدة تحظى بموجبه كل الدول حقوق تجارية ودبلوماسية متساوية، من دون أن تستحوذ دولة ما على أفضليات وتأثيرات على حساب الأخرى (ملاحظة المشرف).

7] بعدما قام الشقيقان ببيع حصتهما من مصانع الحديد (*Mannesmann Röhrenwerke AG*) للدويتشه بانك، ذهبا إلى المغرب حيث حصلا على حقوق التنقيب عن الحديد والفوسفات والنحاس والرصاص في (2027) موقعًا. وقدما للسلطان مشروع قانون التنقيب منعت فرنسا من التوقيع عليه. وقد قام الأخوان مانسمن حتى عام [1909] بتأسيس [11] شركة في المغرب (ملاحظة المشرف).

8] محمد العابد بن سودا: سنان القلم لتنبيه وديع كرم. فاس 1908، ص 8.

9] في أيار (1911) طلب السلطان مساعدة فرنسا ضد الثوار في البلاد. قامت فرنسا باحتلال العاصمة ما جعل ألمانيا تعد ذلك نقضًا للاتفاق وأرسلت المدمرة (بانتر) التي

كانت متوجهة إلى جنوبي إفريقية. ورست المدرة قبالة أغادير حتى أول شهر تموز. وقد انفجرت أزمة سياسية بين فرنسا وألمانيا عرفت باسم (قفزة بانتر 'النمر'). وبدأت المفاوضات بين فرنسا وألمانيا في تشرين الثاني حيث اعترفت الأخيرة بوضع المغرب تحت حماية فرنسا مقابل التقدم في الكونغو (ملاحظة المشرف).

10] صدر قانون البربر (الظاهر البربي) في 16 أيار 1930 بضغط من فرنسا، وكان الثاني من نوعه حيث صدر الأول في 22 أيلول 1930. وقد زاد ذلك من قوة مرجعية العادات لدى البربر كمرجع أخير. القانون الثاني فقط هو الذي أسس لسلطة عدلية بربرية، ولم يعد على البربر الخضوع للشريعة الإسلامية وإنما لعاداتم، والقضاء الفرنسي هو الذي سيتولى أمر القضايا الجزائية. بعد احتجاجات امتدت لسنوات أعيد العمل الجزئي بالشريعة في عام (1934)، ثم ألغي المرسوم على نحو نائي في عام (1956) (ملاحظة المشرف).

11] تم التوقيع على معادة الحماية في فاس بتاريخ (1912/03/30). تم احترام سلطة السلطان، لكن التف عليها. عهد بأمور السلطة الحكومية والعلاقات الخارجية والدفاع إلى فرنسا. وتم تقسم البلاد إلى ثلاثة أقسام؛ القطاع الفرنسي والسلطاني، والقطاع الإسباني والدولي في طنجة. وقد أجبر السلطان على إصدار مرسوم التخلي عن سلطاته في القطاع الإسباني لنائبه في تطوان للمندوب في طنجة (ملاحظة المشرف).

12] في هشر آب تم تحويل الإمداد بالمياه العذبة من قسم من مدينة مكناس للمستعمرة الفرنسية. واندلعت في شهر أيلول احتجاجات جماهيرية، انتشرت بسرعة في مدن أخرى. وفي ناية المطاف تم اعتقال قيادات سياسية ونفيها (ملاحظة المشرف).

13 *Zit. nach Situation politique et économique (S.P.E.), Publication confidentielle de la Résidence Générale à l'intention des hauts fonctionnaires de l'administration, Oktober 1938, S. 1.*

14 *Ebenda, Dezember 1938, S. 3.*

15 *Brief des amerikanischen Konsuls in Casablanca an das State Department, 29. Oktober 1941. In: National Archives, Washington D.C., File 881.911/7, PS/LR.*

16 *L'Echo du Maroc, 30. Januar 1944.*

17] قدم حزب الاستقلال، الذي شارك في تأسيسه بلافريج عريضة الاستقلال إلى السلطان بتاريخ 11 كانون الثاني، اعتقل على إثرها قادة الحزب. إثر ذلك اندلعت اضطرابات في العدد من المدن. ففي مدينة فاس استولى الاهل على المدينة التي اقتحمت ومنحت للنهب، وقد جرت فيها مذابح عديدة واعتقالات (ملاحظة المشرف).

18] ولد في مدينة الرباط، وصار الامين العام لحزي الاستقلال في عام (1944). اعتقل من عام (1944) إلى عام (1946). في عام 1956 صار أول وزير خارجية لفرنسا، وتولى مناصب وزارية عديدة فيما بعد وصار نائبًا لرئيس الوزراء (66/1956). في عام (1977) تخلى عن مناصبه جميعها.

19 *Vgl. Jamaâ Baida, Les événements de janvier / février 1944 devant le Conseil Consultatif et Provisoire français. In : aḏ-Ḏakira al-Waṭanīya, Rabat, (2000) 1, S. 151-171.*

20 *Fulbert Taillard, Le nationalisme marocain, Paris 1947, S. 33.*
21 *Ebenda, S. 35.*
22 *Vgl. Mokhtar El Harras, La presse écrite et l'image de l'Allemagne dans la „zone nord" du Maroc, 1934-1945. In: Marocains et Allemands: la perception de l'autre, Rabat 1995, S. 21-36. Siehe auch dens., Die Printmedien und das Deutschlandbild in der spanischen Protektoratszone von Nordmarokko (1934 bis 1945). In: Herbert Popp (Hg.), Die Sicht des Anderen - das Marokkobild der Deutschen, das Deutschlandbild der Marokkaner, Passau 1994, S. 197-207.*
23] بدأ راديو برلين في إرساله باللغة العربية في نسيان (1939). في البداية قصر اهتمامه على الشرق الأوسط، لكنه التفت في وقت قصير إلى شمالي إفريقية.
24] الحرية، 1940/05/09.
25 *Résidence Générale de Rabat, Bulletin de renseignement politique et économique (18./24. August 1940), S. 4.*
26 *Ebenda (21./27. Juli 1940), S. 4.*
27 *L'Echo de Tanger, 8. November 1942.*
28 *Vgl. Jamaâ Baida, La presse marocaine d'expression française des origines à 1956. Publications de la Faculté de Lettres et des Sciences Humaines, Rabat 1996, S. 274ff.; vgl. auch Félix Nataf, Jean Epinat: un homme, une aventure au Maroc, Paris 1987.*
29 *La Voix du Maroc, 19. März 1947, S. 2; 30. April 1947, S. 3.*
30] عندما هدد جندي سنيغالي امرأة عربية ما أدى إلى اندلاع انتفاضة قمعت بدموية حيث سقط [83] شخصًا قتلى. ويبدو أن هذا الحدث أثر في مضمون خطاب السلطان اللاحق حيث لم يمتدح الحماية الفرنسية كما كتبها المندوب السامي الفرنسي (ملاحظة المشرف).
31] تلك كانت أول زيارة سلطانية منذ عام (1899). في (04/10)، طالب السلطان للمرة الأولى علانية بالاستقلال والانتماء إلى جامعة الدول العربية التي تأسست في عام (1945) (ملاحظة المشرف).
32 *Vgl. La Voix du Maroc, 30. April 1947.*
33 *Vgl. Jamaâ Baida, Mohammed V. In: The Maghreb Review, London, 27 (2002) 1, S. 22-34.*
34 *Es handelt sich um drei Dokumente: Telegramm des deutschen Generalkonsuls in Tanger, Noering, nach Berlin vom 4. Juni 1941; Telegramm des Bevollmächtigten Gesandten im Deutschen Generalkonsulat in Tanger, Karl Rieth, nach Berlin vom 6. Januar 1943; Telegramm des stellvertretenden deutschen Generalkonsuls in Tanger, Mohr, nach Berlin vom 2. Februar 1943.*
35] في اللقاء الذي جرى في حي أنفة بالدار البيضاء، يقال إن روزفلت وعد السلطان محمد بن يوسف، الذي محمد الخامس فيما بعد، بمنح المغرب الاستقلال مكافأة على الانضمام إلى التحالف ضد هتلر. بقي هذا اللقاء سرًا (ملاحظة المشرف).
36 *Paris, 6. November 1953. Siehe auch in der Ausgabe vom 24. Juni 1955 die 1945 von der amerikanischen Armee nach der deutschen Kapitulation in Berlin erbeuteten Telegramme.*
37 *Zit. nach Edouard Sablier, De Gaulle, Mohammed V, Hassan II. In: Mustapha Sehimi (Hg.), De Gaulle et le Maroc, Paris 1990, S. 24f.*

38 Ḥağğī, Ehrentitel/Anrede für einen Muslim, der die Ḥağğ, die Pilgerfahrt nach Mekka, die fünfte Säule des Islam, absolviert hat. (Anm. d. Hg.)

39 Vgl. Jamaâ Baida, Perception de la période nazi au Maroc: quelques indices de l'impact de la propagande allemande sur l'état d'esprit des Marocains. In: Marocains et Allemands, a.a.O., S. 13-19. Vgl. auch ders., Die Wahrnehmung der Naziperiode in Marokko. Indizien für den Einfluss der deutschen Propaganda auf die Geisteshaltung der Marokkaner. In: Popp (Hg.), a.a.O., S. 193-196.

3] «اليهودي المطارد» (43-80)

1 P.J. Vatikiotis, Nasser and His Generation, London 1978, S. 27.

2 P.J. Vatikiotis, The Modern History of Egypt, London 1969, S. 315.

3 Nadav Safran, Egypt in Search of Political Community, Cambridge, Mass., 1961, S. 192.

4 Bernard Lewis, Semites and Anti-Semites, An Inquiry into Conflict and Prejudice, London/New York 1986, S. 148f.

5 Vgl. zum Beispiel Israel Gershoni, Light in the Shade: Egypt and Fascism, 1922-1937, Tel Aviv 1999 (Hebräisch), und ders., Confronting Nazism in Egypt—Tawfiq al-Hakim's anti-totalitarianism, 1938-1945. In: Tel-Aviver Jahrbuch für Deutsche Geschichte 26 (1997), 121-150; ders., Egyptian Liberalism in an Age of „Crisis of Orientation": al-Risala's Reaction to Fascism and Nazism, 1933-39. In: International Journal of Middle East Studies, 31 (1999), S. 551-576; ders., „Egyptian Liberalism Reassessed: Muhammad 'Abdallah 'Inan's Response to German Nazism: 1933-1935. In: Jama'a, 4 (1999), S. 31-68 (Hebräisch); ders., Beyond Anti-Semitism: Egyptian Responses to German Nazism and Italian Fascism in the 1930s. In: EUI Working Papers, (2001) 32.

6] المعلومات عن مجلة (الهلال) مستمدة في المقام الأول، من دراسة منهجية لكل عدد من أعداد السنوات الممتدة من عام (1919 م) إلى عام (1939 م)؛ (vgl. auch Ami Ayalon, The Press in the Arab Middle East - A History, New York 1995, S. 52-54, 239, 278; Thomas 63, 76-78, 146, 160, 192-197, 205-209, 224-228, Philipp/Gurgi Zaidan: His Life and Thought, Beirut 1979, S. 229-234.).

7 Eine Detailuntersuchung darüber findet sich in Gershoni, Light in the Shade, a.a.O., S. 143-154, 284-299.

8 Vgl. zum Beispiel die folgenden Ausgaben von al-Hilal: 1. Mai 1932, S. 1011-1015; 1. November 1932, S. 33-42, 48-52, 94-99; 1. Dezember 1932, S. 274; 1. Januar 1933, S. 305-312; 1. Juni 1933, S. 1083-1090; und 1. November 1933, S. 49-64. Eine exzellente und aktuelle Studie der Judenverfolgung in NS-Deutschland zwischen 1933 und 1934 siehe in Saul Friedländer, Nazi Germany and the Jews: The Years of Persecution, 1933-1939, London: Weidenfeld and Nicolson 1997, S. 9-144.

9 Vgl. eine detaillierte Diskussion des Themas in Hagar Hillel, On the Verge of a „National Awakening": Intellectual Moulding and Tools of Propagation: The Case of the Weekly „Israel", Cairo, 1920-1939, Teil 2, forthcoming (Tel Aviv 2002) (Hebräisch); vgl. auch Gudrun Krämer, The Jews in Modern Egypt, 1914-1952, London 1989, S. 128-139.

10] الشعوب المضطهدة ومذابح التاريخ الكبرى، في (الهلال. 1 تموز 1933، ص 1218-1221).

11] المصدر السابق، ص 1220-21.
12-14] المصدر السابق.
15] المصدر السابق، ص 1218-1219.
16] المصدر السابق، ص 1221.
17] المصدر السابق.
18] المصدر السابق، ص 1219.
19] المصدر السابق.
20] المصدر السابق. (*Zu Feuchtwagner vgl. Auch Friedländer, a,a,O., S. 9-10, 171*).
21] الشعوب المضطهدة . .، ص 1219-1220.
22] المصدر السابق، ص 1220.
23] المصدر السابق، ص 1219-1220.
24] اضطهاد اليهود . . في (الهلال. 1 آب 1933، ص 1305-1310).
25] المصدر السابق، ص 1305.
26-28] المصدر السابق.
29] شعوب العالم . .، ص 1221.
30] المصدر السابق، ص 1218-1221.
31] اضطهاد اليهود . .، ص 1305.
32] المصدر السابق، ص 1305-1306.
33] المصدر السابق، ص 1306-1307.
34] المصدر السابق، ص 1306.
35] المصدر السابق، 1306-1307.
36] المصدر السابق، ص 1307.
37] المصدر السابق.
38] المصدر السابق، ص 1307-1308.
39] المصدر السابق.
40] المصدر السابق، ص 1308.
41] شعوب العالم . .، ص 1220.
42] اضطهاد اليهود . .، ص 1309.
43-44] المصدر السابق.
45] المصدر السابق، ص 1309-1310.
46] المصدر السابق، ص 1305-1310.

47 *Vgl. Franz Werfel, Die Vierzig Tage des Musa Dagh, Wien 1933; vgl. auch Friedländer, S. 11-12; Peter Stephan Jungk, Franz Werfel: A life in Prague, Vienna, and Hollywood, New York 1990, S. 139-141.*

48] شعوب العالم . .، ص 1220.
49] اليهود في العالم، في (الهلال، 1 تموز 1933، ص 1277-1278. والسؤال طرحه (J. Mascuda).

50 *Details in Gershoni, a.a.O., insbesondere in Teil 2 und 3.*

4] «الجيل الجديد» والحنين إلى القائد (81-124)

1 *Der vorliegende Aufsatz ist ein deutschsprachiger Auszug aus der Doktorabeit des Autors: Peter Wien, Discipline and Sacrifice: Authoritarian, Totalitarian and pro-Fascist Inclinations in Iraqi Arab Nationalism, 1932-1941 (Dissertation, Rheinische Friedrich-Wilhelms-Universität Bonn 2003).*

2] انظر: إليون نيمن في صحف فرانكفورتر، عدد (2003/1/8 م). «كان للمثقفين السوريين الذين أعجبوا بلينين وهتلر على السواء، أيما إعجاب، تأثير أيديولوجي ضخم على حزب

البعث الذي أنشئ وفقـًا لنماذج الديكتاتوريات الشيوعية والفاشية في أوربة. وكانت ألمانيا النازية ينظر إليها بعين التقدير والإجلال لأن القوم كانوا يرون فيها بديلاً للدول الاستعمارية في الغرب، ولاسيما بريطانيا، وكان القوم ينظرون في كثير من الأحيان إلى نظام صدام علي أنه نظام استبدادي شرقي، ولكن في الحقيقة كانت المسألة تتعلق بنظام شمولي يمت إلى ألمانيا النازية وروسيا الستالينية من الصلة بأكثر مما يمت با إلى نبوخذنصر.

3 *Details und Militärgeschichtliches in: Bernd Philipp Schröder, Irak 1941, Einzelschriften zur militärischen Geschichte des Zweiten Weltkrieges 24, Freiburg i. B. 1980; Geoffrey Warner, Iraq and Syria 1941, London 1974. Siehe auch die entsprechenden Kapitel bei Majid Khadduri, Independent Iraq 1932-1958: A Study in Iraqi Politics, 2. Aufl., London 1960; Reeva S. Simon, Iraq Between the Two World Wars: The Creation and Implementation of a Nationalist Ideology, New York, 1986; Mohammad A. Tarbush, The Role of the Military in Politics. A Case Study of Iraq to 1941, London 1983.*

4 *Vgl. vor allem Michael Eppel, The Elite, the Effendiyya, and the Growth of Nationalism and Pan-Arabism in Hashemite Iraq, 1921-1958. In: International Journal of Middle East Studies 30 (1998).*

5 *Jürgen Reulecke, Jugendprotest – ein Kennzeichen des 20. Jahrhunderts?. In: Dieter Dowe (Hg.), Jugendprotest und Generationenkonflikt in Europa im 20. Jahrhundert: Deutschland, England und Italien im Vergleich. Vorträge eines internationalen Symposiums des Instituts für Sozialgeschichte Braunschweig-Bonn und der Friedrich-Ebert-Stiftung vom 17.-19. Juni 1985 in Braunschweig, Bonn, 1986, S. 3 u. 5.*

6 *Ute Daniel, Kompendium Kulturgeschichte: Theorien, Praxis, Schlüsselwörter, Frankfurt/M. 2001, S. 335-337; Elisabeth Domansky, Politische Dimensionen von Jugendprotest und Generationenkonflikt in der Zwischenkriegszeit in Deutschland. In: Dowe, Jugendprotest und Generationenkonflikt, a.a.O., S. 113f.; Jürgen Reulecke, The Battle for the Young: Mobilising Young People in Wilhelmine Germany. In: Mark Roseman (Hg.), Generations in Conflict: Youth Revolt and Generation Formation in Germany 1770-1968, Cambridge/New York 1995, S. 92-94.*

7 *Karl Mannheim, Das Problem der Generationen. In: Kurt H. Wolff (Hg.), Wissenssoziologie: Auswahl aus dem Werk, Berlin/Neuwied, 1964, S. 526ff. Die Aktualität von Mannheims Konzept zumindest als Referenz für neueste Generationsforschungen belegt folgender Sammelband: Andreas Schulz/Gundula Grebner (Hg.), Generationswechsel und historischer Wandel, Historische Zeitschrift, Beiheft 36, München, 2003.*

8 *Mannheim, Generationen, a.a.O., S. 536, 543, 547f.*

9 *Reinhart Koselleck, „Erfahrungsraum" und „Erwartungshorizont" –zwei historische Kategorien. In: Reinhart Koselleck (Hg.), Vergangene Zukunft. Zur Semantik geschichtlicher Zeiten, Frankfurt/M. 2000.*

10 *Siehe auch Jürgen Reulecke, Generationen und Biografien im 20. Jahrhundert. In: Bernhard Strauß/Michael Geyer (Hg.), Psychotherapie in Zeiten der Veränderung: Historische, kulturelle und gesellschaftliche Hintergründe einer Profession, Wiesbaden 2000, S. 28.*

11 *Faiṣal führte als Sohn des Scherifen īusain von Mekka seine Abstammung auf den Propheten MuÎammad zurück; daher der Begriff „Sherifian Officers" für diese Faiṣal loyal ergebene Gefolgschaft.*

12 Hanna Batatu, The Old Social Classes and the Revolutionary Movements of Iraq: A Study of Iraq's Old Landed and Commercial Classes and of its Communists, Baṯthists, and Free Officers, Princeton 1978, S. 319f; Yücel Güçlü, The Role of the Ottoman-Trained Officers in Independent Iraq. In: Oriente Moderno 21 (2002) 2, passim; David Pool, From Elite to Class: The Transformation of Iraqi Political Leadership. In: Abbas Kelidar (Hg.), The Integration of Modern Iraq, London 1979, S. 64ff.; Simon, Iraq Between the Two World Wars, a.a.O., S. 15-16; Tarbush, Military in Politics, a.a.O., S. 71.

13 Batatu, The Old Social Classes, a.a.O., S. 6-8, 11-14, 46-47, 319f.; Yitzhak Nakash, The Shi'is of Iraq, Princeton, NJ, 1994, S. 88ff.; Tarbush, Military in Politics, a.a.O., S. 28-30, 41-44.

14 Batatu, The Old Social Classes, a.a.O., S. 28-29, 337; Eppel, Effendiyya, a.a.O.; Majid Khadduri, Political Trends in the Arab World. The Role of Ideas and Ideals in Politics, Baltimore/London 1970, S. 129-130.

15 Vgl. Mark Roseman, Introduction: Generation Conflict and German History 1770-1968. In: Roseman (Hg.), Generations in Conflict, a.a.O., S. 24.

16 In der Arabistik besteht Uneinigkeit darüber, ob autobiographische Texte wie die hier vorliegenden tatsächlich unter den Begriff „Autobiographien“ gefasst werden können oder eher „Memoiren“ sind. Hier wird der Einfachheit halber durchgehend der Begriff Memoiren verwendet. Vgl. zu arabischer autobiographischer Literatur Susanne Enderwitz, Unsere Situation schuf unsere Erinnerung: Palästinensische Autobiographien zwischen 1967 und 2000. In: Literaturen im Kontext: arabisch - persisch - türkisch 10, Berlin, 2002; Martin Kramer, Introduction. In: Martin Kramer (Hg.), Middle Eastern Lives. The Practice of Biography and Self-Narrative, Syracuse/New York 1991; Thomas Philipp, The Autobiography in Modern Arab Literature and Culture. In: Poetics Today 14 (1993)3; Christoph Schumann, Radikalnationalismus in Syrien und Libanon: Politische Sozialisation und Elitenbildung 1930-1958, Hamburg 2001; Marvin Zonis, Autobiography and Biography in the Middle East: A Plea for Psychopolitical Studies. In: Kramer (Hg.), Middle Eastern Lives, a.a.O.

17] عبد الأمير علاوي: تغريب وذكريات، لندن (2000 م)، تم تحقيق المذكرات من قبل ابنة علي علاوي الذي حصلت منه على الكثير عن طائفة العراقيين المنفيين، ولاسيما في جيل والده.

18] رفائيل بطي، الذاكرة العراقية (1900-1956 م) (مجلدان) بتحقيق فائق بطي، الـمد 1، دمشق 2000.

19] خلدون ساطع الحصري، الأفكار السياسية ليونس السبعاوي، في مروان ر. بحيري (تحقيق) الحياة الفكرية في الشرق العربي (1890-1939 م)، بيروت (1890-1939 م) بيروت. (1981 م)، خيري العماري، يونس السبعاوي: سيرة سياسي عصامي، بغداد (1978 م).

20] محمد مهدي كبة: مذكراتي في صميم الأحداث: (1918-1958 م)، بيروت (1956 م)، ص (16).

21] محمد كبة: مذكراتي، ص 129.

22] أنور شاؤول، قصة حياتي في وادي الرافدين، القدس (1980 م)، ص (11)، (14-20)، (34) وما يليها، (79)، (139-140)، (148) وما يليها.

23 Philippe Lejeune, Le pacte autobiographique, Paris, 1975, S. 35ff.

24 Susanne Enderwitz, The Mission of the Palestinian Autobiographer. In: Stephan Guth/Priska Furrer/Johann Christoph Bürgel (Hg.), Conscious Voices: Concepts of Writing in the Middle East. Proceedings of the Berne Symposium July 1997, Beirut 1999, S. 30; Benjamin C. Fortna, Education and Autobiography at the End of the Ottoman Empire. In: Die Welt des Islams 41 (2001), S. 7; Philipp, Autobiography, a.a.O., S. 576-579; Christoph Schumann, The Generation of Broad Expectations: Nationalism, Education and Autobiography in Syria and Lebanon, 1930-1958. In: Die Welt des Islams 41 (2001), S. 176ff.; Schumann, Radikalnationalismus, a.a.O., S. 35ff.

25] علاوي، تغريب، في المكان المشار إليه ص (129).

26 Werner Ende, Arabische Nation und islamische Geschichte: Die Umayyaden im Urteil arabischer Autoren des 20. Jahrhunderts, Beirut 1977, S. 132ff.; Nakash, Shi'is of Iraq, a.a.O., S. 114; Simon, Iraq Between the Two World Wars, a.a.O., S. 98, 108.

27] علاوي، تغريب، في المكان المشار إليه ص (67).

28 Simon, Iraq Between the Two World Wars, a.a.O., S. 81. Simon nimmt auf die dreißiger Jahre Bezug, in denen das staatliche Schulsystem schon stärker etabliert war als zu ṯAlāwşs Zeiten. Die Bemühungen, mehr Schiiten in die Schulen zu bringen, hatten schon zugenommen: Nakash, Shi'is of Iraq, a.a.O., S. 111f, 125f.

29] علاوي، تغريب، المكان المشار إليه ص (25).

30 Ebenda, S. 62. Obwohl das Erziehungswesen in den dreißiger Jahren expandierte, lebten mehr als drei Viertel der Studenten höherer Ausbildungsgänge in den Städten. Vgl. Ayad Al-Qazzaz, Power Elite in Iraq - 1920-1958: A Study of the Cabinet. In: The Muslim World 61 (1971), S. 272ff; Tarbush, Military in Politics, a.a.O., S. 19.

31] علاوي، التغريب، ص (14). 32] المصدر السابق، ص (70).

33] كبة، مذكراتي ص (16). 34] نقاش، شيعة العراق ص (23-25).

35] كبة: مذكراتي ص (11). 36] المصدر السابق، ص (18).

37] نقاش، شيعة العراق، ص (66) ما يليها، (81).

38] المصدر السابق، ص (52).

39] كبة، مذكراتي ص (29) ما يليها. 40] المصدر السابق، ص 5، 54.

41] بطي، الذاكرة العراقية ص (2)، (31). 42] المكان ذاته.

43] المكان ذاته، اللد (1)،ص (450) وما يليها.

44] انظر تقريرًا في صحيفة الاستقلال، عدد (12 أيلول 1939 م).

45 Batatu, The Old Social Classes, S. 298.

46 Simon, Iraq Between the Two World Wars, S. 72, 88.

47 Batatu, The Old Social Classes, S. 298.

48] كبة، مذكراتي، ص (54) وما يليها.

49 *Vgl. z.B. Charles Tripp, A History of Iraq, Cambridge 2000, S. 88ff.*

50] كبة، مذكراتي، ص (52).

51] انظر، مثلاً، جرائد البلاد (18 و 19 أيلول 1940 م)، الاستقلال، (17 تشرين الثاني، 1940 م) ومواضيع أخرى.

52 *Benedict Anderson, Imagined Communities: Reflections on the Origin and Spread of Nationalism, 2. Aufl., London 1991; vgl. Eric Davis, The Museum and the Politics of Social Control in Modern Iraq. In: John R. Gillis (Hg.), Commemorations: The Politics of National Identity, Princeton NJ, 1994, S. 93ff.; Reeva S. Simon, The Teaching of History in Iraq before the Rashid Ali Coup of 1941. In: Middle Eastern Studies 22 (1986), S. 43ff.*

53 *Vgl. europäische Trends: Domansky, Politische Dimensionen, S. 115ff.; Reulecke, Battle for the Young, S. 96.*

54] كبة، مذكراتي، ص (56-59).

55] خلدون ساطع الحصري، مقدمة في تاريخ العراق الحديث، مذكرات طه الهاشمي (1939-1943 م)، بيروت (1967 م)، ص (24)، وهو ينقل عن عمر أبو النصر، العراق الجديد، بيروت (1938 م)، ص (86).

56 *Vgl. zum Beispiel Sylvia G. Haim, Aspects of Jewish Life in Baghdad under the Monarchy. In: Middle Eastern Studies 12 (1976), S. 189f.; Daphne Tsimhoni, Jewish Muslim Relations in Modern Iraq. In: Kirsten E. Schulze/Martin Stokes/Colm Campbell, Nationalism, Minorities and Diasporas: Identities and Rights in the Middle East, London/New York 1996, S. 96.*

57] شاؤول، قصة حياتي ص (139).

58] المصدر السابق، ص 56.

59 *Haim, Jewish Life, S. 189.*

60] شاؤول: قصة حياتي، م س ذ، ص 139.

61] منشور في «الحصيد» (1930/12/11 م)، «ساعة في سجن بغداد مع الزميل الأستاذ رفائيل بطي، في الموضوع ذاته، ص (161)، يبين بطي أنه اعتقل عام (1931 م)، بطي، الذاكرة العراقية، (1، 123)، والأرجح أن مقامه في السجن امتد إلى أن أهلت السنة الجديدة.

62] شاؤول، قصة حياتي، ص (119) وما يليها.63] المصدر السابق، ص 120.

64] بطي: ذاكرة عراقية، ص 145/1.

65] الموضع ذاته، ص (146) وما يليها، بطي، الذاكرة العراقية، (2، 31) وما يليها وكان من بين المعتقلين يونس السبعاوي، فائق السامرائي، عبد القادر إسماعيل، جميل عبد الوهاب، وقد حكم عليهم بالسجن ستة أشهر، ولكن أطلق سراحهم بعد شهرين.

66 *Karl Mannheim, Das Problem der Generationen, a.a.O., S. 544f.*

67 *Vgl. Michel Foucault, Archäologie des Wissens, Frankfurt/M. 1995.*

68] بطي، الذاكرة العراقية، (1)، ص (32).

69] الموضع ذاته، (165)، وكان من أوائل الذين أثنوا على أتاتورك على أنه أنموذج يحتذى به بالنسبة للعرب، ساطع الحصري.

69 Ebenda, 165. Unter den ersten, die Atatürk als Modell für die Araber anpriesen, war Sāṭiʿ al-Ḥusrī. Vgl. William A. Cleveland, Atatürk Viewed by his Arab Contemporaries: The Opinions of Sati' al-Husri and Shakib Arslan. In: International Journal of Turkish Studies 2.2 (1981-82); ders., The Making of an Arab Nationalist: Ottomanism and Arabism in the Life and Thought of Sati' al-Husri, Princeton, NJ, 1971, S. 116.

70 *Zu* Futūwa *vgl. mehrfach Simon, Iraq Between the Two World Wars; Wien, Discipline and Sacrifice, a.a.O.*

71] بطي، الذاكرة العراقية، ص 1/ 449. 72] الموضع ذاته، ص 2/ 32 وما يليها.

73 Der Begriff Faschismus wird hier in dem Sinne benutzt, dass die irakische öffentliche Debatte das italienische und das deutsche System meist als zwei Spielarten desselben Phänomens wahrnahm. Die Darstellung versucht, eine irakische Sichtweise zu rekonstruieren, und ist keine Stellungnahme in einer modernen „Faschismusdebatte."

74] علاوي، التغريب، ص (129). 75] الموضع ذاته، ص (124) وما يليها.

76] الموضع ذاته ص (130). 77] الموضع ذاته ص (116) وما يليها.

78] بطي الذاكرة العراقية، المجلد (1) ص (449).

79] الموضع ذاته. 80] الموضع ذاته، ص (32).

81] الموضع ذاته، ص (149) ومايليها. 82] الموضع ذاته، المجلد (2)، ص (291).

83 *Emil Ludwig, Napoleon, Berlin 1930*; ʿUmarī, Sabʿāwī, S. 51. *Emil Ludwig (1881-1948) war in der Zwischenkriegszeit ein international bekannter deutsch-jüdischer Schriftsteller und Biograph. Die Nazis verbrannten 1933 seine Bücher.*

84] عمري، سبعاوي، ص 51. 85] المصدر السابق، ص 37-8.

86 Vgl. Stefan Wild, National Socialism in the Arab Near East Between 1933 and 1939. In: Die Welt des Islams 25 (1985), S. 150ff.

87] عمري، سبعاوي، ص 41.

88 Samira Haj, The Making of Iraq, 1900-1963: Capital, Power and Ideology, Albany 1997, S. 83f.

89] الموضع ذاته، ص (84) وما يليها. 90] عمري، سبعاوي، ص 40.

91 Reulecke, Generationen und Biografien, S. 29.

92] شاؤول، قصة حياتي، ص (215). 93] الموضع ذاته ص (133).

94] الموضع ذاته ص (139).

95] سلمان الصفواني، في صحيفته اليقظة، وكمال الدين الطائي في مجلة الهداية الإسلامية، وعلى نحو منفرد، سعيد الحاج ثابت، الموضع ذاته ص (213).

96] الموضع ذاته، ص (215) وما يليها.

97] الموضع ذاته ص (63، 213، 227، 240). 98] الموضع ذاته ص (63).

99 Sasson Somekh, Lost Voices: Jewish Authors in Modern Arabic Literature. In: Mark R. Cohen/Abraham L. Udovitch (Hg.), Jews among Arabs: Contacts and Boundaries, Princeton 1989, S. 16ff.

100 *Vgl. Peter Wien, Arab Nationalists, Nazi-Germany and the Holocaust: An Unlucky Contemporaneity. In: Hans Lukas Kieser/Dominik J. Schaller, Der Völkermord an den Armeniern und die Shoah/The Armenian Genocide and the Shoah, Zürich 2002.*

101] شاؤول، قصة حياتي، ص (245) وما يليها. 102] عمري، سبعاوي، ص 36.

5] «ألد أعداء البشرية» (125-168)

1 *Überblick zur Forschungsliteratur in: Gerhard Höpp, Der Gefangene im Dreieck: Zum Bild Amin al-Husseinis in Wissenschaft und Publizistik seit 1941. In: Rainer Zimmer-Winkel (Hg.), Eine umstrittene Figur: Hadj Amin al-Husseini - Mufti von Jerusalem, Trier 1999, S. 5-23.*

2 *Populäre wie wissenschaftliche Darstellungen sind z.T. fehlerhaft bzw. stellen Behauptungen auf, für die keine Quellenbelege geliefert werden können (z.B. Haǧǧ Amīns angebliche Besuche in verschiedenen Konzentrations- und Vernichtungslagern, u.a. Auschwitz), oder sie enthalten unhaltbare Übertreibungen (der Mufti habe eine zentrale Rolle in der Vernichtungspolitik gespielt). Eine Auswahl von Aufzeichnungen Haǧǧ Amīns im Exil, die auch seine ideologischen Positionen deutlich macht, ist 2002 erschienen: Gerhard Höpp (Hg.), Mufti Papiere. Briefe, Memoranden, Reden und Aufrufe Amīn al-Ḥusainīs aus dem Exil, 1940-1945, Berlin 2002.*

3 *Geleitwort von Abraham Ashkenasi zu der insgesamt detaillierten und ausgewogenen Darstellung von Klaus Gensicke, Der Mufti von Jerusalem, Amin el-Husseini, und die Nationalsozialisten, Frankfurt 1988, S. 7.*

4 *Vgl. dazu den Beitrag von Karin Joggerst in diesem Band*

5 *Israel Gershoni, Or baZel. Mizraim weha-Fashism, 1922-1937, Tel Aviv 1999 [Hebr.: Licht im Schatten. Ägypten und der Faschismus 1922-1937; bisher nur in hebräischer Sprache, eine englische Übersetzung ist in Vorbereitung], S. 15ff.*

6 *Vgl. dazu auch die Artikel von Gershoni zum Thema: Israel Gershoni, Confronting Nazism in Egypt - Tawfiq al-Hakim's Anti-Totalitarianism 1938-1945. In: Deutschlandbilder, Tel Aviver Jahrbuch für deutsche Geschichte 26 (1997), S. 121-150; ders.: Egyptian Liberalism in an Age of „Crisis of Orientation“: Al-Risāla's Reaction to Facism and Nazism, 1933-39. In: International Journal of Middle Eastern Studies 31 (1999), S. 551-576, und den Beitrag in diesem Band.*

7 *George Antonius, The Arab Awakening. The Story of the Arab National Movement, London 1938, S. 392.*

8 *Beshara Doumani, Rediscovering Ottoman Palestine: Writing Palestinians into History. In: Journal of Palestine Studies 21, Nr. 2 (1992), S. 5-28.*

9 *Ted Swedenburg, Memories of Revolt. The 1936-1939 Rebellion and the Palestinian National Past, Minneapolis 1995.*

10 *Zachary Lockman, Comrades and Enemies – Arab and Jewish Workers in Palestine 1906-1948, Berkeley 1996; Deborah S. Bernstein, Constructing Boundaries. Jewish and Arab Workers in Mandatory Palestine, New York 2000.*

11 *Tom Segev, One Palestine, Complete: Jews and Arabs under the British Mandate, New York 2000; Segev benutzt unter anderem das Tagebuch von Ḫalīl al-Ṣakākinī.*

12 z.B. bei ʿAbd al-Ġānī oder Basheer Nafi. Eine der wenigen Ausnahmen ist die detaillierte Darstellung von Issa Khalaf, Politics in Palestine. Arab Factionalism and Social Disintegration 1939-1948, New York 1991.

13 Ebenda, S. 80.

14 Izzat Tannous, The Palestinians. A detailed documented Eyewitness History of Palestine under the British Mandate, New York 1988, S. 330.

15 Vgl. Khalaf: Politics in Palestine, a.a.O.; Manuel S. Hassassian, Palestine. Factionalism in the National Movement (1919-1939). In: PASSIA, Jerusalem 1990.

16 PRO CO 733 – 412/1, „Material for publication in Palestine".

17 Ebenda.

18 10.10.1939 Imperial War Museum, Private Papers: Burr S 88/8/1.

19 CZA S25/ 4131, „Report on the situation in Palestine" (Hebrew).

20 Gerade in letzter Zeit ist das Interesse an Konzepten und Konstruktionen von „Öffentlichkeit" wiedererwacht, besonders auch in Forschungen zum außereuropäischen Raum und im Zusammenhang mit den Debatten um Globalität/Globalisierung

21 Hannah Arendt, Vita Activa oder vom tätigen Leben, München 1967, S. 62.

22 Jürgen Habermas, Strukturwandel der Öffentlichkeit. Untersuchungen zu einer Kategorie der bürgerlichen Gesellschaft, erw. Auflage, Frankfurt/M. 1990.

23 Eine demnächst erscheinende Studie von Professor Ami Ayalon (Tel Aviv) über „The History of Reading in Pre-1948 Palestine" wird diese Transformationsprozesse beschreiben.

24 CZA, S25/ 3457, „An English Supplement of ‚Al Ghad' issued by the Arab Students League at Bethlehem, Palestine", S. 5.

25 CZA, S25/ 3457, S. 6.

26 Berichte zwischen 24.9.1940 und 15.10.1942 von „M.M.", in Hebräisch: CZA, S25/ 4135.

27 Ebenda, Bericht vom 27.3.1941. 28 Ebenda, Bericht vom 8.5.1941.

29] من أجل نظرة عامة شاملة، انظر: يوسف الخوري، الصحافة العربية في فلسطين، (1876-1948 م)، الطبعة الثانية، بيروت (1986 م).

30 Vgl. z.B. Ami Ayalon, The Arab Press, S. 100.

31] الكرمل، عدد (18 تشرين الثاني 1934 م): سلام على موسوليني، سلام على هتلر.. متى نستطيع أن نؤدي التحية إلى الزعيم العربي الجديد؟ انظر: الكرمل (18)، (1934 م)، ص (11).

32] الأخبار، (27)، (6)، (1940 م)، ص (2).

33] الأخبار، (18)، (3)، (1941 م)، ص (4).

34] الأخبار، (24)، (5)، (1940 م)، ص (1).

35] الأخبار، (27)، (1)، (1942 م)، ص (2). 36] الأخبار، (18)، (2)، (1942 م)، ص (1).

37 Bernstein: Constructing Boundaries, a.a.O., S. 25.

38 Die Auflagenstärke wird in einem hebräischen Bericht der arabischen Abteilung der Jewish Agency angegeben, der sich mit der Broschüre beschäftigt (CZA, S 25/ 4131). Eine Originalkopie der Broschüre in arabischer Sprache findet sich ebenfalls in den CZA in Jerusalem (CZA S25/ 4131).

39] انظر رسالة جركس ويوسف برناسيس، القدس، (1940/9/9 م) (CAZ 525/431).

40 *Die zu diesem Zeitpunkt von „Public Information Officer“ Oliver Tweedy geleitete Propagandastelle in Palästina war zwar im Januar 1939 personell verstärkt worden, verfügte aber nicht über die notwendigen Ressourcen, um selbst aufwendige Propagandaschriften zu verfassen. Auch aufgrund dieser personellen Engpässe war man gezwungen, mit moderateren bzw. kooperationsbereiten Arabern zusammenzuarbeiten. Vgl. dazu PRO, FO 395-652.*

41 *CZA, S 25/ 4131, Broschüre S. 1.*

42] شخصية قومية مبتدعة للرسوم الكاريكاتورية، على غرار الشخصية الأمريكية «العم سام» عرفت بأنا تشخيص لبريطانيا في القرن التاسع عشر.

43] كانت صحيفة فلسطين تتوجه قبل كل شيء، إلى قراء من المسيحيين الأرثوذكس، وذلك ما يفسر هذه الرمزية.

44 *CZA, S 25/ 4131, Broschüre S. 2.* 45 *Ebenda.*

46 *CZA, S 25/ 4131, Broschüre S. 9.*

47 *Freya Stark, The Arab Island. The Middle East 1939-1943, New York 1945, S. 107.*

48 *Ebenda, S. 117f.*

49 *ʿAǧāǧ Núwaīhiḍ, Sitūn ʿāman maʿa al-qāfila al-ʿarabīyya, Beirut 1993.*

50 *Ebenda, S. 255 ff.*

51 *PRO, CO 333/ 9, „Conduct of Arab Police“, Telegram from the Officer Administering the Government of Palestine to the Secretary of State for the Colonies, dated 4th November, 1937.*

52 *Vgl. dazu den Artikel auf den Seiten „United States Holocaust Memorial Museum“, online abrufbar unter [http://www.ushmm.org/wlc/article.php?ModuleId=10005275] (November 2003).*

53 *Abbasi, Palästinensische Freiheitsbewegung, a.a.O., S. 157.*

54 *Fleischmann, Nation and Its New Women, a.a.O., S. 193.*

55 *Ebenda.*

56 *Morris Beckman, The Jewish Brigade. An Army with Two Masters 1944-1945, Staplehurst 1988, S. 24.*

57 *Siehe besonders: Zachary Lockman, Comrades and Enemies. Arab and Jewish Workers in Palestine, 1906-1948, Berkeley 1996; Deborah S. Bernstein, Constructing Boundaries. Jewish and Arab Workers in Mandatory Palestine, New York 2000.*

58 *Lockman, Comrades and enemies, a.a.O., S. 267*

59 *CZA, S25/ 9334, „Nidā’ Itiḥād Hāšūmīr Hāṣāʿīr wa-l-ʿušba al-ištirākīyya fi filasṭīn“, 1.5.1943, S. 1.*

60 *Ebenda, S. 2.*

61 *Allerdings stellt spricht diese Frage ein generelles Problem daran; vgl. die anhaltenden Diskussionen um die öffentliche Wahrnehmung des Holocaust während des Zweiten Weltkrieges z.B. in Deutschland (David Bankier, Die öffentliche Meinung im Hitler-Staat. Die „Endlösung“ und die Deutschen, Eine Berichtigung, Berlin 1995) oder in anderen europäischen Ländern und Amerika*

62 *Azmi Bishara, Die Araber und der Holocaust – Die Problematisierung einer Konjunktion. In: Rolf Steininger (Hg.), Der Umgang mit dem Holocaust, Wien u.a. 1994, S. 407.*

63 *Leila Kadi, Arab Summit Conferences and the Palestine Problem (1936-1950), Beirut 1966.*

64 *CZA, S25/ 9334, „Irtifaʿa īdī al-Safāḥīn al-Fašist ʿan bilād al-Ištirākīa", 22.6.194, S. 1.*

65 *CZA, S25/ 9334, „Nidā' ilā šʿab l-'arabī al-karīm", 22.6.1942, S. 2.*

66 *Ebenda.*

67 *CZA, S25/ 9334, „Bayān ilā aš-šʿab al-ʿarabī al-karīm", S. 1*

68 *CZA, S25/ 9334, „Al-Iğtimāʿa aš-šʿabī al-kabīr".*

69 *CZA, S25/ 9334, „Ilā aš-šʿab al-ʿarabī al-karīm", 10.10.1942, S. 1.*

70 *CZA, S25/ 9351, „ʿUṣba al-taḥrīr al-waṭanī", S. 1.*

71 *Vgl. dazu z.B. Stefan Wild, Die Protokolle der Weisen von Zion. In: Islamstudien ohne Ende. Festschrift für Werner Ende zum 65. Geburtstag, Würzburg 2002, S. 517-526.*

72 *Nasser Eddin Nashashibi, Jerusalem's Other Voice. Ragheb Nashashibi and Moderation in Palestinian Politics, 1920-1948, Exeter 1990, S. 198.*

6] مكاسب رمزية (169-200)

1 *Ernst Nolte, Der Faschismus in seiner Epoche. Die Action française, der italienische Faschismus, der Nationalsozialismus, München2 1979 [1. Auflage v. 1963], insbes. S. 23-35. Noltes spätere Versuche, den sowjetischen Gulag als ursächlich für Weltkrieg und Völkermord zu interpretieren, sindist zu Recht von Jürgen Habermas als Geschichtsrevisionismus kritisiert und von Historikern einhellig als unhaltbar zurückgewiesen worden.*

2 *Eric J. Hobsbawm, The Age of Extremes: A History of the World, 1914-1991, New York 1994.*

3 *E. Nolte, Der Faschismus in seiner Epoche, a.a.O., S. 484.*

4 *Auch die Kommunistische Partei Syriens, die ideologisch natürlich völlig anders orientiert war, trat in der Öffentlichkeit mit radikaler Rhetorik und militanter Symbolik in Erscheinung. Auf zionistischer Seite hatte vor allem die revisionistische Jugendorganisation Betar, inspiriert von Vladimir Jabotinski, große Ähnlichkeit mit den genannten Organisationen.*

5 *Elsa Marston, Fascist Tendencies in Pre-war Arab Politics. A Study of Three Arab Political Movements. In: The Middle East Forum 5 (1959), S. 19-34; Miloš Mendel/Zdenek Müller, Fascist Tendencies in the Levant in the 1930s and 1940s. In: Archív Orientální 55 (1987), S. 1-17. Philip S. Khoury, Syria and the French Mandate. The Politics of Arab Nationalism 1920-1945, London 1987, v.a. S. 395-433.*

6 *Ursprünglich nannte sich die Partei lediglich Syrisch Nationalistische Partei (SNP) (al-Ḥizb as-Sūrī al Qawmī). In den vierziger Jahren hat sie ihren Namen jedoch zu Syrisch Sozial-Nationalistische Partei (SSNP) (al-Ḥizb as-Sūrī al Qawmī al-Iğtimāʿī) erweitert und ihn in dieser Form bis heute beibehalten. Vgl. www.ssnp.net und www.ssnp.org. Meine deutsche Übersetzung des*

Parteinamens orientiert sich an dem in der Sekundärliteratur und von der Partei selbst verwendeten englischen Namen „Syrian Social Nationalist Party“. Der Begriff „Nationalsozialismus“ wird von der Partei auf Arabisch als qawmiyya ištirākiyya wiedergegeben. Es besteht also objektiv eine gewisse Ähnlichkeit, aber gleichzeitig auch ein von Saʿāda und der Partei bewusst gewollter Unterschied. Grundlegend zu Ideologie und Geschichte der SSNP ist bis heute ist Labib Zuwiyya Yamak, The Syrian Social Nationalist Party. An Ideological Analysis, Cambridge, Mass. 1966. Außerdem: Daniel Pipes: Radical Politics and the Syrian Social Nationalist Party. In: IJMES 20 (1988), S. 303-324.

7 Der Begriff „Faschismus“ (al-fāšiyya) und das dazugehörige Adjektiv „faschistisch“ (fāšī) dienten, ähnlich wie in Europa (mit Ausnahme Italiens), eher als Kampfbegriffe der polititschen Linken als zur Selbstbezeichung nationalistischer Organisationen.

8 Siehe Patrick Seale, The Struggle for Syria. A Study of Post-War Arab Politics, 1945-58, London 1965, insbes. S. 63-72; L.Z. Yamak, The Syrian Social Nationalist Party, a.a.O., S. 62-75.

9 Ebenda, S. 62-68.

[10 ولد أنطون سعادة في (1904/3/1 م) في شوير (لبنان) حيث عاش حتى عام (1920 م)، ثم صحب أباه إلى البرازيل ليعمل هناك صحفيـًا، وفيما بعد معلمـًا، وعاد في عام (1930 م) إلى بيروت، حيث أسس الحزب السوري القومي الاجتماعي، وقاده منذ ذلك الوقت فصاعدًا، وظل حتى عام (1939 م) تعرض للاعتقال مرارًا من قبل سلطات الانتداب بسبب النشاط السياسي غير المشروع، ويدان ويحكم عليه، في مستهل العام (1939 م)، انطلق في رحلة تفقدية إلى تنظيمات الحزب في بلدان الشتات (المهجر)، قادته عبر روما وبرلين وسان باولو، آخر الأمر إلى بوينوس آيريس، وبسبب عدم حمله وثائق السفر اللازمة أرغم على أن يظل طوال سنوات الحرب العالمية الثانية، وحتى عام (1947 م)، في الأرجنتين. وبعد عودته إلى لبنان أدخل الحزب في صراع كانت حدته تزداد زيادة مطردة مع الجمهورية الناشئة. وبعد أشكال من الـ اع المسلح، وهرب قصير الأجل إلى سورية، تم تسليمه من هناك غلى لبنان واعدم آخر الأمر في (1949/7/22 م) بموجب حكم عرفي.

[11 نواف حردان، سعادة في المهجر، الجزء الأول: البرازيل (1921-1930 م)، بيروت 1989؛ الجزء الثاني: (1938-1940، بيروت 1996.

[12 المكان المشار إليه، ص (99) وما يليها.

[13 يضبط المبدأ الخامس من مبادئ الحزب الحدود الجغرافية لسورية، أنطون سعادة، تعاليم ودستور الحزب للسوري القومي الاجتماعي، بيروت (1978 م)، ص (39). وحتى في الـالات الأخرى كان يحبذ التركيبات العقلية، على النقيض من القناعات الشعبية ومن ذلك مثلاً أنه حاول إضفاء الصفة الشعبية على أسطورة أدونيس، على أنا سورية أصلية، ويؤكد أهمية الفينيقيين في التاريخ السوري أكثر مما يؤكد أهمية الأمويين، ويستعمل العربية الفصحى أكثر مما يؤكد أهمية اللغة العامية السورية (انظر هشام شرابي، سور المديح، سيرة ذاتية، بيروت (1993 م)، ص (189).

14] عدنان أبو عمشة، سعادة والفلسفة القومية الاجتماعة، دمشق (1994 م)، ص (70) وما يليها و(76). وأشير إلى البستاني وخوري بحكم كونهما من اوائل القوميين إذ كانا هما اللذان طورا فكرة الوطن السوري والسوريين بحكم كونهما مجتمعـًا إثنيـًا متميزًا، غير أنهما تقبلا الإطار السياسي للدولة العثمانية تقبلاً غير محدود، أما الانفصال وتأسيس دولة قومية فلم يكونا موضوعـًا بالنسبة لهم.

15] في وقت مبكر يعود إلى أواخر القرن التاسع عشر قاوم المهاجرون من إقليم سورية العثمانية بإطلاق سلطات الهجرة صفة تُرك عليهم وليس سوريون.

16 Christoph Schumann, Radikalnationalismus in Syrien und Libanon. Politische Sozialisation und Elitenbildung, 1930-1958, Hamburg 2001, S. 292ff u. 300ff.

17] في عام (1925 م) أسس أولاً، جمعة الشبيبة الفدائية، ثم حزب السوريين الأحرار. ن حردان: سعادة في المهجر، الموضع المشار إليه ص (139-154)، ل. ز. يمق، الحزب السوري القومي الاجتماعي الموضوع المشار إليه. بكل أسف، الحزي السوري القومي الاجتماعي لا يتعامل إطلاقـًا مع هذه المرحلة البدئية.

18] كان قد بدأ تجميع الخبرة في التعليم، في البرازيل في مدرستين ثانويتين، ن حردان، سعادة في المهجر، المكان المشار إليه ص (160 و191).

19] يطلق على الكتيب الذي تم فيه تلخيص أهم المبادئ والمطاليب، اسم (تعاليم ودستور الحزب السوري القومي الاجتماعي، المكان المشار إليه، أما مفهوم «الاستهداء، أو التوجه» فيستخدمه سعادة في إطار سعيه إلى حمل صحيفة الحزب الشامية «سورية الجديدة» على سلوك الخط الذي سلكه، انظر الكتاب ذاته «الآثار الكاملة»، المجلدات (6-8) في مواضيع كثيرة، أما الكتاب الذي يحمل عنوان «المحاضرات العشر» فيتضمن أكثر التعليقات إحاطة وشمولاً، من قبل سعادة، على برنامج الحزب، الكتاب ذاته، المحاضرات العشر، وهو الكتاب ذاته، «المحاضرات العشر» في الندوة الثقافية سنة (1948 م)، من دون بيان مكان الصدور وكان قد ألقى هذه «المحاضرات» بعد العودة إلى لبنان، عام (1947 م)، بعد أن كان الحزب قد انحرف خلال أيامه في المنفى، انحرافـًا بالغًا، عن فهمه للمبادئ.

20] أنطون سعادة: الصراع الفكري في الأدب السوري، في الآثار الكاملة، المجلد1: الأدب بيروت (196)، المؤلف ذاته، الإسلام في رسالتيه المسيحية والمحمدية، بيروت (1958 م)، الكتاب ذاته، نشوء الأمم، بيروت (1938 م)، المرجع ذاته، نشوء الأمم، بيروت (1938 م).

21] أنطون سعادة، نشوء الأمم، ص (10) وما يليها، وهناك عرض مماثل لخصائص هذا الكتاب في المرجع ذاته: الإسلام في رسالتيه، المكان المشار إليه، ص (108)، وما يليها.

22] عرضت هذه الفكرة بمزيد من التفصيل: في الخطاب القومي عند أنطون سعادة، قصة المجتمع ومطلب التحديث (رسالة ماجستير) (1996 م).

23] بعد أن استبعد سعادة، عام (1947 م)، اي بعد عودته إلى لبنان، فايز صايغ، وغسان تويني، وكريم عزقول بسبب الانحرافات في المضمون، عن الحزب، برر هذه الخطوة في

«المحاضرات العشر» على النحو التالي: «يدخل في عداد الأمور المدهشة التي تتصل بؤلاء أنم كانوا يعدون أنفسهم، على الصعيد الفلسفي، أناسـًا مؤهلين لبحث علمي، غير إنم كانوا يرون الأمور رؤية معكوسة تمامـًا، هنا وهناك، وكانوا هم أولئك الذين هم أبعد الناس طورًا عن إدراك الشؤون الأساس» انظر الكتاب ذاته: المحاضرات العشر، المكان المشار إليه، ص (18)، انظر أيضـًا: ل. ز يمق، الحزب السوري القومي الاجتماعي، المكان المشار إليه ص (63) وما يليها.

24 *Mit Bezug auf Pierre Bourdieu ließe sich dies auch als Konvertierung von kulturellem in symbolisches Kapital bezeichnen.*

25] هشام شرابي، الجمر والرماد، ذكريات مثقف عربي، بيروت، (1988 م) [الطبعة الأولى (1978 م)، ص (82)].

26 *Ausführlich in C. Schumann, Radikalnationalismus, a.a.O., S. 293f.*

27] كمال جنبلاط، أضواء على حقيقة القضية القومية الاجتماعية، بيروت، من دون بيان السنة.

28 *Philip K. Hitti, History of Syria including Lebanon and Palestine, London/New York 1951; Henri Lammens, La Syrie: précis historique, 2 Bde., Beirut 1921. Vgl. dazu allgemein: Ulrike Freitag, Geschichtsschreibung in Syrien 1920-1990. Zwischen Wissenschaft und Ideologie, Hamburg 1991, insbes. S. 89-102 und 114-116.*

29 *Das Verhältnis von Rezeption und der ihr vorhergehenden sozialisatorischen Prägung kann an dieser Stelle nicht ausführlich behandelt werden. Siehe dazu theoretisch und empirisch: C. Schumann, Radikalnationalismus, a.a.O., passim.*

30] وبالطبع فإن سعادة لا يستخدم ابن خلدون ليربط بين فكرته عن التضامن بين الفئات، وبالتالي، ما يسمى (العصبية)، والا عة القومية، بل ليكشف عن أن المعرفة الغربية بالإنسان والطبيعة والتطور، والتي تم تقبلها فيما يلي، كان لها رائد في العالم العربي إلا وهو ابن خلدون (انظر، للمؤلف ذاته، نشوء الأمم ص 21، 29، 33)، وإذًا فالمسألة بالقياس إلي أقرب إلى أن تكون إضفاء لصفة الأصالة والارتباط بالأرض على المعرفة الغربية عن طريق ابن خلدون، منها إلى أن تكون تقبلاً لابن خلدون.

31] المقصود هنا، ما عدا الاستثناءات، كتابـًا فرنسيـًا وآخر إسبانيـًا.

32 *Diese sind 1. Arbeiten zur Biologischen Grundlegung der Soziologie, 2 Bde., Leipzig 1931. Der Sammelband behandelt die Frage, ob Pflanzen und Tiere ein soziales Leben haben; ob es bsp. „Despotie unter Vögeln" oder „Demokratie unter Ameisen" gibt. 2. Allgemeine Verfassungs- und Verwaltungsgeschichte, hg. v. Alf. Vierkandt, Leopold Wenger et al., Leipzig u. Berlin 1911. Das Buch behandelt Rechtssysteme bei sog. „primitiven Völkern" sowie im Altertum, Mittelalter, Japan, Islam und anderen Kulturkreisen. 3. Allgemeine Rechtsgeschichte. 1. Hälfte: Orientalisches Recht und Recht der Griechen und Römer, hg. v. Joseph Kohler und Leopold Wenger, Leipzig u. Berlin 1914. Die Aufsätze dieses Buches behandeln ebenfalls Rechtssysteme des Altertums, reichen aber bis in die Moderne.*

33] أ سعادة، نشوء الأمم، المكان المشار إليه، ص 23 وما يليها.

34 *Paul Vidal de la Blache, Principles of Human Geography, New York 1926; und Friedrich Hertz, Race and Civilization, London 1928. Während Saʿāda*

deutsche Titel ansonsten meist ohne entsprechende Übersetzungen zitiert, bezieht er sich bei französischen Autoren wie Ernest Renan fast immer auf meist deutschsprachige Sekundärliteratur und nicht auf die Originaltexte.

35] أ سعادة، نشوء الأمم، ص (39-45) 165) وما يليها.

36] الموضع ذاته: ص (25-38).

37 *Für ausführlichere Informationen zur Biographie von Hertz siehe im Catalogus Professorum Halensis (http://www.catalogus-professorum-halensis.de/hertzfriedrich.html) oder der Webseite der Karl-Franzens Universität Graz (http://www.kfunigraz.ac.at/sozwww/agsoe/archiv/arch_3e.htm).*

38] أ سعادة، نشوء الأمم، المكان المشار إليه ص (33).

39] المكان ذاته، ص (36). 40] المكان ذاته.

41] المكان ذاته، ص (168)، هذه الجملة يتم توكيدها في الطبعة القادمة للكتاب يوضع خط تحتها.

42] بذا الموقف يقف سعادة موقفـًا أقرب إلى التيار الرئيس في الخطاب البرازيلي حول إصلاح الـتمع عن طريق التمازج بين الأعراق، صورة جوهرية، ومن الممكن أن نفترض أن عرف المناقشات البرازيلية المعاصرة، ولكن ليس من الممكن إثبات ذلك مباشرة انظر في هذا الصدد، جوفري ليسر: التفاوض على الهوية القومية: المهاجرون والأقليات.

43 *Hannah Arendt, Elemente und Ursprünge totaler Herrschaft: Antisemitismus, Imperialismus, totale Herrschaft, München[7] 2000 [1. Aufl. 1955], S. 472-558.*

44 *George Mosse, Racism and Nationalism. In: The Fascist Revolution. Toward a General Theory of Fascism, New York 1999, S. 55-68.*

45] لقد انتزعت منجزات التحديث التي تحققت في الاتحاد السوفياتي احترام سعادة منذ عام (1925 م)، ن. حردان، سعادة في المهجر، المكان المشار إليه ص (134).

46] من الممكن أن تكون ثمة علاقة بين إدخال مفهوم «الاجتماعي » في أسماء الأحزاب في أوائل الأربعينيات، بالـادلات مع الحزب الشيوعي، ويمكن مقارنتها بتسمية حزب البعث نفسه «اشتراكيـًا» يتصدر بند المطالب الاجتماعية، على الأغلب الإصلاح الزراعي، وبدرجة أقل، هموم الطبقة العاملة، الضئيلة العدد نسبيـًا. وهذه الحقيقة تعكس من ناحية أولى، الخلفية الاجتماعية لأحدث الأجيال وأكثرها تطرفـًا، ولاسيما البعثيين، أي من يسمون «أبناء الريف» كما يهدف مطلب الإصلاح الزراعي من ناحية أخرى، إلى تأمين الأساس الاجتماعي لطبقة الحكام الوجهاء الذي يريد القوم أنفسهم، أن يرثوهم. (*Siehe dazu Raymond Hinnebusch, Authoritarian Power and State Formation in Ba'thist Syria: Army, Party, and Peasants, Westview 1990 und Hanna Batatu: Syria's Peasantry, the Descendants of Its Lesser Rural Notables, and Their Politics, Princeton 1999.*).

47 *C. Schumann, The Generation of Broad Expectations: nationalism, education, and autobiography in Syria and Lebanon, 1930-1958. In: Die Welt des Islams 41 (2001) 2, S. 174-206.*

48] أ سعادة: التعاليم والدستور، المكان المشار إليه ص (55-80).

49] وذلك يعني أنه يحصر نطاق السؤال في التمييز بين وجوب كون السيادة واقعة في يد الأمة أم عائدة إلى الله، ثم في صورتا المحسوسة عائدة إلى أهل الكهنوت، أما الأشكال الأكثر تعقيدًا ومن أشكال العلاقة بين الدولة والدين، فلا يناقشها، ومنذ عام (1924 م) يرفض سعادة ، في مقال له، إعادة إقامة الخلافة، ويشير إلى تركيا على أنا الأنموذج الذي يحتذى به في بناء الأمة. ن. حردان سعادة في المهجر، (1921-1930 م)، المكان المشار إليه ص (131)، ومن أجل تفصيل القول في العلاقة بين الدين والدولة، في: أنطون سعادة، المحاضرات العشر (1948 م)، بيروت (197)، ص (117-135)، ومن أجل تحليليه للتناقض بين الدولة والدين في التاريخ الإسلامي وفي العنصر الحاضر، في المؤلفات: الإسلام، في رسالتيه، المسيحية و الإسلامية، بيروت في مواضيع كثيرة.

50 Soziales Leben entwickelte sich in der Diaspora zum einen vor allem um religiöse Einrichtungen wie Kirchen, Moscheen usw. Zum anderen war aber die arabische Diasporapresse entlang konfessioneller Linien gespalten, was eine „nationale" Mobilisierung erschwerte. Allg. dazu: Philip Hitti, The Syrians in America, New York 1924, S. 78- 103; Alixa Naff: Becoming American. The Early Arab Immigrant Experience, Southern Illinois 1985, S. 201-266; Jeffrey Lesser, Negotiating National Identity: Immigrants, Minorities, and the Struggle for Ethnicity in Brazil, Durham u.a. 1999, S. 41-81; Estela Valverde, Integration and Identity in Argentina: The Lebanese of Tucuman, in: Albert Hourani und Nadim Shehadi (Hg.): The Lebanese in the World, A Century of Emigration, London 1992, S. 313-337.

51] نواف حردان، سعادة في المهجر، (1921-1930 م)، في الموضع المذكور ص (24، و34-49)، وهناك مناقشة لاحقة، مفصلة، للطائفية في دول الشتات (المهجر)، للمؤلف ذاته الجالية السورية في الأرجنتين، والفتنة الدينية، في الزوبعة (1 شباط 1942 م) 37، نقلاً عن: الآثار الكاملة، المجلد العاشر، (1942 م)، ص (15-19).

52] حاولت فرنسا، في دول الشتات الأمريكية، على وجه الخصوص أن تكتسب لبنانيي الخارج لمصلحة سياستها بعد الحرب العالمية الثانية، ووجدت تجاوبًا في هذه الأثناء، قبل كل شيء، لدى صحف دول الشتات العربية مثل «للهدى» و «فتى لبنان» ن. حردان سعادة في المهجر، (1921-1930 م)، المكان المذكور ص (60) وما يليها «التحالف غير المقدس بين بلدان الشتات، وصحفها، ورجال الأكليروس الموارنة، ،أخيرًا ننتقد فرنسا سعادة بالتفصيل، في اختراع القومية اللبنانية ووقاحة المتلبننين في الزوبعة (1942 م)، نقلاً عن: المؤلف ذاته، الآثار الكاملة، المجلد (10)، (1942 م)، ص (42 و 47-51).

53] ومن ذلك أن سعادة يأخذ على منظمي ما سمي «المؤتمر الأرجنتيني» لمساندة استقلال الأقطار العربية، أنهم أرادوا أن يعملوا من سورية جزءًا من مملكة هاشمية أو سعودية، أنطون سعادة مؤتمر الأرجنتين ومآرب النفعيين في سورية الجديدة (8 آذار 1941 م) (103) نقلاً عن: المؤلف ذاته، الآثار الكاملة، المجلد (8)-(1941 م) بيروت (1975 م) ص (11-13).

[54 وهكذا يحاول أنطوان سعادة بالتفصيل في: سياسة الدول المحاربة في العالم العربي، في الزوبعة (1943/2/13 م) نقلاً عن المؤلف ذاته، الآثار الكاملة المجلد: (11)-(1943 م) ص (93-95). ومما يتسم بالعنفوان والحماسة على وجه الخصوص، نقد سعادة لشكيب أرسلان، الذي يأخذ عليه تمثيله لمصالح دول المحور في بلدان الشتات دونما نقد، ومن ذلك، مثلاً، في المصدر ذاته، تكرار الأخطاء الماضية، تصريحات المحور بشأن الأقطار العربية في : الزوبعة (1941/1/14 م) (13)، نقلاً عن المصدر ذاته، الآثار الكاملة، المجلد (8)-(1941 م) ص (59-61).

[55 مقالاته في هذه المسائل متخصصة في: أنطون سعادة، مراحل المسألة الفلسطينية، بيروت، من دون بيان السنة، والمصدر ذاته، لواء الاسكندرون، بيروت 1996.

[56 أ سعادة، نشوء الأمم، في الموضع المذكور ص 166، يشير سعادة في معرض إثبات هذه المقالة إلى (*Sir Ernest Barker, National Character and the Factors of its Formation, London*).

[57 في الموضوع ذاته.

[58 أ سعادة، الإسلام في رسالتيه، في المكان المذكور ص (41) وما يليها.

[59 هذا الاحتجاج يوجد في كتاب سعادة ‹الإسلام في رسالتيه› الذي يحاول فيه أن يبين أن الإسلام رسالة عالمية، أخلاقية ودينية، لا تكاد تختلف عن المسيحية وأن فيه إلى جانب ذلك، نظامـًا حقوقيـًا خصوصيـًا، لايعود إلا على الوسط الجغرافي الخاص بشبه الجزيرة العربية، بما فيه من «التمع البدوي غير المتحضر» وهذا الكتاب يستند إلى سلسلة من المقالات التي نشرها سعادة في عام (1941/ 1942 م)، ردًا على المثقف السوري رشيد سليم الخوري في مجلة الحزب نصف الشهرية الزوبعة، وتحولت المساجلة التي كانت تتصل في الأصل، بالنقد الأدبي، فيما بعد، إلى مساجلة تم توسيعها لتشتمل على المسائل الدينية، ونشرت في صحيفة الحزب البيروتية، النظام الجديد مرة أخرى.

[60 الموضع ذاته.

[61 أ سعادة، المحاضرات العشر، في الموضع المذكور ص (69)، وعلى نحو مماثل وفي المرجع ذاته، وطن قومي للشركس، في: سورية الجديدة رقم (22) (1939/7/29 م)، أعيد طبعه في الآثار الكاملة، المجلد (6): ص (70-74)، وفي أسلوب سعادة تعد كلمة جامد (arstarit) مرادفة لكلمة «أولي» (Primitive) ونقيضـًا لكلمة «متطور» أو متقدم، وكلمة «راق» وبالتالي متحضر.

[62 أنطون سعادة، القضية القومية الصهيونية وامتدادها، في: المجلة (سان باولو) (11 شباط 1926 م) نقلاً عن المصدر ذاته، مراحل المسالة الفلسطينية، المكان المذكور، ص (3-7) وهنا ص (4).

[63 سعادة، القضية القومية الصهيونية، المكان المذكور ص (5).

[64 أنطون سعادة، حالة سورية بعد الحرب ستكون صعبة جدًا، في: (الزوبعة) العدد (79). (9/1 /1944 م) في المصدر ذاته، مراحل المسألة الفلسطينية، المكان المذكور، ص (32-35).

[65 أ سعادة، التعاليم والدستور، المكان المذكور ص (72) وما يليها، وبالتفصيل مبرزًا في المحاضرة التاسعة من محاضراته العشر، في المصدر ذاته، المحاضرات العشر، المكان المذكور ص (155-168).

[66 ومنذ الثلاثينيات، أي من الواضح أن ذلك كان قبل تأسيس حزب البعث، يستخدم أنطون سعادة كلمات «بعث» و«نهضة» (بمعنى الولادة من جديد) و«إيقاظ» استخدامـًا ينطوي على آلية التضخيم والادعاء الفارغ.

[67 يتحدث هشام شرابي عن تعاونه مع كلتا صحيفتي الحزب المذكورتين في سيرته الذاتية، الجمر والرماد، ذكريات مثقف عربي، بيروت (1988 م) (الطبعة الأولى 1978 م) ص (182-194).

[68 ن حردان، سعادة في المهجر، (1921-1930 م)، المكان المذكور، (140) وما يليها و(163-167)، وممن أشاروا إلى الأنشطة التي كانت تمارس في المحفل الماسوني، وماتم اكتسابه من الخبرة التنظيمية في هذا الصدد، ابنة أنطون سعادة، صوفيا أ. سعادة: أنطون سعادة والديموقراطية في سورية الجغرافية، لندن (2000 م)، ص (21 و28-32).

[69 تتعلق المسألة بالرابطة الوطنية السورية. وكانت أغلبية الأعضاء تريب في تلك الأيام أن تعرب عن رأيها العلني الصريح في أحداث الثورة السورية الكبرى، ثورة عام (1925 م) ن . حردان سعادة في المهجر، (1921-1930 م)، المكان المذكور (141) ومايليها.

[70 أنطون سعادة، ترهات الهدى، في الزوبعة، رقم (82) (1944/11/4 م) نقلاً عن المصدر ذاته: الآثار الكاملة، الملد (12): (1924 م)-(45)، ص (38-44) وهنا: ص (41).

[71 هـ شرابي، الجمر والرماد، المكان المذكور ص (188).

[72 في دراسته التي مازالت أساس حتى اليوم، عن الحزب السوري القومي الاجتماعي، يستخرج يمق العناصر الشمولية في الحزب. ل. ز يمق، الحزب السوري القومي الاجتماعي المكان المذكور.

[73 يتبين هذا من سلسلة مقالات في الصحيفة اللبنانية، النهار، تم فيها إجراء مقابلات صحفية مع سبعة عشر عضوًا من الأعضاء السابقين، ورفاق طريق سعادة، وفي هذه الأثناء سئلوا على وجه الخصوص عن أسباب دخولهم الحزب وخروجهم منه، والتمس منهم إجراء تقييم للمسألة إجراء تقييم المسألة في نظرة إلى الماضي. سمير الصفدي، القوميون السابقون.. متخرجون.. أم خوارج؟ وفي ملحق النهار (1972/12/24 م)، ص (3-5)، (1972/12/31 م)، ص (6 ـ 9) و107)، (1973 م)، ص (6،7).

[74 أ سعادة، التعاليم والدستور، المكان المذكور، ص (81 - 92)، وبالإنغليزية: انظر ل. يمق، الحزب السوري القومي الاجتماعي، ص (112).

[75 ن حردان، سعادة في المهجر، (1921-1930 م)، المكان المذكور ص (139-154)، ولا سيما ص (146).

76] أ سعادة، ترهات الهدى، نقلاً عن: المصدر ذاته: الآثار الكاملة، المجلد (12)، المكان المذكور ص (38-44).

77] المكان ذاته، ص (42).

78] أنطون سعادة-سلطات الزعيم، في الزوبعة، العدد (15) (1941/2/28 م) نقلاً عن: المصدر ذاته. الآثار الكاملة، المجلد (8)، (1941 م)، ص (39-42)، وهنا (41).

79] مصطفى عبد الساتر، أيام وقضية. من معانيات مثقف عربي، بيروت (1982 م)، جمال عبد الساتر: سياسي يتذكر، تجربة في العمل السياسي، لندن، (1987 م)، ص (37)، شوقي خير الله، المذكرات، بيروت (1990 م)-ص (141).

80] الأمير فيصل، سلطان الأطرش، أو: عبد الرحمن شهبندر، كانا في مقابل ذلك، أقرب إلى أن يكونا من الساسة التقليديين ذوي العناصر الدالة على مخائل الزعامة.

7] بيع الحرب للمغاربة (201-226)

1 Nach Abschluss des Protektoratsvertrages in Fez am 30. März 1912 brach am 17. April ein Aufstand gegen die französische Besetzung aus, der erst am 6. Juli 1912 durch massiven Militäreinsatz des neuen Generalresidenten Lyautey beendet werden konnte.

2 Ministère des Affaires Etrangères (MAE), Serie E, Vichy Levant, Bd.1, Note sur les Dangers Intérieures de l'Afrique du Nord, n.d., August 1940. Zitiert in Martin Thomas, The French Empire at War: 1940-45, Manchester 1998, S. 39.

3 Vgl. die Erklärung abgedruckt in L'Echo du Maroc, September 1939.

4 Vgl. Charles-Robert Ageron, Vichy, les Français et l'Empire. In: Jean-Pierre Azema/François Bedarida (Hg.), Le Regime de Vichy et les Français, Paris 1992, S. 122-134.

5 Moshe Gershovich, French Military Policy in Morocco and the Origins of an Arab Army, Cambridge, MA, 1995, S. 375.

6 Christine Levisse-Touze, L'Afrique du Nord, Recours au Secours: Septembre 1939 - Juin 1943, Paris 1991.

7 Bulletin Des Armées d'Outre-Mer, Arabische Ausgabe, Nr. 4, 30. April 1940.

8 Vgl. Driss Maghraoui, Nos Goumiers Berberes: The Ambiguities of Colonial Representations in French Military Novels. In: The Journal of North African Studies 7 (2002) 3, S. 79-100.

9 Bulletin Des Armées d'Outre-Mer, a.a.O., S. 1.

10 Ebenda, S.2.

11 Ebenda.

12 Zit. In: Neil MacMaster, Colonial Migrants and Racism: Algerians in France, 1900-62, New York 1997, S. 142.

13 An-Nasr, Dezember 1943, S. 1.

14 Ebenda, Dezember 1943, S. 2.

15 Ebenda, Dezember 1943, S. 7.

16 Ebenda, Juni 1943, S. 7.

17 Ebenda, Juni 1943, S. 19.

18 Ebenda, Dezember 1943.

19 Ebenda.

20 Ebenda.

8] الخطاب المكبوت: ضحايا النازية من العرب (227-278)

* *Gerhard Höpp, Der Verdrängte Diskurs: Arabische Opfer des Nationalsozialismus.*

1] لم يتمكّن غرهرد هُب، بالنظر إلى الاعتلال الشديد في صحته، من إعادة النظر في هذه المقالة إلا بصورة جزئية، وقد نظرت السيدة تركان يلماظ في النص الذي بين أيدينا واستكمله.

2 *Ina R. Friedman, The Other Victims: First-Person Stories on Non-Jews Persecuted by the Nazis, Boston u. a. 1990, S. 1.*

3 *Seit etwa zehn Jahren wird intensiv über afrikanische Opfer des Nationalsozialismus geforscht. Vgl. Robert W. Kesting, Forgotten Victims: Blacks in the Holocaust. In: The Journal of Negro History 77 (1992) 1, S. 30-36; ders., The Black Experience during the Holocaust. In: Michael Berenbaum/Abraham J. Peck (Hg.), The Holocaust and History. The Known, the Unknown, the Disputed, and the Reexamined, Washington u. a. 1998, S. 358-365; Susann Samples, African Germans in the Third Reich. In: Carol Aisha Blackshire-Belay (Hg.), The African-German Experience. Critical Essays, Westport 1996, S. 53-69; Marianne Bechhaus-Gerst, Afrikaner in Deutschland 1933-1945. In: 1999. Zeitschrift für Sozialgeschichte des 20. und 21. Jahrhunderts 12 (1997) 4, S. 10-31; Maguéye Kassé, Afrikaner im nationalsozialistischen Deutschland. In: Utopie kreativ (2000) 115-116, S. 501-507; Clarence Lusane, Hitler's Black Victims. The Historical Experiences of Afro-Germans, European Blacks, Africans, and African Americans in the Nazi Era, New York-London 2003.*

4 *Zum Diskurs über den Mufti und seine Kollaboration mit den Nationalsozialisten vgl. Rainer Zimmer-Winkel (Hg.), Eine umstrittene Figur. Hadj Amin al-Husseini, Mufti von Jerusalem, Trier 1999.*

5 *Vgl. Jan Assmann, Die Katastrophe des Vergessens. Das Deuteronium als Paradigma kultureller Mnemotechnik. In: Aleida Assmann/Dietrich Harth (Hg.), Mnemosyne. Formen und Funktionen der kulturellen Erinnerung, Frankfurt/M. 1991, S. 344.*

6] ويفسـر شـتاينبخ هذا السلوك بأن هذا التقسيم إلى أجزاء صغيرة لأحداث التاريخ الجماعي، وبالتالي لعَنها و«عزل تجربة الآلام» يؤدي إلى «حصار فكري للشعور بالرثاء، أو التعاطف» وأن النتـيجة هـي تضييق يقومون به عن قصد وتصميم كاملين، لنطاق الاحتفاء بالذكرى، التي ما عـادت تواسـي أو تعزي، بل تصيب وتجرح. وليس من النادر أن يتم الإحساس بما على أنها شـكل من أشكال الاحتفاء التعصبي بذاكرة مقصورة، حصرًا، على ضحاياهم هم. (*Peter Steinbach, Die Vergegenwärtigung von Vergangenem. Zum Spannungsverhältnis zwischen individueller Erinnerung und öffentlichem Gedenken. In: Aus Politik und Zeitgeschichte (1997) 3-4, S. 4f.*).

7 *Zum arabischen Holocaust-Diskurs vgl. Rainer Zimmer-Winkel (Hg.), Die Araber und die Shoa. Über die Schwierigkeiten dieser Konjunktion, Trier 2000. Zu aktuellen Debatten siehe Karin Joggerst, Koexistenz und kollektives Gedächtnis. Israelische und palästinensische Historiker suchen eine Annäherung. In: INAMO 6 (2000) 22, S. 28-30, und die Replik von Ghassan Abdallah ebenda 6 (2000) 23-24, S. 42, sowie Souad Mekhennet, Warum wussten wir es nicht? Der Holocaust und die arabischen Opfer: Der Nachrichtensender Al Dschazira bricht ein politisches Tabu. In: Frankfurter Allgemeine Zeitung, 6. Januar 2003, auch Aviv Lavie, Partners in Pain. Arabs Study the Holocaust. In: CounterPunch, 12. Februar 2003.*

8 *Vgl. Bundesarchiv Berlin (BArchB), R 58, Nr. 459, Bl. 45(RS).*

9 *Für die wertvolle und großzügige Unterstützung meiner Recherchen danke ich v. a. dem Bundesarchiv, dem Geheimen Staatsarchiv, dem Landesarchiv, dem Politischen Archiv des Auswärtigen Amtes, der Deutschen Dienststelle (ehem. WASt) und der Senatsverwaltung für Stadtentwicklung und Umweltschutz, Abt. Gräberwesen, in Berlin, dem Service des Victimes de la Guerre in Brüssel, dem Bundesarchiv/Militärarchiv in Freiburg/Br., dem Staatsarchiv Hamburg, den Thüringischen Staatsarchiven in Gotha, Meiningen und Rudolstadt, dem Sächsischen Staatsarchiv in Leipzig, dem Kulturamt/Stadtarchiv in Meersburg, dem Landeshauptarchiv Sachsen-Anhalt in Merseburg, dem Stadtarchiv und dem Regionalmuseum in Neubrandenburg, dem Brandenburgischen Landeshauptarchiv in Potsdam, der Gedenk- und Dokumentationsstätte KZ Drütte in Salzgitter, dem Stadt- und Kreisarchiv Schmalkalden, dem Landeshauptarchiv und dem Stadtarchiv in Schwerin, dem Garten- und Friedhofsamt Stuttgart, dem Dokumentationsarchiv des österreichischen Widerstandes und dem Österreichischen Staatsarchiv/Archiv der Republik in Wien.*

10 *Vgl. Österreichisches Staatsarchiv, Wien/Archiv der Republik (ÖStArchW/AdR), Neues Politisches Archiv, Karton 540, Liasse Egypten.*

11 *Vgl. BArchB, R 43 II, Nr. 1423, Bl. 172ff.* 12 *Vgl. ebenda, Bl. 177f.*

13] كان للمواطن الأمريكي، فلمِنغ، الذي كان يعرف منذ عام (1935 م)، في برلين، أم تونسية، وأب مصري، ويُفترض أن تمديد الإذن له بالعمل في ألمانيا إنما تحقق يتدخل السفير وليام هـ دود لدى وزارة الدعاية في الرايخ. (Vgl. Egino Biagioni, Herb Flemming, a Jazz Pioneer around the World, Alphen 1977, S. 5 und 49ff.).

14 *Vgl. Michael H. Kater, Gewagtes Spiel. Jazz im Nationalsozialismus, Köln 1995, S. 86.*

15 *Vgl. Hubert von Meyerinck, Meine berühmten Freundinnen. Erinnerungen, Düsseldorf-Wien 1967, S. 112.*

16 *Vgl. Reiner Pommerin, „Sterilisierung der Rheinlandbastarde". Das Schicksal einer farbigen deutschen Minderheit 1918-1937, Düsseldorf 1979, S. 78.*

17 *BArchB, Film 14198, Bl. 471257.* 18 *Ebenda, Bl. 471161.*

19 *Vgl. Wolfgang Abel, Bastarde am Rhein. In: Neues Volk 2 (1934) 2, S. 4-7; ders., Über Europäer-Marokkaner- und Europäer-Annamiten-Kreuzungen. In: Zeitschrift für Morphologie und Anthropologie 36 (1937), S. 311ff. Abel war „anthropologischer Gutachter" für die Sterilisationskommissionen.*

20 *BArchB, R 1501, Nr. 1271, Bl. 31.*

21] كانـت الـرقابة عـلى الأجانـب تعـود الى المقـر الرئـيس لـوزارة أمن الرايخ (*Reichssicherheitshauptamt*)، وكانـت تعود، منذ آب عام (1940 م)، إلى تقرير مـن دائرتنا الرابعة، وفي الغستابو، وفي (1939/09/16 م) طُلب إلى كل العراقيين، وفي (24) تشرين الأول، إلى كل التابعين للمستعمرات والمحميات ومناطق الانتداب الفرنسية في الـرايخ الإبـلاغ عن أنفسهم لدى دوائر الشرطة المحلية، بدف التسجيل. (Vgl. ebenda, Bl. 48 und 66.).

22 *Vgl. Reichsgesetzblatt, Jahrgang 1939, Teil I, S. 1667.*

23 *Vgl. BArchB, R 58/459, Bl. 94.*

[24 (*Vgl. Politisches Archiv des Auswärtigen Amtes, Berlin (PArchAAB), R 40750.*). كان كثير من اليهود المحتجزين في معسكرات الرايخ والنمسا والمناطق المحتلة، والمتمتعين بصفة المواطنة الفلسطينية، مرصودين للمبادلة مع الألمان الذين كانت السلطات البريطانية في فلسطين تعتقلهم. ومنذ تشرين الأول عام (1943 م)، على أبعد تقدير، توجد في اللوائح اللتي قدمتها السفارة السويسرية للفلسطينيين الراغبين في التبادل، أيضـًا، عرب من الرايخ ومن النمسا، على أن فريقـًا مِمن قُدر أنم ليسوا موالين للألمان، كانوا محتجزين في المعسكرات (*Ilag VII Laufen und im Ilag Saint-Denis interniert. Vgl. ebenda, R 41532 und R 41533.*).

25 Zu ihm vgl. Wolfgang Schwanitz, Aziz Çotta Bey, deutsche und ägyptische Handelskammern und der Bund der Ägypter Deutscher Bildung (1919-1939). In: Gerhard Höpp (Hg.), Fremde Erfahrungen. Asiaten und Afrikaner in Deutschland, Österreich und in der Schweiz bis 1945, Berlin 1996, S. 359-382.

26 Vgl. PArchAAB, Nachlass Hentig, Bd. 150.

27 Vgl. BArchB, Film 14188, Bl. 200197f. 28 Vgl. ebenda, R 58/459, Bl. 82.

29 Vgl. Sächsisches Staatsarchiv Leipzig (SStArchL), Untersuchungshaftanstalten Leipzig, Nr. 434.

[30 (Vgl. BArchB, R 58/459, Bl. 48.). في (1941/01/31 م) أصدر الحاكم العسكري الألماني في فرنسة تعليماته باستثناء من يحملون الجنسية العربية ويعيشون في المناطق المحتلة، ولاسـيما رعايـا الدول عُمان والعراق وفلسطين، وكذلك مصر، من الاعتقال (Vgl. PArchAAB, Botschaft Paris, Nr. 2378.). وفي (1941/06/19 م) أكـد: «إن العراقـيين الذيـن يحملون الجنسية العربية لم يُعتقلوا في المنطقة المحتلة من فرنسة، كما لم يُعتقلوا في ألمانيا أيضـًا» (Vgl. ebenda, Nr. 2342.). والظاهر أن هذا حدث مراعاة للمشـاعر التي يُفترض أنا موالية للألمان في أوساط النخب العراقية والفلسطينية. غير أن هذا لم يغير شيئـًا من الحظر المفروض على الرحيل: فحين أعلمت المفوضية الأفغانية، في (1943/05/07 م)، بحكـم كونـا الجهة التي تمثل الدولة الراعية لمصالح العراق، وزارة الخارجـية أن الحكومة العراقية طلبت إلى كل العراقيين الموجودين في مجال دول المحور، العـودة إلى الوطن، مع تديدهم بالعقوبات، ومنها مصادرة ثروتم، والتمست منحهم تأشـيرات خـروج، رفضـت ذلك وزارة الخارجية، وعرضت، في مقابل ذلك مبادلة العراقـيين الراغبين في الرحيل بالرجال الألمان القادرين على حمل السلاح المحتجزين عند بدايـة الحرب، في العراق، والذين نُقلوا بعد ذلك إلى الهند البريطانية. وفي هذه الأثناء لم يكـن يحظ بالاهتمام الألمان الموجودون في معسكر الاعتقال العراقي (العمارة)، والذين كـان مـدار المسـألة عـندهم يـتعلق برعايا للرايخ «غير آريين، مصاهرين لليهود» ومتزوجيهن من شرقيين (Vgl. ebenda, R 41516.).

31 Vgl. ebenda, R 29863. 32 Vgl. ebenda, Nachlass Hentig, Bd. 150.

33 Vgl. ebenda, R 41673.

[34 كان يوجد، ضمن طاقم الباخرة (زمزم)، أيضـًا، ستة من اليونانيين والكروات.

35] تم إنقاذهم وجيء بهم إلى الوطن، وبينما كان مصيرهم يجد، حتى الآونة الأخيرة، اهتمامـًا عامـًا، كان من الواضح الجلي أن مصير الطاقم المصري لم يأت على ذكره سوى في ‹محمد كاظم: زمزم الغريقة، م س ذ، (1945 م)›. (*vgl. u. a. Swan Hjalmar Swanson (Hg.), Zamzam. The Story of a Strange Missionary Odyssey, by the Agustana Synod Passengers, Minneapolis 1941; Isabel Russell Guernsey, Free Trip to Berlin, Toronto 1943; Susan G. Loobie, Responding to the Storms of Life. Remembering the Zamzam. In: Latin America Evangelist, January-March (1999), online unter http://www.lam.org/lae/9901/stormsoflife.html; Eleanor Anderson, Miracle at Sea: The Sinking of the ZamZam and Our Family's Rescue, Bolivar 2000, wurde das Los der ägyptischen Mannschaft offenbar nur bei Muḥammad Kāẓim, Zamzam al-ġarīqa, o.O. 1945, erwähnt.*).

36 Vgl. PArchAAB, R 40967. *37 Vgl. ebenda.*

38] المصدر السابق. في تموز عام (1942 م) قدم الحاكم العسكري الألماني لبلجيكا وشمال شرقي فرنسة، إلى القيادة العليا للجيش أربعة من المصريين القاطنين في مجال قيادته، للتبادل. (*Vgl. Ebenda; Vgl. ebenda, R 41483.*).

39 Vgl. ebenda, R 41714.

40 Vgl. ebenda, R 41483, R 41484 und R 41485.

41 Zit. in Helmuth Forwick, Zur Behandlung alliierter Kriegsgefangener im Zweiten Weltkrieg. In: Militärgeschichtliche Mitteilungen (1967) 2, S. 127.

42 Vgl. PArchAAB, R 40769 und R 40770.

43 Z. B. bei Georg Hebbelmann, Stalag VI A Hemer. Ein Kriegsgefangenenlager in Westfalen, Münster 1995, S. 13.

44 Uwe Mai, Kriegsgefangen in Brandenburg. Stalag III A in Luckenwalde 1939-1945, Berlin 1999, S. 148.

45 Recherchiert auf der Grundlage folgender Quellen: BArchB, Film 15125, 15557, 57408, 57409, 57410 und 57690; PArchAAB, R 40723, R 40726, R 40747, R 40769, R 40770, R 40987, R 40988, R 40989, R 40990, R 41039, R 67003; Bernd Boll, Fremdarbeiter in Offenburg, 1940-1945. Arbeitsmanuskript, Offenburg 1988; Pierre Gascar, Histoire de la captivité des Français en Allemagne (1939-1945), Paris 1967; Hebbelmann, a. a. O.; Achim Kilian, Mühlberg 1939-1948, Köln u. a. 2001; Erich Kosthorst/Bernd Walter, Konzentrations- und Strafgefangenenlager im Dritten Reich. Beispiel Emsland. Zusatzteil: Kriegsgefangenenlager. Bd. 2 und 3, Düsseldorf 1983; Eva-Maria Krenkel/Dieter Nürnberger, Lebensskizzen kriegsgefangener und zwangsverpflichteter Ausländer im Raum Fritzlar-Ziegenhain 1940-1943, Kassel 1985; Dieter Krüger, „... Doch sie liebten das Leben“. Gefangenenlager in Neubrandenburg 1939 bis 1945, Neubrandenburg 1990; Joachim Rotberg, Zwangsarbeiter und Kriegsgefangene in katholischen Einrichtungen im Bereich der Diözese Limburg: ein Werkstattbericht, Limburg 2001; Stanislaw Senft/Horst Więcek, Obozy jenieckie na obszarze śląskięgo okregu *Wehrmachtu 1939-1945, Wroclaw u. a. 1972; Tadeusz Sojka, Zbrodnie Wehrmachtu na jeńcach wojennych w Żaganu 1939-1945, Zielona Gora 1982.*

46 Vgl. Margaret Ginns, French North African Prisoners of War in Jersey. In: Channel Islands Occupation Review (1985), S. 50-70.

47] «مع كل ما بذلناه من جهود لم يُتح لنا الحصول على إشارات دقيقة إلى عدد أسرى الحرب من الشمال الإفريقي في معسكرات اعتقال الضباط ومعسكرات اعتقال من هم

دون الضباط. (*Belkacem Recham, Les Musulmans Algériens dans l'armée française (1919-1945), Diss., Paris 1995, S. 219.*).

48 Vgl. ebenda, S. 222. 49 Vgl. ebenda, S. 222.

50 Vgl. PArchAAB, R 40768 und R 41106. 51Vgl. Recham, a. a. O., S. 224.

52] قارن المصدر السابق. أسفرت الثورات الخاصة في (12) من (15) من معسكرات اعتقال الجنود والمتطوعين، في صيف عام (1941 م) عن عدد لا يكاد يبلغ (30000) أسير، وفي خريف عام (1941 م) ارتفع العدد إلى ستة من اثني عشر معسكرًا لاعتقال، الجنود والمتطوعين، بمقدار نحو خمسة آلاف أسير.

53 Vgl. ebenda, S. 221; BArchB, Film 57690.

54] أمكن، في إطار برنامج التبادل (Releve) الذي أعلنته حكومة فيشي في حزيران من عام (1942 م) «افتداء» أسير حربٍ عن طريق إرسال ثلاثة من العمال الفرنسيين إلى ألمانيا. (*Vgl. Helga Bories-Sawala, Franzosen im „Reichseinsatz". Deportation, Zwangsarbeit, Alltag. Bd. 1, Frankfurt/M. u. a. 1996, S. 263ff.*).

55] في مستهل عام (1943 م) تم الاتفاق بين حكومة فيشي والرايخ على «الوضع المُيسر»، وبموجبه يمكن إحلال أسير حرب في وضع عامل مدني مقابل كل عامل فرنسي يتولى العمل في ألمانيا. (Vgl. ebenda, S. 237ff.).

56 Vgl. Recham, a. a. O., S. 225ff.

* حرفيـًا: قوة الدفاع.

57 Vgl. ebenda, S. 227ff.

58 Vgl. BArchB, Film 4923, Bl. 393375; ebenda, Film 3660, Bl. 650600.

59 Vgl. Bundesarchiv/Militärarchiv, Freiburg (BArch/MArchF), WF-03/14247, Bl. 307, 329, 332 und 339.

60 Vgl. Reichsgesetzblatt, Jahrgang 1934, Teil II, S. 235.

61 Vgl. ebenda. 62 Vgl. PArchAAB, R 67003.

63 Vgl. Reichsgesetzblatt, Jahrgang 1934, Teil II, S. 249.

64 Vgl. PArchAAB, R 67003. 65 Vgl. BArchB, Film 15810, Bl. E026316.

66 Vgl. PArchAAB, R 60660. 67 Vgl. BArchB, Film 3660, Bl. 650601.

68] لا تتوافر، في الأدبيات المتعلقة بذا الموضوع، إشارات إلى الحياة الدينية لأسرى الحرب المسلمين. (*Vgl. u. a. Yves Durand, La vie quotidienne des prisonniers de guerre dans les Stalags, les Oflags et les Kommandos 1939-1945, Paris 1987, S. 173ff.; Markus Eikel, Französische Katholiken im Dritten Reich. Die religiöse Betreuung der französischen Kriegsgefangenen und Zwangsarbeiter 1940-1945, Freiburg 1999.*).

69 Vgl. Reichgesetzblatt, Jahrgang 1934, Teil II, S. 237.

70 Vgl. BArch/MArchF, RH 49, Nr. 51.

71 Vgl. PArchAAB, R 40769, R 40770, R 40988 und R 40989.

72 Vgl. Eine Moschee in Großbeeren? Kein Hirngespinst – es gab sie wirklich! In: Amtsblatt Großbeeren (1999) 11, S. 12; Regina Clausnitzer, Moschee in Großbeeren – Suche nach einer Fotoaufnahme nun doch noch erfolgreich.

Ebenda (2000) 5, S. 17. Ein Foto der Moschee ist auch einem propagandistischen Artikel über ein Kriegsgefangenenlager beigegeben, das ca. 500 Nordafrikaner beherbergt haben soll. Vgl. Ziyāra li-muʿaskar al-usrā al-maġāriba al-qā'im fī ḍawāḥī Berlin. In: Barīd aš-Šarq 2 (1941) 27.

73] يقال إنه يوجد، فضلاً على ذلك، تونسي يستطيع قراءة القرآن وممارسة الرعاية الروحية لرفاقه في العقيدة. (*PArchAAB, R 40747. Siehe auch ebenda, R 67003.*).

74] يقال إن التوسع في الإذن للمسلمين بنحر الأضاحي، الذي أصدرته (القيادة العليا للقوات المسلحة بتاريخ (1944/06/01 م)، عن ، وينطبق على «أسرى الحرب ذوي الديانة الإسلامية» (في: *Forwick, a. a. O., S. 129f.*). من الجائز أن يكون سريان على المسلمين بين صفوف أسرى الحرب السوفييت، الذين كانوا يُمارس لديهم خطبُ وُدٍ للوحدات «المنتمية إلى شعوب أجنبية» في القوات المسلحة وفي منظمة (وحدات الدفاع). (*Vgl. BArch/MArchF, RH 49, Nr. 67*).

75 Vgl. PArchAAB, R 67004; BArch/MArchF, RH 49, Nr. 51.

76 Vgl. PArchAAB, R 67004.

77] كانت تُخصص للمسلمين شواهد قبور من خشب البلوط أو الصنوبر، في صورة تقوية للألواح، مُشربة بالشمع، مكوية بالنار (في شكلها الخام) بسماكة (8 سم). (*Vgl. Brandenburgisches Landeshauptarchiv, Potsdam (BrLHArchP), Rep.6 B Jüterbog-Ludwigsfelde, Nr. 371/4, Bl. 105.*).

78 Vgl. PArchAAB, R 67004.

79] الاحتفال بعيد الفطر في أحد المعتقلات الألمانية للأسرى المسلمين. في ‹بريد الشرق 4/ 44/1942، 31-2›. انظر أيضـًا: ‹لسان العسير. 6/7/1941/1-7›.

80] قارن ‹لسان العسير. 3/1/1941/1-5›، والمصدر نفسه، 4/2/1941/1.

81] رئيس تحرير الصحيفة المطبوعة في بوردو كان أحمد الحنصال؛ وآخر عدد متوافر يحمل الرقم (13) وصدر في آذار عام (1942 م).

82] لم تتوافر لي إمكانية الاطلاع على نسخ من الصحيفة التي صدرت في عام (1940 م)، والتي حررها شخص اسمه صالح بن محمد. مذكورة في ‹جامع البيضا: المغرب والدعاية النازية. أعمال الملتقى الجامعي الاول. الرباط 1991، ص 24›.

83] صدرت بين عامي (1993 و1944 م)، ويبدو أن محرركها كان المصري كمال الدين جلال الذي كلفته بالعمل وزارة الدعاية الإمبراطورية. (*Vgl. Gerhard Höpp, Arabische und islamische Periodika in Berlin und Brandenburg 1915-1945. Geschichtlicher Abriss und Bibliographie, Berlin 1994, S. 16.*).

84 Vgl. PArchAAB, R 67003.

85 Vgl. Gerhard Höpp, Muslime in der Mark. Als Kriegsgefangene und Internierte in Wünsdorf und Zossen, 1914-1924, Berlin 1997.

86] في تموز من عام (1940 م) توجه ماكس فون أوبنهايم، الذي كان قد حفز في الحرب العالمية الأولى إلى المعاملة الخصوصية التي مورست مع أسرى الحرب من المسلمين، إلى وزارة الخارجية، واقترح، بالإشارة إلى هذه التجاريب، ضمن أمور أخرى، «معاملة خصوصية،

ودية لأسرى الحرب المغاربة والجزائريين والتونسيين» قائلاً: إن هذه المعاملة خليقة بأن تعود على ألمانيا بـ «ثمار طيبة». (*Vgl. BArchB, Film 14882, Bl. 326020.*).

87 Vgl. Recham, a. a. O., S. 220. 88 Vgl. ebenda, S. 220ff.

89] تذكر وثائق الوفيات المتوافرة بين يدي، والمتعلقة بأسرى الحرب من الشمال الإفريقي، من معسكر اعتقال الندين (*Stalag III A Luckenwalde*)، السل، من دون استثناء.

90] اضطر نحو (170) أسير مغربي، في تشرين الأول (1944 م)، في رامرزفير (Ramersweier)، إلى القيام بأعمال الشحن والتفريغ العائدة لقيادة ورشة عمل لمعسكر اعتقال الندين (V F Offenbnburg) التابع للقوات المسلحة. وفضلاً على ذلك تم تخصيصهم، في فرق صغير، بإشراف حارس، للمزارعين، لجني البطاطا. (Boll, a. a. O., S. 57.).

91 Vgl. Recham, a. a. O., S. 222ff. Außer den von Recham genannten Fronststalags hatten auch die Lager 124, 132, 135, 161, 181, 184, 190, 200, 230 und 232 Arbeitskommandos.

92 Vgl. David Killingray, Africans and African Americans in Enemy Hands. In: Bob Moore/Kent Fedorovich (Hg.), Prisoners of War ant their Captors in World War II, Oxford-Washington 1996, S. 181-204; Catherine Akpo, Africains dans les stalags. In: Jeune Afrique 38 (1998) 1934, S. 46-49; Peter Martin, „... auf jeden Fall zu erschießen". Schwarze Kriegsgefangene in den Lagern der Nazis. In: Mittelweg 36, 8 (1999) 5, S. 76-91.

93 Mikołaj Caban, Flucht aus dem Jenseits, Berlin 1971, S. 87.

94 Vgl. Robert Stigler, Rassenphysiologische Untersuchungen an farbigen Kriegsgefangenen in einem Kriegsgefangenenlager. In: Zeitschrift für Rassenphysiologie 13 (1943) 1-2, S. 26-57; Josef Wastl, Anthropologische Untersuchungen an belgischen und französischen Kriegsgefangenen. In: Anzeiger der Akademie der Wissenschaften in Wien. Mathematisch-naturwissenschaftliche Klasse 78 (1941) 13, S. 103-106.

95 Stadtarchiv Schwerin, MB 699. 96 BArch/MArchF, RH 49, Nr. 67.

97 Vgl. ebenda, WF-03/14247, Bl. 305.

98 Vgl. u. a. die Standardwerke von Ulrich Herbert, Fremdarbeiter. Politik und Praxis des „Ausländer-Einsatzes" in der Kriegswirtschaft des Dritten Reiches, Berlin-Bonn 1985 (Neufl. Bonn 1999), und Wilfried Reininghaus (Hg.), Zwangsarbeit in Deutschland 1939-1945. Archiv- und Sammlungsgut, Topographie und Erschließungsstrategien, Bielefeld u. a. 2001.

99 Vgl. Yves Durand, Vichy und der „Reichseinsatz". In: Ulrich Herbert (Hg.), Europa und der „Reichseinsatz". Ausländische Zivilarbeiter, Kriegsgefangene und KZ-Häftlinge in Deutschland 1938-1945, Essen 1991, S. 184-199.

100 Vgl. Jacques Evrard, La déportation des travailleurs français dans le IIIe Reich, Paris 1972, S. 53; Patrick Weil, La France et ses étrangers. L'aventure d'une politique de l'immigration de 1938 à nos jours, Paris 1991, S. 45.

101 Vgl. Jean-Jacques Rager, Les Musulmans Algériens en France et dans les Pays Islamiques, Paris 1950, S. 74ff. Da sich alle folgenden Darstellungen (u. a. Alain Gilette/Abdelmalik Sayad, L'immigration algérienne en France, Paris, 1984, S. 84; Belkacem Hifi, L'immigration algérienne en France. Origines et perspectives de non-retour, Paris 1985, S. 118; Benjamin Stora, Histoire politique de l'immigration algérienne en France,

Paris 1991, S. 206f.) geradezu wörtlich auf diese Quelle beziehen, wird nur sie im folgenden zitiert.

102 *Vgl. Martin Pabst, „Auch vor außergewöhnlichen Maßnahmen ist nicht zurückzuschrecken". Die Fremdarbeiter im Kreis Merseburg während des II. Weltkrieges. Eine Dokumentation, Halle 1997, S. 32.*

103 *Vgl. Rager, a. a. O., S. 77f.*

104 *Vgl. Marion Külow u. a., Archivalische Quellennachweise zum Einsatz von ausländischen Zwangsarbeitern sowie Kriegsgefangenen während des Zweiten Weltkrieges. 2. Aufl., Leipzig 1994 (Veröffentlichungen des Sächsischen Staatsarchivs Leipzig, 4); Zwangsarbeiter in Südthüringen während des Zweiten Weltkrieges. Archivalisches Quelleninventar, Meiningen 1995 (Schriften des Thüringischen Staatsarchivs Meiningen, 2); Frank Schmidt, Zwangsarbeit in der Provinz Brandenburg 1939-1945. Spezialinventar der Quellen im Brandenburgischen Landeshauptarchiv, Frankfurt/M. 1998; Kerstin Bötticher, Spezialinventar Quellen zur Geschichte der Zwangsarbeit im Landesarchiv Berlin (1939-1945), Berlin 2001.*

105 *Vgl. Evrard, a. a. O., S. 53; Rager, a. a. O., S. 75f. Die bei Gillette/Sayad, a. a. O., S. 58, und Hifi, a. a. O., S. 118, genannte Zahl von 16000 dürfte ein (Ab)Schreibfehler sein.*

106 *Vgl. Rager, a. a. O., S. 78.*

[107 ثمة مرجع ألماني يعود إلى عام (1944 م) لا يذكر سوى (5000) من الشمال الإفريقي مقيدين في السلاسل، وبضعة آلاف كانوا يعملون في المشروعات الفرعية الفرنسية لمنظمة تودْت. وعلى كل حال فإن من غير المعقول أن تصح الإفادة التي أدلى بها أحد القياديين في حكومة فيشي بعد الحرب، وهي أن منظمة تودت لم تجند سوى (200) من شمالي إفريقية. (*In: France during the German Occupation 1940-1944. Bd. 2, Stanford 1959, S. 733.*).

108 *Vgl. Franz W. Seidler, Die Organisation Todt. Bauen für Staat und Wehrmacht 1938-1945, Koblenz 1987, S. 133.*

109 *Vgl. BArchB, R 50 I/238, Bl. 11; ebenda, R 50 I/210, Bl. 100ff.*

110 *Vgl. Handbook of the Organisation Todt by the Supreme Headquarters Allied Expeditionary Force Counter-Intelligence Sub-Division MIRS/MR-OT/5/45, Osnabrück 1992, S. 185.*

[111 «في حالة مجموعة التدخل بسكايا (*Einsatzgruppe Biskaya*)، تمّ من أجل الرجال المغاربة، إعداد معسكر لمنظمة تودْت/ ليند يمن في الثكنة الاستعمارية، الفرنسية السالفة، في ميناء بالاكان. (*Seidler, a. a. O., S. 141.*).

112 *Vgl. ebenda, S. 178f.*

113 *Bernd Zielinski, Staatskollaboration. Vichy und der Arbeitskräfteeinsatz im Dritten Reich, Münster 1995, S. 69.*

114 *Vgl. Seidler, a. a. O., S. 165ff.*

115 *Vgl. BArchB, R 50 I/210, Bl. 49.*

116 *Vgl. Seidler, a. a. O., S. 166ff.*

117 *Vgl. BArchB, R 50 I/209, Bl. 32.*

118 *Zu dieser für die soziale Betreuung französischer, darunter nordafrikanischer OT-Arbeiter 1943 geschaffenen „Parallelorganisation zur OT-Frontführung" vgl. Seidler, a. a. O., S. 155.*

119 *Vgl. BArchB, R 50I/209, Bl. 33.*

120 *Vgl. SStArchL, Metallguss GmbH Leipzig, Nr. 11.*

[121 كما في حالة الجزائري سعيد فرقان الموظف في شركة دايملر-بـ في غ هاغن. (*Vgl.* *BrLHArchP, Pr.Br.Rep.20 B Arbeitsamt Luckenwalde, Nr. 2, Bl. 93(RS).*).

[122 وهذا وحده يدحض ادعاء غِيوم أن «كل أفارقة الشمال» المنتمين إلى خدمة العمل الإلزامي ظلوا بمنجاة عن ذلك. (*Vgl. Guillaume, a. a. O.*).

123 Vgl. BrLHArchP, Pr.Br.Rep.6 B Cottbus, Nr. P 1184.

124 Vgl. SStArchL, ASW Espenhain, Nr. 340.

125 Vgl. BrLHArchP, Pr.Br.Rep.75 AEG Hennigsdorf, Nr. 24, Bl. 17.

126 Vgl. ebenda, Pr.Br.Rep.75 Lehmanns Witwe & Sohn, Tuchfabrik Guben, Nr. 498.

127 Vgl. Archivum Pańѕtwowe w Katowicach, oddzial w Oświęcimiu, coll. Bürgermeister Auschwitz 1/59, Bl. 59.

128 Vgl. Evrard, a. a. O., S. 268; Karl Heinz Roth, I.G. Auschwitz. Normalität oder Anomalie eines kapitalistischen Entwicklungsursprungs? In: „Deutsche Wirtschaft“. Zwangsarbeit von KZ-Häftlingen für Industrie und Behörden, Hamburg 1991, S. 86f.

[129 كان من بين السبعة عشر من العرب المدفونين في المقبرة الإسلامية، وفي مقابر برلين-فرو هناو، وبرلين-هيلغ يه وحدهُن، خمسةٌ ماتوا من جراء «إصابات ألحقها العدو بهم». (*Vgl.* *Senatsverwaltung für Stadtentwicklung und Umweltschutz, Abt. Gräberwesen, Grundliste 14 l sowie Listen 20a und 20b*).

130 Vgl. Durand, a. a. O., S. 191.

131 Vgl. Charles-Robert Ageron, Les populations du Maghreb face à la propagande allemande. In: Revue d'Histoire de la Deuxième Guerre Mondiale 29 (1979) 114, S. 22; Mahfoud Kaddache, Histoire du nationalisme algérien. Bd. 2, Algier 1993, S. 624ff.

132 Vgl. PArchAAB, Botschaft Paris, Nr. 1116c.

[133 أصدر الصحيفة القومي التونسي يوسف الرويسي. للمزيد عن الموضوع وعنه انظر ‹عبد الجليل التميمي (محررًا): كتابات ومذكرات المناضل يوسف الرويسي السياسية مع وثائق جديدة تنشر لأول مرة. زاغوان 1995›.

134 Vgl. PArchAAB, R 47666.

135 Zu ihm vgl. Gerhard Höpp, Texte aus der Fremde. Arabische politische Publizistik in Deutschland, 1896-1945. Eine Bibliographie, Berlin 2000, S. 59.

136 Vgl. PArchAAB, R 27327.

137 Vgl. Senatsverwaltung für Stadtentwicklung und Umweltschutz, Abt. Gräberwesen, Liste 20 B, S. 40.

138 Vgl. BrLHArchP, Pr.Br.Rep. 6 B Cottbus, Nr. P 1184. Zur Rolle der PPF in Algerien vgl. Mostéfa Haddad, L'Algérie de l'entre-deux-guerres: Crise economique et action de propagande des groupuscules d'extrème-droite française dans le Constantinois au cours de années trente. In: Mélanges Charles-Robert Ageron. Bd. 1, Zaghouan 1996, S. 306ff.

139 Vgl. BArchB, Sammlung Research (ehem. BDC), Nr. 813.

140 Vgl. SStArchL, ASW Espenhain, Nr. 310.

141 Vgl. BrLHArchP, Pr.Br.Rep.75, IG Farben, Werk Premnitz, Nr. 1707.

142] الظاهر أن جورج بن أ أصبح رابط الجأش، وعلى كل حال فقد كان في عام (1944 م) مسجلاً في السجن البديل، وفي شارع ريبك في لايبتسغ. (*Vgl. Thüringisches Staatsarchiv Gotha (ThStArchG), Amt Schönstedt, Nr. 53, Bl. 186. Vgl. SStArchL, Untersuchungshaftanstalten Leipzig, Nr. 1061*).

143 Vgl. Geheimes Staatsarchiv, Berlin (GStArchB), XVIII. Hauptabteilung, Anhang C, Nr. 10, Bl. 72.

144 Vgl. Senft/Więcek, a. a. O., S. 203f.

145 Zu dieser Form der „Resistenz“ vgl. Herbert, a. a. O., S. 344ff.

146 Vgl. BrLHArchP, Pr.Br.Rep.29, Zuchthaus Brandenburg, Nr. 1692.

147 Vgl. BArchB, R 3001, IV g 14/4537/42, Bl. 3ff.

148 Vgl. Landesarchiv Berlin (LArchB), A Rep.358-02, Nr. 89681; BrLHArchP, Pr.Br.Rep.214, Hammer, Nr. 37, Bl. 180.

149 Vgl. SStArchL, Untersuchungshaftanstalten Leipzig, Nr. 420. Siehe dazu die „Verordnung gegen Volksschädlinge“ vom 5. September 1939 in: Reichsgesetzblatt, Jahrgang 1939, Teil I, S. 1679.

150 Vgl. grundsätzlich dazu Stefan Karner, Arbeitsvertragsbrüche als Verletzung der Arbeitspflicht im „Dritten Reich“. In: Archiv für Sozialgeschichte 21 (1981), S. 269ff.; Wolfgang Wippermann, Sanktionierung der Zwangsarbeit: „Arbeitsvertragsbruch“ und „Arbeitserziehungslager“ in Berlin-Brandenburg. In: Winfried Meyer/Klaus Neitmann (Hg.), Zwangsarbeit während der NS-Zeit in Berlin und Brandenburg, Potsdam 2001, S. 85ff.; auch Herbert, a. a. O., S. 344ff.

151 Vgl. grundsätzlich Gabriele Lotfi, KZ der Gestapo. Arbeitserziehungslager im Dritten Reich, Stuttgart-München 2000.

152 Vgl. SStArchL, ASW Espenhain, Nr. 323.

153 Vgl. PArchAAB, R 41484. Zu diesem AEL siehe Nils Aschenbeck/Rüdiger Lubricht/Hartmut Roder u. a., Fabrik für die Ewigkeit. Der U-Boot-Bunker in Bremen-Farge, Hamburg 1995, S. 46f.

154 Vgl. (tm)StArchW/AdR, Häftlingsbuch des ehem. „Gestapo“ Arbeitserziehungslagers „Ober Lanzendorf“, Gefangenen-Buch B, 1.1.1944-13.7.1944. Siehe auch Heinz Arnberger, Das Arbeitserziehungslager Oberlanzendorf. In: Widerstand und Verfolgung in Niederösterreich 1934-1945. Bd. 2, Wien 1987, S. 573-586.

155 Vgl. SStArchL, Polizeipräsidium Leipzig, Gefangenentagebücher des Polizeigefängnisses, Nr. 8524 und 8525.

156 Vgl. Staatsarchiv Stade, Rep.171 Verden, acc. 66/88. Siehe auch Rolf Wessels, Das Arbeitserziehungslager in Liebenau 1940-1943, Nienburg 1990, S. 32.

157 Vgl. BArchB/Stiftung Archiv der Parteien und Massenorganisationen der DDR (SAPMO), By 5/V 279/109; Gedenk- und Dokumentationsstätte KZ Drütte.

158 Vgl. BrLHArchP, Pr.Br.Rep.29, Zuchthaus Brandenburg, Do 5, Bl. 61(RS); Thüringisches Staatsarchiv Meiningen (ThStArchM), Zuchthaus Untermaßfeld, Gefangenenkartei.

159 Vgl. ThStArchM, Zuchthaus Untermaßfeld, Gefangenenkartei.

160 Siehe Katharina Witter, Das Zuchthaus Untermaßfeld 1813-1945. In: Archiv und Regionalgeschichte. 75 Jahre Thüringisches Staatsarchiv Meiningen, Meiningen 1998, S. 255-294.

161 Vgl. PArchAAB, R 27327.

162 Zu diesem Lager siehe Wolfgang Wippermann, Nationalsozialistische Zwangslager in Berlin II. Das „Arbeitserziehungslager“ Wuhlheide. In: Wolfgang Ribbe (Hg.) Berlin-Forschungen II, Berlin 1987, S. 179-188.

163 Vgl. PArchAAB, R 41532. Sh. wurde am 1. Juni 1944 „entlassen“. Vgl. ebenda, R 41535.

164 Vgl. BArchB, R 3001, Iv g 11/2225/44, Bl. 1-24.

165 Vgl. Dokumentationsarchiv des österreichischen Widerstands, Nr. 11240.

166 Vgl. ebenda, Nr. 6939.

167] (*Vgl. ebenda, Nr. 7384.*). وكان للمسألة مثال آخر: فحين حُكم، في (09/06/ 1943 م)، على النمساوية لدملا ز، بسبب التحضير للخيانة العظمى، أخذت عليها المحكمة، ضمن أمور أخرى، أنا أعانت زوجة أُتمار التي كانت تعاني في محنتها. (*Vgl. ebenda, Nr. 8274*).

168 Vgl. ThStArchG, *Kreisamt Eisenach, Nr. 307, Bl. 47ff.*

169 Vgl. William J. M. Mackenzie, The Secret History of SOE: The Special Operations Executive 1940-1945, London 2002.

170 Vgl. Albert Ouzoulias, Die Bataillone der Jugend, Berlin 1976, S. 58 und 67.

171 Vgl. Philippe Wacrenier, Le réseau Vélite et le corps franc Liberté. In: Raymond de Lassus Saint Geniès, Si l'écho de leurs voix faiblit..., Paris 1997, S. 147ff.

172 Vgl. Dominique Lormier, Histoire de la France militaire et résistante. Erster Teil: 1939-1942, Monaco 2000, S. 264.

173 Vgl. Dictionnaire biographique du mouvement ouvrier français (DBMOF). Bd. 32, Paris 1988, S. 368.

174 Vgl. ebenda. Bd. 42, Paris 1992, S. 232.

175] انظر ‹مذكرات مصالي الحاج (1898-1938 م)، باريس 1984 م، ص 190-1، و218-9›. نال إجازة الدكتوراه عام (1926 م) في باريس، في موضوع ‹دراسات في الإيجار والاستئجار، للمدى البعيد، والدائم، في العالم الروماني›، ونشر، بعد عام، كتابه الذي أهداه إلى والديه وإلى زوجه اليهودية، «تاريخ عدالة سادة الإقطاع والنبلاء في فرنسة، الأصول الرومانية».

176] قارن: فؤاد حداد، حكمت المر: الشاهد اللبناني. مجلة ‹الطريق. 1/24/1/1941›.

177 Vgl. Serge Klarsfeld, Le Livre des Otages, Paris 1979, S. 50.

178 Vgl. ebenda, S. 90.

179 Vgl. Denis Peschanski, Des étrangers dans la résistance, Paris 2002, S. 111.

180 Vgl. Jean-Luc Einaudi, Un Algérien: Maurice Laban, Paris 1999, S. 44ff. und S. 60.

181 Vgl. Christine Levisse-Touzé, Les camps d'internement en Afrique du Nord pendant la seconde guerre mondiale. In: Mélanges Charles-Robert Ageron. Bd. 2, Zaghouan 1996, S. 601-608.

182 Sein Erlebnisbericht „Mémoire. Trois années de camp. Un an de camp de concentration, deux ans de centre disciplinaire Djenien-Bou-Rezg, Sud oranais, 1940 à 1943 (régime Vichy), Sétif 1965“ war mir leider nicht zugänglich.

183 Vgl. Yves Maxime Danan, La vie politique à Alger de 1940 à 1944, Paris 1963, S. 40ff.; André Moine, La déportation et la résistance en Afrique du Nord (1939-1944), Paris 1972, S. 189f.

184 Vgl. Benjamin Stora, Dictionnaire biographique de militants nationalistes algériens. E.N.A., P.P.A., M.T.L.D. (1926-1954), Paris 1985, S. 174f.

185 Vgl. Lothar Gruchmann, „Nacht- und Nebel"-Justiz. Die Mitwirkung deutscher Strafgerichte an der Bekämpfung des Widerstandes in den besetzten westeuropäischen Ländern 1942-1944. In: Vierteljahrshefte für Zeitgeschichte 29 (1981), S. 344ff.

186 Zit. in Volker Schneider, Waffen-SS SS-Sonderlager „Hinzert". Das Konzentrationslager im „Gau Moselland" 1939-1945, Nonnweiler-Ötzenhausen 1998, S. 144.

187 Vgl. Gruchmann, a. a. O., S. 348ff.

188 Vgl. Przemyslaw Mnichowski, Oboz koncentracyjny i wiezienie w Sonnenburgu (Sl¢nsku) 1933-1945, Warschau 1982, S. 93.

189] من الممكن أن يكون اعُتقل أيضـًا على أساس «مرسوم شِرله» المؤرخ في (02/03/ 1944 م)، لمعاملة منتمين، معينين للمقاومة، من حيث المبدأ، بصفتهم «رجال عصابات». (*Vgl. Service des Victimes de la Guerre, Brüssel, Zuchthaus Brandenburg. Vgl. Ahlrich Meyer, Die deutsche Besatzung in Frankreich 1940-1944. Widerstandsbekämpfung und Judenverfolgung, Darmstadt 2000, S. 129.*).

190 Vgl. BrLHArchP, Pr.Br.Rep.29, Zuchthaus Brandenburg, Do 8, Bl. 11; ebenda, Pr.Br.Rep.35 H, Nr. 2, Bl. 38a; ebenda, Ld.Br.Rep.214, Hammer, Nr. 16.

191 Vgl. Jean Degroote, Prisons de la Gestapo et camps de concentration, Steenvorde 1995, S. 23.

192] في هذا الموضع أتقدم بالشكر الصريح للمتعاونات والمتعاونين لما قدموا إلي من المساندة المنطوية على الشهامة، والخبرة بالأمور، في أبحاثي بصدد المواقع التذكارية لمعسكرات الاعتقال في آوشفتس، وبرغن، ـِبلزن (ولا سيما السيد هورستمن (*Horstmann*))، والسيدة شتاين (*Frau Stein*)، وفُلسنبرغ (السيد سكريبليْت، والسيد إيبل / *Skriebeleit, Ibel*) وفي غروس-روزن، وماوتاوزن، ومتلباو-دورا (السيدة ينِشفسكي، والسيد فاغنر، والسيد مرتِ / *Janischefski, Wagner, Mertens*) ونوينغمه (السيد رمرز/ *Römmers*) وأستهوفن (السيدة فالتر/ *Walter*)، ورافِ برك (السيدة شندلر زفكوف، والسيدة شنل/ *Schindler-Saefkow, Schnell*)، وزكسنهاوزن، (السيدة شفارتس، والسيدة ليبشر/ *Schwarz, Liebscher*) وشُتتهُف، وكذلك سجين نتسفايلر، السالف، وسجين دخاو، إرنست غلن (*Gillen*)، في هوفالد (*Howald*) باللكسمبورغ.

193 Vgl. Gerhard Höpp, „Gefährdungen der Erinnerung": Arabische Häftlinge in nationalsozialistischen Konzentrationslagern. In: asien, afrika, lateinamerika 30 (2002), S. 373-386.

194 Die Herkunft der restlichen Häftlinge konnte noch nicht geklärt werden.

195 Vgl. GStArchB, XIII. Hauptabteilung, Groß-Strehlitz, Paket 371/1 A und 372 A.

[196 (*Vgl. Stora, Dictionnaire biographique, a. a. O., S. 45f.*). حين سئل بنون، في مستهل السبعينيات، في أثناء استبيان أجرته المكتبة الوطنية الجزائرية، بعنوان ‹التاريخ الشفوي، بين المحاربين القدماء في حرب التحرير›، كان من المؤسف أن منفذ المقابلة الصحفية شطب عند نشر النتائج «فقرات الرواية» التي تتناول حياة الجزائريين في فرنسة الواقعة للاحتلال الألماني، وبذلك شطب أيضـًا موضوع اعتقال بّنون في معسكرات الاعتقال. (*Vgl. Mahmoud Bouayed, L'histoire par la bande. Une expérience de la Bibliothèque Nationale d'Algérie, Algier 1974, S. 31ff.*).

197 *Zu diesem Außenlager siehe Nils Aschenbeck/Rüdiger Lubricht/Hartmut Roder u.a, a. a. O., S. 47ff.*

198 *Vgl. DBMOF. Bd. 20, Paris 1983, S. 35.*

199 *Vgl. Gerhard Höpp, Salud wa Salam. Araber im Spanischen Bürgerkrieg. In: INAMO 9 (2003) 33, S. 53-55.*

200 *Manuel Razola/Mariano C. Campo, Triángulo azul. Los republicanos españoles en Mauthausen, 1940-1945, Barcelona 1979, S. 321, geben irrtümlich den 9. April 1941 als Fluchtdatum an.*

[201 قارن هذا بمقولة كاترين غرايزر: «وماتوا وحيدين بدوء، من دون أن يصرخوا أو ينادوا أحدًا، وكان يوجد، في المعسكر الصغير»، فيما بين أيار عام (1943 م) وكانون الثاني عام (1945 م)، على الأقل، (18) معتقلاً عربيـًا، مات منهم خمسة على الأقل. (*In: Dachauer Hefte 14 (1998) 14, S. 102-124.*).

[202 ويستفاد من قرار صادر عن المحكمة الإدارية العليا في سكسونيا، في (1937/11/20 م) أن «الأجنبي نوعـًا» يمكن إبعاده عن الرايخ أيضـًا بسبب «تعرضه للخطر لقاء العنصر الألماني». (*Reichsgesetzblatt, Jahrgang 1934, Teil I, S. 213f. Vgl. Juristische Wochenschrift. 67 (1938) 11, S. 704.*).

203 *Vgl. BArchB, R 58/270, Bl. 82.*

204 *Vgl. Rachel Simon, It Could Happened There: The Jews of Libya during the Second World War. In: Africana Journal 16 (1994), S. 391-422. Siehe auch die von der Autorin nicht benutzten Akten in: PArchAAB, R 41507, R 41508 und R 412583.*

[205 لفتت إرنسْت جيلين نظر المؤلف، في (2003/03/20 م)، في سياق آخر، وبالاستناد إلى تجربته الخاصة، إلى أن الفئات الصغيرة، العائدة إلى أمم أخرى، ليس لها مصلحة في أن تُعرف بذه الصفة، إذ أن هذا لم يكن يجدي، بل كان أقرب إلى أن يُلحق الأذى».

206 *Vgl. PArchAAB, R 41483.*

207 *Vgl. Staatsarchiv Hamburg, Tägliche Zu- und Abgänge der Schutzhaftgefangenen im Polizeigefängnis Fuhlsbüttel; ebenda, Gefängnisverwaltung II, UG-Kartei alt, Frauen.*

208 *Vgl. PArchAAB, R 41484.*

209 *Zu diesem Lager siehe Michael Hepp, Vorhof zur Hölle. Mädchen im „Jugendschutzlager“ Uckermark. In: Angelika Ebbinghaus (Hg.), Opfer und Täterinnen. Frauenbiographien des Nationalsozialismus, Nördlingen 1987, S. 191-216.*

210 *Vgl. BArchB, Film 41351, Bl. 616.*

211 *Zu diesem Lager siehe Zwangsarbeiter- und Kriegsgefangenenlager. Standorte und Topographie in Berlin und im brandenburgischen Umland 1939 bis 1945. Eine Dokumentation, Berlin 2001, S. 177.*

212] من الممكن أن تكون المسألة تتعلق بالتونسي أحمد بن أ، المولود في عام (1898 م)، والقادم من نوينغمه، والذي، بالطبع، لم يثبت المحرر موته المفترض. (*Vgl. Archiv Sachsenhausen, JD 22/2, Bl. 52f.*).

213 *Gillen an den Autor, 20.3.2003.* 214 *Vgl. Archiv Sachsenhausen, a. a. O.*

215 *Vgl. Pierre Durand, Les armes de l'espoir. Les Français à Buchenwald et à Dora, Paris 1977, S. 292ff. und 304f.*

216 *Vgl. ebenda, S. 298ff.*

217 *Hermann L. Gremliza, „Ein skandalöser Text". In: Israel, die Palästinenser und die deutsche Linke, Beiträge einer Tagung der Marx-Engels-Stiftung/ Wuppertal, Essen 2002, S. 58.*

9] التاريخ في حمأة الصراع (279-304)

1 *Azmi Bishara, "Die Araber und der Holocaust – Die Problematisierung einer Konjunktion", in: Der Umgang mit dem Holocaust. Europa – USA – Israel, Rolf Steininger (Hg.) (Wien: Böhlau Verlag, 1994), S. 407.*

2 *Bishara, Die Araber und der Holocaust, S. 407.*

3 *Bishara, Die Araber und der Holocaust, S. 409.*

4 *Anders als Bishara und Saghiyeh, die in der ägyptischen Presse keine exponierte Stellung einnehmen, veröffentlichte sowohl al-Ahram als auch al-Ahram Weekly regelmäßig Kolumnen Saids. Seine Artikel sind immer wieder Gegenstand von Diskussionen in der ägyptischen Öffentlichkeit.*

5] وخلافـًا لعزمي بشارة وصاغيّة، اللذين لا يتخذان موقفـًا مكشوفـًا في الصحافة المصرية، نشرت كل من الأهرام، والأهرام ويكلي، بصورة منظمة، أعمدة سعيد، وظلت مقالاته تغدو المرة بعد الأخرى، موضوعـًا للمناقشات في صفوف الجمهور المصري ظهر هذا المقال في (1997/12/18 م) في صحيفة الحياة التي تصدر بالعربية (لندن). أما المقال الذي كتبه صاغية مع زميله التونسي، صالح بشير، فقد تم تكريمه بجائزة صندوق لوري للصحافة التمحيصية. (*Hazem Saghiyeh/Saleh Bashir, Universalizing the Holocaust. In: Palestine-Israel Journal, 5 (1998) 3-4, S. 96.*).

6] حازم صاغية، الدفاع عن السلام، بيروت (1997 م)، دار النهار، ص (64).

7 *Saghiyeh/Bashir, Universalizing the Holocaust, S. 97.*

8 *Vgl. Esther Webman, "Rethinking the Holocaust: An Open Debate in the Arab World", in: Anti-Semitism Worldwide 1998/9, Stephen Ross Institute (Hg.) (Tel Aviv: Tel Aviv University, 1999) und Rainer Zimmer-Winkel (Hg.), Die Araber und die Shoa (Trier: AphorismA, 2000).*

9] انظر حوار ديفد إيرفنغ، في برنامج: بلا حدود، أحمد منصور، (2000/12/11 م) على قناة الجزيرة.

[10] ظهرت دراسة نقدية للكتاب بقلم عبد الوهاب المسيري، في (2000/11/9 م) في (*al Ahram Weekly*). ويختتم المسيري دراسته النقدية التي يردّ فيها نقد فِنكلشتاين ل(صناعة المحرقة) إلى منظمة يهودية، بالكلمات التالية: «وبذلك تم تحويل المحرقة النازي إلى أيقونة لا تَمُت بصلة إلى معاناة الإنسان، وإلى شاشة من الدخان، تخفي الأعمال العدائية المرتكبة بحق الإنسان، وهذا هو الإنكار القيّم للمحرقة» وفي الطبعة ذاتا يتم إجراء مقابلة صحفية مع فنكلشتاين، من قِبل أميمة عبد اللطيف.

[11] ومن هذه النصوص التي يناقش فيها نفوذ الأيديولوجية النازية بين المثقفين العرب: أحمد عبد الحليم عطية، عبد الرحمن بدوي: من النازية إلى الليبرالية. في رفاق عربي (2000 م) (18)، ص (21-39) (بالعربية).

[12] ظهرت في مصر كتب لا يحصيها العد، تتخذ فيها النازية موضوعــًا يصلح ليكون أساســًا لنقد الصهيونية. انظر: المحرقة، أكذوبة المحرقة (الهولوكوست)، ومحاولة إحراق غارودي، في: محمد الغياطي، إسرائيل تسرق الفن المصري، القاهرة (1997 م) (بالعربية)، اليهود وألمانيا، في: حمدي الطاهري، اليهود ودولتهم، القاهرة (2001 م) (بالعربية)، زولا، فُرسن، غارودي، وقضاة التحقق، في: أشرف الدباغ، خطايا إسرائيل، الصهيونية وانيار الاتحاد السوفياتي، القاهرة (2000 م). مراسم الدفن التي لا تنقضي ولا تفنى أبدًا، في: محمد جلال عنية: النفوذ اليهودي في أمريكا، القاهرة، (2001 م)، ومصطفى محمود، إسرائيل النازية ولغة المحرقة، القاهرة (2001 م). أما الكتب الأخرى التي يَرِدُ فيها ذكر النازية فتناول بالمناقشة شخصيات القرن العشرين، ولنذكر هنا، على سبيل المثال، الفصل الخاص بأدولف هتلر، في: أحمد حسن، أسرار العالم، القاهرة، (2000 م).

13 Vgl. zu älteren Auseinandersetzungen mit dem NS u.a. Stefan Wild, "National Socialism in the Arab Near East Between 1933 and 1939", Die Welt des Islams, Vol. 27, 1985, S. 126-173 und Edmond Coa-Van-Hoa, „Der Feind meines Feindes ..." Darstellungen des nationalsozialistischen Deutschlands in ägyptischen Schriften (Frankfurt/Main: Europäische Hochschulschriften, 1990).

[14] يستفاد من التقارير الصحفية أنه قد شارك في اجتماع واحد فحسب في عمان، نحو (1000) شخصية، انظر (The Star)، عمان، (1996/8/8 م).

15 Vgl. für einen detaillierten Überblick über verschiedene Argumentationsmuster in der Debatte: Goetz Nordbruch, „Leugnungen des Holocaust in arabischen Medien: Reaktionen auf ‚Die Gründungsmythen der israelischen Politik'", in: Wolfgang Benz (Hg.), Jahrbuch für Antisemitismusforschung 10 (Campus: Berlin), 184-203. Seit der Verurteilung Garaudys sind zahlreiche weitere Übersetzungen seiner Bücher erschienen.

[16] محمد حسنين هيكل، مقدمة لكتاب غارودي ‹الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، القاهرة (2000 م)، ص (5-11)›. وقد ظهرت ترجمة إنغليزية لمقدمة حسنين هيكل في مجلة اليمين المتطرف (*The Journal for The Historical Review, 2000*).

17 al-Ahram Hebdo, 04.-10.02.1998 und al-Ahram, 02.02.1998.

18 IHR statement „Beirut Conference", 24.12.2000.

19] ومنذ المؤتمر الذي انتهى إلى الإخفاق في بيروت، أخذت اتصالات ممثلي الحقوق العربية والأمريكية مع العرب تتحول من وجوه عديدة إلى موضوع للنقد في وسائل الإعلام العربية. وهكذا ظهرت سلسلة من المحاورات التلفزيونية (أكثر من رأي) التي يديرها سامي حداد في قناة الجزيرة ذات الشعبية، بعنوان: بدلاً من «الحقوق الغربية لمتطرفة، وأشكال تعاطف القوى العربية». وقد سأل حداد في هذه الأثناء الضيوف المدعوين الثلاثة عن ماهية الدوافع التي جعلت أجزاء من الجمهور العربي يتعاطف مع ألوان نجاح أحزاب اليمين المتطرف في النمسا وسويسرا وفرنسا، انظر في صدد أهمية مراجعة التاريخ في هذه المقاربات، غتس نوردبُرخ، محاولة لتدويل إنكار المحرقة، في: التقرير السنوي لمركز فيدال ساسّون الدولي لدراسة معاداة السامية، تشرين الأول (2001 م).

20] يقيم غراف، كما يُستَفاد من تقارير وسائل الإعلام، بعد إدانة في سويسرا، في طهران، بصورة مؤقتة، وقد أخبرت مجلة «الوطن العربي» بالاستناد إلى دبلوماسيين أوربيين، أن إيران دفعت بتنظيم المؤتمر قُدُمـًا، إلى الأمام، ومولته، وأن الزعماء الدينيين في إيران طالبوا حزب الله بمساندة تنظيم هذا المؤتمر. انظر: الوطن العربي (2001/4/6 م).

21 *Jürgen Graf, Holocaust Revisionism and its Political Consequences (Teheran: n.p., 2001).*

22] (Le Monde, 15.03.2001). عمد إدورد سعيد ومحمود درويش، اللذان عينهما الموقعون على الرسالة، إلى النأي بنفسيهما، فيما بعد بالطبع، وأعلنا أنهما لم يكونا على علم بمضمون الرسالة. انظر في هذا الصدد مقابلة صحفية مع درويش، في القناة التلفزيونية اللبنانية (LBC)، طبعت بعد ذلك في مجلة الدراسات الفلسطينية 48، (2001 م)، ص (7-23)، وكذلك البريد الإلكتروني. من إدورد سعيد إلى الصحفية سماء أبو شرار، بتاريخ (2 نيسان، 2001 م) نشر تحت رقم (010402) .www.ihr.org/conferece/beirutconf/said.html.

23] أخبار الأدب، يظهر أسبوعيـًا، ويُحَرر من قبل دار أخبار اليوم التي تخضع لسيطرة الحكومة.

24] أخبار الأدب، (2001/4/12 م). 25] الموضع ذاته، (2001/4/22 م)

26] الموضع ذاته (2004/4/22 م). 27] الموضع ذاته (2001/4/9 م).

28] الموضع ذاته، (2001/6/17 م). 29] الموضع ذاته (2001/7/15 م)

30] ضمن مراجع أخرى، في الميدان (2001/5/8 م).

31] في محاورة تلفزيونية في قناة الجزيرة أدارها فيصل القاسم مع الصحفية الأردنية حياة الْحَويك عطية، والمثقف التونسي، العفيف الأخضر حول سؤال: أيهما أسوأ النازية أم الصهيونية؟. وشارك في الإرسال، بالهاتف، بإسهام مطول في الحديث، رُبرت فُرِسن. وبينما كانت عطية تطرح الأطروحة القائلة إن الصهيونية أشد وبالاً من النازية عارضها الأخضر وانتقد استعداد المثقفين العرب لوضع أنفسهم، مثل عطية، تحت التصرف بصفة مشاركين في مؤتمر بيروت. وأسفرت عملية استطلاع لآراء المشاهدين في صدد موضوع الإرسال، عن أن أكثر من (84%) من الذين أجابوا، كانوا يرَوْن في الصهيونية تصعيدًا للنازية (2001/5/15 م).

[32 عبد الوهاب المسيري، الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ، القاهرة (1997 م) (بالعربية).
[33 الجديد في عالم الكتب والمكتبات (مقابلة صحفية) شتاء (1997 م) ص (45).
[34 يفصل المسيريّ القول في عرض هذه الأطروحة: في الصهيونية، والنازية ونهاية التاريخ، الموضع المشار إليه ص (277)، غير أنه يورد ذلك في مقابلات مختلفة من جديد.
[35 العربي (2001/7/29 م). [36 الموضع ذاته (2001/4/29 م).
[37 الموضع ذاته (2001/5/6 م). [38 الموضع ذاته (2001/5/6 م)
[39 الموضع ذاته (2001/5/6 م). [40 القاهرة (2001/9/4 م)
[41 الموضع ذاته (2001/8/28 م). [42 الأهرام ويكلي، (2001/4/26 م).
[43 اتحاد المحامين العرب، عنصرية الصهيونية القاهرة (2001 م) انظر مقالة للسلماوي، تبدأ بقوله: سواءٌ علينا أكانت المسألة بالعنصرية أم بالنازية، لـرد أن يقرر في الختام، أن المسألة لا تقوم على مساواة بين الصهيونية والعنصرية، بل على سياسة الاضطهاد النازي والإسرائيلي. انظر الأهرام (2002/9/3 م).
[44 انظر في هذا الصدد أحدث المناقشات حول أفلامٍ مثل لائحة شِنْدلَر، وعازف البيانو، التي يؤخذ عليها أن المحرقة يتطور فيها ليغدو موضوعـًا محوريـًا في إنتاج الفيلم في هوليوود. وممّا يماثل ذلك أيضـًا، المناقشة التي تدور حول جائزة نوبل في الأدب التي ذهبت في السنة الأخيرة إلى الكاتب الـري، إمري كيرتيتش. وذلك أن منح الجائزة لمن يأخذ من المحرقة موضوعـًا في كتبه تعرض، مثلاً، للنقد في مجلة أخبار الأدب. فمن عسى أن يكون المسؤول عن تحول جائزة نوبل إلى جائزة محرقة؟. في «أخبار الأدب» (2002/10/2 م).
[45 من الإسهامات المصرية القليلة، التي تذكر فيها النازية والمحرقة بصريح العبارة، والتي لم تظهر إلا منذ عهد قريب، في الأهرام ففي مقالة مقسمةٍ أجزاءًا للمستشار السياسي الأعلى للرئيس حسني مبارك، أسامة الباز، يُعْرِب هذا فيها عن نقد حاد لأحدث المنشورات المعادية للسامية في وسائل الإعلام المصرية، ومنها حالاتُ إنكار المحرقة. على أن حقيقة أن أسامة الباز يتقدم شخصيـًا للحديث توضح مدى القيمة التي توليها الجهات الحكومية أيضـًا لهذه المناقشات انظر: الأهرام (23) (2002/12/25 م).
[46 انظر الأهرام ويكلي، (2002/10/26 م).

10] استحضار الماضي (305-342)

[1 كلمة (shoa) عبرية وتعني (الكارثة الكبرى) وهذا المفهوم الذي سوف أستعمله فيما يلي لأسباب شتى يفضل على كلمة (المحرقة)، وهو يمثل شيئًا فشيئًا، النظرة الداخلية اليهودية، تمثيلاً أولى بالاعتبار كثيرًا من مفهوم. المحرقة الذي تم نحته في الولايات المتحدة، ويضاف إلى ذلك أن الإتيمولوجيا في حالة (المحرقة) لا تشير إلى ما يناسب مع الموضوع، فهذه الكلمة التي يرجع أصلها إلى اليونانية تشير إلى تضحية دينية كاملة، تحرق احتراقـًا كاملاً لتحظى بقبول الرب. والقتل الذي يرتكب بحق اليهود الأوربيين والأوربيات

يصبح مع هذا المفهوم شأنًا شبيهًا بالطقس المقدس، مع كون اليهود واليهوديات ضحايا وكون النازيين يرتقى بم إلى مرتبة الكهنة ومن هنا تبدو التسمية بكلمة (shoa) هي الأكثر ملائمة.

2] هذا المفهوم يتضمن التجربة العربية الفلسطينية المنطوية على الهزيمة في سياق الحرب الإسرائيلية العربية الأولى عام (1948 م) وما واكبها من طرد مئات الألوف من الفلسطينيين وهربم من فلسطين، وتدمير الكثير من القرى وكذلك تأسيس دولة إسرائيل، وقد أوصت الجمعية العامة للأمم المتحدة في (29 تشرين الثاني 1947 م) تقسيم منطقة الانتداب الفلسطينية إلى دولة يهودية ودولة عربية وبناء على ذلك خصصت للدولة الفلسطينية المستقبلية (43%) للدولة اليهودية (56%) من منطقة الانتداب، وشكلت القدس الدولة (1%) وبعد الحرب الإسرائيلية العربية الأولى، والهزيمة العربية. استطاعت إسرائيل أن توسع على طول خطوط الهدنة أرض دولتها الخاصة، من (14100) كم^2-كما كان ذلك مرصودًا لها في خطة التقسيم، إلى (20700) كم^2، انظر ‹*Timm, p. 69*›.

3] يفيد تقرير المجلة المستقلة «بيتوين ذي لاين» أن عدد القتلى الفلسطينيين من جراء هجمات الجيش الإسرائيلي، بلغ (1790) (الموافق في تشرين الأول 2002 م)، بينما تفيد البيانات الرسمية للحكومة الإسرائيلية منذ أيلول (2000 م) حتى اليوم (كانون الأول 2002 م) أن (693) إسرائيليًا قتلوا من جراء الهجمات الفلسطينية (بيتوين ذي لاين) (2002) (19) ص (19).

3 Nach einem Report des unabhängigen Magazins „Between the Lines" beträgt die Zahl palästinensischer Todesopfer durch Angriffe des israelischen Militärs 1790 (Stand Oktober 2002), während nach offiziellen Angaben der israelischen Regierung seit September 2000 bis heute (Dezember 2002) 693 Israelis durch palästinensische Angriffe umgekommen sind (Between the Lines III (2002) 19, S. 19); www.israel.gov.il, 21.12.2002.

4 Zoughbi-Zoughbi, im Gespräch mit d. V., 2002.

5 In seinem 1988 verfassten Artikel „The New Historiography: Israel confronts its Past", der in der Zeitschrift Tikkun erschien, führte Morris den Begriff „neue Historiker" ein. Im Folgenden verstand man darunter all jene kritischen Akademiker in Israel, die begonnen hatten, die zionistisch-hegemoniale Geschichtsschreibung zu hinterfragen. Die „neuen Historiker" bildeten jedoch zu keinem Zeitpunkt eine inhaltlich homogene Gruppe.

6 Morris 2002, S. 99. 7 Pappe 2000.

8 Vgl. Halbwachs 1985.

9 Der Begriff wird als Sammelbegriff für unterschiedliche Konzeptionen des kollektiven Gedächtnisses verstanden. Zu differenzieren sind vor allem kommunikatives und kulturelles Gedächtnis, wovon noch die Rede sein wird.

10 Vgl. Halbwachs, S. 121.

11 Unter dem Begriff des Kollektiven ist in diesem Zusammenhang nicht der bewusste und freiwillige Zusammenschluss von Menschen zu verstehen. Vielmehr bezieht sich mein Kollektivbegriff auf die imaginierte Gemeinschaft einer Nation, deren Zusammengehörigkeitsgefühl nicht auf

real erlebten Beziehungen (Gruppe), sondern auf der unbewussten Annahme von Gleichheit und Zugehörigkeit der in die Nation einbezogenen Individuen und der Abgrenzung zu anderen Nationen basiert und sich selbst zu einer homogenen Gruppe stilisiert (vgl. Gellner 1983; Anderson 1991, Hobsbawm 1991).

12 *Vgl. Halbwachs, S. 290.* 13 *Assmann/Hölscher 1988, S. 15.*

14 *Assmann 1995, S. 157.* 15 *Vgl. ebenda.*

16 *Assmann/Frevert 1999, S. 42.* 17 *Zuckermann 2002, S. 111.*

18 *Zuckermann 1998, S. 8; vgl. auch ders 1996, S. 55.*

19 *Vgl. Zuckermann 1998, S. 9.*

20 *Andrei S. Markovits/Simon Reich 1998, S. 35.*

21 *Vgl. Gellner 1983; Hobsbawm 1991; Anderson 1991.*

22 *Lindholm-Schulz 1999, S. 5.* 23 *Vgl. Bhaba 2000, S. 207f.*

24 *Tamari 1997, S. 18.* 25 *Portugali 1993, S. 44.*

26 *Lindholm 1999, S. 6.* 27 *Ebenda, S. 15.*

28 *Vgl. Levy/Sznaider 2001, S. 21.* 29 *Vgl. ebenda, S. 140.*

30 *Vgl. Buber 1986, S. 37.* 31 *Diner 1995, S. 5.*

32 *Vgl. Zuckermann 1998.*

33 *Vgl. Schatzker 1990; Segev 1995; Zuckermann 1998a; Zimmermann 1996, 2002; Friedländer 2001.*

34 *Segev 2002, S. 125.* 35 *Zuckermann 2000, S. 36.*

36 *Timm 1998, S. 3.* 37 *Herzl 1934, S. 125.*

38 *Timm 1998, S. 3f. Die unterschiedlichen Denkrichtungen und Gruppen innerhalb der zionistischen Bewegung zur damaligen Zeit detailliert zu beschreiben, würde den Rahmen dieses Artikels sprengen. Von Bedeutung in meinem Zusammenhang ist der politische säkulare Zionismus, der sich mit der Etablierung des israelischen Staates endgültig durchsetzen konnte. Er ist im Folgenden gemeint, wenn von Zionismus die Rede sein wird.*

39 *722 v.u.Z waren die ersten hebräischen Stammesverbände des Reiches Israel untergegangen. Es folgten babylonische, persische und makedonische Herrschaften, bis nach erneuter jüdischer Staatenbildung im 2. Jahrhundert v.u.Z. das Land 63 v.u.Z. unter römische Oberhoheit kam. Ich setze das vom Zionismus gebrauchte Wort „Wiedergeburt" in Anführungszeichen, weil es auf eine zwangsläufige Verbindung zwischen Vergangenheit und Gegenwart anspielt. Im Gebrauch des politisch verwendeten Wortes „Wiedergeburt" sollen unveräußerliche Rechte auf das Land Israel zum Ausdruck gebracht werden.*

40 *Herzl, zitiert in: Timm 1998, S. 4.* 41 *Arendt 1991, S. 50.*

42 *Nachum Goldmann 1970, S. 387.*

43 *Zeitensprünge im Sinne einer Verbindung zwischen der Gegenwart und einem „goldenen" nationalen Zeitalter leben in zahlreichen Mythen aus einer vorstaatlichen Vergangenheit, an die im 19. und 20. Jahrhundert angeknüpft wurde. In diesem Zusammenhang bekannte Mythen sind die von Masada, die Trumpeldor- sowie die Bar-Kochba-Legende (vgl. hierzu insbesondere die Studien von Yael Zerubavel 1991 und 1995).*

44 *Segev 1995, S. 518.* 45 *Vgl. Zerubavel 1995, S. 25.*

46 *Eisenstadt 1987, S. 145ff.* 47 *Pappe 2002, S. 117.*

48 *Hausner 1977, S. 291.* 49 *Segev 1995, S. 463.*

50 *Im Interview mit der Verfasserin erklärte Segev, dass die Gründe für den Prozess eindeutig politisch gewesen seien. Ursprünglich sei es nicht der*

Zweck gewesen, die Shoah den Menschen in Israel näher zu bringen. Vielmehr sei es wichtig gewesen, der Welt zu zeigen, dass Israel ein Staat sei, der im Namen aller Opfer spräche, und der israelischen Bevölkerung zu demonstrieren, dass man der Shoah gegenüber nicht gleichgültig sei, obwohl man Beziehungen zu Deutschland unterhalte. Parallel hierzu sei zu diesem Zeitpunkt die Unterstützung für Ben Gurions Regierungspartei relativ schwach gewesen und der Prozess konnte ihr als vereinigende, politisch nutzbare, nationale Erfahrung dienen (Segev, 2002: 124ff).

51 *Es würde den Rahmen dieses Artikels sprengen, auf das komplexe Zusammenwirken dieser politischen Faktoren näher ein zu gehen. Ich möchte an dieser Stelle auf die Ausführungen Tom Segevs verweisen (vgl. Segev 1995: 522ff).*

52 *Vgl. Segev 1995.* 53 *Vgl. Morris 1999, S. 252.*

54 *Vgl. u.a. Baumgarten 1991, S. 28 u. 29.*

[55 انظر: دوماني، (1991 م)، جواد، (1996 م)، نصار (2001 م)، تماري (1999 م)، الخالدي، بشارة سعيد.

56 *Sanbar 2002, S. 90.* 57 *Ebenda, S. 90.*

58 *Tamari 1999, S. 2; Sanbar 2002, S. 87ff.*

[59 سعيد، (1994 م)، ص (122).

60 *Ebenda, S. 119.* 61 *Tamari 1999, S. 5.*

62 *Gur-Ze'ev 1998, S. 162.* 63 *Lonni 2002, S. 77.*

[64 يضمن «قانون العودة» الذي ترسخ عام (1950 م) بصورة قانونية، الحق المثبت بصورة احتياطية في غعلان الاستقلال، لكل اليهود واليهوديات في أنحاء العالم، في الاستقرار في إسرائيل، ويستثى من هؤلاء اليهود واليهوديات الذين تورطوا في أنشطة ضد الشعب اليهودي، أو تعرضوا لخطر الصحة العامة والأمن في دولة إسرائيل، وفي آب (1954 م) تم استكمال قانون العودة بتسوية استثنائية أخرى، غذ استبعد من حق العودة أيضـًا اليهود واليهوديات ذوو الماضي الإجرامي الذين يشكلون خطرًا كبيرا على الأمن العام.

أما حق العودة الذي تمت صياغته في الجانب الفلسطيني فيعود على اللاجئين المطرودين في عامي (1948 و 1967 م) وذريتهم ويمكن أن ينظر إلى حق العودة للاجئين على أنه نواة الـ اع وما من شك في أنه ينعكس فيه الظلم الذي تمارسه (إسرائيل ضد الفلسطينيين. ففي كل الاتفاقيات الخاصة بعملية التفاوض في التسعينيات كان حق العودة للاجئين يترك له الـال للبحث فيه فيما بعد. ما في الجانب الفلسطيني فتعكس مناقشات اليوم تطورًا باعثا للاهتمام. ففي حالة المطالبة حق العودة لا تتعلق المسالة بالعودة الفعلية للاجئين إلى إسرائيل أو إلى المناطق المحتلة، بل تتعلق بالاعتراف بالمسؤولية السياسية من جانب إسرائيل وتتم فوق ذلك المرة بعد المرة، الإشارة إلى إمكانية التفاوض على التعامل مع مشكلة اللاجئين.

65 *Vgl. Bar-On 2002.* 66 *Pappe 2001, S. 65ff.*

[67 سعيد (1994 م)، ص (124).

68 *An dieser Stelle möchte ich insbesondere auf die Arbeit von Ronit Lentin aufmerksam machen. In der Auseinandersetzung mit Zionismus und*

Shoahrezeption spricht Lentin von einem „Geschlecht des Schweigens“ und macht auf die geschlechtsspezifischen Vereinnahmungen der Shoah im Zionismus aufmerksam. Dabei spricht sie von einem zeremoniellen Gedächtnis, das einem nationalen Ethos diene und sich an geschlechtsspezifischen Stereotypen orientiere. Darüber hinaus sieht sie eine Verbindung zwischen dem Verschweigen von individuellen Geschichten von Shoah-Überlebenden, die nicht in das hegemoniale Narrativ passten, und dem Verschweigen israelischen Unrechts im Zusammenhang mit der Vertreibung der palästinensischen Bevölkerung 1948 (vgl. Lentin, 2000 und 2001).

69 *Pappe 1999°, S. 90.*
70 *Vgl. Raz-Krakotzkin 2000, S. 196.*
71 *Vgl. Levy/Sznaider u.a.*
72 *Khoury, in: Leenders/Simpfendorfer 1998, S. 19.*
73 *Ebenda, S. 20.*
74 *Said 1998.*
75] انظر أيضـًا، صاغية /بشير (1998/1999 م).
76] بشارة (1994 م).

مراجع الفصل

Abdel-Malek, Kamal/David C. Jacobson, 1999: Israeli and Palestinian Identities in History and Literature, London.

Anderson, Benedict, 1991: Imagined Communities. Reflections on the Origin and Spread of Nationalism, London.

Arendt, Hannah, 1991: Israel, Palästina und der Antisemitismus, Berlin.

Assmann, Aleida/Ute Frevert, 1999: Geschichtsvergessenheit – Geschichtsversessenheit. Zum Umgang mit deutschen Vergangenheiten nach 1945, Stuttgart.

Assmann, Jan, 1995: „Erinnern, um dazuzugehören. Kulturelles Gedächtnis, Zugehörigkeitsstrukturen und normative Vergangenheit“. In: Dabag, Mihran /Kristin Platt (Hg.), 1995: Generation und Gedächtnis. Erinnerungen und kollektive Identitäten, Opladen, S. 51-76.

Assmann, Jan/Tonio Hölscher (Hg.), 1988: Kultur und Gedächtnis, Frankfurt am Main.

Bar-On, Dan, 2001: Die „Anderen“ in uns. Dialog als Mittel zur interkulturellen Konfliktbewältigung, Hamburg.

Bashir, Saleh/Hazem Saghiyeh, 1998/1999: Universalizing the Holocaust. In: Palestine-Israel-Journal V, 3-4 (1998/1999), S. 90-97.

Baumgarten, Helga, 1991: Palästina: Befreiung in den Staat. Die palästinensische Nationalbewegung seit 1948, Frankfurt/M.

Between the Lines, III (Dezember 2002) 19, Jerusalem.

Bhabha, Homi K., 2000: Die Verortung der Kultur, Tübingen.

Bishara, Azmi, 1994: Die Araber und der Holocaust – Die Problematisierung einer Konjunktion. In: Steininger, Rolf (Hg.), 1994: Der Umgang mit dem Holocaust. Europa – USA – Israel. Institut für Zeitgeschichte der Universität Innsbruck, Bd. 1; Wien/Köln/Weimar, S. 407-429.

Bocco, Riccardo u.a. (Hg.), 1997: Palestine, Palestinians: National Territory, Community Spaces, Beirut Centre of Studies and Research into the Contemporary Middle East.

Buber, Martin, 1986: Reden über Erziehung, Heidelberg.

Dabag, Mihran/Kristin Platt (Hg.), 1995: Generation und Gedächtnis. Erinnerungen und Kollektive Identitäten, Opladen.

Diner, Dan, 1995: Individualität und Nationalität. Wandlungen im israelischen Geschichtsbewußtsein. In: babylon, (1995) 15, S. 5-27.

Doumani, Beshara, 1992: Rediscovering Ottoman Palestine. Writing Palestinians into History. In: Journal of Palestine Studies 21, S. 5-28.

Eisenstadt, Shmuel Noah, 1987: Die Transformation der israelischen Gesellschaft, Frankfurt/M.

Friedländer, Saul, 2001: History, Memory, and the Historian: Facing the Shoah. In: Roth, Michael S./Charles G. Salas (Hg.), 2001: Disturbing Remains, Los Angeles, S. 271-281.

Gellner, Ernest, 1983: Nations and Nationalism, Oxford.

Goldman, Nachum, 1970: Staatsmann ohne Staat, Köln/Berlin.

Gur-Ze'ev, Ilan, 1998: The Morality of Acknowledging/Not-acknowledging the Other´s Holocaust/Genocide. In: Journal of Moral Education 27 (1998) 2, S. 161-177.

Halbwachs, Maurice, 1985: Das Gedächtnis und seine sozialen Bedingungen, Frankfurt/M.

Haumann, Heiko (Hg.), 1997: Der erste Zionistenkongreß in Basel 1897. Ursachen, Bedeutung, Aktualität, Basel.

Hausner, Gideon, 1977: Justice in Jerusalem, New York.

Herzl, Theodor, 1934: Gesammelte zionistische Werke, 3. Auflage, Bd. I, Berlin.

Hobsbawm, Eric J., 1991: Nationen und Nationalismus. Mythos und Realität seit 1780, Frankfurt/M.

Jawad, Saleh-Abel, 1996: Israeli New Historicism, Center for Research and Documentation of Palestinian Society, Internetquelle: www.birzeit.edu/crdps/newhis.htlm, 26.11.2002.

Jahrbuch 1996 zur Geschichte und Wirkung des Holocaust, Fritz Bauer Institut, 1996: Auschwitz: Geschichte, Rezeption und Wirkung., Frankfurt/M.

Jarausch, Konrad/Martin Sabrow (Hg)., 2002: Verletztes Gedächtnis. Erinnerungskultur und Zeitgeschichte im Konflikt, Frankfurt am Main/New York.

Joggerst, Karin, 2002: Getrennte Welten – getrennte Geschicht(en)? Zur politischen Bedeutung von Erinnerungskultur im israelisch-palästinensischen Konflikt, Münster u.a.

Khalidi, Rashid, 1997: Palestinian Identity: The Construction of Modern National Conciousness, New York.

– 2001: The Palestinians and 1948: the underlying causes of failure. In: Rogan, Eugene, L./Avi Shlaim, Avi (Hg.), 2001: The War for Palestine. Rewriting the History of 1948, Cambridge University Press, S. 12-36.

Klein, Uta/Dietrich Thränhardt (Hg.), 2002: Gewaltspirale ohne Ende? Konfliktstrukturen und Friedenschancen im Nahen Osten, Schriftenreihe des DIAK, Bd. 37, Schwalbach.

Leenders, Reinoud/Ben Simpfendorfer, 1998: The Search for Palestine's New History. In: Middle East International, Juni 1998, S. 18-20.

Lentin, Ronit, 2000: Israeli Daughters of the Shoah: Re-Occupying the Territories of Silence, Oxford/New York.

– 2001: Memory and Forgetting: Gendered Counter Narratives of Silence in the Relations Between Israeli Zionism and the Shoah. EUI Working Paper Nr. 2001/8, European University Institute, Florenz.

Levy, Daniel/Natan Sznaider, 2001: Erinnerung im globalen Zeitalter: der Holocaust, Frankfurt am Main, 2001.

Lindholm-Schulz, Helena, 1999: The reconstruction of Palestinian nationalism. Between revolution and stattehood, Manchester/New York.

Lonni, Ada, 2002: Parallel Strategies in Israeli and Palestinian Experience. In: Palestine-Israel-Journal of Politics, Economics and Culture, 8/9 (2001/2002) 4/2001, 1/2002, London, S. 71-83.

Markovits, Andrei S./Simon Reich, 1998: Das deutsche Dilemma. Die Berliner Republik zwischen Macht und Machtverzicht, Berlin.

Masalha, Nur, 1999a: Expulsion on the Palestinians. The Concept of „Transfer" in Zionist Political Thought 1882-1948, Washington.

– 1999b: A Critique on Benny Morris. In: Ilan Pappe (Hg.), 1999: The Israel-Palestine Question, London, S. 211-221.

Morris, Benny, 1988: The New Historiography: Israel Confronts its Past. In: Tikkun 4, S. 19-23; 99-102.

– 1999: Righteous Victims. A History of the Zionist-Arab Conflict 1881-1999, New York.

– 2002, Interview. In: Karin Joggerst, Getrennte Welten – getrennte Geschicht(en)? – Zur politischen Bedeutung von Erinnerungskultur im israelisch-palästinensischen Konflikt, Münster u.a., S. 99-105.

Nassar, Issam, 2002: Reflections on Writing the History of Palestinian Identity. In: Palestine-Israel Journal of Politics, Economics and Culture, 8/9 (2001/2002) 4/2001, 1/2002, London, S. 24-37.

Pappe, Ilan (Hg.), 1999: The Israel-Palestine Question. Rewriting Histories, London.

– 2000: Bridging Narratives. In: Challenge. A Jerusalem Magazine on the Israeli-Palestinian Conflict (Mai/Juni 2000) 61, S. 18-21.

– 2001: Angst, Opferschaft, Selbst- und Fremdbilder. In: Rafik Schami (Hg.), 2001: Angst im eigenen Land, Zürich, S. 65-77.

Portugali, Yuvali, 1993: Implicate Relations: Society and Space in the Israeli-Palestinian-Conflict, Dordrecht.

Raz-Krakotzkin, Amnon, 2000: Don't teach Mahmoud Darwish. In: News From Within, XVl (2000) 4, S. 30ff.

Revel, Jacques/Giovanni Levi, 2002: Political Uses of the Past. The Recent Mediterranean Experience, London.

Roth, Michael S./Charles G. Salas (Hg.), 2001: Disturbing Remains, Los Angeles.

Said, Edward, 1994: The Politics of Dispossession. The Struggle for Palestinian Self-Determination, 1969-1994, New York.

– 1998: Der dritte Weg führt weiter. In: Le Monde Diplomatique, Nr. 5608, 14. 8. 1998, S. 1-5.

Sanbar, Elias, 2002: Out of Place, Out of Time. In: Revel, Jaques/Giovanni Levi, Political Uses of the Past. The Recent Mediterranean Experience, London, S. 87-94.

Schami, Rafik, (Hg.), 2001: Angst im eigenen Land, Zürich.

Schatzker, Chaim, 1990: Die Bedeutung des Holocaust für das Selbstverständnis der israelischen Gesellschaft. In: Das Parlament, Beilage 15/1990, S. 154-162.

Segev, Tom, 1995: Die siebte Million – Der Holocaust und Israels Politik der Erinnerung, Hamburg.

– 2002, Interview. In: Joggerst, Karin: Getrennte Welten – getrennte Geschicht(en)? Zur politischen Bedeutung von Erinnerungskultur im israelisch-palästinensischen Konflikt, Münster u.a., S. 124-130.

Silberstein, Laurence J. (Hg.), 1991: New Perspectives on Israeli History. The Early Years of the State, London/New York.

Steininger, Rolf (Hg.), 1994: Der Umgang mit dem Holocaust. Europa – USA – Israel. Institut für Zeitgeschichte der Universität Innsbruck, Bd. 1; Wien u.a..

Tamari, Salim, 1997: Social Science Research in Palestine: A Review of Trends and Issues. In: Bocco, Riccardo (Hg.) u.a., 1997: Palestine, Palestinians: National Territory, community Spaces, Beirut Centre of Studies and Research into the Contemporary Middle East, S. 17-37.

– 1999: The Local and the National in Palestinian Identity. In: Abdel-Malek, Kamal/David C. Jacobson, 1999: Israeli and Palestinian Identities in History and Literature, London, S. 1-8.

Timm, Angelika, 1998: Israel. Geschichte des Staates seit seiner Gründung, Bonn.

Zerubavel, Yael, 1991: New Beginning, Old Past: The Collective Memory of Pioneering in Israeli Culture. In: Silberstein, Laurence J. (Hg.), 1991: New Perspectives on Israeli History. The Early Years of the State, London/New York, S. 193-215.

– 1995b: Recovered Roots. Collective Memory and the Making of Israeli National Tradition, Chicago/London.

Moshe Zimmermann, 1996: Wende in Israel. Zwischen Nation und Religion, Berlin.

– 2002: Täter-Opfer-Dichotomien als Identitätsformen: In: Jarausch, Konrad/Martin Sabrow (Hg)., 2002: Verletztes Gedächtnis. Erinnerungskultur und Zeitgeschichte im Konflikt, Frankfurt am Main/New York, S. 199-216.

Zuckermann, Moshe, 1996: Zwischen Historiographie und Ideologie. Zum israelischen Diskurs über den Holocaust. In: Jahrbuch 1996 zur Geschichte und Wirkung des Holocaust, Fritz Bauer Institut, 1996: Auschwitz: Geschichte, Rezeption und Wirkung., Frankfurt am Main, S. 55-75.

– 1998: Zweierlei Holocaust – Der Holocaust in den politischen Kulturen Israels und Deutschlands, Wallstein Verlag.

– 2000: Volk, Staat und Religion im zionistischen Selbstverständnis. Historische Hintergründe und aktuelle Aporien. In: Klein, Uta/Dietrich Thränhardt (Hg.), 2002: Gewaltspirale ohne Ende? Konfliktstrukturen und Friedenschancen im Nahen Osten, Schriftenreihe des DIAK, Bd. 37, Schwalbach, S. 34-50.

– 2002, Interview.: In: Joggerst, Karin: Getrennte Welten – getrennte Geschicht(en)? – Zur politischen Bedeutung von Erinnerungskultur im israelisch-palästinensischen Konflikt, Münster u.a, S. 111-116.

11] النجمة المراكشية والصليب المعقوف (343-370)

1] يتمثل أساس مقالنا ومشروع بحثنا في (التاريخ الشفهي/ *Oral History*) للمحاربين المغاربة في الجيش الفرنسي. وفي إطار هذه الأبحاث قابلنا فيما بين عامي (1998 و 2000 م) حوالي (150) من المحاربين الذين كانوا في حالة تعبئة، على الأغلب، في أثناء الحرب العالمية الثانية، ودونا قصصهم. ونود أن نتقدم بشكرنا إلى المجلس العالمي لتبادل الباحثين (*Counsil for the International Exchange of Scholars*) وإلى برنامج فولبرايت للتبادل التثقيفي (*The Fullbright International Educational Exchange Program*) وإلى اللجنة المغربية-الأمريكية للتبادل التعليمي والثقافي (*The Moroccan-American*

على ما وضعوا تحت (*Commission for Educational and Cultural Exchange*) تصرفنا من الوسائل وأشكال المساندة التي مكنتنا من القيام بالبحث.
النجمة الشريفية الخماسية، وهي في القرآن [كذا!] نجمة سليمان الخماسية، تتوسط العلم المغربي على أرضية حمراء. والعائلة المالكة المغربية تدعي انحدارها من السلالة النبوية (ملاحظة المراجع الألماني).

2 *Vgl. z. B. den zweiten Teil von Lugard (lt.-Colonel), Historique des tirailleurs marocains. In: Revue Historique de l'Armée, 8 (1952) 3; Yves Salkin/Jacques Marineau/Jean Saulay (Hg.), Histoire des Goums Marocains. Zwei Bde., Paris 1985.*

3] لما كان هذا المقال يركز على جنود المراتب والملفات فقد أحجمنا عن مناقشة التاريخ الاستعماري لفيلق الضباط لمغاربة. وفي عام (1919 م) افتتحت الأكاديمية العسكرية الملكية في مكناس، حيث يتم تدريب العشرات من الضباط المغاربة. (*Über die koloniale Geschichte dieser Institution, die Karrieremuster ihrer Absolventen und ihren Übergang in die Ränge der post-kolonialen königlichen Streitkräfte vgl. Moshe Gershovich, A Moroccan St-Cyr. In: Middle Eastern Studies, 28 (April 1992) 2.*).

4] ثمة توصيفات مفصلة كثيرة عن العلاقات المغربية الخارجية وتشكل (المسألة المغربية) في الدبلوماسية الأوربية قرب نهاية القرن التاسع عشر. (*Für eine kurze Darstellung, die auch innenpolitische Entwicklungen in Marokko einschließt, vgl. C.R. Pennell, Morocco since 1830, New York 2000, S. 68-153. Zu den marokkanisch-deutschen Beziehungen in dieser Zeit vgl. Abdellatif Ben Abdelhanine, Deutsch-marokkanische Beziehungen, 1873-1914: Geschichte der internationalen Beziehungen, Aachen 1998.*).

5 *Für eine präzise Einschätzung der deutschen Kriegsziele in Marokko vgl. Edmund Burke III, Moroccan Resistance, Pan-Islam and German War Strategy 1914-1918. In: Francia – Forschungen zur westwuropäischen Geschichte (annual bulletin of the German Research Center in Paris), 3 (1975).*

6 *Einer dieser Agenten, Albert Bartels, veröffentlichte unter dem Titel „Auf eigene Faust. Meine Erlebnisse vor und während des Weltkrieges in Marokko" (Leipzig, 1925) seine Memoiren (englische Ausgabe: Fighting the French in Morocco, London 1932). Bartels verbündete sich mit 'Abd al-Malik Muhi al-Din, einem Enkel des legendären Führeres des algerischen Widerstandes gegen die Franzosen, Amir 'Abd al-Kadir.*

7 *Vgl. dazu Pierre Deloncle, La curieuse aventure d'Ali Arbi, Tirailleur Marocain. In: Revue Maritime (January 1924) 49.*

8 Informationen über die Geschichte des Lagers Zossen und die Beteiligung marokkanischer Kriegsgefangener an Kämpfen auf der Seite Deutschlands und seiner Alliierten ist in verschiedenen Akten verfügbar aus der Série 7N in den französischen Militärarchiven (Service Historique de l'Armée de Terre [SHAT]) im Château de Vincennes, darunter Dokumente des französischen Generalstabs 1914-1918, besonders deren Afrikaabteilung. Im Ganzen ist die Geschichte der deutschen und französischen

Propagandabemühungen unter der muslimischen und arabischen Bevölkerung im Krieg ist jedoch größtenteils unerforscht.

9] وللحفاظ على المشهد التمثيلي للحياد المغربي، كان يطلق على الكتائب المغربية التي أرسلت إلى فرنسا، في البداية، باسم (قناصون من السكان الأصليين، مشاة، وقناصون من السكان الأصليين، محمولون). أما ما يتعلق بالوضع الطوعي المفترض للجند المغاربة، فثمة أدلة متفرقة ترجع على سنوات الحرب (ولاسيما إلى الجزء الأخير منها) تعكس نمطـًا من القسر والإكراه وإساءة المعاملة، ولاسيما في تلك الأجزاء من المغرب التي ظلت في ذلك الوقت خارج نطاق السيطرة الفرنسية المباشرة، مثل وادي سوس في الجنوب الغربي من المغرب. ففي تلك المناطق كان الفرنسيون يتعاقدون مع أمراء الحرب المحليين، مثل الجلاوة، و(كبار القادة/ *Grands Caids*) الآخرين في الجنوب ليقوموا بمهمة وكلائهم للتجنيد. أما الشائعات المتعلقة بالتخويف والعنف الصريح اللذين ميزا العملية، قد أخذت تطفو على السطح بعيد انتهاء الحرب، غير أنا لم تمنع الحكومة الفرنسية من استخدام أعلى أشكال الزخرفة لديها، بما في ذلك وسام جوقة الشرف من أجل عملاء الاستعمار هؤلاء.

10 Zur Beteiligung marokkanischer Truppen bei der Verteidigung Anfang September vgl. Louis Garros (Major), Les chasseurs indigènes à la bataille de l'Ourcq. In: Revue Historique de l'armée, 8 (September 1952). 3. Für einen Erfahrungsbericht vgl. A. Juin (Captain), Histoire succinct du 1° RTM. In: Renseignements Coloniaux (Annex des Bulletin d'Afrique Française) September-Oktober 1919.

11 Diese Zahlen stützen sich auf Maurice Durosoy, Soldats Marocains. In: Renseignement Coloniaux, Juli 1932.

12 Für eine ausführliche Diskussion hinsichtlich der frühen Geschichte der marokkanischen Hilfstruppen vor, während und kurz nach dem Ende des Ersten Weltkrieges vgl. Moshe Gershovich, French Military Rule in Morocco: Colonialism and its Consequences, London 2000, S. 167-177.

13] لاحظ، مثلاً دراسة حول استخدام الجند المغاربة في الجيش الفرنسي، تقرر: أن المقارنة بين وحدات ما قبل الحرب والوحدات الحالية في «جيش إفريقية» تظهر تدهورًا بالغاً في النوعية أو المستوى ومن حسن الحظ أن «أصحابنا» المغاربة مازالوا مرتزقة، ومازال في وسعنا أن نعثر بين صفوفهم على الفضائل التي صنعت مجد «جيش إفريقية القديم» وقد تم إعداد الدراسة المؤرخة في (25) تشرين الأول (1934 م) من قبل العقيد دي سان جوليان والكابتن وانان اللذان كانا يخدمان في ذلك الوقت في الكتيبة الخامسة للمناوشات التي كان يخوضها المغاربة. (*Sie ist verfügbar in Akte 162, Série 1K und enthält Papiere von Marschall Franchet d'Espeery am SHAT/Vincennes.*).

14 Über die Einbindung von drei marokkanischen Bataillonen in die französische Rheinland-Armee vgl. Moshe Gershovich, The Sharifian Star Over the Rhine: Moroccan Soldiers in French Uniforms in Germany, 1919-1925. In: Morocco: Journal of the Society of Moroccan Studies, (1997) 2.

15 Vgl. Gislen Lebzeller, Die „Schwarze Schmach": Vorurteile – Propaganda – Mythos. In: Geschichte und Gesellschaft, 11 (1985); V.K. Nelson, The

„Black Horror on the Rhine": Race as a Factor in Post-World War I Diplomacy. In: Journal of Modern History, 42 (1970). Zum Einfluss auf die französische Innenpolitik siehe auch R. Reinders, Racialism on the Left: E.D. Morel and the „Black horror on the Rhine". In: International Review of Social History, 12 (1968).

16] كان اللقب الكامل لهذا الفيلق (الغوم المختلطون المغاربة) وكانت كل وحدة من هذه الوحدات تشمل نحو (150) مجندًا مغربيـًا مع حفنة من القادة الفرنسيين،وكان شكل هذا الأنموذج من الفرق واسمه الغوم (من كلمة قوم العربية-يرتكز على ممارسة فرنسية سابقة في الجزائر، وكان مخصصـًا في الأصل ليكون قوة قبلية للمساندة تتم تربيتها من أجل عمليات نوعية (كما تم تحديده بمذكرة (7) كانون الأول (1909 م) من قبل قسم إفريقية في هيئة الأركان العامة في الوطن الأم، وكان قد تم تشكيل كتائب الغوم المغربية الست الأولى في عام (1908 م)، وأثبتت أنها ذات فائدة كبيرة، ومرونة عالية، وأنها عالية المردود بالنسبة للتكاليف، على حد بلغ منه أن عددها ضوعف خلال ست سنوات، وظلت تتصاعد إلى أن وصلت إلى (50%) في وائل الثلاثينيات. وكانت هذه الوحدات تعمل جنبـًا إلى جنب مع القوات الفرنسية النظامية، وكانت تندمج اندماجـًا كاملاً في إطار العمليات الفرنسية الهادفة إلى "توطيد السلام" في الريف المغربي.

17 Vgl. Moshe Gershovich, French Control over the Moroccan Countryside: The Transformation of the Goums, 1934-1942. In: The Maghreb Review, 22 (1997) 1-2.

18 Einer von über 150 Veteranen, deren Geschichte wir aufgenommen haben; er wurde in seiner Heimatstadt Khenifra im August 2000 interviewt.

18] واحد من أكثر من (150) محارب مغربي سجلت قصصهم الشخصية الشفهية، وتمت مقابلته في البلدة التي هي مسقط رأسه، وهي خنيفرة في آب (2000 م).

19] يستفاد من دوروسوا أن الحرب حالة دائمة للمغاربة الجبليين، إذا كان الجبلي يصحب أباه منذ نعومة أظفاره ويتعلم الرماية بالبندقية، وهو يحب الخطر، ويهوى مهاجمة العدو ويحب النهب.

20] (*Vgl. z.B. C. Damidaux (Hauptmann), Combats au Maroc 1925-1926, Paris 1928, S. 27. Nach Durusoy (in „Soldats Marocains"; vgl. Anm. 11*). في الوقت الذي كان فيه معظم المقاتلين المغاربة يتطوعون للخدمة، يبدو أن بعضهم كان يرغم على التطوع. ومن الحالات الواردة في هذا الصدد حالة أوكاجي باسو (الذي تمت مقابلته في كانون الثاني (1997 م) في مسقط رأسه، بالقصيبة، في الأطلس الأوسط، وهو يقول أنه أرغم على الالتحاق بتشكيل من الغوم في عام (1939 م)، عندما تجاوز سن الثامنة عشرة، بحكم كون هذه هي الطريقة الوحيدة لتجنب العمل بالسخرة المفروض من قبل السلطات المحلية الفرنسية، وثمة محارب آخر، هو محمد الشريش (تمت مقابلته في إيفران، في أيار (2000 م)، قال: كان الفرنسيون يرغمون كل امرئ على العمل من أجلهم من دون مقابل، واعتدنا أن نعمل خمسة عشر يومـًا من كل شهر في إنشاء الطرق وإقامة الجدران، ولم تستثن أسرتي العمل بالسخرة إلا عندما سجلت نفس في الجيش عام (1938 م)، وبمعنى ما، فقد سجلت نفسي لكي أتفادى العمل من دون مقابل.

21] تمت مقابلة السيد زمري في كانون الثاني (1999 م) في مسقط رأسه آزرو.

22] لقد تم تقديم الأدلة على توق الجنود المغاربة إلى استعراض مواهبهم القتالية في سلسلة من التقارير عن حالتهم المعنوية، كتبت في ذروة أزمة السوديت، في أيلول (1938 م)، ويستفاد من هذه التقارير أن كثيرًا من الجند المغاربة عبروا عن اهتياجهم واستثارتم بسبب توقع الحرب، وخيبة أملهم من الخاتمة السلمية للأزمة.

23] يستفاد من دراسة للمقاتلين المغاربة في الحرب العالمية الثانية أن (825) من الجند المسرحين جاؤوا من الخلفية الريفية، وكان (75%) منهم، تقريبـًا، رعاة أغنام وفلاحين سابقين، وقد رفع هذه الدراسة التي تحمل عنوان (الظرف الاجتماعي للمحاربين القدماء المغاربة، في عام (1947 م) الرائد ب دوغريه (وهو ضابط سابق في كتيبة مغربية) في صورة ورقة بحث (*memoire en stage*) في طريقه نحو استكمال دورة دراساته في مركز الدراسات العليا للإدارة الإسلامية (cheam)، الذي بات اسمه الآن: مركز الدراسات العليا حول آسيا وإفريقية الحديثتين. (*Die Studie mit dem Titel „La condition sociale des anciens militaires marocains“ wurde 1947 von Major P. Dugrais (einem ehemaligen Offizier in einem marokkanischen Regiment) als Forschungsarbeit (mémoire en stage) zur Vollendung seiner Studien am Centre des Hautes Etudes d'Administration Musulmane (CHEAM; jetzt Centre des hautes études sur l'Asie et l'Afrique moderne) in Paris durchgeführt; dort unter Bd. 43, Nr. 1179.*).

24] تمت مقابلته في خنيفرة في أيلول (2000 م)، وقد ولد حوالي (1913 م) في دوار (هاملت) خارج خنيفرة. أما السيد والا فقد سجل نفسه بصفة مناوش، في عام (1936 م) وثمة أسباب أخرى ذكرت من قبل محاربين لعدم دخولهم المدرسة في صباهم، بما في ذلك رفض واليدهم إرسالهم إلى مدرسة يديرها الروميون (أي: المسيحيون) أو ببساطة عدم توفر مدرسة بالقرب من مكان إقامتهم.

25] هناك على أي حال، بعض من الاستثناءات الجديرة بالذكر مثل طاووسي حاج تكبير الذي قابلناه في كانون الثاني عام (1998 م) في مكان إقامته في بني ميلال. وقد ولد عام (1910 م)، وكان أميـًا في الوقت الذي سجل نفسه فيه في الجيش الفرنسي عام (1930 م)، إلى حد بلغ منه أنه «كان يستخدم إصبعه ليبصم على عقد لمدة أربع سنوات. ومن خلال استفادته من الفرص التعليمية المحدودة المتاحة للجند المغاربة، اكتسب براعة في القراءة والكتابة بالفرنسية. وبمهاراته الحسنة جاءت خطوة مسرعة للتقدم ففي عام (1938 م) وصل إلى رتبة سرجنت-مأجور، وهي أعلى رتبة مفتوحة أمام المغاربة الذين تقل رتبهم عن رتبة الملازم الثاني في ذلك الوقت.

26 Die Regimentsjournale der zehn marokkanischen tirailleur-Regimenter während der Zwischenkriegsperiode und dem Feldzug von 1940 ist verfügbar unter den Akten 292-308 der Série 34N beim SHAT/Vincennes. Berichte der zwei marokkanischen spahi-Regimenter (2. und 4.), die am

Kampf teilnahmen, können gefunden werden in den Akten 497 und 503 derselben Serie. An veröffentlichten Quellen, abgesehen von dem oben erwähnten Artikel Lugards (Anm. 2), sollen hier vor allem erwähnt werden: Louis Brindejonc, Une pièce de 25 antichar du 2° RTM à Gembloux 13-15 mai 1940 (témoignage). In: Revue Historique de l'Armée, (März 1987) 66; Jean Verhaeghe, Le 4° RTM 1920-1964, SHAT, Vincennes 1989; Rene Potet, Avec le 2° Régiment de Spahis Marocains du 10 mai au 20 juin 1940: Notes et impressions, Casablanca 1941.

27] ولد السيد بن عياد عام (1917 م) وخدم في الجيش الفرنسي بين عامي (1936-1942 م) جندياً في كتائب المناوشة، وتمت مقابلتنا معه في أيلول (1999 م) في مكان إقامته خمسيت.

28] انظر الحاشية (25) أعلاه.

29 Bahija Simou u.a., Frères d'Armes: Mémoire marocaine d'une histoire partagée (Imprimerie Blanchard 1999).

30] لا ينبغي أن تعزى المعاملة الأكثر خشونة لقوات المستعمرات من السود، على السياسة النازية العنصرية فحسب، بل ينبغي أن تعزى إلى موقف السلطات الفرنسية لتابعة لحكومة فيشي، كما نوقشت في كتاب مارتن س توماس: حكومة فيشي وأسرى الحرب الفرنسيون القادمون من المستعمرات (1940-1944 م) .

31] ثمة محارب آخر، هو بيخاي حدو (الذي تمت مقابلته في آب (2000 م)، في مدليت)، تذكر أن «الألمان» كانوا يعطوننا قطعة من الخبز لخمسة من الرجال. وثمة محارب ثالث هو أكريم مهادين الألمان يوزعون رغيفاً من الخبز بين ثمانية سجناء كل (24) ساعة، وكان الخبز قاسياً وإذا لم تسكب الماء عليه فلن تقدر على أن تأكله».

32] ومثال ذلك أن ضابطاً مغربياً كان قد قضى بضعة اشهر في معسكرات أسرى الحرب الألمانية، وهو الملازم حاج صلاح بلفارجيا من (RTM) التاسعة أورد في شهادته، ملاحظات وجهت إليهم كقولهم: أنت تستحق مصيرك ما دمت وافقت على خدمة الفرنسيين، ونحن [الألمان] سنعاملك معاملة أفضل من معاملة الفرنسيين الذي استعبدوكم.

33 Vgl. M.C. Thomas, Vichy Government and French Colonial Prisoners of War, S. 670-675.

34] كان بين القوات التي كانت متمركزة في ماوراء البحار (RSM) الأولى، وكتيبة من (RTM) الرابعة كانت متمركزة في سورية. وكانت هذه القوات منهمكة في معركة لصالح حكومة فيشي ضد غزو الحلفاء في حزيران (1941 م)، وكان غائباً عن هذه القوات، السرية الأولى من (RSM)، التي كانت قد عبرت حدود سورية مع فلسطين في (30) حزيران (1940 م)، والتحقت بقوات فرنسا الحرة بقيادة ديغول، وقاتلت في إطار نظامها في إرتيريا، في كانون الثاني (1941 م). وفي وقت لاحق من تلك السنة شاركت السرية معززة بوحدات أخرى، بعد إعادة تسميتها (المجموعة الأولى من الفرسان المغاربة) في غزو سورية، وقاتلت ضد وحدتنا الأصلية.

35 Der auf den 20. Juni 1940 datierte Bericht findet sich in der Akte 34 N 502 (beinhaltet die Geschichte des 23./3. Regiments der Marokkanischen Spahis

zwischen 1925 und 1940) im französischen Militärarchiv in Vincennes.

36] هذ القناعة ظهرت في تقرير وضعه في عام (1941 م) مفتشو الهدنة الألمان واستشهد به بيير بيرتيو (عقيد) وإيف جوان (ليفتانت كولونيل). (*ziti. in: Pierre Bertiaux (Oberst)/Yves Jouin (Oberstleutnant), Historique des goums marocains: La période de camouflage des Méhallas Chérifiennes. juin 1940-novembree 1942, Paris 1966, S. 78.*).

37] انظر الهامش (25).

38] هكذا كان رأي الفيلد مارشال إيرل ألكسندر، كما نشر في مذكراته واستشهد به أنطوني كلايتون.

39 *Jacques Augarde, La longue route des tabors, Paris 1983.*

40] الطابور الرابع، الذي تم اختياره بموجب طلب خصوصي من الجنرال باتون، كان الممثل لوحيد للجيش الفرنسي في غزو الجزيرة. (*Vgl. Jouin (Oberstleutnant), Le 4° Tabor marocain en Sicile. In: Revue Historique de l'Armée, 17 (1960) 2.*).

41] يستفاد من دوغريه أن عدد الغوميين الذين قتلوا في الحرب وصل إلى (1560)، بينما كان عدد الجرحى (6100) ويستشهد كلايتون برقم (1638) للقتلى ورقم (7500) للجرحى بين عامي (1943-1945 م) فحسب. (*Vgl. Edward L. Bimberg, The Moroccan Goums: Tribal Warriors in a Modern War, Wastport, Conn., 1999.*).

42 *Nach Dugrais (in seinem CHEAM Essay von 1947, vgl. Anm. 23) lag die Zahl der getöteten goumiers während des Krieges bei 1560, während die Zahl der Verwundeten 6100 betrug. Clayton (France, Soldiers and Africa, S. 301) zitiert die Zahlen von 1638 Getöteten und 7500 Verwundeten während des Zeitraums 1943-1945.*

43] هناك تقارير عديدة بصدد أفعال فاحشة من أفعال سوء السلوك التي ارتكبت من قبل المغاربة المقاتلين متوافرة في الملفات. وقد تم وضع تقرير من هذا النوع في (2) حزيران (1944 م) من قبل الليفتانت كولونيل رُبرت م دوغلاس، من مقر الكتيبة (FA 995)، وهو يستشهد بشكاوى من قبل أكثر من (150) إيطالي من المدنيين التمسوا الحماية من القوات المغربية. وقد شهدوا بان جنودًا مغاربة لم تعرف هوياتم، قاموا مرارًا وتكرارًا، باغتصاب ما بين (75) امرأة تتراوح أعمارهن بين (13 و75) عاماً، كانت تسع منهن من الحوامل.

44] كانت مشاركة القوات المغربية (وقواتنا المستعمرة الأخرى) في تحرير فرنسا مقصورة على الأجزاء الجنوبية والشرقية من البلاد، بالنظر إلى سياسة تقصر أو التبييض التي كانت تسعى إلى الاستعاضة عن الجنود السود وأفارقة الشمال بفرنسيين يتم تجنيدهم محليـًا، كانوا قد ظهروا من بين صفوف حركة المقاومة الداخلية. ونتيجة لذلك كانت الوحدات المختلطة، غير الأوربية التي خسرت نسبة كبيرة من رجالها من السكان الأصليين في المستعمرات، وعانت أزمة في معنوياتا، إما أن تسرح، وإما أن يتم تحويلها عن طريق امتصاص من العاملين «البيض»، أي: فرنسيي الوطن الأم. (*Über diese*

Politik und ihre Umsetzung im Sommer 1944 vgl. Gilles Aubagnac (Major), Le Retrait des troupes noires de la première armée à l'automne de 1944. In: Revue Historique des Armées, (Juni 1993) 191. Für eine kritische Bewertung vgl. auch Frank Viviano, Forgotten Muslim Army Helped Defeat Nazis. In: San Francisco Chronicle, 3.6.1994.).

45 *Zwei dieser Studien wurden 1945 an das CHEAM gesandt, von Hauptmann De Marouil, Le retour des Goums au pays (Bd. 30, Nr. 759) und Major Turnier, Le retour des Goums au Maroc (Bd. 30, Nr. 765).*

46] وعلى كل حال فبالنسبة لاحتمالات الإعفاء المفاجئ عند الغومي، كانت الإشكالية أكبر مادام غير مؤهل للمعاش التقاعدي ومنافع التقاعد الأخرى، باستثناء راتب شهري واحد خلافـًا لنظيره العامل في كتاب المناوشة على أن هذه الازدواجية في المستوى فيما يتعلق بالمنافع الخاصة بالرجال الذين هم خارج لخدمة لم تكن تنطبق على العجزة من جراء الحرب، إذ كان الغوميون المعوقون مؤهلين للامتيازات ذاتا التي يتمتع با المحاربون الآخرون. وقد أعد عدد من الرسميين الذين يدرسون في مركز الدراسات العليا للإدارة الإسلامية تقارير مفصلة عن الوضع القانوني لرجال الخدمة العسكرية المسلمين من السكان الأصليين، والإصلاحات الضرورية للنظام، لتحسين ذلك الوضع. (*Neben den Essays von Major Dugrais, das bereits erwähnt wurde (Anm. 23), finden sich ausgiebige Informationen bei Hauptmann Baume, Les anciens combattants musulmans (Juni 1947, Nr. 1097) und bei Quartiermeister Roche, L'évolution de la condition des militaires professionnels nord africains pendant et après leur service (Mai 1946, Nr. 1078).*).

47] ارتفع المكون الشمال إفريقي في فيلق الحملة من (11000) (10%) في عام (1947 م) إلى (36628) (19%) في عام (1954 م)، وكانت الإصابات الشمال-إفريقية خلال تلك السنوات السبع: (3646) قتيل، و(338) هارب من الخدمة و(7255) مفقود أثناء المعركة و(1355) قتيل لأسباب أخرى.

48] انظر الهامش (31).

49] من أجل مزيد من المقارنة، بلغ معدل الوفيات بين أسرى الحرب الروس في ألمانيا (57%) بينما مات (37%) من الجنود الألمان في روسيا في الأسر. (*Alexander J. Zervoudakis, From Indochina to Algeria. Counter-Insurgency Lessons. In: Martin S. Alexander/Martin Evans/J.F.V Keiger (Hg.), The Algerian War and the French Army, 1954-62: Experiences, Images, Testimonies, London 2002, S. 56.*).

50 *Vgl. Abdallah Saaf, Histoire d'Anh Ma, Paris 1996.*

51] سجل المثال الأكثر عنفـًا على انيار المعنويات في الكتيبة الرابعة من (RTMN) الثانية خلال ليلة (9-10 تموز 1952 م)، فبعد أيام قلائل من تعرض سريته لهجوم، وخسارته معظم رجاله، ونزاع أعقب ذلك مع أحد ضباطه ذوي المراتب الرفيعة أطلق الرقيب بوجماع بن معاتي، وهو محارب قلد الوسام مرتين في الحرب العالمية الثانية، النار على

المائدة المشتركة لضباط الوحدة، فقتل ستة من الضباط الفرنسيين من الكتيبة ذاتها وجرح عدد آخر منهم قبل أن يردى قتيلاً. وفي 22 آذار حدث حادث مماثل، وفي عام (1953 م)، عندما أطلق عسكري المناوشات محمد بن محمد، النار على حجرة طعام الضابط غير المقلد (من المراتب دون مرتبة الملازم الثاني) فقتل رجلين وجرح رجلين آخرين، ثم أطلقت النار عليه (Informationen hinsichtlich dieser und anderer weniger dramatischer Zwischenfälle sind verfügbar unter Akte 371 der Serie 10H (Indochina) beim SHAT/Vincennes.).

52] يحتفل في كل عام بإصدار السلطان إعلانـًا بدعم القضية الفرنسية، في الصحافة المغربية، وذلك على وجه الخصوص في الصحف الموالية للقصر، مثل (Le Matin du Sahara et du Maghreb).

53] من أشكال التمثيل الروائي لشخصية الجنود الذين كانوا يتحولون إلى جانب المقاومة في هذا الوقت، فقيه في أقصوصة ليلى أبو زيد «عام الفيل» (وقد نشرت في الأصل بالعربية عام (1984 م)، وترجمتها باربرة بارمينتز: إذ يهرب محارب في الهند الصينية كان قد فقد ساقه في ديان بيان فو، وتساعده بطلة القصة على الهرب من الدار البيضاء إلى منطقة الاحتلال الإسباني في شمالي المغرب. (Vgl. Zaki M'Barek, La désertion des soldats marocains de l'armée française à l'Armée de Libération du Maghreb (A.L.M.): Rôle militaire, impact psycho-politique (1955-1956). In: Maroc-Europe, 7 (1994)).

54] يظل الحد الذي وصل إليه استخدام الجند المغاربة لمقاتلة مواطنيهم من جيش التحرير، يحيط به الغموض، ولما كانت المقاومة قد حدثت في معظمها في الريف، لأنه يبدو أن من المحتمل أن تكون وحدات الغوم كانت ترى في ذلك الوقت من أعمال التمرد المضاد أكثر من رؤيتها نظراؤها الذين كانوا يخدمون في وحدات المناوشة.

55] تمت مقابلته في (واعومآنا) في شباط (1999 م).

ثبت الأعلام

أ

ش

ص

ط

ظ

ع

م

تاريخ سياسي

يتناول هذا الكتاب بالبحث موضوعاً قل العثور على مراجع عنه في المكتبة العربية، ألا وهو علاقة بعض قادة الحركات السياسية العربية بألمانيا النازية وسياستها [illegible] هذا الكتاب، الذي ساهم في كتابته مجموعة من المستشرقين، إضافة إلى أستاذين من المغرب، مواقف العرب، أو بعضهم، من المحرقة، وكذلك من موضوع "نفي المحرقة" والمسائل المرتبطة بها، ومن ذلك على سبيل المثال مؤتمر المراجعة التاريخية الذي كان مقرراً عقده في بيروت في عام (٢٠٠١ م) ومواقف مختلف الأطراف منه.

لقد خاض المشاركون في كتابة هذا المؤلف في مواقف قوى سياسية عربية عديدة إزاء الفكر النازي، بدءاً من حركة رشيد عالي الكيلاني في العراق، إلى الحزب السوري القومي الاجتماعي ورئيسه المغدور أنطوان سعادة، وفي ما إذا كان ذلك الحزب قد انتهل من الفكر الفاشي مصدراً لبرنامجه باحثين عن جوهر تلك الإيديولوجيات وأي علاقة بينها، حقيقية كانت أو وهمية.

كما يتعامل مع قوى عربية سياسية وغير سياسية أخرى في المغرب ومصر حيث يركز على موقف مجلة الهلال وصاحبها جرجي زيدان على نحو خاص.

ويتعرض فصل آخر إلى موقف مفكرين وصحفيين وكتاب عرب من المحرقة وموضوع نفيها، إضافة إلى رأيهم في كتابات المراجعين، ومنهم كل من عزمي بشارة وعبد الوهاب المسيري ومحمد حسنين هيكل وجمال الغيطاني وعزت القمحاوي ومحمد سيد طنطاوي ومحمد سلماوي وغازي أبو عقل وأدونيس ومحمود درويش وإدوارد سعيد وأحمد الخميسي وإلياس الخوري وحازم صاغية، ومحمود عباس وغيرهم.

ومن المواضيع المهمة الأخرى التي تتعرض إليها فصول من هذا الكتاب ضحايا النازية من العرب "الضحايا المنسيون"، إضافة إلى الخطاب الفلسطيني عن المحرقة وإسرائيل والخطاب الصهيوني عن الحركة الوطنية الفلسطينية.

إن دار قدمس تقدم هذا الكتاب–الدراسة الفريدة إلى القراء والبحاثة العرب، بهدف المساهمة في في إذكاء حوار هادئ ورزين في قضايا تهم ماضينا وحاضرنا، وموقعنا في عالم البحث العلمي الجاد المتوازن. فالبحث العلمي المتناهي في هذا الموضوع المعقد والمثير لكثير من العواطف هو الذي سيوصلنا إلى الحقيقة التاريخية، وليس نفي المحرقة أو التصريحات الاستفزازية والكيدية.

إن التزام دار قدمس بنشر هذا الكتاب لهو إثبات على أن البحث العلمي الرصين هو الذي سيسهم في الوصول إلى الحقيقة وليس إصدار القوانين والقرارات الغبية والجائرة في الغرب التي تفرض على عالم البحث العلمي.

